الطبعة الثانية

مواقف وعبر

د. محمد محمد داود



شكر النعمة
حسن الهيئة من الإيمان
لو أقسم على الله لأبره
عظوه وبصروه
توفيق الله لك
الناسك حقًا
يبعث ملبيًا
اقتنص مني يا أسيد
ربح البيع أبا يحيى!!



مواقف وعبر

د. محمد محمد داود



العنوان:

مواقف وعبر

دكتور / محمد محمد داود

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-4498-0

رقم الإيداع: 2011/8244

الطبعة الثانية: يونية 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

مــواقــف وعــبــر

زادٌ للدعاة وموعظةٌ للمؤمنين

الأستاذ الدكتور

محمد محمد داود

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

مواقف وعبر

زادٌ للدعاة وموعظةٌ للمؤمنين

الأستاذ الدكتور

محمد محمد داود

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾

(الأنعام: ٩٠)

إهداء

- إلى من اصطفاهم الله لأشرف رسالة فى الوجود، رسالة الدعوة إلى الله تعالى، وإمامهم فيها سيدنا المصطفى رسول الله ﷺ.
- إلى من مدحهم الله وأثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (فصلت).
- إلى الدعاة العاملين، أهدى هذه المواقف.

محمد داود

كَرِّرْ عليَّ حَدِيثَهم يا حادِي

فَحَدِيثُهم يَجْلُو الفؤادَ الصَّادِي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبى الله ورسوله سيدنا محمد رحمة الله للعالمين، وبعد:

فهذه المواقف يرجع الفضل فى إعدادها لإذاعة القرآن الكريم، حيث طلب منى أخى الأستاذ/ شحاتة العرابى، المشاركة فى برنامج "مواقف إسلامية"، ولاقت الدعوة ترحيبًا منى بسبب ميلى فى خطب الجمعة والدروس الدينية إلى ربط المعانى الفاضلة لآيات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بالمواقف العملية فى حياة سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتابعين؛ لتكون هذه المواقف تطبيقًا عمليًّا لتعاليم الإسلام بين يدى المستمع؛ فيزداد فهمه ووعيه بدينه، وفى هذا تيسير للتأسى والاقتداء. هذا من جانب.

ومن جانب آخر ففى هذه المواقف تسهيل لأسباب الهداية من خلال الموعظة التى تتركها ـ هذه المواقف ـ فى قلوب المستمعين، فتكون دعمًا معنويًّا للمؤمن فى طريق زيادة الإيمان بالله تعالى، وعونًا للمؤمن على القيام بتكاليف الإيمان من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وقد أشار علىَّ أخى فى الله الشيخ/ سيف النصر عبد الفتاح الدسوقى، مدير وعظ الجيزة أن أجمعها فى كتاب؛ لتكون زادًا للدعاة وموعظة للمؤمنين.

والذى أود أن أشير إليه هنا هو أن التعليم من خلال الموقف هَدْى نبوى كريم، ولون من الأساليب التربوية فى السنة المطهرة التى قدمت لنا تنوعًا سخيًّا من الأساليب التربوية الهادفة؛ كى يصطفى الداعى والمربى والمعلم والمرشد من بينها الأسلوب الذى يناسب حال المتعلم.

فهناك من الناس من يحتاج إلى مزيد توضيح وبيان عملى، وتأتى الوسيلة التعليمية لتأخذ دورًا بارزًا فى هذا المجال، وكان النبى ﷺ يستعين بهذه الوسائل لمزيد من التوضيح والبيان، من ذلك رسمه ﷺ خط الأجل وخط الأمل، واستعمال العصا واليد والأصابع... إلخ.

ومن بين الأساليب التربوية فى السنة المطهرة التعليم عن طريق الموقف، ولتحقيق ذلك منا تأسِّيًا بسيدنا رسول الله ﷺ هناك سبيلان:

الأول: عن طريق المواقف الحية من واقع الأحداث، من خلال ربطها بهَدْى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

الثانى: عن طريق الاستعانة بمواقف من عصر النبوة والتابعين والسلف الصالح، ويُحلل الموقف فى ضوء القرآن الكريم والسنة، وذلك لتظل الموعظة حية تنتقل بين الأجيال؛ لينتفع بها الناس، وإلى هذا النوع تنتمى المواقف موضوع الكتاب الذى بين أيدينا.

وتعالج هذه المواقف موضوعات متنوعة، منها ما يعالج مسائل فى الإيمان، ومنها ما يعالج مسائل فى العبادات، ومنها ما يعالج مسائل فى الأخلاق، ومنها ما يعالج مسائل فى المعاملات.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه المواقف، وأن يتقبلها منى، وأن يجزى كل مـن علمنى أو أعاننى خير الجزاء وأوفاه، كما أسأل الله تعـالى أن يفقهنـا فى ديننـا، وأن يهدينا إلى الحق والصواب، وأن يرزقنا الإخـلاص فى الـسر والعلـن، وأن يكرمنـا بالقبول، فإنه وَلِـى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين

والحمد لله رب العالمين

راجى عفو ربه

د. محمد محمد داود

مكتبة العلماء

بالمركز الإسلامى بالعمرانية

ت/ ٣٥٦٨٥١٢٢

فاكس/ ٣٥٦٩٤٢٠٢

١. متوكل على القافلة (*)

عزمت جماعة من طلبة العلم على الحج، وأحب الإمام أحمد بن حنبل أن يطمئن عليهم، ولفت انتباهه شأنُ أحدهم؛ حيث استعد كل واحد من الجماعة بالزاد والنفقة إلا طالبًا لم يُجهِّزْ شيئًا!! فسأله الإمام أحمد بن حنبل عن سبب ذلك، فأجاب الطالب: أنا متوكل على الله!! فقال له الإمام أحمد: أَلَسْتَ مع القافلة؟! فأجاب الطالب: بلى، إنى معهم. فقال له الإمام أحمد: أنت متوكل على القافلة.

*****

- هذا موقف تربوى يبين لنا حقيقة التوكل على الله تعالى، ويعالج وهمًا شاع بين الناس حين يتركون أنفسهم عالةً على مَنْ حولهم، وعبئًا على إخوانهم؛ ظنًّا منهم أن هذا توكل على الله تعالى.

لذلك لم يَرْضَ الإمام أحمد بن حنبل لطالب العلم أن يترك الأسباب فلا يعد الزاد ولا النفقة، ويترك نفسه عالةً على القافلة، ويقول: أنا متوكل على الله،

(*) راجع: الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (٢/ ٤١٢).

فأرشده الإمام بقوله: أنت متوكل على القافلة.

- إن الله تعالى أمرنا فى قرآنه الكريم أن نأخذ بالأسباب، والآيات فى هـذا المعنى كثيرة؛ من ذلك قوله سـبحانه: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا .. ﴾، وقولـه: ﴿فَاسْعَوْا .. ﴾، وقوله: ﴿فَانتَشِـرُوا .. ﴾.

فكيف يكون تَرْكُ ما أمرنا الله به توكُّلا عليه سبحانه؟!

إنَّ فِعْلَ السبب طاعة؛ لأن الله أمرنا أن نأخذ بالأسباب.

وترك السبب معصية؛ لأنه مخالف لما أمرنا الله به.

والتوكلُ هو الاعتماد على الله تعالى، والاعتقاد الخالص بأن النـافع هـو الله، وأن الضار هو الله مع الأخذ بالأسباب؛ وقد قال بعض السلف الصالح: «حقيقـة التوكل: الجوارح تعمل، والقلوب تتوكل».

وغياب أحد الأمرين (عمل الجوارح أو توكل القلوب) يُحـوِّل التوكـل إلى شىء آخر؛ فغياب الأخذ بالأسباب، مع القدرة عليه، يؤدى إلى التواكل، وغياب اعتماد القلب على الله يؤدى إلى الشرك؛ وقد وصف العلماء المحققون مـن الـسلف الصالح حقيقة التوكل فى ثـلاث كلـمات: «فِعْـل الـسبب طاعـة، وتَـرْك الـسبب معصية، والاعتماد على السبب شِرْك بالله تعالى».

وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أرسل ناقتى وأتوكَّل؟ قـال ﷺ: «اعْقِلْهـا وتوكل»[1].

(1) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامـة والرقـائق والـورع، بـاب منـه (٢٥١٧)، وابـن حبـان فى صحيحه، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل (٧٣١)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٦٨).

ويُبَصِّرُنا رسول الله ﷺ بثمرة التوكل الحق بقوله ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تَغْدُو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا»[1].

أى: تذهب الطير أول النهار جائعة، وتَرْجِع آخر النهار مُمتلئةَ البطون.

ووعَد الله مَنْ توكَّل عليه أن يكفيه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق/ ٣).

أى: كافيه.

وجعل الله التوكل الحق من صفات المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ (الأنفال).

- وثَمَّة درس آخر فى هذا الموقف؛ وهو أهمية الملاحظة فى العملية التربوية؛ كى يتحقق المعلم والمربى من صواب الفَهْم، وصحة التطبيق عند تلاميذه. وهذا هدى نبوى كريم؛ فقد كان ﷺ كثيرًا ما يلاحظ أصحابه ﷺ، ويوجههم ويرشدهم. وفى هذا الموقف أثمرت الملاحظة تصحيح مفهوم خاطئ وقع فيه أحد التلاميذ؛ ظَنًّا منه أن هذا من التوكل؛ وقدْ صحح الإمام أحمد له هذا الفَهْم وأرشده.

اللهم ارزقنا حسن التوكل عليك، ودوام الإقبال عليك.. يا رب العالمين

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٣٧٠)، وابن ماجه فى سننه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٤١٦٤)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣١٠).

٢. من أى البلاد أنـت ؟ (*)

لـمَّـا أَخْرَجَ أهل الطائف رسـول الله ﷺ منهـا بعـد أن آذَوْهُ، جَلَس النبى ﷺ إلى جوار حائط بستان لعتبـة وشـيبة ابْنَـىْ ربيعـة، فأرسلا إليه قِطْفًا من عِنَـب مـع غلامهـما عَـدَّاس، الـذى وضـعه بيدى النبى ﷺ.

فمدَّ النبى ﷺ يده قائلًا: «بسم الله»، ثم أَكَل. فقـال عـدَّاس: هذا كلام غريب لا يعرفه أهل هذه البلاد.

فقال له النبى ﷺ: «من أى البلاد أنت؟». قـال: مـن نينـوى. فقال النبى ﷺ: «من بلد الرجل الصالح يونس بن متى».

قال: أو تعرفه؟! قال النبـى ﷺ: «ذاك أخـى، كـان نبيًّـا وأنـا نبى»، فأقبـل عَـدَّاس يُقبِّـلُ رأسَ رسـول الله ﷺ ويديـه، وأعلـن إسلامه.

*****

(*) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية، ج٢، ص ١٧.

هذا الموقف الإيمانـى يفـيض بالـدلالات الحكيمـة، والـدروس النافعـة فى الدعوة إلى الله تعالى وأول هذه الدروس:

- هذا الأسلوب الودود من رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، والـذى يقوم على الحوار المقنع دون تعجل للنتائج، بالإضافة إلى رعاية مشاعر مَنْ أمامه.

ويظهر ذلك واضحًا فى حوار النبى ﷺ مع عَدَّاس حين قال النبى ﷺ: «بـسم الله»، فقال عَدَّاس: هذا كلام غريب لا يعرفه أهل هذه البلاد، فأحب النبـى ﷺ أن يتعرَّف على عَدَّاس من خلال التعرف على البيئة التى نشأ فيها؛ ففـى هـذا مفتـاح لمعرفة أسلوب تفكير عَدَّاس وعقيدته التى تسكن قلبه، والفكر الذى يملأ رأسـه حتى يكون الكلام الموجَّه إليه مناسبًا لحاله، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ.

فلما أعلن عَـدَّاس أنـه مـن (نينـوى) عَـرَّف النبـى ﷺ هـذه البلـد بأحـب الأوصاف وأشرفها؛ كى يستميل قلب عَدَّاس، فكل إنسان يفرح حين يسمع ثناء على بلده ومدحًا لها؛ فقال النبى ﷺ: «بلد الرجل الصالح يونس بن متى»؛ فَـشَجَّع هــذا عَدَّاسًــا أن يستكــشف العلاقــة بــين رســول الله ﷺ وبــين يــونس بــن متى عليه السلام، فقال للنبى ﷺ: أو تعرفه؟!

فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخى، كان نبيًّا وأنـا نبـى»، وهنـا وصـل عَـدَّاس لحالة إيمانية امتلأ فيها قلبه إيمانًا ونـورًا؛ فقـام مـسرعًا يُقَبِّـلُ رأس رسـول الله ﷺ ويديه ويعلن إسلامه.

- ومن الإشارات الإيمانية فى هذا الموقف أيضًا التى ينبغى أن نلفت الانتباه إليها: النَّفْسية التى كان عليها رسول الله ﷺ بعد طَرْده من الطائف، ومـا نالـه مـن

سب وشتم وأَذًى من عبيدها وصبيانها، فعندما جاء ذكرهم على لـسان عَـدَّاس لم يصدر من رسول الله ﷺ أية كلمة بشأنهم؛ فَلَمْ يَدْعُ عليهم... إلخ. وكأنه لم يحدث منهم شيء من الإساءة والأذى.

فالأمر الذى يهتم به رسول الله ﷺ ويتحرك له هو الدعوة إلى الله تعالى.

- أيضًا رسول الله ﷺ لم يتعجَّل دعوة عَدَّاس إلى الإسلام، بل مضى معه فى الحوار حتى أقنع عقله، وملأ قلبه إيمانًا وحبًّا لهذا الدين.

كل هذه المعانى يؤكدها القرآن الكريم؛ مـن ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل/ ١٢٥).

- وتؤكد هذه الآية المباركة رعاية حال المتلقى وخطابه بما يناسـب حالـه، فَمَنْ كان من أهل الحكمة كان خطابه بالحكمة، ومَنْ كان من أهـل الموعظـة كـان خطابه بالموعظة الحسنة التى تدخل القلوب برفـق، وتتعمـق المـشاعر بلطـف، لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التى قد تقـع عـن جهـل أو حسن نية؛ فإن الرفق فى الموعظة كثيرًا ما يهدى القلوب الشاردة، ويؤلف القلـوب النافرة، ومن لم يكن من أهل الحكمة ولا من أهل الموعظـة، وإنـما كـان مـن أهـل الجدل، كان خطابه بالجدل، بشرط أن يكون الجدال بالتى هى أحسن؛ بـلا تحامـل على المخالف، ولا ترذيل له ولا تقبيح، حتى يطمئن إلى الداعى، ويـشعر أن هدفـه ليس هو الغلبة فى الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البـشرية لهـا كبرياؤها وعنادها،وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنـه إلا بـالرفق؛ حتـى لا

تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الـرأى وقيمتهـا عنـد النـاس، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلًا عن هيبتها واحترامها، وهنا يأتى دور الجدل بـالتى هى أحسن فى تلطيف الموقف، فيشعر المجادل أن ذاته مصونة، وأن لهـا احترامهـا، وأن كيانها مقدَّر، وقيمتها كريمة.

٣. كـأنك نبـى !! (*)

رأى سعد بن أبى وقاص رجلًا يسبُّ عليًّا وطلحة والـزبير، فقال له سعد: «إنَّك تَشتمُ قومًا قد سَبَقَ لَـــهُمُ مـن الله مـا سَـبَقَ، فوالله لَـتَـكفَّنَّ عن شَتْمهم أو لأدْعُـونَّ الله تعـالى عليـك»، فقـال الرجل: تُخَوِّفُنِى كأنك نبىّ!!

فقال سعد: «اللهمَّ إن هذا يشتمُ أقوامًـا سـبق لهُـمْ منـك مـا سبق، فاجعلهُ اليوم نكالًا».

فلم يمض غـير وقـت قـصير حتـى أصـابته دابتـه، فـما زال يتخبط بين قوائمها حتى مات.

*****

هذا الموقف يحمل عبرًا هادية وعظاتٍ بالغة:

- العظة الأولى: هذا الخلُق العظيم من سيدنا سعد بـن أبـى وقـاص رضي الله عنه؛ حيث إنه لم يقابل السيئة ولا السبَّ بالسبّ، وإنما كفَّ لسانه، وهـذا شـأن المـؤمن ـ كما وصفه رسول الله ﷺ ـ: «إن المؤمن لـيس باللعَّـان ولا الطعَّـان ولا الفـاحش

(*) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير، العشر المبشرين بالجنة، نـسبة سـعد بـن أبـى وقـاص رضي الله عنه واسـم أبـى وقاص مالك بن أهبب بن عبد (٣٠٧).

ولا البذىء»[1].

- العظة الثانية: إسداء النصيحة لوجْه الله تعالى، فنصح الرجل أن ينتهى عن السب والإساءة لهؤلاء الأخيار من صحابة رسول الله ﷺ؛ استجابة لهدى النبى ﷺ: «الدين النصيحة»، قلنا لمن؛ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[2].

- العظة الثالثة: تحذير أهل المعاصى حين لا تنفع معهم النصيحة؛ حيث قال سعد للرجل: لأدْعُونَّ الله تعالى عليك، ولكنه الكبر والغرور؛ حيث لم يؤثر ذلك التقريع، وبقى المغرور على ضلاله، فقال لسيدنا سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه: تُخَوِّفُنِى كأنك نبى!!

- العظة الرابعة: إخلاص التوجه إلى الله تعالى، وتفويض الأمر إليه سبحانه؛ حيث انصرف سيدنا سعد وتوضأ وصلَّى ركعتين، وكان الدعاء فى غاية الحكمة؛ حيث لم يزكِّ على الله أحدًا، ولم يفرض فى دعائه شيئًا يُرضى نفسَه وهواه، بل جعل الأمر كله لله تعالى؛ يظهر هذا من قوله: «اللهمَّ إن هذا يشتمُ أقوامًا سبق لهم منك ما سبق، فاجعله اليوم نكالًا».

- العظة الخامسة: الحذر من معاداة أولياء الله تعالى والصالحين من عباده؛

(١) أخرجه أحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٩٤٨)، وأبو يعلى فى مسنده، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٥٣٦٩)، وصحح إسناده الأرنؤوط فى تعليقات مسند أحمد، وقال: رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٢٠٥).

فقد استجاب الله تعالى لدعاء سيدنا سعد بن أبى وقاص ﷺ ؛ وذلك لأن الله يتولى الصالحين من عباده، ويدافع عن عباده المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ (الحج).

وفى الحديث القدسى: «من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب»[1].

أيضًا يستفاد من هذا الحديث أن منزلة سيدنا سعد عند الله تعالى عالية وغالية، وأن الله أكرمه بهذه الخصوصية؛ وهى أنه مستجاب الدعوة.

وتفيد السنة النبوية المطهرة أن رسول الله ﷺ دعا له يوم أحد فقال: «اللهم سدِّد رميته وأجب دعوته»[2].

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦١٣٧).

(٢) أخرجه البزار فى مسنده، مسند سعد بن أبى وقاص (١٢١٣)، والحاكم فى المستدرك، كتاب المغازى والسرايا، (٤٣١٤) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

٤. من أدب التَّعَفُّف(*)

أصبح أبو سعيد الخـدْرى ﷺ، وليس فى بيته طعامٌ، وقد عصَبَ على بطنه حجرًا من الجوع. فقالت له امرأته: ائتِ النبىَّ ﷺ فاسأله؛ فقد أَتَاه فلان فسأله فأعطاه، وأتاه فلان فسأله فأعطاه.

فقال: حتى ألتمس شيئًا، فقال: فلم أجد شيئًا، فأتيتُ النبى ﷺ وهو يَخْطُبُ فأدركت من قوله ﷺ: «من اسْتَعفَّ يُعفَّهُ الله، ومن استغنى يُغنه الله».

قال أبو سعيد: فرجعت فما سألْتُهُ شيئًا، فما زال اللهُ تعالى يرزُقُنا حتى ما أعلم فى الأنصار أكثر أموالًا منا.

*****

هذا الموقف يُربِّى فينا قوة التحمُّل والرضا والتعفُّف، ويبشرنا الموقف بأن عاقبة الصبر تكون خيرًا، كما يفيض الموقف بالدلالات الهادية:

- الدلالة الأولى: أن الإنسان إذا فتح على نفسه باب المسألة والاحتياج فإن النفس لا تقنع ولا تشبع، ويتعود الإنسان على أخْذ السهل دون كفاح أو عمل،

(*) أخرجه الطيالسى فى المسند، الأفراد عن أبى سعيد ﷺ (٢٢١١)، وأحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى سعيد الخدرى ﷺ (١١٤١٩)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقاته على المسند.

وفى الحديث النبوى الشريف: «وارض بما قَسَم الله لك تكن أغنى الناس»[1].

إنَّ الإسلام يربى فى الإنسان قيمَ البناءِ والاعتماد على النفس، ولا يرضى لأتباعه أن يكونوا عبئًا على غيرهم، أو أن تشيع بينهم القيم الاستهلاكية. وما أحسن قول الإمام البوصيرى:

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شَبَّ على   حبِّ الرضاعِ وإن تفطمه ينفطمِ

- الدلالة الثانية: سرعة استجابة صحابة رسول الله ﷺ لهديه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فما إنْ سمع أبو سعيد الخدرى قول رسول الله ﷺ: «ومن استغنى يغنه الله»، حتى رجع عن السؤال، وامتثل لهدى رسول الله ﷺ، وفى هذا أسوة حسنة لكل مؤمنٍ يرجوالله واليوم الآخر أن يجعل السنة النبوية موقع العمل والتطبيق؛ وهذه حقيقة إيمانية أكدها القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ (الحشر).

فالسمع والطاعة لهدْى الله ورسوله ﷺ هما حقيقة الاستجابة التى أمرنا الله بها فى القرآن؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ (الأنفال).

- الدلالة الثالثة: ثمرة وبركة العمل بسنة رسول الله ﷺ؛ فبركة السنة

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﷺ (٨٠٨١)، والترمذى فى سننه، كتاب الزهد باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس (٢٣٠٥)، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٣٠).

المطهرة لمن يعمل بها.

وحين امتثل أبو سعيد الخدرى لقول رسول الله ﷺ: «من اسْتَعفَّ يُعفَّـهُ الله، ومن استغنى يغنه الله» وسَّع الله رِزْقَ أبى سعيد الخدرى، وزاده من فضله، وأغناه عن السؤال.

وهذا ما عبَّر عنه أبو سعيد فى الموقف بقوله: «فرجعت فما سـألته شـيئًا، فـما زال الله تعالى يرزُقُنا حتى ما أعلم فى الأنصار أكثر أموالا مِنَّا»، ومن هنا نـدرك أن البركة فى اتِّباع هدى الله ورسوله والعمل بهما؛ كيف لا؟ والنبى ﷺ لا ينطـق عـن الهوى.

٥. المسارعة إلى الخيرات (*)

لما عزم النبى ﷺ على غزوة تبوك، كان المسلمون يعانون من جَدْبٍ شديدٍ، حتى اضطر النبى ﷺ إلى رَدِّ مَن لا يَمْلِك راحلة عن الجهاد.. فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع. فَحثَّ النبى ﷺ على الإنفاق لتجهيز جيش العُسرة؛ فقام عثمان بن عفان بتجهيز جيش العُسرة، فجاءته البشرى بالجنة.

*****

هذا الموقف العظيم يجسِّد لنا الهمة العالية فى التضحية من أجل إقامة دين الله تعالى، وصاحبُ الموقفِ هنا هو سيدنا عثمان بن عفان ﷺ: إنه ذو النورين، زوج ابنتى رسول الله ﷺ، وصاحبُ الهجرتين، ولا عجب ولا دهشة من حجم هذا العطاء العظيم، فإن من يقدم نفسه لله تعالى فإن تقديمه للمال أهون عليه وأيسر.

وهكذا يصنع الإسلام بالنفوس؛ حيث يخلصها من الشُّح والبخل، ويُزكِّى فيها روح العطاء والتضحية.

ويظهر من هذا الموقف دلالاتٌ إيمانية، أهمها:

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا أو بئرًا واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين، (٢٦٢٦).

• إنفاق الإنسان مما يحب، واصطفاؤه أفضل ما عنده، وفى هذا تعبير عن حسن إيمانه بربه، كما يحمل له البشرى عند الله، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ (آل عمران).

وقد فَقِه المسلمون معنى هذا التوجيه الإلهى، وحرصوا على أن ينالوا البر ـ وهو جماع الخير ـ بالنزول عما يحبون، وببذل الطيب من المال سخيَّة به نفوسهم فى انتظار ما هو أكبر وأفضل.

ففى هذا الموقف قد بشَّر النبى ﷺ سيدنا عثمان رضي الله عنه بقوله: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه».

• دلالة أخرى فى هذا الموقف وهى أن النبى ﷺ لم يفرض على أحد من أغنياء المسلمين شيئًا من النفقة، على الرغم من شدة الموقف وما أصاب الناس من جَدْبٍ شديدٍ، بالإضافة إلى ظروف التجهيز لغزوة تبوك، واكتفى النبى ﷺ بحثِّ الناس على الصَّدَقة، ولعل الحكمة من هذا أنْ يُعلِّم الأمة روح المشاركة عن رغبة وحب، وأن تسهم ـ طواعيةً دون إجبار ـ فى كل موقف أو ضائقة تتعرض لها الأمة، وليعْظُمَ الثواب عند الله تعالى لهم، وتتعلم الأمة روح المبادرة والمسارعة لِفِعْل الخيرات، وعلى هذا الدرب سار صحابة النبى رضي الله عنهم يلبّون توجيه ربهم الذى هداهم إلى البرِّ كلِّه، يوم هداهم إلى الإسلام، وهم يتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حب الذات، ويسارعون إلى مرضاة الله تعالى.

• وفى سياق التضحية من رفعة الدين والتمكين له يأتى ـ أيضًا ـ ما صنعه

أبو طلحة رضي الله عنه حين نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إنّ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالى إلى بَيْرَحَى، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث شئت، قال رسول الله ﷺ: «بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، قد سمعت ما قلت فيها، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين»(١).

بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذه الروح عزَّت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء، ولننظر أين روحنا من تلك العصبية؟ ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر، وإلا فلنسدد ونقارب، والله المستعان.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، (١٣٩٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة علىٰ الأقربين، (٢٣٦٢).

٦. شُكر المُنعِم (*)

خرج النبى ﷺ ـ وقت الهاجرة ـ فوَجَد أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فسألهما: «ما أخرجكما فى هذه الساعة؟». فقالا: والله ما أخْرَجَنَا إلا شِدَّةُ الجوع. فقال النبى ﷺ: «وأنا والذى نفسى بيده ما أخرجنى غير ذلك».

ثم انطلقوا إلى دار أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه، فأتاهم بخبز ولحم وتمر ورُطَب، فلما أكلوا وشَبعوا، قال النبى ﷺ: «خُبْز ولحمٌ وتمرٌ ورُطَب!!» ودمعت عيناه، ثم قال: «والذى نفسى بيده لَتُسْأَلُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة».

*****

هذا موقف نبوى كريم يحمل قيمًا تربوية هادية، أهمها:

- شُكْر الله المنعم على كل ما ينعم به على عباده حتى الأَكْلَة والشَّرْبَة؛ كى ينال المؤمن الثواب من الله تعالى، ويصبح الطعام والشراب من ألوان الطاعات التى يتقرب بها العبد لله تعالى، فإذا نوى المؤمن وقصَد بالطعام أن يَتقوَّى به على

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، (٥٤٣٤).

طاعة الله وعلى العمل النافع، وأَكَل دون أن يُعيب طعامًا، ولا يأكل إلا إذا أصـابه الجوع، وإذا أكل لم يشبع، مع الحرص على التسمية فى أولـه، وبعـد أن ينتهـى مـن الطعام يتوجَّه لله المنعم بالحمْد والشُّكْر.

- إذا تأدب المؤمن بهذه الآداب نال بطعامه أجرًا عظيمًا من الله، وصار هذا الطعام عملًا صالحًا يثاب عليه، وهكذا ينبغى للمؤمن أن يربط كـل أمـوره بربـه تعالى.

- ولعل فى دمْعِ عَينَىْ رسول الله ﷺ عند ذلك إشـارة إلى غفلـة كثـير مـن الناس عن شكْر ما بين أيديهم من نعم، فأحبَّ أن يَلْفِت انتباه الأمـة إلى أن المـؤمن مسئول عن كل نعيم أنعم الله به عليه حتى الأكلة والشربة، فما بالنا بما هو أكثر من ذلك من صحة الأبدان والأمن والأولاد والأزواج والأموال.. وغير ذلك من نعم الحياة الدنيا؟! هذا فضلًا عن النعم الغالية التى تأتى فى مقدمـة كـل الـنعم؛ وهـى نعمة الإيمان، ونعمة الدخول فى خير أمة أخرجت للناس، ونعمـة الطاعـة ونعمـة رسول الله ﷺ. والسؤال من الله للمؤمن عن هذه الـنعم يـوم القيامـة يـدفع إلى أن يؤدى حق الله فيها: من صدقة وزكاة وإعانة للناس وتواضـع لله وألّا يتفـاخر ولا يتعالى بها، وأن يجعلها معونة له فيما يـرضى الله تعـالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ (الضحى).

٧. اقتصَّ منى يا أُسَيد (*)

فى ذات يوم كان أُسَيْد يُطْرِفُ الناس بطرائفه، فغمزه النبى ﷺ فى خاصرته، كأنه يستحسن ما يقول، فقال أُسَيد: أوجعتنى يا رسول الله! فقال النبى ﷺ: «اقتص منِّى يا أُسَيْد».

فقال أُسَيد: لم يكن علَىَّ قميص حين غمزتنى يا رسول الله. فرفع رسول الله ﷺ قميصه عن جسده الشريف، فاحتضنه أُسَيد وجعل يقبِّله، ويقول: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنَّها لَبُغْية كنت أتمناها!!

*****

هذا موقف نبوى كريم، به دلالات إيمانية هادية، وقيم تربوية نافعة:

- الدلالة الأولى: استحسان النبى ﷺ لصنيع أُسَيْد من هذه الطرائف التى تدخل السرور على قلوب أصحابه، وفى هذا إشارة واضحة إلى أهمية الترويح فى حياة المسلم؛ لتجديد نشاطه ودفع الرتابة والملل عن حياته، لكن الترويح مشروط بألّا يجرَّ إلى مُحرَّم؛ كالاستهزاء بالغير، أو نحو ذلك، أو يُضيع فرضًا من الفرائض أو حقًّا من الحقوق.

(*) الموقف ورد بمعناه فى حديث إسناده صحيح: أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ، باب ذكر أسيد بن حضير الأنصارى ، (٥٢٦٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

وكان رسول الله ﷺ يمزح مع أصحابه، لكنَّه كان ﷺ لا يقول إلا حقًّا؛ من ذلك قوله لامرأة عجوز ــ ذات مرة: «لا تدخل الجنة عجوز»، فتغيَّر وجه المرأة، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧﴾ (الواقعة)»[1].

وهذا فقه نحتاج إليه فى حياتنا المعاصرة، فالمغالاة من بعض الناس فى منع الترويح والطرائف من حياة المسلم، ظنًّا منهم أن فى هذا مزيدًا من تقوى الله تعالى، مغالاة غير مقبولة، والذى نهى عنه رسول الله ﷺ هو كثرة الضحك؛ كى لا تتحوَّل حياة المسلم كلها إلى لهو وصخب، وأدب الطرائف والترويح فى الإسلام أن يكون فى حدود ما أحل الله تعالى.

- والدلالة الثانية: الحرصُ الواضح من رسول الله ﷺ على تمكين أصحاب الحقوق والمظالم من حقهم، حتى وإن كانت هذه المظلمة شيئًا يسيرًا. ومن هديه ﷺ قوله: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال له الرجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: «وإن كان قضيبًا من أَرَاكٍ»[2].

أيضًا فى هذا الموقف الذى بين أيدينا يضرب النبى ﷺ المثل الأعلى لأمته،

---

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل المحمدية، ص (١٩٧) برقم (٢٤٠)، وحسنه الألبانى فى مختصر الشمائل (٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، (٣٧٠).

ويقدم لهم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة فى تمكين أصحاب الحقوق من حقوقهم، حتى وإن كان شيئًا يسيرًا نستهين به فيما بيننا.

- الدلالة الثالثة: هذا الحب العظيم الذى يملأ قلب أُسَيْد، فكانت رغبته الودودة فى أن يُقبِّل جسد رسول الله ﷺ؛ كى يمس جَسَدُه جَسَدَ رسول الله ﷺ، لما يعلمه من الخصائص التى أكرم الله بها النبى ﷺ فى الدنيا والآخرة، وقد ألَّف العلماء فى شمائله ﷺ وخصائصه الكثير من الكتب؛ من ذلك: شمائل الترمذى، واللفظ المُكرَّم بخصائص النبى ﷺ للخيضرى، والخصائص للسيوطى.. وغيرهم.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، واجعلنا فى رفقته يوم القيامة، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا

٨. سِرُّ القَبُولِ (*)

شُغِلَ رجل بحب ثناء الناس ومَدْحِهم، فالتقى برسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، إنى أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يذكرنى الناس، فلم يَرُدَّ عليه النبى ﷺ ، فنزل فيه قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف).

*****

هذا الموقف يقدم معانى ودلالات، أهمها:

- **الدلالة الأولى: أنه يقدم لنا تحديدًا دقيقًا لصفة العمل الذى يُرجى له القَبُول عند الله تعالى، وشأن هذا الرجل فى الموقف الذى بين أيدينا شأن كثير من الناس يدفعهم لإجادة العمل حُسْن السمعة، أو الشهرة، أو مشاعر الأحباب.. إلخ.**

والإسلام يرقب بعناية فائقة ما يقارن ويصاحب أعمال الناس من نيّات، وما يلابسها من مشاعر وعواطف. ولا يرقى العمل ليكون موضع القبول عند الله

(*) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب الجهاد، (٢٥٢٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، تعليق الذهبى قى التلخيص: على شرط البخارى ومسلم، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥/ ٣٤١) برقم (٦٨٥٤).

تعالى إلا إذا تخلَّص من شوائب النفس وخلص لمرضاة الله وحده، وهذه حقيقة تؤكدها آيات القرآن الكريم، وظهرت واضحة فى هذا الموقف. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ (الإنسان)، وقال تعالى: ﴿الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل).

ولتصحيح اتجاهات القلب وتجريدها لله تعالى قال النبى ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»[1].

إذن فصلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بالعمل الدنيوى؛ ليكون طاعة لله تعالى.

- الدلالة الثانية: فإنَّ العمل لا اعتبار له عند الله تعالى إذا جاء مخالفًا لهدْى القرآن والسنة، فصلاحية العمل بموافقة هدْى القرآن وهدْى سنة رسول الله ﷺ.

ونخرج من هذا الموقف بأن العمل الذى يُرْجَى له القبول عند الله تعالى مشروط بشرطين؛ هما: الإخلاص، والموافقة للكتاب والسنة.

- الدلالة الثالثة: وجود أحد الشرطين فى العمل: الإخلاص، أو موافقة الكتاب والسنة، وافتقاد أحدهما ليس كافيًا ليكون العمل عبادة يرجى لها القبول عند الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ، (١) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية، (٥٠٣٦)، واللفظ للبخارى.

ومن هدى النبى ﷺ قوله: «إذا جمع الله تعالى الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادىٰ مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله تبارك وتعالى أحدًا؛ فليطلب ثوابه من عند غير الله تعالى؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك به»[1].

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكيين، حديث أبى سعيد بن أبى فضالة ﷺ، (١٥٨٧٦)، والترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الكهف، (٣١٥٤)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

٩. مهرها الإسلام (*)

كان أبو طلحة فارس بنى النجار، له منزلة محمودة بين قومه، ولما علم أنَّ أم سُليْم توفى عنها زَوْجُها ذهب إلى خِطْبَتِها قبل أن يسبقه أحدٌ إليها؛ حيث كانت راجحةَ العقل حَسَنَة الصفات، فلما ذهب يخطبها، قالت له: يا أبا طلحة، مِثلُك لا يُرد لكنى أنا مسلمة وأنت مشرك. فقال لها: لعل هناك من هو أكثر منى ذهبًا وفضة!

فقالت له: أُشْهِدُ الله ورسوله إنْ أسلمت يا أبا طلحة رضيت بك زوجًا من غير ذهب ولا فضة، وجعلتُ إسلامك لى مهرًا، ففعل، فكان المسلمون يقولون: ما سمعنا بمهر قط كان أكرم من مهر أم سُليم؛ فقد جعلت مهرها الإسلام.

*****

هذا موقف إيمانى كريم يحمل دلالات هادية، فيها الأسوة وفيها القدوة

(*) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى، كتاب: النكاح، باب: التزويج على الإسلام، (٣/ ٣١٢)، رقم (٥٥٠٤)، وصححه الألبانى فى سنن النسائى بأحكام الألبانى برقم (٣٣٤١).

لجميع المسلمين.

• أُولى هذه الدلالات هى بيان أثر الإسلام فى النفوس؛ فالإسلام يربى فيها القيم العالية، ويتجاوز حدود إسعاد النفس بالمال من ذهب وفضة؛ لأن النفس بالإسلام وهديه تسمو وترقى لتسعد بالمعانى العظيمة والقيم النبيلة، وما أعده الله للمؤمنين عنده فى الجنة، فأم سُليم لم تفتن بمكانة أبى طلحة ولا بالذهب ولا بالفضة؛ لأن هناك معنى وغاية أكرم تسكن قلبها؛ ألا وهى رضوان الله تعالى؛ لذلك كانت معتزة بإسلامها.

فالإيمان الصادق يجعل المشاعر والعواطف مرتبطة بالله، لا تتبع الهوى فتضل، بل تسارع مستجيبة لهْدى الله تعالى عن رضا وطمأنينة، فالمؤمن يرضَى بما يرضَى الله به.

• ودرس آخر يظهر من موقف أم سليم حين رفضت الزواج من أبى طلحة حتى يُسلم، وهو أن رغبة المؤمن فيما عند الله تعالى تفوق كل رغبة عنده فى متاع الدنيا العاجل؛ فَلِعِلْم أم سليم بأن ما عند الله خير و أبقى، ولرغبتها فى تحصيل ثواب إسلام أبى طلحة، وعدته إن أسلم أن تجعل إسلامه مَهْرًا لها، وذلك على الرغم من مكانتها بين قومها ورغبة أشراف القوم فى خطبتها، لكنها آثرت الآخرة.

وصدق الله العظيم: ﴿ مَاعِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَاعِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ (النحل/ ٩٦)؛ ولأن هذه الأسرة قامت على الإيمان ورضا الله تعالى باركها الله، وأسبل عليها نعمة السعادة والرضا، وأسعد كلا منهما بصاحبه.

وفى هذا قدوة صالحة لبنات حواء أن يكون معيار الاختيار؛ كما وضَّح النبى ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنـة فى الأرض وفساد كبير»(١).

- ولعل فى هذا الموقف الأسوة الصالحة لبناتنا وأولياء الأمور بأن يكون فى طيبِ خُلُقِ الخاطب وحُسْنِ دينه عِوَضٌ عن المهرِ المرتفع، والمطالـبِ التـى تطلـب من الخاطب فى زماننا وترهقه من أمره عسرًا، وتجعل الزواج أمرًا عـسيرًا، بـسبب خضوعنا لعادات بالية وتقاليد زائلة تقوم على التبـاهى والتفـاخر بالماديـات التـى يعتز بها الناس، من مسكن واسع وفُرش وثيرة ونحو ذلك. وكل هذا مخالف لهدى الإسلام الذى ييسر الحلال للناس.

وأين نحن من يُسْرِ رسول الله ﷺ فى الزواج؟ لقد كان يزوج الفقراء العلـماء من أهل القرآن بما معهم من القرآن، وكانت الصالحات تَرْضَيْنَ بالقرآن مهرًا.

اللهم رُدَّنا إلى الإيمان رَدًّا جميلًا

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجـوه، (١٠٨)، والبيهقـى فى السنن الكبرى (٧/ ٨٢) كتاب النكاح، باب الترغيب فى التزويج فى ذى الـدين والخلـق المـرضى، وحـسنه الألبانى فى إرواء الغليل (١٨٦٨).

١٠. هكذا أُمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ﷺ (*)

صلى زيد بن ثابت رضي الله عنه على جنازة، فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس رضي الله عنه فأخذ بركابه، وأمسك بزمام الدابة. فقال له زيد: دعْ عنك هذا يا ابن عَمِّ رسول الله ﷺ. فقال له عبد الله بن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. فقال له زيد: أرنى يدك يا ابن عَمِّ رسول الله ﷺ، فأعطاه يده، فإذا بزيد يُقَبِّلها، ويقول: ونحن هكذا أُمرنا أن نفعل حُبًّا بأهل بيت نبينا.

*****

هذا موقف كريم بين اثنين من أئمة صحابة سيدنا رسول الله ﷺ، وممن قاموا بأمانة التبليغ عن سيدنا رسول الله ﷺ.

- وفى هذا الموقف تربية على الخلق الكريم؛ حيث نرى هذا التواضع من سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما إجلالا لسيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه فيمسك الدابة، ويأخذ بزمامها؛ إكرامًا وإجلالا لعِلْم سيدنا زيد بن ثابت، كاتب الوحى، ورأس أهل المدينة فى القراءة والعلم، ولمَّا نهاه سيدنا زيد عن هذا التواضع الشديد، أظهر سيدنا عبد الله بن عباس نيته الخالصة وحكمته الرشيدة، فقال:

(*) أخرجه الحاكم فى المستدرك، كتاب: معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: ذكر مناقب زيد بن ثابت كاتب النبى (ﷺ)، (٣/ ٤٧٨)، رقم (٥٧٨٥)، وصححه وسكت عنه الذهبى.

«هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا».

ما أحوجنا جميعًا إلى التأسى بهذا الأدب الرفيع فى إجلال أهل العلم! كيف لا، والله قد رفع أقدارهم وأعلى مكانتهم؟! قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۢ﴾ (المجادلة/ ١١).

والله تعالى حين أراد أن يجعل لآدم عليه السلام منزلة كريمة، ما كان ذلك بمال ولا بشىء من زينة الحياة الدنيا، وإنما كان ذلك بالعلم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۭ ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ (البقرة).

فأهلية آدم للخلافة كانت بالعلم.

- وهذا الموقف الكريم يقدم لنا الأسوة الطيبة والقدوة الحسنة فى محبة آل بيت سيدنا رسول الله ﷺ، وليتأمل المؤمن أننا فى صلاتنا بعد التشهد نصلى ونسلم عليهم بعد سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك فى صيغة الصلاة الإبراهيمية التى أرشدنا إليها رسول الله ﷺ: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿يَزِفُّونَ﴾ (٣١٩٠) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد، (٩٣٥).

وفى القرآن الكريم نجد قول الله تعـالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (هود).

ولهذا رأينا فى الموقف كيف أخذ سيدنا زيد ﷺ يد سيدنا عبد الله بن عبـاس رضى الله عنهما وقبَّلها، ثم أعلن عن النية والحكمة من ذلك بقوله: «هكـذا أمرنـا أن نفعل حبًّا بأهل بيت نبينا».

رضوان الله تعالى على آل بيت النبى وأصحابه أجمعين

١١. قائمة المنافقين (*)

كان حذيفة بن اليمان ﵁ إذا جلس بجوار منافق أَحَسَّ بـه، حتى اشتهر بين الصحابة بأنه يشمُّ رائحة النفـاق. ولـمَّـا ائتمنـه النبى ﷺ على أسرار المنافقين، جاءه عمر بن الخطـاب ﵁، وقـال: يا حذيفة نشدتك الله هل سمانى رسول الله ﷺ مع القوم؟ فيقـول: لا، ولا أزكى بعدك أحدًا.

*****

- هذا الموقف يقدم لنا عظة بليغة فى الحذر من النفاق؛ وذلك لخطورة هذا الداء من وجهين:

الوجه الأول: أن النفاق أمر خفى غير واضح وضوح الإيمان أو الكفر؛ دليل ذلك أن الله تعالى فى أول سورة البقرة وصف المؤمنين فى خمس آيات، ووصف الكافرين فى آيتين، ووصف المنافقين فى ثلاث عشرة آية؛ وما ذلك إلا لخفاء النفاق.

الوجه الثانى: خطورة عاقبة النفاق؛ فقد توعد الله المنافقين بالدرك الأسفل من النار يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ

(*) ذكره ابن القيم فى طريق الهجرتين ص (٦٠٤).

نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾(النساء)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التحريم/ ٩).

فقد كان صحابة رسول الله ﷺ على حَذَرٍ من مرض النفاق، أو أن يوجد بهم أدنى صلة أو رائحة تربطهم بالنفاق؛ لذلك أسرع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى حذيفة رضي الله عنه؛ ليطمئن على نفسه.

- دلالة آخرى فى هذا الموقف وهى: هذا الخشوع من سيدنا عمر رضي الله عنه، فهو على الرغم من منزلته فى الطاعة، وعند رسول الله ﷺ، وأنه من المبشرين بالجنة، إلا أنه خائف، فلقد صَدَق عليه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون).

ولما سألت السيدة عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن هذه الآية قالت: هل هم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال ﷺ: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات[1].

وهذا شأن الفائقين فى كل موقع، إنما هم على حذر ويقظة من أن يصيب عملهم شائبة أو خلل.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، (٢٥٧٤٦)، والترمذى فى سننه، كتاب التفسير، باب سورة المؤمنون، (٣١٧٥) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٥٣٧).

١٢. لم يبق لى شىءٌ يُباع (*)

جاء سائل إلى أحد الأمراء يسأله عطاءً، وكتب له:

تُغْنِيكَ حالةُ مظْهَرى عن مَخْبَرى

لم يَبْقَ لى شىءٌ يُباعُ بدِرْهَم

إلَّا بقيةُ ماءِ وجهٍ صُنْتُهُ

من أن يُباعَ، ونِعْمَ أنتَ المُشتَرِى

فأعطاه الأمير عطاءه كاملًا، وكتب له:

عاجَلْتَنَا فأتاكَ عاجلُ برِّنا

قُلا، ولو أَمْهَلْتنا لم نُقْتِرِ

(*) ذكره الإمام أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٣/ ٢٥٢) بغير هذا السياق، «دخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها، فوجده عليلًا، فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه وقال: عسى أن أقوم من مرضى فأكافئه، فأقام شهرين فوحشه طول المقام فكتب إليه يقول:

إن حراما قبول مدحتنا ... وترك ما نرتجى من الصفد

كما الدراهم والدنانير ... فى البيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه: كم أقام بالباب؟ قال: شهرين. قال: أعطه ثلاثون ألف وجئنى بدواة فكتب إليه.

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا ... قلا ولو أمهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ... ونقول نحن كأننا لم نفعل

فخـــذِ القليـــلَ، وكُـــنْ كأنَّـــكَ لم تَبـــع

مـــا صُنْتَـــهُ، وكـأنَّـــنا لَـــمْ نَــشْــتَـرِ

*****

- هذا الموقف يربى فينا خلقًا إيمانيًّا أمرنا الله به فى قرآنـه، قـال الله تعـالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ (البقرة).

إن بعض الناس ينظر لصاحب الحاجـة مـن الفقـراء والمساكين وغـيرهم بترفُّع، وأنه هـو الأعـلى والأفـضل والأكـرم، وربـما صَـاحَب العطـاءَ اسـتقلال واستهانة بالفقير، وربما صاحبت العطاء كلمات تجرح المشاعر وتنـال مـن كرامـة الفقير، وكل هذا يحدث حين يضعف الإيمان بالله تعالى، وأما حين يزيد الإيـمان فى القلب فإن المؤمن يدرك أن المعطى على الحقيقة هو الله سبحانه.

وحين يُكرم الله عبدًا من عباده فيُجرى على يديه خيرًا، ويجعلـه سـببًا لنفـع إخوانه المؤمنين، فينبغى أن يُرجع الفضل لصاحب الفضل وهو الله رب العـالمين، وألا يرى لنفسه فضلا فى هذا العطاء، ويعلم أن الله يختبر عبده بالغنى، كما يختـبره بالفقر.

ورحم الله الحسن البصرى حيث قال: لو شاء الله لجعلكـم أغنيـاء لا فقـير فيكم، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض[1].

---

(١) ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٦).

تجسَّدت كل هذه المعانى الطيبة فى موقف الأمير من السائل؛ حيث أجزل له العطاء مع حفظ كرامته ورعاية مشاعره، ولزوم التواضع، وإظهار أنه كان يود أن يكون العطاء أكثر من هذا، يظهر هذا من قوله:

عاجَلْتَنَا، فأتاك عاجلُ بِرِّنا ... قُلا، ولو أَمْهَلْتَنَا لم نُقْتِرِ

فخُذِ القليلَ، وكُنْ كأَنَّكَ لم تَبِعْ ... ما صُنْتَهُ، وكأَنَّنا لَمْ نَشْتَرِ

- كذلك ينبغى أنْ نصطفى من نسأل حين نقع فى ضرورة أو حاجة؛ فقد تخيَّر الرجل من يملك قضاء حاجته، ويُرجى خيره، فليس من الحكمة أن نسأل من لا يملك قضاء المصالح، أو من لا يرجى خيره.

- أيضًا يستفاد من الموقف حُسن السؤال، والتلطف فى الطلب، وحسن الإجابة والترفق بالسائل.

١٣. المَلَك ينتصر لك (*)

بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وقع رجل بأبى بكر رضي الله عنه فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر لنفسه، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر.

فقال أبو بكر: أَوَجَدْتَ علىَّ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَزل مَلَكٌ من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان».

*****

هذا موقف إيمانى يقدم دلالات أخلاقية هادية؛ منها:

- عدم مجاراة أهل الإساءة فى إساءتهم، ولا أهل الفساد فى فسادهم، وإنما ندفع بالتى هى أحسن، فالحلم يُسْكِت فم السفيه، يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت).

(*) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب فى الانتصار، (٤٨٩٨)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥/ ٢٨٤) برقم (٦٦٦٩)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٥٨).

وهكذا كان النبى يُربِّى أصحابه على الخلق الكريم، ومن أساليب التربية النبوية أنه قام من المجلس تاركًا أبا بكر الصديق ـ وحده ـ، على الرغم من أنهما أتيا إلى المجلس معًا؛ ليبين النبى ﷺ أن الصحبة تكون فى الخير، وتنقطع بالمعصية، فشعار المؤمن فى الصحبة: «طاعة الله تجمعنا، ومعصية الله تفرقنا»؛ وذلك لأن القصد من الصحبة المعونة على الطاعة والذكر.

- ودلالة أخرى تستفاد من هذا الموقف، وهى أن مَنْ كف نفسه عن مجاراة أهل الإساءة إذا أساءوا إليه، فإن الله تعالى يدافع عنه، وينتصر للإنسان الملتزم.. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر/ ٣١)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ (الحج).

- أيضًا يستفاد من هذا الموقف الكريم تقديم النصيحة، وعدم كتمانها حياءً من الصاحب والعزيز على الإنسان؛ فالنبى ﷺ نصح أبا بكر رضي الله عنه بأن يترك الانتصار لنفسه.

وقَدْ حث النبى ﷺ على اجتناب أسباب الغضب وعدم التعرض لما يجلبه، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال للنبى ﷺ أوصنى، فقال: «لا تغضب» فردد مرارًا قال: «لا تغضب»[1]، كما قدمت السنة النبوية علاجًا شافيًا لمشاعر الإنسان إذا اضطربت وقت الغضب؛ كى لا يندفع نحو الخطأ تحت ضغط الانفعال وغريزة الانتقام فقال ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٥٧٦٥).

الغضب، وإلا فليضطجع»[1].

ومن هديه ﷺ في علاج انفعال الغـضب قولـه ـ حـين رأى رجـلًا انتفخـت أوداجُهُ واحمرَّ وجهه ـ: «إنى لأعرف كلمة لو قالها لَذَهَبَ عنه الـذى يجـد: أعـوذ بالله من الشيطان الرجيم»[2].

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبى بن كعب ﷺ ، (٢١٣٨٦)، وأبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، (٤٧٨٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٤).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٥٧٦٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (٦٨١٢).

١٤. من فِقْـه التـربيـة(*)

قـال أنـسٌ كـان رسـول الله ﷺ مـن أحـسن النـاس خُلُقًـا، فأرسلنى يومًا لحاجة، فقلتُ: والله لا أذهبُ. وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبىُّ الله ﷺ، فَخَرَجـتُ حتـى أَمُـرَّ عـلى صـبيانٍ وهـم يلعبون فى السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى - قال - فنظرتُ إليه وهـو يـضحك، فقـال ﷺ: «يَـا أُنَـيْسُ أَذَهَبْـتَ حيث أَمَرتُك؟». قال: قلتُ: نعم أنا أذهبُ يا رسول الله.

قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمتُـه قـال لـشىءٍ صَنَعْتُه: لِـمَ فَعَلْتَ كذا وكذا؟ أو لشىءٍ تركته: هـلَّا فَعَلْـتَ كـذا وكذا؟

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية:

- الدلالة الأولى: سعة صدر رسول الله ﷺ وعدم انفعالـه أو غـضبه حـين رأى غلامه أنسًا يلعب مع الصبيان، وترك الحاجة التى أمـره بهـا، وفى هـذا إدراك

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان رسـول الله ﷺ أحـسن النـاس خلقًـا، (٦١٥٥)، (٦١٥٦).

منه ﷺ لطبيعة الصبيان ونزوعهم إلى اللهو واللعب، وما قد يصدر عنهم من مخالفات تحتاج فى تقويمها إلى معلم رحيم ومربٍّ كريم لا يعرف الفظاظة ولا الغلظة ولا العنف.

- الدلالة الثانية: تظهر فى الأسلوب الودود الذى خاطب به النبى ﷺ غلامه؛ حيث ناداه باسم التدليل (أُنَيْس)؛ كى تأنس نفسه برسول الله ﷺ.

وفى هذا ما ينبئ عن رحمة رسول الله ﷺ ورأفته وفقهه. كيف لا والله سبحانه وتعالى قد مَدَحَه بهذه الأوصاف فى القرآن الكريم؟! ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم)، وقوله ـ أيضًا ـ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة).

وهذا سر من أسرار نجاح القائد فى موقعه، حين يحتوى بقلبه نفوس من حوله. فى حين حذرنا الله تعالى من الفظاظة والغلظة التى تفرق الأتباع وتشتت الشمل، قال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران/ ١٥٩).

- الدلالة الثالثة: تظهر من تعقيب أنس رضي الله عنه فى وصف معاملته ﷺ له طوال مدة خدمته له؛ حيث يقول: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشىء صنعته لم فعلت كذا وكذا؟، أو لشىء تركته، هلا فعلت كذا وكذا؟

وفى هذا دلالة على حكمة النبى ﷺ، وتنوّع أساليبه فى التربية، ومن بينها

ضرب الأسوة والقدوة الحسنة، والمتابعة، دون الزجر والأمر أو النهى المباشر، وقد يكون هذا أجدى مع الصبية.

- الدلالة الرابعة: حسن معاملته ﷺ لمن قاموا على خدمته، فسيدنا أنس رضي الله عنه من رواة الحديث، وسيدنا زيد من قادة الجيش، وأسامة بن زيد رضى الله عنهما من قادة الجيش وغيرهم ممن خدموا رسول الله ﷺ.

وفى هذا دعوة محمدية لأولى الأمر وأصحاب الأعمال أن يرفقوا بمن يعملون تحت أيديهم، وأن يعاملوهم كما يعاملون أبناءهم وإخوانهم.

١٥. بين الأمانة والإمارة(*)

عن أبى ذَرٍّ قال: قلتُ يا رسول الله: أَلَا تستعملنى؟ قال: فضرب بيده على مَنْكِبِى، ثمَّ قال: «يا أبا ذَرٍّ، إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يوم القيامة خِزْىٌ وندامةٌ إلَّا من أخذها بحقِّها وأدَّى الذى عليه فيها».

*****

هذا موقف تربوى يحمل دروسًا نافعة للأمة فى مجال الإدارة وتوزيع الأعمال المختلفة.

- الدرس الأول: هو أن رسول الله ﷺ لم يتحرك بدافع من عاطفة الحب نحو صاحبه أبى ذر رضي الله عنه فحسب، بل قدَّم لنا ﷺ القدوة الصالحة فى مصارحة طالب الرياسة أو الوظيفة بنقص كفاءته ومؤهلاته التى ترشحه للنجاح فيها، ثم بيَّن ﷺ أن الإمارة أمانة نُسأل عنها يوم القيامة.

- الدرس الثانى: أنَّ قوله ﷺ: «يا أبا ذر، إنك ضعيف» ليس معناه ضعفًا فى الإيمان؛ فلقد كان أبو ذر رضي الله عنه من خيار الصحابة وأفضلهم إيمانًا بالله، ولكن الضعف الذى يُفهم من هذا السياق هو ضعف كفاءة وإمكانية للقيام بالإمارة.

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب "الإمارة"، باب "كراهة الإمارة بغير ضرورة" (٤٨٢٣).

ويؤكد النبى ﷺ بذلك قاعدة إيمانية، هى أن حُسن النية وحده لا يكفى لمعالجة المشاكل وإنجاز الأعمال، بل لابد من الكفاءة والقدرة العملية على إنجاز ما يسند إلى المرء من أعمال.

والقرآن الكريم أرسى هذه القاعدة فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام؛ حيث لم يقدم نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضًا: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف).

وأبو ذر رضي الله عنه لما طلب الولاية لم يجده النبى ﷺ كُفؤًا لها قادرًا على القيام بأعبائها، فحذَّره منها، والأمانة تقضى بأن نصطفى للأعمال أحسن الناس قيامًا بها، فإذا مِلنا عنه إلى غيره ـ لهوى أو رشوة أو قرابة ـ فقد ارتكبنا بتنحية القادر وتولية العاجز خيانة فادحة.

قال رسول الله ﷺ: «من استعمل رجلًا من عصابة، وفى تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين»[(١)].

وقد أرشدت السُّنة إلى أن خيانة الأمانة مظهر من مظاهر الفساد الذى يقع فى آخر الزمان؛ فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله: متى الساعة؟ فقال له النبى ﷺ: «إذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[(٢)].

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب الأحكام، (٧٠٢٣)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٥٤٥).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: رفع الأمانة، رقم (٦١٣١).

وهكذا عظَّم الإسلام الأمانة؛ كى يُخلصِ الرجل فى عمله، ويهتم لإجادته، ويسهر على حقوق الناس ومصالحهم التى وُضِعت بين يديه، وأن يحرص الإنسان على مراقبة الله فى عمله؛ لأنه أمانة سوف يُسْأَلُ عنها يوم القيامة.

١٦. من فقه الأزمات(*)

حَرَّضَ أحد أحبار اليهود شابًّا يهوديًّا للإيقاع بين الأنصار (الأوس والخزرج)، وأن يذكِّرَهم بيوم بُعاث الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج، فأثمرت الفتنة، وحمل كلٌّ من الأوس والخزرج السلاح للقتال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأسرع ومعه أصحابه من المهاجرين.

فقال لهم النبى ﷺ: «يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقَطَعَ به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألَّف بين قلوبكم؟».

وهنا عرف القوم (من الأوس والخزرج) أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين.

*****

(*) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٦).

• هذا الموقف حَسْبه من الأهمية أن نزل فيه قرآنٌ يُتلى، وهو موقف يقدم لنا درسًا غاليًا فى الحذر من الدسائس، ويقدم لنا درسًا فى الحفاظ على وحدة الأمة.

فالمسلمون أمة واحدة، ولكن الخطر يأتى من الدسائس التى تريد أن تفرق وحدتهم، وقد بدأت هذه الدسائس منذ عهد رسول الله ﷺ حين جمع الله الأوس والخزرج على الإسلام، وألَّف بين قلوبهم على يد رسول الله ﷺ، وانتهى ما بينهم من شحناء ومعارك، لكن اليهود ـ قاتلهم الله ـ غاظهم أن يروا وحدة المسلمين وقوتهم، فأثاروا الفتن والدسائس، وأرسلوا شأس بن قيس يُذكِّر الأوس والخزرج بمعارك الجاهلية، وأشعار كل قبيلة وما بها من التباهى والتفاخر بالنصر، فأيقظ فيهم روح القبليّة، فنادى كل فريق: يا للأوس، ويا للخزرج!! يا للسلاح!! وسمع النبى ﷺ، فأسرع إلى القوم، ونادى فيهم: «دعوها فإنها جاهلية»؛ أى أن التداعى بالقبلية أمر من أمور الجاهلية التى لا يليق بمن أكرمه الله بالإيمان أن يأتى شيئًا منها، وأنزل الله على قلب حبيبه قرآنًا يُتلى، قال الله تعالى:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (آل عمران).

وتلا النبى ﷺ على القوم قرآن الله تعالى، فبكوا وذرفت أعينهم الدموع، وعانق الرجال بعضهم بعضًا، وانتبهوا وأدركوا أنها نزغة شيطان، وأنها دسيسة يهودى خبيث أراد أن يكيد للمسلمين.

• ومن دروس الموقف ـ أيضًا ـ أهمية الاعتصام بحبل الله تعالى، والاجتماع على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فلابد للأمة من شىء تجتمع عليه،

يؤلف قلوبها، ويزيل ما بينها من شقاق وخلاف.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (آل عمران).

- ومن دروس الموقف أيضًا: الحذر من الخلاف والفُرْقة؛ فإنها من أمور الجاهلية؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (آل عمران).

وما أحوج أمتنا فى ظروفنا المعاصرة أن تأخذ العبرة من هذه المواقف المحمدية القرآنية، وكفانا فُرْقة، وكفانا تمزقًا، وإن كان أهل الباطل قد اجتمعوا واتحدوا من أجل باطلهم؛ فأولى بأهل الحق أن يجتمعوا من أجل حقهم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ (الرعد/ ١١).

- ومن الدروس المهمة فى هذا الموقف كذلك:

أولًا: مسارعة النبى ﷺ فور وصول خبر الفتنة؛ ليدرك المشكلة فى بدايتها، فتكون السيطرة عليها أسرع وأيسر.

ثانيًا: نرى حكمة رسول الله ﷺ فى المعالجة من خلال خطاب الفريقين (الأوس والخزرج) بأسلوب مقنع يذكرهم فيه بما أنعم الله عليهم من أُخُوَّة الإسلام وهداية الإيمان، ويحذرهم من عدوهم الأكبر إبليس ـ عليه اللعنة ـ الذى

نزغ بينهم، وحاول أن يُوقِع بينهم العداوة والبغضاء. فهل يليق بمن أَلَّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا متحابين أن ينتكسوا إلى أخلاق الجاهلية وقَبَلِيَّتها وعصبيتها، وقد هداهم الله؟!

ثالثًا: سرعة رجوع المؤمن إلى الحق، وعدم التمادى فى الباطل، فالصحابة ـ من الأوس والخزرج ـ لـمَّا بصَّرهم رسول الله ﷺ بالفتنة، وأنها نزغة من نزغات إبليس، عادوا طائعين، وبكَوْا وعانق بعضهم بعضًا. وهذا من أدب المؤمن فى سرعة الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ.

١٧. اصطفاء النبهاء (*)

لما قدم النبى ﷺ المدينـة، قـال زيـد: ذُهِـبَ بـى إلى النبـى ﷺ فأُعجب بى، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بنى النجـار معـه مما أنزل الله عليك بضع عـشرة سـورة، فأعجـب ذلـك النبـى ﷺ، وقال: «يا زيد تعلَّم لى كتاب يهود (أى لغتهم)؛ فإنى والله ما آمـن يهود على كتابي». قال زيد: فتعلمت كتابهم، مـا مـرت بـى خمـس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنـت أقـرأ لـه كتـبهم إذا كتبـوا إليـه، وأجيب عنه إذا كتب.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية:

- الدلالة الأولى: هى حثّ الصحابة على العِلْم، وهذه حقيقة من حقائق هذا الدين، وحسبنا أن أول ما نزل من آيات الذكر الحكيم كان قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق).

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الأنصار، حديث أبـى ذر رضى الله عنـه، (٢١٦٥٨)، وحسن إسناده الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

• وهذه أول نصيحة تسمو بقدْر القلم وتنوِّهُ بقيمة العلم وأهميته، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى فى بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم.

ولقد رفع الله تعالى درجات العلماء حتى قرنهم بذاته وملائكته فى الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته؛ فقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾(آل عمران).

ولا عجب، فأنَّى للعقول الضعيفة والمعارف الضيقة أن تدرك جلال الكبير المتعال؟! وأنَّى لمن يعيش على هامش الحياة ـ بجهله وظلمته ـ أن يعرف الحقَّ عن رب الحياة، أو أن يلمح طرفًا من صفاته العظمى وآياته الكبرى؟!

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب، ومن العبادة الجافة المشوبة بالجهل والقصور. قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة»(١). وقال ﷺ: «قليل الفقه خير من كثير العبادة»(٢)، وقال ﷺ: «أفضل العبادة الفقه»(٣)، وقال ﷺ: «يا أبا ذر، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خيرٌ لكمن أن تصلى مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم ـ عُمِلَ به أو لم يُعْمَلْ به

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٤/ ١٩٦) برقم (٣٩٦٠)، والحاكم فى مستدركه، كتاب العلم، (٣١٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٦٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٨/ ٣٠١) برقم (٨٦٩٨)، وضعفه للألبانى فى السلسلة الضعيفة (٥١٥٥).

(٣) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٩/ ١٠٧) برقم (٩٢٦٤)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٠٢٤).

ـ خير لك من أن تصلى ألف ركعة»[1].

والسر فى هذا الحكم أن عبادة الجهَّال ـ كصداقتهم ـ قليلة الجدوى، وهم يضرون أنفسهم من حيث يريدون نفعها، ويؤذون أصدقاءهم من حيث يبغون راحتهم، وجَهلة العُبَّاد يستمسكون بالدين استمساكًا شديدًا ويتعصبون له تعصبًا ظاهرًا، ولكنهم فى ساعة رعونةٍ وغباء يقفون منه الموقف الذى يلحق به الأذى، ويجرُّ عليه المتاعب. أما أولو العلم فإن بصيرتهم الذكية تَحْكُم مسلَكهم وتلهمهم الرشد، فلو قل عملهم كثر ما يصحبه من سداد وبصر؛ ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم، إن الله تعالى وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[2]؛ وذلك لأن الشيطان يبدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها.

والعلم الذى يقبل المسلم عليه ويرحل لطلبه إلى أقصى المشارق والمغارب ـ ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية، فكل ما يوسِّع أفق النظر ويزيح السدود أمام العقل، وكل ما يوثق صلة الإنسان بربه حث الإسلام على طلبه.

- الدلالة الثانية: هى الدعوة إلى تعلّم اللغات الأخرى؛ حيث أمر

---

(١) أخرجه ابن ماجه، المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٩)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٣٧٣).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العباد؛ (٢٦٨٥) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢١٣).

النبى ﷺ زيدًا بإجادة العبرية، وفى هذا إشارة إلى أهمية تعلم لغات الشعوب وفهمها؛ لأن رسالته ﷺ للناس قاطبة، وجَمْعُ الناس على لسان واحد مستحيل، فاختلاف الألسنة من آيات الله تعالى، ونقل تعاليم الإسلام إلى الأمم الأخرى يحتاج إلى تعلُّم لغاتهم.

- الدلالة الثالثة: هى اصطفاء النابهين والفائقين من الصبيان لمهام العلم؛ كى تكون للدعوة الإسلامية فى مستقبلها ألسنة نابهة تنقل الدين إلى الدنيا كلها بكل اللغات.

١٨. عظوه وبَصِّروه (*)

مر أبو الدرداء ﷺ بجماعة قد اجتمعوا على رجل يضربونه ويشتمونه، فسألهم عن خبره. فقالوا: رجلٌ وَقَع فى ذنب كبير. فقال لهم: أرأيتم لو وقع فى بئر ماذا كنتم تفعلون؟ قالوا: نخرجه من البئر. فقال لهم: إذن لا تَسُبُّوه ولا تضربوه، وإنما عِظوه، وبصِّروه، واحمدوا الله الذى عافاكم من الوقوع فى ذنبه. قالوا: أفلا تبغضه يا أبا الدرداء؟! فقال لهم: إنما أبغض فعله السيئ، فإن رجع عنه فهو أخى. فبكى الرجل المذنب، وتاب من فوره.

*****

هذا الموقف من أبى الدرداء ﷺ يتسم بالحكمة فى إصلاح النفوس؛ كما يقدم لها فقهًا عظيمًا فى كيفية تغيير المنكر.

- فأما عن الدلالة الأولى فى هذا الموقف: وهى دَرْسُ الحكمة فى إصلاح النفوس، فيظهر ذلك من الخطاب المقنع الذى أقامه أبو الدرداء مع الرجال الضاربين للرجل المذنب، ولجأ فى حواره إلى ضرب المثل؛ لتقريب المعنى المراد، وليكون الكلام أكثر إقناعًا.

(*) رجال حول الرسول ص ٣٦١.

فقال لهم: أرأيتم لو وقع فى بئر، ماذا كنتم تفعلون؟! وهذا سؤال يحرك فيهم روح الإنقاذ والإعانة والإغاثة لمن وقع فى كرب أو شدة؛ ولذلك كانت الإجابة منهم: نخرجه من البئر.

وبعد أن أسس ومهَّد أبو الدرداء لنصيحته التى يرغب فى أن يوجهها لهؤلاء الرجال، أصبح الطريق مفتوحًا فى قلوبهم وعقولهم لنصيحته. فقال لهم: إذن لا تسبوه ولا تضربوه، وإنما عظوه وبَصّروه. ثم قال يذكرهم بأن ما هم فيه من طاعة، هو من توفيق الله تعالى لهم وفضل الله تعالى عليهم وليس من أنفسهم، فليحمدوا الله تعالى على توفيقه لهم، يظهر هذا المعنى من قول أبى الدرداء للرجال: واحمدوا الله الذى عافاكم من الوقوع فى ذنبه.

- وأما عن الدلالة الثانية فى هذا الموقف فهى: فقه تغيير المنكر، فالعقاب وسيلة من وسائل تغيير المنكر يختص بها ولى الأمر، كل فى موقعه، الرجل فى بيته، المدير فى عمله... وهكذا. أما على مستوى الدعوة إلى الله تعالى، وعلى مستوى العلاقات الاجتماعية فلا مكان لوسيلة العقاب، وإنما تكون المقدمة للحوار المقنع الذى يسيطر على العقول والقلوب، فيحدث التحول العظيم للإنسان من مظاهر الشر إلى الخير والفضيلة.

فإن كان العقاب وسيلة للسيطرة على الجسد وأعضائه، فإن الحوار المقنع وسيلة للسيطرة على الفكر والمشاعر.

ولقد حَوَّل رسول الله ﷺ مجتمعًا كاملًا من الضلال إلى الهداية عن طريق الإقناع العقلى والتأثير فى المشاعر، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ (آل عمران).

واهتدى الصحابة بهدى رسول الله ﷺ فى إحداث التغيير فى المجتمع عن طريق الفكر والقلب، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطى شاعرًا كان يهجو الناس بسبب شدة الفاقة والحاجة، فلما أغناه عمر انقطع الشاعر عن هجاء الناس، فأصبح الناس يتحدثون: لقد قطع أمير المؤمنين لسان الشاعر بكرم عطائه.

- دلالة ثالثة فى هذا الموقف وهى: الأثر الطيب للأسلوب الحكيم لأبى الدرداء فى معالجة هذا الشجار والاشتباك، حيث تحول الضاربون إلى واعظين. تحولوا من جهد الإدانة إلى جهد الإعانة، وأيضًا تحول الرجل بقلبه وعقله عن الضلال والذنب وأعلن توبته.

ومن هنا يتضح لنا أن المسىء المذنب يحتاج دعمًا من الصالحين؛ لتقوية روح الخير والإيمان بداخله، بدلا من أن نحمل عليه بالضرب والعقاب، فيتمادى، ونكون عونًا للشيطان عليه.

١٩. كيف نُربى أبناءنا؟ (*)

عن عبد الله بن عامر، أنه قال: دعتنى أمى يومًا، ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطِه؟» قالت: أعطيه تمرًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تعطِه شيئًا كتبت عليك كذبة».

*****

هذا الموقف يحمل دلالات إيمانية أخلاقية وتربوية هادية:

- أولاها: على ورثة الأنبياء من الدعاة وأهل التربية أن يكون لهم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة صالحة فى ملاحظة أسلوب أولادهم وأتباعهم من طلبة العلم، وعرْض هذا السلوك على ميزان الشرع، حتى إذا رأوا ما يخالف شرع الله تعالى بادروا بالنصيحة، وسارعوا بالتحذير من مخالفة هدْى الله تبارك وتعالى.

وهذا ما ظهر لنا فى هذا الموقف؛ حيث نبه النبى ﷺ السيدة (أم عبد الله بن عامر) إلى أنها لو لم تعطِ ولدها شيئًا لكُتبت عليها كذبة.

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكيين، حديث عبد الله بن عامر رضى الله عنه، (١٥٧٤٠)، وأبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب فى التشديد فى الكذب، (٤٩٩٣)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٤٣).

• ثانيها: التأسى برسـول الله ﷺ فى تعليمـه للأمهـات والآبـاء أن يُنَـشِّئوا أولادهم على الفضائل والأخـلاق الكريمـة، وأن يكـون الآبـاء أسـوة وقـدوة فى أفعالهم؛ فلا يقول الواحد منا لابنه: كن صادقًا، ثم يقول له: إن سـأل عنِّـى فـلان فقل له: إنى غـير موجـود، فهـذا تنـاقض بـين القـول والفعـل، وانهيـار للأسـوة والقدوة.

• ثالثتها: أهمية التنبيه على خطورة الكذب مهما كان صغيرًا، وأن الله تعالى يؤاخذ الإنسان على ذلك؛ حتى لا يكبر الأطفال وهم يعتـبرون أن الكـذب ذنـبٌ هين صغير تافه يُستهان به. وكثيرًا ما نقع فى مثل هذا التناقض فى حياتنا المعـاصرة حين نعد أولادنا أو أصحابنا أو العمال الذين يعملون تحت أيدينا بوعود لا تُنفَّـذ، فنقول: إذا نجحت يا ولـدى فـسوف أعطيـك هديـة.. إذا لم تفعـل كـذا فـسوف أعاقبك.. ونحن لا نفعل شيئًا من هذه الوعـود بحجـة أننـا نمـزح، أو عـلى حـد التعبير الشعبى: «نجارى الأحوال»، وينبهنا رسول الله ﷺ إلى أن هذا كلـه يكتـب على الإنسان كذبًا. فليحذر المؤمن من هذه الوعود اللسانية التـى لا يعـرف واقـع الفعل لها وفاء.

• يضاف إلى هذا أيضًا: الوقوع فى الكذب فى مجال اللهـو والمـزاح، ففـى هذا الجانب تساهل كبير، وكان النبى ﷺ يمزح، لكنه لا يقول إلا حقًّا.

وتبين السنة المطهرة أن الكذب باب من أبواب الفساد والشر، فى مقابـل أن الصدق باب من أبواب الخير والنجاة، وفى الحـديث قـال النبـى ﷺ: «إن الـصدق

يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكـون صـديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النـار وإن الرجـل ليكـذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1].

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾، (٥٧٤٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، (٦٨٠٣).

٢٠. تـوقـير النبـى ﷺ (*)

جَهَّز عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ماء الوضوء لرسول الله ﷺ حين هَمَّ ـ عليه الـصلاة والـسلام ـ بـصلاة الليـل، فأشـار النبى ﷺ إلى ابن عباس أن يقف بجواره، فوقف ابن عباس خلـف رسول الله ﷺ.

فلما انتهت الصلاة، قال له النبـى ﷺ: «مـا منعـك أن تقـف بجانبى»؟ فقال: يا رسول الله أنت أجـلُّ وأعـزّ مـن أن أوازيـك. فدعا له النبى ﷺ: «اللهم آته الحكمة».

*****

هذا الموقف العظيم بين سيدنا رسول الله ﷺ والصحابى الغلام عبـد الله بـن عباس رضى الله عنهما يفيض بالقيم التربوية الهادية، وهاك هى:

- القيمة الأولى: هذا الأدب الجـم مـن ابـن عبـاس رضي الله عنه تـوقيرًا وإجـلالًا لرسول الله ﷺ، وهذا أدب إيمانى أرشدنا القـرآن إليـه، قـال الله تعـالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ (الفتح).

(*) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣١٥)، وضعف إسناده ابن رجب الحنبلى فى فتح البـاري (٥/ ١٠٥).

ولقد أمر الله المؤمنين بالتزام الأدب بين يدى رسول الله ﷺ، وفى مجلسه وفى حضوره؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الحجرات).

- القيمة الثانية: مكافأة أهل المعروف ولو بالدعاء لهم؛ فقد كافأ رسول الله ﷺ ابن عباس بمكافأتين على حسن أدبه:

الأولى: تكريمه تكريمًا معنويًّا إيمانيًّا بدعوته إلى الصلاة بجواره ﷺ.

الثانية: الدعاء له؛ حيث دعا له النبى ﷺ دعوة مباركة؛ وهى: «اللهم آته الحكمة».

- القيمة الثالثة: وهى تخص العلماء وأهل التربية: أن يقرِّبوا إليهم النبهاء من طلبة العلم، فقد قَرَّب النبى ﷺ إليه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لَمّا رأى فيه خيرًا وذكاءً؛ فكان النبى ﷺ يجعله رديفًا له فى السفر (أى يركب خلف رسول الله ﷺ)، وكان يدعوه للصلاة خلفه فى قيام الليل، وكان يرشده ويربيه على الهدى الإيمانى المبارك؛ من ذلك قوله له: «يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدهُ تِجَاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك بشىء إلا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف»[(1)].

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، من مسند بنى هاشم، مسند عبد الله بن العباس، (٢٦٦٩)، والترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٥١٦)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥٧).

وكانت الثمرة لهذا القرب وهذه العناية المحمدية بهذا الغلام أن بلَّغ عبد الله بن عباس ألفًا وستمائة حديث أثبتها البخارى ومسلم على الرغم من أن عمره عند وفاة النبى ﷺ كان ثلاث عشرة سنة، وأصبح هذا الفتى برعاية رسول الله ﷺ له مرجعًا للأمة فى علوم القرآن والإفتاء واللغة والعقيدة.

٢١. التيسير هَدْى إسلامى (*)

فى ليلة باردة، فى غزوة ذات السلاسل، احتلم عمرو بن العاص ﷺ، وأشفق على نفسه إن اغتسل أن يَهْلِك، فتيمَّم، ثم صلَّى الصبح بأصحابه، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ.

فقال النبى ﷺ: «يا عمرو، صلَّيت بأصحابك وأنت جُنُب؟». فقال عمرو: خشيت على نفسى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ (النساء)، فضحك رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئًا.

*****

هذا الموقف يوضح سمة من سمات الإسلام؛ ألا وهى اليسرُ ودفعُ الحرج والمشقة عن الأمة، ولقد كان النبى ﷺ يرشد أمته إلى الأخذ باليُسْر، وكان التيسير هَدْيه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ (التوبة)، وقال تعالى:

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الشاميين، بقية حديث عمرو بن العاص ﷺ، (١٧٨٤٥)، وأبو داود فى سننه، كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم، (٣٣٤)، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٣٢٣).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة/ ١٨٥).

وقال ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا»[(١)].

والمتتبع لكل عبادة من العبادات يرى أن التيسير واضح فيها؛ فالطهارة تكون بالماء، فإن فقد الإنسان الماء أو عجز عن استعماله كان له أن يتيمم، وفى الصلاة إن عجز المُصلِّى عن الوقوف صلَّى قاعدًا، وإن كان مسافرًا فله رخصة القَصْر؛ بأن يصلى الصلاة الرباعية ركعتين، وله الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء.

وفى الصيام إن كان مريضًا أو مسافرًا فله أن يُفْطر ويقضى بعد ذلك الأيام التى أفطرها.

وفى الحج جعله الله لمن استطاع، فمن لم يستطع يسقط عنه فرض الحج، وفى بعض أعمال الحج للمريض والضعيف أن يُنيب عنه فى رَمْى الجمَرات، والسقاة ومن يقومون بخدمة شؤون الحجاج يسقط عنهم واجب المبيت بمنى أيام التشريق.

وهكذا، فإنَّ المتتبع لكل عبادة يرى أن اليسر ملازم لها، لكن اليسر مشروط بشرط؛ وهو أن يكون فى إطار الحلال وبعيدًا عن الحرام؛ وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط إلا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا، (٦٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فى الأمر بالتيسير وترك التنفير، (٤٦٢٦).

أن تُنتهك حرمة الله فينتقم بها لله »[1].

ولا شك أن الأخذ بالأيسر له فوائد وثمرات، أهمها:

أ ـ التمكن من مواصلة وإتمام العبادة دون مشقة.

ب ـ ترغيب النفس فى حب العبادة وحب الإقبال عليها؛ ليسرها. هذا فى مقابل أن عدم الأخذ بالأيسر يُوقع الإنسان فى المشقة، ويُوقعه فى الملل؛ وفى الحديث قال النبى ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»[2]، وقال ﷺ: «عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملوا»[3].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبى ﷺ، (٣٣٦٧) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته للآثام واختياره من المباح أسهله، (٦١٩٠).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (٣٩).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه، (٤٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس فى صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد، (١٨٧٠).

٢٢. أنتم اليوم خير منكم يومئذ (*)

بينما الصحابة يجلسون حول رسول الله ﷺ فى المسجد إذ طلع عليهم مصعب بن عمير، ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو.

فلما رآه النبى ﷺ بكى للذى كان فيه مصعب من النعمة، والذى هو فيه اليوم، ثم قال النبى ﷺ: «كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حُلَّةٍ، وراح فى حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بين يديه صحفة، ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تُسْتَرُ الكعبةُ؟!».

قالوا يا رسول الله: نحن يومئذ خير منا اليوم، نتفرغ للعبادة ونكفى المؤنة. فقال لهم النبى ﷺ: «لأنتم اليوم خير منكم يومئذ».

*****

- هذا الموقف من نبوءات سيدنا رسول الله ﷺ التى هى من دلائل نبوته، وإخبار النبى ﷺ أمته بهذه النبوءات فيه تنبيه للأمة أن تلتزم قرآن ربها وسُنَّة نبيها؛ لتكون فى رفقة الصالحين، ولتسلم من الوقوع فى المحظور الذى حَذَّر منه ﷺ، هذا فى حال النبوءات المنذرة، أما فى النبوءات المبشرة؛ فلتحريض الأمة

(*) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٧٦)، وقال حديث حسن غريب، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٢٩٣).

ورفع همتها فى العمل الصالح؛ كى تكون من أهل هذه المبشرات.

وهكذا يرى المؤمن فى النبوءات الدلائل على نبوة النبى ﷺ، ويرى فيها تعظيم الله لشأن هذا النبى حين يختص بها، كما أن فيها العظة الغالية والبشرى العالية، والإنذار والتحذير.

• ومن دلالات هذا الموقف أن فتح باب الترف والملذات لا تجنى الأمة من ورائه خيرًا، ولا يعود على الأمة إلا بالخسارة والهلاك لاقتصادها وشبابها، فشيوع القيم الاستهلاكية يجعل الإنسان عبئا على مجتمعه، فى حين أن شيوع القيم الإنتاجية والقيم الإيمانية والفضائل يرفع من شأن المجتمع ويجعله فى مقدمة المجتمعات الحضارية.

وهذه سنة الله الجارية فى خلقه، وإلى هذه الحقيقة تشير آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ (الإسراء).

وقد نعى الله سبحانه وتعالى على قوم وَلَعَهُمْ باللذائذ، وافتتانهم بالمرح واللهو، وانحصارهم فى مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلى؛ فقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأحقاف).

وعندما يلقون عقوبتهم يذكرون بأن ذلك لفقدانهم العفاف والقصد، وانطلاقهم مع الغواية والمجون؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ

ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ (غافر).

والحق أن جانبًا ضخمًا من تصدع الأمة الإسلامية يرجع إلى ضياع العفة وشيوع الملذات، ولقد حَذَّر النبى ﷺ أمته من الانحلال النفسى والخلقى؛ فقال «إنما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى»[1].

والذى ينبغى التنبيه عليه هنا هو أن الترف سوء استخدام للنعمة، فليس العيب فى النعمة أو فى المال أو فى امتلاك الدنيا، وإنما العيب والخلل فى سوء استخدامها، فالإسلام يحث المسلم على امتلاك الحياة؛ ليسخرها فى بلوغ المثل العليا والقيم الفاضلة، لا أن يستخدمها فى الغرائز والدنايا.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الكوفيين، حديث أبى برزة الأسلمى، (١٩٧٧٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٥٢).

٢٣. لو قلت: إن شاء الله (*)

لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر، وأصاب الناسَ التعبُ، وطلبوا الراحة ليلا فى الطريق، قال النبى ﷺ: «من يوقظنا لصلاة الفجر؟». فقال بلال رضي الله عنه: أنا يا رسول الله.

فنزل الناس وناموا، وأسند بلال ظهره إلى بعيره، وغلب النومُ القومَ جميعًا ـ بما فيهم بلال ـ إلى أن طلعت الشمس، وكان رسول الله ﷺ أول من استيقظ، فنادى بلالًا معاتبًا له، فقال بلال: ما نمت مثل هذه النومة أبدًا. فقال له النبى ﷺ: «لو قلت: إن شاء الله لاستيقظت يا بلال». ثم أمر الصحابة بالوضوء والصلاة.

*****

(*) الموقف ورد فى صحيح البخارى، كتاب مواقيت الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت، (٥٧٠)، بلفظ: سرنا مع النبى ﷺ ليلة فقال بعض القوم لو عرست بنا يا رسول الله قال (أخاف أن تناموا عن الصلاة). قال بلال أنا أوقظكم.

فاضطجعوا وأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبته عيناه، فنام فاستيقظ النبى ﷺ وقد اطلع حاجب الشمس فقال (يا بلال أين ماقلت). قال ما ألقيت على نومة مثلها قط.

قال ﷺ (إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء يا بلال قم فأذن بالناس بالصلاة). فتوضأ فلما ارتفعت الشمس وابيضت قام فصلى.

• هذا الموقف يعلمنا فقه المشيئة الربانية وأدبها، إن آمال الناس فى المستقبل لا تنتهى، يخطط أهل العقول ويدبرون؛ كى يتمكنوا من أسباب النجاح، والمستقبل بيد الله تعالى، ومن يتأمل أحداث الحياة وتقلبها وتغير الموازين وتبدلها يرى صدق المقادير الإلهية والمشيئة الربانية التى لا تسير وفْق عواطف الناس، وإنما أمرها إلى الله تعالى، وصدق الله إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ (آل عمران/ ١٥٤).

لذا كان تدبيرنا وتخطيطنا ناجحًا إذا وافق قدر الله سبحانه وتعالى، وإلا فلا وجود له ولا نفاذ له، ومن هنا كان الأمر الإلهى بتقديم المشيئة فى سائر أمورنا المستقبلية، وفى هذا إيمان من الإنسان بأن تدبير الله فوق تدبيرنا، ومشيئة الله فوق مشيئتنا.

وهنالك تطبيقات عملية بشأن المشيئة من القرآن والسنة:

ومنها هذا الموقف بين بلال ﷺ وسيدنا محمد ﷺ؛ حيث تعهد بلال بأن يوقظ النبى ﷺ وأصحابه لصلاة الفجر دون أن يقدم المشيئة قائلًا: إن شاء الله تعالى، ونام بلال حتى طلعت الشمس، فتعجب مما حدث له من غلبه النوم، فقال النبى ﷺ له: لو قلت: «إن شاء الله» لاستيقظت وأيْقَظْتَ».

والقرآن الكريم ذكر أن بنى إسرائيل لما أمرهم الله بذبح بقرة، فشددوا على أنفسهم بالسؤال عن أوصافها وتحديد معالمها، لمْ يهتدوا إليها إلا بعد أن قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾ (البقرة).

• أيضًا يأتى فى هذا السياق عتاب الله لنبيه سيدنا محمد ﷺ بشأن وعْدِه الكفار بالإجابة عن أسئلتهم غدًا، دون أن يقدم المشيئة؛ وذلك حين سألوه عن

«الروح، وأهل الكهف، وذى القرنين»، فانقطع الوحى عنه خمسة عشر يومًا، ثم أنزل الله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف).

كذلك سيدنا سليمان عليه السلام فقد روى البخارى ومسلم، عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون»(1)، وفى ذلك نَزَلَ قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (ص).

وعليه فالتعبير: «إن شاء الله» يعبر عن يقين المؤمن فى أن الأمر كله بيد الله، وعن توكل صادق عليه سبحانه.

أما أن يستعمل البعض التعبير القرآنى «إن شاء الله» للشك أو الاحتمال وعدم الجدية فهو خروج بالتعبير عن قيمته الإيمانية، ويُحْرَمُ العبدُ توفيقَ الله وعونَه.

والله المستعان

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، (٢٦٦٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الأيمان، باب الاستثناء، (٤٣٧٩).

٢٤. حقيقة القُرب(*)

كان ربيعة بن كعب ﷺ من أهل الصُّفّة، لا أهل لـه ولا مـال ولا سكن، فأحب أن يتقـرب إلى رسـول الله ﷺ، فجهَّـز لـه مـاء وضوئه ليلا؛ ليقوم الليل، فابتسم النبى ﷺ، وأَحَبَّ أن يكافئه.

فقـال ﷺ لربيعـة: «سـلنى». فقـال: يـا رسـول الله، أسـألك مرافقتك فى الجنة. فقال له النبى ﷺ: «أو غير ذلك؟». فقـال: بـل هو ذاك يا رسول الله. فقال النبى ﷺ له: «أعنِّى على نفسك بكثـرة السجود».

*****

من أهم المعانى التى شُغل بها المسلمون معنـى القُـرْبِ مـن رسـول الله ﷺ، والجوار له، والرفقة معه فى الدنيا والآخـرة، وكـان هـذا مطلبًـا صريحًـا أعلنـوه، وفاضت به عبارات الوجد والحب التى يصحبها الدمع الحار والإحساس العميق بفضل القرب من هذا النبى العظيم الحبيب الشفيع الرؤوف الرحيم.

وفى الموقف الذى بين أيدينا ظهر لنا كيف أن الصحابى الفقير حين قـال لـه النبى ﷺ: «سَلْنِى»، لم يسأل شيئًا من الدنيا رغم فقره واحتياجه، ولكنه سأل رُفْقَـة

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، (١١٢٢).

النبى ﷺ فى الجنة.

فوصف له النبى ﷺ الأسباب التى يتأتى بها تحصيل رفقـة رسـول الله ﷺ فى الجنة؛ فقال له: «أعنّى على نفسك بكثرة السجود».

والمراد بالسجود هنا معناه الواسع الممتد الذى يشمل كل الأقوال والأفعال، فإذا ما تحقق العبد بمعانى السجود تحقق له القرب؛ فقد أخبر النبى ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»(١).

فقمة الخشوع والخضوع يقابلها أقرب القرب من الله تعالى. ويظهر لنـا مـن هذا أن القرب قرب طاعة وتقوى، قـرب قلـوب وأرواح، ولا يـضر هـذا تباعـد الأجساد فى الأمكنة أو الأزمنة؛ فأويس القرنى تباعد به الزمان والمكان عن رسول الله ﷺ، لكنه اقترب من رسول الله ﷺ بقلبه وعقله، بإيمانه وصلاحه للدرجة التـى يأمر فيها رسول الله ﷺ سيدنا عمر ﷺ أن يسأل أُويـسًا القرنـى أن يـستغفر لـه إذا التقى به، وفعل سيدنا عمر ذلك؛ امتثالًا لسيدنا رسول الله ﷺ(٢).

وعلى النقيض من ذلك، فهناك من النـاس مـن اقـترب مـن رسـول الله ﷺ بجسده زمانًا ومكانًا، لكنه كان بعيدًا عنه بقلبه؛ فأبعده الله تعـالى عـن رحمـة هـذا النبى الكريم.

وأكد رسول الله ﷺ فى العديد من أحاديث السنة المطهرة أن القـرب مقـترن بالإيمان والطاعة؛ من ذلك قوله ﷺ: «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مَجْلِـسًا يـوم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال فى الركوع والسجود، (١١١١).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرنى ﷺ، (٦٦٥٦).

القيامة أحاسنكم أخلاقًا»[1].

وفى المقابل تؤكد السنة أن المعاصى والمخالفات مقرونة بالبعْد والطرد من رحمة الله «وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال ﷺ: المتكبرون»[2]؛ ومن ذلك أيضًا إخباره ﷺ أن الملائكة سوف تطرد أناسًا عن الحوض؛ لأنهم ابتدعوا فى دين الله تعالى ما ليس فيه، وعلى الإجمال يقول ربنا تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (النساء).

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب معالى الأخلاق، (٢٠١٨) وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٧).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب معالى الأخلاق، (٢٠١٨) وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٧).

٢٥. عتـاب للرسـول ﷺ (*)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم حُنين أقبلت هـوازن وغطفان بذراريهم ونعمهم؛ ومع النبـى ﷺ يومئـذ عـشرة آلاف، ومعه الطلقاء (الذين أسلموا يوم فتح مكة)، فـأدبروا عنـه حتـى بقى وحده، قال: فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما شيئًا.

قال: فالتفت عن يمينه فقال: «يـا معـشر الأنـصار» فقـالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، قال: ثم التفـت عـن يـساره، فقال: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يـا رسـول الله أبـشر نحـن معك، قال: وهو عـلى بغلـة بيـضاء فنـزل، فقـال: «أنـا عبـد الله ورسوله» فانهزم المشركون، وأصاب رسول الله ﷺ غنـائم كثـيرة، فقسم فى المهاجرين والطلقـاء، ولم يعـط الأنـصار شـيئًا، فقالـت الأنصار: «إذا كانت الشدة فنحن ندعى وتعطى الغنائم غيرنا».

فبلغه ذلك فجمعهـم فى قبـة، فقـال: «يـا معـشر الأنـصار:

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المغازى، بـاب غـزوة الطـائف، (٤٠٨٢)، ومـسلم فى صـحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، (٢٤٨٨)، واللفظ لمسلم.

حديث بلغنى عنكم؟» فسكتوا، فقال: «يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون بمحمد تحوزونه إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله رضينا، فقال ﷺ: «لو سلكت الناس واديا وسلكت الأنصار شعبا لأخذت شعب الأنصار».

*****

- هذا موقف عظيم يُظهر لنا أن الرسالات الكبرى، والأمور العظيمة تحتاج إلى رجال على غرار الأنصار، يقدمون أرواحهم وما يملكون فى سبيل دينهم، لا يشغلهم مأرب تافه، ولا تميل نفوسهم إلى عرض زائل.

وأسلوب النبى ﷺ فى توزيع الغنائم قام على تقدير إيمان الأنصار وإخلاصهم، فى حين ألَّف قلوب الأعراب بالمال الذى تميل إليه قلوبهم، وتشتهيه نفوسهم؛ وليكون هذا العطاء لهم تشجيعًا على القيام بأعباء الدعوة وتكاليف الإيمان، أما الأنصار فقد وكلهم رسول الله ﷺ إلى إيمانهم الصادق ويقينهم الراسخ.

وفى هذا المعنى يقول النبى ﷺ: «إنى لأعطى الرجل، وغيره أحبُّ إلى منه؛ خشيةَ أن يكب فى النار على وجهه»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، (٢٧)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهى عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، (٣٩٦).

• ثم إنَّ هذا دَرْسٌ عظيم في الوفـاء مـن سـيدنا رسـول الله ﷺ للأنـصار، ولعل في عرض تفاصيل الموقف يكون فيه العظة البليغة ففي حـديث أبـي سـعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار بعـدما علـم من عتابهم له في توزيع الغنائم، فقال لهم ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا معشر الأنصار: مقالةٌ بلغتني عنكم، وَجِـدَةٌ وجـدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكـم ضُـلَّالا فهداكم الله؟ وعالةً فأغناكم الله؟ وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟» قـالوا: بـل الله ورسوله أَمَنُّ وأفضلُ.

ثم قال النبي ﷺ: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟». قالوا: وبماذا نجيبك يـا رسول الله؟ ولله ولرسوله المن والفـضل. فقـال ﷺ: «أمـا والله لـو شـئتم لقلـتم، فلصَدَقْتُم وصُدِّقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فأغنيناك. أوجْدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعاعةٍ ـ شيء يسير تافه ـ من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفـلا تَرْضَـوْنَ يـا معشر الأنصار أن يـذهب النـاس بالـشاة والبعـير، وترجعـون برسـول الله ﷺ في رحالكم؟»[1].

هكذا يلفت النبي ﷺ أنظارهم إلى قيم الإيمان والفضيلة، ومـا عنـد الله مـن ثواب وفضل.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه (١١٧٤٨)، وحـسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

وصدق ﷺ إذ قال: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»[1]؛ فقـد أراد الشيطان أن يصوِّر للأنصار أن النبى ﷺ قد نَسِيَهم فى توزيع الغنائم.

فلما بلغ رسولَ الله ﷺ عتابُ الأنصار، كان جوابه ردًّا على هذه الوسـاوس، وجاء خطاب النبى ﷺ يفيض بمعانى التقدير للأنصار، ومشاعر المحبـة الفياضـة لهم، كما يفيض خطاب النبى ﷺ بمعانى التألم من أن يُتَّهَمَ مـن أحـب النـاس إليـه بنسيانهم والإعراض عنهم.

وقد لامست كلمات رسول الله ﷺ قلوب الأنصار، ونفضت عنها مـا عَلِـقَ بها من وساوس أو هواجس، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحًا بنبـيهم، وابتهاجًـا بقسمتهم ونصيبهم، كما كان البكاء لومًا لأنفـسهم عـلى مـا خَـالَجَ قلـوبَهم مـن هواجس بشأن توزيع الغنائم.

فما المال وما الغنائم فى جنب حبيبهم رسـول الله ﷺ! إذ يعـودون بـه ويعـود بهم، فيكون المحيا والممات بينهم، وأىُّ برهان ينطق بالوفاء والحب أكثر من هذا؟

ثم متى كان المال فى ميزان رسول الله ﷺ دليلًا على التقدير والحب؟!

ألم يجعـل النبـى ﷺ نـصيبه مـن الغنـائم كنـصيب الأنـصار؟ لقـد وزَّع ﷺ «الخمس» الذى جعله الله خاصًّا به، وزَّعه ﷺ على الأعراب مِنْ حوله.

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف فى نفسه، (١٩٣٤)، ومـسلم فى صحيحه، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئى خاليًا بامرأة وكانت زوجة أو محرمًا له أن يقـول هـذه فلانة، (٥٨٠٨).

٢٦. مبالغةٌ فى غير موضعها (*)

كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ رغم غناه ـ يميل إلى التبتُّل والعزوف عن الدنيا، فكان دائم الصيام بالنهار والقيام بالليل، حتى تأثرت حال زوجه «خوْلَة» بحاله؛ فأهملت مظهرها وهيئتها حتى دخلت يومًا على نساء النبى ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة، فقلن: ما لكِ، ما فى قريش رجل أغنى من بعلك؟! قالت: ما لنا منه شىء، أما نهاره فصائم، وأما ليله فقائم! فدخل النبى ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه النبى ﷺ فقال: «يا عثمان، أما لك فِيَّ أسوة؟!

قال: وما ذاك يا رسول الله فداك أبى أمى؟ قال: «أما أنت فتقوم الليل وتصوم النهار، وإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لجسدك عليك حقًّا، صل ونم، وصم وأفطر»، قال: فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس فقلن لها: مه. قالت: أصابنا ما أصاب الناس.

*****

(*) أخرجه ابن حبان فى صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء فى الطاعات وثوابها، (٣١٦)، وحسنه الأرنؤوط فى تعليقه على صحيح ابن حبان.

هذا الموقف يعالج قضية مهمة؛ وهـى كيفيـة الموازنـة بـين مطالـب الـدنيا ومطالب الآخرة، وبين سعى الإنسان لدينه وسعيه لدنياه، ولا شـك أن الـدنيا فى حقيقتها ما هى إلا مطية للآخرة.

نريد أن نتعرف على وسطية الإسلام فى هذا الموقف:

- فهذا الموقف يقدم لنا هديًا مباركًا لمعالجة ما يقع فيه كثير من الناس حين يبالغون فى الاهتمام بجانب من جوانب حيـاتهم، ويهملـون جوانـب أخـرى لهـا حقوق أوجبها الله سبحانه وتعالى، فمن الناس من يُشغل بعمله وينسى أهله، ومن الناس من يبالغ فى الاهتمام بالعلم ويقصر فى حق أهله، ومـن النـاس مـن يـشغل بالعبادة عن حال أهله، وكل هذه أحوال غير سوية، وهذا ما حدث لسيدنا عـثمان بن مظعون رضي الله عنه.

فمن هذا الحوار يظهر لنا ما انطـوت عليـه نفـسه رضي الله عنه مـن الزهـد فى الـدنيا والرغبة عنها، والانقطاع والتبتل والعبادة والذكر، وانعكس حاله رضي الله عنه على زوجه؛ فأهملت نفسها وزينتها، وهذه حالة غير متوازنة لا يقرها الشرع، وكـان الإرشـاد الحكيم من سيدنا رسول الله ﷺ لعثمان ولأمثاله هو أن يتأسَّى عثمان بحـال سـيدنا محمد ﷺ فى كل جوانب الحياة، ووضـح لـه أن معنـى العبـادة الـشامل لا يـتم إلا برعاية هذه الحقوق كلها، برعاية حق الله، وبرعايـة حـق الجـسد، وبرعايـة حـق الزوج، أى بإعطاء كل ذى حـقٍّ حقـه، ومـن هنـا يـتعلم المـؤمن أن يـوازن بـين الواجبات، والحقوق المنوطة به.

- ودرس آخر نتعلمه من موقف عثمان بن مظعون، ألا وهو الخـروج مـن

هوى النفس إلى مُراد الله ـ تبارك وتعالى ـ، فالنفس قد تـزين للإنـسان طاعـة مـن الطاعات يبالغ العبد فيها، ويهمل فرائض أخرى ظنًّا منـه أن ذلـك أكثـر تعبـدًا، فعثمان بن مظعون بالغ فى الصيام والقيام، وقصَّر فى حق أهله، لكن النبى ﷺ ـ وهو أعبد خلق الله لله وأخشى الناس لربه ـ يصوم ويفطر، ويقوم وينام، ويأتى النساء، وتلك هى سنته لمن أراد أن يتعبد لله تعالى، ومن رَغِب عن سـنة رسـول الله ﷺ إلى هوى نفسه، أو إلى استحسان عقله لم يكن متعبدًا لله تعالى.

- ودرس ثالث يستفاد من هذا الموقف الكريم ـ أيضًا ـ، وهو أنه ينبغى أن يَعْرِض الإنسان ما برأسه من أفكار وما يجرى فى قلبـه مـن خـواطر عـلى شرع الله تعالى، حتى وإن بدت له هذه الأفكار أكثر تعبدًا لله، وهذه حقيقة قرآنيـة أشـارت إليها الآيات بقوله تعـالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ (الأعراف/ ٣٢).

وهذه كلها طيبات دعا إليها الإسلام، ودعا إليها رسول الله ﷺ.

٢٧. ميـراث النبى ﷺ (*)

مَرَّ أبو هريرة رضي الله عنه ذات يوم بالـسوق، فهالـه انكبـاب النـاس وانشغالهم بالـدنيا. فنـاداهم: أنـتم هنـا، ومـيراث رسـول الله ﷺ يُقَسَّمُ فى المسجد؟! فذهبوا إلى المسجد مـسرعين، ثـم رجعـوا إلى أبى هريرة يقولون له: ما وجدنا شيئًا يُقسَّم بالمـسجد. فقـال لهـم أبو هريرة: أما رأيتم قومًا يصلون، وقومًا يقرأون القـرآن، وقومًـا يتذاكرون الحلال والحرام؟ ذلك ميراث رسول الله ﷺ.

*****

كثيرًا ما يغفل الناس عن أمور دينهم: من مجالس العلم، والذكر، والعبـادة؛ بسبب انشغالهم فى طلب الدنيا والاستزادة منها.

- ويقدم لنا أبو هريرة رضي الله عنه من خلال هذا الموقـف أسـلوبًا حكـيمًا فى تنبيـه الناس وإيقاظهم من غفلتهم؛ كى يقبلوا على ميراث رسول الله ﷺ.

ولَمَّا كان الناس قد زُيِّن لهم حب الشهوات مـن متـاع الـدنيا: مـن الأمـوال وغير ذلك؛ فقد خاطبهم أبو هريرة بما له قيمة عندهم، بالذى يتنافسون من أجله، فقال لهم: أنتم هنا وميراث رسـول الله ﷺ يُقـسَّم فى المـسجد، فـسارع النـاس إلى

(*) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٣٣١) وعزاه للطبرانى فى المعجم الأوسط وقال: إسناده حسن.

المسجد؛ ليروا ميراث رسول الله ﷺ الذى يُقسَّم لعلهم يدركون نصيبًا منه.

وكانت المفاجأة لهم أنهم لم يجدوا الميراث الذى ظنوه.. لم يجدوا مالا ولا متاعًا من متاع الدنيا؛ فإن الأنبياء لا يورثون مالا ولا متاعًا، وإنما يورثون العلم النافع الذى يدل الناس على ربهم ويصلهم بخالقهم. ومن هنا قال النبى ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»(1)، فمن أراد أن ينال الحظ الأوفى من ميراث رسول الله ﷺ فعليه بالقرآن والسنة.

- ودلالة أخرى يقدمها لنا هذا الموقف الكريم؛ حيث يقدم لنا درسًا عظيمًا فى فقه الدعوة إلى الله تعالى، وأهمية اجتهاد الداعى إلى الله فى اصطفاء الأسلوب الحكيم الذى يناسب حال من يدعوهم.

فالدعوة ليست كلمات محفوظة يلقيها خطيب مُفَوَّهٌ على الناس، وإنما الداعى كالطبيب يتخير من الدواء (نوعًا وكمًّا) ما يناسب حال المريض ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة/ ٢٦٩).

وقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾(النحل/ ١٢٥).

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الأنصار، باقى حديث أبى الدرداء ﷺ (٢١٧٦٣)، وأبو داود فى سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، (٣٦٤٣)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٧).

٢٨. كيف تصلى يا حاتم؟ (*)

دخل رجل على حاتم الأصمّ، فوجده يصلى صلاة يَظْهر عليها الخشوع.. فأعجب بصلاته، وسأله: كيف تصلى يا حاتم؟

فقال حاتم الأصم: «إذا أردت الصلاة قمتُ إلى الوضوء، فأسْبَغْتُ الوضوء، ثم جئت الموضع الذى أريد الصلاة فيه، فأجلس حتى تجتمع جوارحى.

ثم أقوم إلى الصلاة فأجعل الكعبة بين عينى، وأجعل الصراط تحت قدمى، وأجعل الجنة عن يمينى، والنار على شمالى، وملك الموت من ورائى، والله ناظرٌ إلَيَّ، ثم أُكبِّر تكبيرًا بتحقيق، وأقرأ بترتيل، وأركع بتواضع، وأسجد بتخشع، وأفعل ذلك فى صلاتى كلها، ثم أتبعها الإخلاص، ثم أخرج من صلاتى لا أدرى: أقبلها الله منى أم لا؟!».

*****

هذا موقف كريم يقدّم لنا إجابة شافية لسؤال يتكرر كثيرًا من غالب الناس

(*) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالى، (١/ ١٥١).

الذين يَشْكُون من كثرة الانشغال بأمور الدنيا داخل الصلاة، ويسألون: كيف نصلى صلاة خاشعة؟!. ويصف لنا حاتم فى بيانه هذا أن التحضير للصلاة أمر مهم، والاستعداد للصلاة يبدأ من الوضوء، والسنة تؤكد هذا؛ فالنبى ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهرَ كله»(١).

ومن حسن الاستعداد للصلاة أن يجلس الإنسان فى مصلاه حتى ينقطع عن شواغل الحياة وهمومها ومشاكلها، ويتهيأ للدخول فى الصلاة بين يدى الله تعالى.

فإذا قام للصلاة تذكر الكعبة بين عينيه واستحضرها، ثم يتذكر الصراط وأنه تحت قدميه، وأن الجنة تدعوه عن يمينه، وأن النار عن يساره، وأن هذه الصلاةَ آخرُ صلاة له؛ فملك الموت يطلبه من ورائه، ومهما كان الناظرون والحاضرون المشاهدون له فى صلاته فحسبه أن الله رقيب عليه.

هذا الاستحضار والتهيؤ والاستعداد يدفع العقل والقلب إلى الاشتغال بأمر الصلاة، ثم إذا كبر للصلاة تكبيرة الإحرام فإنه يكبر بتحقيق؛ أى: بتحقيق معنى "الله أكبر"؛ أى: الله أكبر من أى شىء يَشغلنى فى صلاتى.

ثم إذا قرأ القرآن بترتيل حَسَن يشتغل فيه بمعنى ما يقرأ من الآيات؛ فإذا ركع تواضع لربه، وإذا سجد خشع لربه، ثم يتابع هذه الأعمال فى صلاته كلها، ويظنها آخر صلاة له؛ أى: صلاة مُودِّع.

ثم يُسلِّم، ويخرج بعد صلاته مُشفقًا على نفسه أن يكون بصلاته نَقْصٌ، أو

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، (٥٦٥).

مَرَّ به خاطر لا يرضاه الله تعالى، أو حدث منه ما يجعلها غير جديرة بالقبول.

ثُمَّ يخرج من صلاته وهو يتمنَّى أن تكون صلاته أكثر خشوعًا وإخلاصًا لربه، لا يتباهى بأنه صلَّى والناس نيام، أو أنه صلى صلاة متقنة، والناس غير ذلك. وإنما يتواضع ويخشع فيكون من أهل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ (المؤمنون)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ (المؤمنون).

هذا والله المستعان

٢٩. ولكنكم تستعجلون (*)

عن خباب بن الأرتّ ﷺ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال ﷺ: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له فى الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

*****

هذا موقف لصيق بحياتنا المعاصرة، وبخاصة شبابنا الواعد، فكثيرًا ما نتعجل النتائج، وتدور بذهن الشباب ـ خاصة ـ خواطر وأفكار كلها تقع فى إطار هذا الموقف النبوى الكريم؛ من هذه التساؤلات التى تتكرر:

- لماذا الصبر؟!
- لما لا نبطش ما دمنا على حق؟ ألا يُعد الصبر موقفًا سلبيًا؟!

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام، (٣٤١٦).

ويأتى هذا الموقف؛ ليؤكد لنا جملة من الحقائق بشأن الصبر؛ فالأمور تسير وِفْقَ مراد الله وحكمته، وفعل الحكيم كله حكمة؛ لذلك قال النبى ﷺ لمن يتعجل النصر: «والله ليتمن الله هذا الأمر... ولكنكم تستعجلون».

إن نظرة الإسلام للصبر نظرة إيجابية، فالصبر الإيمانى قوة صامتة تُمكِّن الإنسان من التحكم فى نفسه والسيطرة عليها. إن الصبر فى الإسلام سمو بمشاعر النفس؛ لترتبط بتوجيه الله تعالى وتستجيب لأمره؛ فالصبر طاقة إيمانية تُخلِّص الإنسان من دوافع الانتقام، والجَرْى وراء الصيت والشهرة.

ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة توضح أبعاد نظرة الإسلام الإيجابية للصبر.

فعن الصبر ـ كقوة تسيطر على النفس ونوازعها ـ يقول النبى ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(١).

وعن الصبر ـ كطاقة فى التحمُّل ـ يقول النبى ﷺ: «يأتى على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمْر»(٢).

وعن الصبر ـ كطاقة دافعة لنيل العلا، وتحقيق الطموحات ـ يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ ﴾ (فصلت).

وعن الصبر ـ كلون من الثبات أمام الكوارث المفاجئة ـ يقول النبى ﷺ:

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٥٧٦٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والأداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (٦٨٠٩).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب الفتن، (٢٢٦٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٠٢).

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

فينبغى للمؤمن أن يوقن بأن أحداث الحياة تكون وفق تقدير دقيق ومحكم من الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر).

وإننا نسعى ونأخذ بالأسباب، لكن النتائج على الله تعالى. وقد يكون تأخر النتائج التى نسعى من أجلها فيه حكمة لله تعالى، وفيه خير لنا.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، (١٢٢٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب فى الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، (٩٢٦).

٣٠. أى المال خير؟! (*)

عن ثوبان ﷺ قال: لما أنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: قد نزل فى الذهب والفضة ما نزل، فلو أنا علمنا أى المال خير اتخذناه، فقال ﷺ: «أفضله لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه».

*****

- هذا الموقف يشير إلى لون من المسارعة والمسابقة فى فعل الخيرات بين أصحاب رسول الله ﷺ، فَنَظَرُ فقراء المهاجرين إلى المال كان فى إطار الحرص على الأعمال الصالحة، وأفضلها درجة عند الله تعالى، وبخاصة أن هناك عبادات لا تقوم إلا بالمال، مثل الحج والعمرة والزكاة.

لقد وضَّح رسول الله ﷺ أن أبواب الخير فيها متسع لكل راغب فى التقرب إلى الله تعالى، وأن من حُرِم المال فباب الذكر مفتوح، وباب الشكر مفتوح.. وهكذا، حتى إن المتتبع لـهدْى رسول الله ﷺ يرى أن طرق الخير كثيرة، ومن ضاق

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، من حديث ثوبان ﷺ، (٢٢٤٤٦)، والترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة، (٣٠٩٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٤٩٩).

عليه باب، فأمامه أبواب كثيرة ميسورة حتى قال النبى ﷺ: «تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة»[1].

وإن لم يجد المؤمن شيئًا مُتاحًا بين يديه يتقرب به لله تعالى، أو ضَعُف عن أفعال الخير والبِرّ، فرسول الله ﷺ يرشده بأن الإمساك عن الشر صدقة.

- أيضًا يشير هذا الموقف إلى تأكيد فضل ذكر الله تعالى، وهو ما أشار إليه النبى ﷺ بقوله: «أفضله لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا».

والمؤمن حين يتأمل العبادات التى افترضها الله تعالى على عباده، يرى أن للذكر مَيْزة على سائر العبادات؛ فقد جعل الله لكل عبادة حدًّا معلومًا؛ فالصلاة لها حد معلوم فى أوقات معلومة، وهكذا الحج وهكذا الصيام.

أما الذكر فلم يقيده الله بحد ولا وقت، بل جعله مطلقًا، وطالبنا به على قدر الوُسْع والطاقة؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ (الأحزاب).

وتشير الأحاديث النبوية إلى أن حياة القلب.. حياة الروح لا تقوم إلا بذكر الله تعالى، وأن حاجة القلب والروح إلى ذكر الله تعالى أشد من حاجة البدن إلى الطعام والشراب؛ من ذلك قول النبى ﷺ: «مَثل الذى يَذْكُر ربه، والذى لا يذكر ربه مَثلُ الحى والميت»[2].

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب صنائع المعروف، (١٩٥٦)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠٨).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى، (٦٠٤٤).

كما تفيدنا السنة أن الذكر يأتى فى مقدمة الأعمال الصالحة التى ترقى بالعبد لأفضل الدرجات والمنازل عند الله تعالى؛ من ذلك قول النبى ﷺ: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذَكَرَهم الله فيمن عنده»[1].

وهذا الموقف بدلالاته الإيمانية يلتقى مع موقف فقراء المهاجرين مع رسول الله ﷺ حين سألوه: ذهب أهل الدُّثورِ بالأجور: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم، فقال النبى ﷺ:

«أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون إن بكلِّ تسبيحة صدقة، وكلِّ تكبيرة صدقة، وكلِّ تحميدة صدقة، وكلِّ تهليلة صدقة، وأمرٍ بمعروف صدقة، ونَهْيٍ عن منكر صدقة»[2].

وفى هذا بيان من رسول الله ﷺ لكثرة طرق الخير، وأن ذكر الله تعالى يأتى فى قمة أبواب الخير التى تُقرب إلى الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على القرآن وعلى الذكر، (٧٠٢٨).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، (٢٣٧٦).

٣١. ومَنْ خَيرٌ مِنْ أبى سلمـة ؟! (*)

لما مات أبو سلمة ﷺ قالت امرأته: إن لله وإنا إليه راجعـون، اللهـم إنـى أحتـسب عنـدك مـصيبتى، وسـكتت. فقـال بعـض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لها: أكملى الدعاء وقولى: وأبدلنى خيرًا منه.

فقالت لهم: ومَنْ خيرٌ مِـنْ أبـى سـلمة أَوَّل مَـنْ هـاجر مـع رسول الله ﷺ ؟ فقالوا لها: قولى ذلك امتثالًا لهدْى رسـول الله ﷺ، ففعلت، فكان من أمرها بعد ذلك أن تزوجها رسول الله ﷺ.

*****

إنه موقف إيمانى كريم يحمل دلالات نافعة، من أهمها:

- الدلالة الأولى: الإرشاد إلى السلوك الإيمانى للمؤمن عند المصيبة، وهو

(*) الموقف ورد فى حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم ونص الحديث: عـن أم سـلمة أنهـا قالـت سـمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليـه راجعـون اللهـم أجرنـى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها. إلا أخلف الله له خيرا منها». قالت فلما مات أبو سلمة قلت أى المسلمين خير من أبى سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسـول الله ﷺ، قالـت: أرسـل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له، فقلت: إن لى بنتا وأنا غيور. فقـال: « أمـا ابنتهـا فنـدعو الله أن يغنيها عنها وأدعو الله أن يذهب بالغيرة».

التزام الصبر واحتساب البلاء عند الله تعالى؛ وذلك عملا بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة).

- الدلالة الثانية: هى أن نلوذ بالله تعالى، وأن نلجأ إليه ونحن على يقين من أن كل شىء مرتبط بقدره، وأن كل شىء نرى لأنفسنا حقًّا فيه، فإن رباط الله به أوثق، وأن حق الله فيه أسبق فإذا أعارنا الله ولدًا، أو زوجًا، أو مالا أو غير ذلك ثم استرد الله عاريته، ينبغى أن يكون منا التسليم والدعاء.

ومن هدْى النبى ﷺ أن يقول المؤمن عند المصيبة: «﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرًا منها»(١)، ولما قالت ذلك أم سلمة مؤمنةً مسلِّمةً أمرها لله تعالى، كان من فضل الله عليها ما فاق خيالها، وفاق توقعات عقلها؛ فقد تزوجها رسول الله ﷺ، وأبدلها الله زوجًا خيرًا من زوجها الذى فُقد ورحل عنها، وصارت من أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهنّ أجمعين ـ.

هذا فضلًا عن الثواب العاجل على الصبر فإن الله ادَّخر من عظيم الجزاء فى الآخرة للصابرين، وفى الحديث الشريف قال ﷺ: «إن الله لا يَرْضَى لعبده المؤمن إذا ذهب بصَفِيِّه من أهل الأرض فصبر واحتسب وقال ما أمر به، بثواب دون الجنة»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، (٢١٦٦).

(٢) أخرجه النسائى فى سننه، كتاب الجنائز، باب ثواب من صبر واحتسب، (١٨٧١) وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٥١).

إلى أى حد يصل ثواب هذا الصبر وهذا الامتثال؟!

ويجيبنا عن هذا السؤال رب العالمين؛ فإن الله تعالى قد جعل الحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء، أما الصبر فقد جعل الله سبحانه الجزاء والمثوبة عليه بغير حساب لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ (الزمر)، وهذا من سعة فضل الله وكرمه.

- الدلالة الثالثة: امتثال أدب الدعاء لله تعالى، حتى وإن ظهر للإنسان أن الأسباب عاجزة، أو أن الظروف المحيطة لا تؤدى إلى الإجابة؛ وذلك لأن الأمور بيد الله تعالى، والله على كل شىء قدير.

يستفاد ذلك من قول الصحابة لأم سلمة رضى الله عنها: أكملى الدعاء امتثالًا لهدى رسول الله ﷺ، والله سبحانه وتعالى لا يهمل دعوة صادقة دعاه بها عبدٌ من عباده.

وفى الحديث الشريف قال النبى ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرَف عنه من السوء مثلها»[1].

وهذا ما حدث مع أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها حين امتثلت الدعاء لله تعالى، وقالت: «أبدلنى خيرًا منه»، وكان من أمرها بعد ذلك أن تزوجها رسول

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى سعيد الخدرى ﷺ، (١١١٤٩)، والبخارى فى الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب ما يدخر للداعى من الأجر والثواب، (٧١٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٣).

الله ﷺ، وصارت بهذا الفعل من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، وهذه الدعوة قد عُجِّلَت لأم سلمة رضى الله عنها فقد نالت جزاءها فى الدنيا جزاءً حسنًا؛ فتزوجت من رسول الله ﷺ، ولها ثواب الصابرين فى الآخرة ـ إن شاء الله تعالى.

٣٢. خالط الناس بشرط...(*)

مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعبٍ فى عُيينة من ماء عذبة، فأعجبته لطيبها، فقال: لو اعتزلتُ الناسَ فأقمتُ فى هذا الشِعب، ولن أفعل حتى استأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا فى سبيل الله؛ من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».

*****

هذا الموقف يحمل فقهًا هاديًا للمسلم، فالمتدبر للموقف يرى فيه مفاضلة بين أمرين:

- الأول: اعتزال الناس للسلامة من شرورهم، والتفرغ للصلاة والذكر والصوم.
- الثانى: مخالطة الناس وتحمل الأذى منهم، مع إرشادهم ونفعهم،

(*) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب فضل الغدو والرواح فى سبيل الله، (١٦٥٠)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٧٩).

والجهاد فى سبيل الله.

ولا شك أن الناس متفاوتون فى درجة تحملهم وصبرهم؛ فقد يكون اعتزال الناس لائقًا بالضعفاء، ومن لا طاقة لهم على التحمل والصبر والمجاهدة، لكن أهل العزم من الرجال يليق بهم أن يسلكوا السبيل الأعلى والأفضل؛ وهو مخالطة الناس مع تحمل ما يصدر منهم من أذى، مع الإرشاد والنصح والمجاهدة؛ كى نقيم دين الله تعالى، وفى هذا استجابة لأمر الله فى قرآنه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ (الشورى/ ١٣).

ولو تهرَّب كل مسلم من هذه الأمانة ـ أمانة الجهاد والمجاهدة، أمانة الدعوة والإرشاد ـ فمن يحمى الحق؟! ومن يدعو إلى الخير؟! ومَنْ ينشر الفضيلة؟

لذلك لما رأى النبى ﷺ ببصيرته المؤيدة بنور الله تعالى أن السائل من أولى العزم، وله طاقة فى التحمل أرشده النبى ﷺ إلى اختيار الأفضل والأعلى، ونهاه عن الركون إلى الراحة؛ وذلك لأن المسلم صاحب رسالة فى الحياة، ولابد من القيام بواجب هذه الرسالة من التحمل والجَلَد والصبر والمجاهدة والجهاد فى سبيل الله، يتأكد هذا المعنى من قول النبى ﷺ للرجل السائل: «لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟!».

فالمسلم حين يخالط الناس بأدب الإيمان: يعود مريضهم، ويواسى محتاجهم، ويرشد جاهلهم، ويحضر مجالس الذكر معهم، ويحضر جنائزهم، وينصر ضعيفهم، حين يفعل المسلم ذلك يكون عنصرًا مؤثرًا فى مجتمعه.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المـؤمن الـذى يخـالط الناس، ويصبر على أذاهم أعظـم أجـرًا مـن الـذى لا يخـالطهم، ولا يـصبر عـلى أذاهم»[1].

والبصيرة الثانية من فقه هذا الموقف هى أدب المؤمن فى الرجوع بفكره وكل شأنه إلى هدى سيدنا رسول الله ﷺ، يستشيره ويقتدى بـه، ولا يقـدم هـوى نفـسه أبدًا على هَدْى رسول الله ﷺ؛ يظهر ذلك من قول الرجل: لن أفعل حتـى أسـتأذن رسول الله ﷺ.

وهكذا ينبغى على المؤمن أن يراجع خواطره بعرضها على الشرع، وألا يقدم الإنسان رأيه أو فكره على قرآن الله أو سنة نبيه، بل شـأن المـؤمن الاتّبـاع؛ وذلـك بالـسمْع والطاعـة لله ورسـوله، قـال تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ (الحجرات).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبـد الله بـن عمـر بـن الخطـاب، (٥٠٢٢)، وابن ماجه فى سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، (٤٠٣٢)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٣٩).

٣٣. حُسْنُ الهيئة من الإيمان (*)

جاء رجل يوم الجمعة بهيئة بذَّة والنبى ﷺ يخطب؛ فقال له رسول الله ﷺ: «أصليت؟»، قال: لا، قال: «صل ركعتين». وحَثَّ الناس على الصدقة، فألقوا ثيابًا، فأعطاه منها ثوبين، فلما كانت الجمعة الثانية، جاء ورسول الله ﷺ يخطب، فحث الناس على الصدقة، قال: فألقى أحد ثوبيه، فقال رسول الله ﷺ: جاء هذا يوم الجمعة بهيئة بذَّة، فأمرت الناس بالصدقة، فألقوا ثيابًا، فأمرت له منها بثوبين، ثم جاء الآن، فأمرت الناس بالصدقة فألقى أحدهما، فانتهره، وقال: خذ ثوبك.

*****

• هذا موقف تربوى يصحح فَهْمًا مُعْوَجًّا شاع بين بعض الناس، حين يحسبون أن إهمال الهيئة وترك العناية بها من التدين أو الزهد فى الدنيا، وهذا من وهمهم؛ فالإسلام يريد أن يمحو من المجتمع مظاهر البؤس والفاقة.

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى سعيد الخدرى ﷺ، (١١٢١٣)، والنسائى فى سننه، كتاب الجمعة، باب حث الإمام على الصدقة يوم الجمعة فى خطبته، (١٤٠٨)، قال الشيخ الألبانى: حسن.

وقد لا يبالى بعض الناس أن يعيش طاويًا عاريًا، بَيْدَ أن أمثال هؤلاء ينبغي ألا يفرضوا مذهبهم فى الحياة ويحملوه على تعاليم الدين نفسه، فإن الإسلام يوجب أن يملك الإنسان من متاع الدنيا ما يرفع رأسه ويحفظ وجهه. وكره النبى ﷺ من الرجل أن يتصدق بما عنده، ويدع نفسه محتاجًا فقال ﷺ: اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله ﷺ أصبت هذه من معدن، فخذها، فهى صدقة، ما أملك غيرها! فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قِبَلِ ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ فحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته، فقال رسول الله ﷺ:

«يأتى أحدكم بما يملك، فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكفُّ الناس، خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى»(٢).

- وعلى المرء أن يتعرف المطالب المعقولة لأهله وولده، وأن ينفق عن سعة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، (١٣٦١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، (٢٤٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله، (١٦٧٥)، والبيهقى فى السنن الكبرى، كتاب الزكاة، باب من قال لا شىء فى المعدن حتى يبلغ نصابًا، (٧٤٣٢)، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود (٣٦٩).

فى قضائها، فليس من الدين أن يدع المرء زوجته أو بنيه أو بناته فى حال قلقة من الاحتياج والضيق، ثم يضع ماله فى مصرف آخر، مهما كان خطره، فمطالب الأسرة أولى بالعناية وأحق من غيرها، قال رسول الله ﷺ: «دينارٌ أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة (أى فى تحرير عبد)، ودينارٌ تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك»[1].

والإسلام بهذا الإرشاد الدقيق، يريد أن يرتب النفقات المشروعة ترتيبًا مثمرًا صالحًا؛ فإن الأسرة قوام المجتمع الكبير، والخلية الحية التى يتكون منها بناؤه الضخم؛ فتوجيه العناية إليها ـ أولًا ـ أجدى على الأمة كلها من حرمانها وتحويل حقوقها عنها.

ثم إن فى هذا الإرشاد زجْرًا لطائفة من الناس يجنحون إلى الإسراف خارج بيوتهم، وبين أصدقائهم أو الغرباء عنهم، فإذا دخلوا إلى أهلهم كانوا أمثلة سيئة للتقتير والبخل!

وأقرباء المسلم أجدر الناس بالإفادة من فضول ماله، ومن حقهم أن ينصرف إليهم أى عطاء تجود به يده، وهذا أول ما يتبادر إلى الفهم السليم، فإنه إذا كان المحتاج لصيقًا بك، فلا معنى لمجاوزته والذهاب بالخير إلى آخر قصىّ، بل إن ذلك قد يزرع الضغينة فى نفوس المحرومين، ويشعرهم بأن إهمالهم متعمدٌ للنكاية بهم.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم، (٢٣٥٨).

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بـن مـسعود رضى الله عـنهما قالـت: قـال رسول الله ﷺ: «تصدَّقْنَ يا معشر النساء، ولو من حلـيكنَّ»، قالـت: فرجعـت إلى عبـد الله، فقلـت: إنـك رجـل خفيـف ذات اليـد، وإن رسـول الله ﷺ قـد أمرنـا بالصدقة، فأتِهِ فاسأله، فإن كان ذلك يجزى عنى، وإلا صرفتها إلى غيركم، قالـت: فقال لى عبد الله: بل ائتيه أنتِ! قالت: فانطلقت فـإذا امـرأةٌ مـن الأنـصار ببـاب رسول الله ﷺ حاجتى حاجتها، قالت: وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، قالت: فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالبـاب تسألانك: أتجزىء الصدقة عنهما عـلى أزواجهـما وعـلى أيتـام فى حجورهمـا؟ ولا تخبره مَن نحن.

قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال لـه رسـول الله ﷺ: «مـن هما؟» فقال: امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ: «أى الزيانب؟» قال: امرأة عبد الله بن مسعود، فقال له رسول الله ﷺ: «لهما أجـران أجـر القرابـة وأجـر الصدقة»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، والصدقة على ذى الرحم اثنتان صدقة وصلة»[2].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الزكـاة، بـاب الزكـاة عـلى الـزوج والأيتـام فى الحجـر، (١٣٩٧)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، (٢٣٦٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المدنيين، حـديث سـلمان بـن عـامر ﷺ، (١٦٢٧٨)، والنـسائى فى سـننه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، (٢٥٨٢)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

٣٤. خيط بين المُصَلَّى وحجرة الصدقة (*)

لـمَّا كُفَّ بصرُ الصحابى الجليل حارثة بن النعمان الأنـصارى ﷺ جعل خَيْطًا من مُصَلَّاه إلى باب حجرته، ووضع عنـده مكـتلًا فيه تمر وغير ذلك، وكان إذا سلم المسكين أخذ مـن ذلـك المكتـل ثم أخذ بالخيط حتى ينتهى إلى باب الحجرة، حتى يناوله المسكين. فكان أهله يقولون له: نحن نكفيك، فيقول: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «مناولة المسكين تقى ميتة السوء».

*****

هذا الموقف به عظات غالية ودروس تربوية عالية:

- أولاها: هذا الحرص الواضح من الصحابى الجليل حارثـة بـن الـنعمان ﷺ على نيل ثوابٍ تقديم الصدقة بيده؛ مما دفعه إلى اتخاذ خيط يقوده من مصلاه إلى الباب؛ كى يناول المسكين أو السائل الصدقة بنفسه.

وهكذا المؤمن لا يدَّخر وسعًا فى فعل خير يستطيعه. هـذه الـنفس الـصافية التى تدرك أن الصدقة عمل صالح، كما أن مناولة الصدقة فعـل صـالح ـ أيـضًا ـ

(*) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٢٨) بـرقم (٣٢٢٨)، والبيهقـى فى شـعب الإيـمان (٣/ ٢٥٣) برقم (٣٤٦٣)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٦٦٧).

يُثاب عليه المسلم؛ وذلك لما فيه من رعاية لحال السائل واهتمام بشأنه، وتقدير لمشاعره، ويُظهر لنا هذا الموقف كيف أن الإسلام قدَّم رعاية المشاعر على العطاء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ (البقرة/ ٢٦٣).

- ثانيها: الحرص على سِرِّية الصدقة؛ لما لها من ثواب عظيم، ويلتقى هذا الموقف مع مواقف كثيرة لأصحاب النبى ﷺ وصحابياته فى تقديم الصدقات محفوفة بعطاء الحب ورعاية المشاعر، حتى يظن المسكين أنه هو المتفضل بقبوله لهذه الصدقة، وكانت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ تُطيّب الصدقة بالعطر، ثم تقدمها للفقير.

كل هذا نابع من إيمان راسخ فى قلب المؤمن بأن الغنىَّ مختبرٌ من الله تعالى بماله، والفقير مختبر من الله تعالى بفقره.

ولقد بين القرآن الكريم أن أفضل نفقة ينفقها العبد فى حاجاته المختلفة ـ هى النفقة فى سبيل الله تعالى، قال ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ (البقرة).

ويؤكد الحديث النبوى الشريف أن ما نقدمه من صدقة هو الذى يُدَّخر لنا عند الله يوم القيامة، فى حين أن ما ننفقه فى الطعام والشراب والملبس وغيرها من متاع الدنيا ـ هو ـ إلى الزوال.

فعن عائشة ﵂ أنهم ذبحوا شاة، فقال النبى ﷺ: «ما بقى منها؟» قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال ﷺ: «بقى كلها غير كتفها»[1].

والله المستعان

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٧٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٨٥٩).

٣٥. ربح البيع أبا يحيى !! (*)

عن أبى عثمان النهرى، أن صهيبًا حين أراد الهجرة إلى المدينة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت، ثم تريد أن تخرج بنفسك ومالك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم: أرأيتم إن أعطيتكم مالى أتخلون سبيلى؟ فقالوا: نعم. فقال: أشهدكم أنى قد جعلت لكم مالى، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «ربح البيع أبا يحى.. ربح البيع أبا يحى.. ربح البيع أبا يحى».

*****

هذا موقف عظيم يقدم لنا الأسوة والقدوة فى معنى التضحية بمتاع الدنيا فى سبيل رضا الله تعالى.

فصهيب الرومى جاء مكة فقيرًا فاغتنى بها، وأصبح ذا مال وسعة من العيش، لكنه لم يركن إلى رغد العيش الذى جاءه بعد حرمان.

لم يركن إلى الغنى بعد الفقر، لكنه آثر حب الله ورسوله، وهانت الدنيا فى

(*) أخرجه ابن حبان فى صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم، (٧٠٨٢)، وقال الأرنؤوط فى تعليقه على صحيح ابن حبان: رجاله ثقات رجال الشيخين.

نظره، ورخص المال أمام رضا الله ـ تعالى ـ، فـترك مالـه لقـريش، وفـرَّ مقابـل أن يتركوه لهجرته؛ كى يدرك رسولَ الله ﷺ، وليس سهلا على الإنسان أن يتنازل عـن كل ثروته، لكنه الإيمان الصادق، وكم عانى صهيب أثناء رحلته الشاقة مـن مكـة إلى المدينة فى طريق مُوحش وحرارة شديدة، لكن شـوقه وحبـه لرسـالله ﷺ كـان يَسْتَفِذُّ فيه الهمة ويُهوِّنُ عليه المشقة، فلما بلغ النبى ﷺ فقال: «ربح البيع أبـا يحـى.. ربح البيع أبا يحى.. ربح البيع أبا يحى».

وأنزل الله فى صهيب قرآنًا يُتلى، فيه مدح لهذا الصحابى الكـريم، وسـلوكه الإيمانى؛ كى يتأسى المؤمنون الصادقون به فى كل زمان ومكان ما دامت آيـات الله تُتْلى إلى يوم القيامة، قال تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (البقرة).

وهذا الموقف الإيمانى ينادى كل مؤمن بالتضحية من أجل إقامة ديـن الله فى نفسه وأهله ومجتمعه.. وربح كل مؤمن يصنع ما صنع صهيب.

٣٦. أثـر الصفح والعفو(*)

ذهب فُضالة بن عُمَير الليثى قاصِدًا قَتْل النبى ﷺ أثناء طوافه بالبيت، فلما دنا منه قـال الرسـول ﷺ: «أفُـضالة؟!». قـال: نَعَـم، فُضالةُ يا رسول الله. قال ﷺ: «مـاذا كنـت تحـدِّث بـه نفـسك؟». قال: لا شىء، كنت أذكر الله.

فضحك النبى ﷺ، ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده عـلى صدره، فسكن قلبه، فما كان من فُضالة إلا أن قـال: والله مـا رفـع يده عن صدرى حتى ما مِنْ خَلْقِ الله أحبُّ إلىَّ منه. وأسلم فُضالة بهذا الصفح الكريم، وزالت من قلبه العداوة، وحلَّت محلها محبـة رسول الله ﷺ.

*****

هذا الموقف يحمل فيضًا كريمًا من سـماحة رسـول الله ﷺ وعفـوه، وحرصـه على الآخر، وأنه كان يقابل الإساءة بالإحسان.

- لقد قدَّم ﷺ أعظم المناهج التربوية للمصلحين، ووصف لهم سبل

(*) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٠٨).

الهداية التى يتم بها إنجاز أخطر وأعظم عملية تغيير للإنسان: من الضلال إلى الهدى، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه حقيقة أكدها القرآن الكريم فى حق المصطفى ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران).

وأمام هذه المهمة السامية والرسالة العالية، ألا وهى هداية الناس، يوضح لنا رسول الله ﷺ ـ من خلال هذا الموقف ـ أنه لا مكان لنَزَغَات النفس وظهور الأنانية، وهكذا كان شأنه ﷺ أنه كان لا ينتصر لنفسه، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله. لقد باع نفسه لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام).

ولا غرابة بعد ذلك أن نرى النبى ﷺ قد ألزم نفسه التواضع، وكان يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[(١)].

وقال ﷺ: «إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[(٢)].

- ودلالة أخرى فى هذا الموقف: هى استعانة الداعية والمصلح والمربِّى بالله تعالى فى معالجة فكر ونفس ومشاعر مَنْ أمامه؛ كى لا يرى لنفسه فضلا فى هذا

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٨/ ٣١٨) برقم (٤٩٢٠)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد،(٣٣١٢)، والحاكم فى مستدركه، كتاب المغازى والسرايا، (٤٣٦٦)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٦٧٧).

التحول النوراني، وذلك التغير الإيماني، بل ينسب الفضل لله تعالى.

- أيضًا هناك دلالة أخرى في هذا الموقف النبوي الكريم، وهي إرشاد الحائر الضال إلى ما يصلح شأنه من ذكر أو دعاء أو عمل صالح؛ لذلك قال النبي ﷺ لفضالة: «استغفر الله يا فضالة».

- ثم تأمل - رحمك الله - في هذا الموقف النبوي الكريم، كيف قابل النبي ﷺ رغبة القتل من فضالة بالابتسامة الحانية، والكلمة الطيبة والدعاء، واليد الحانية التي كانت بلسمًا سكن به قلب فضالة، وتحوَّل الموقف من العداوة إلى المحبة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت).

اللهم خَلِّقنا بخلق رسول الله ﷺ وأدبنا بأدبه وأكرمنا برفقته في الجنة

٣٧. رعايـة الخصوصيـة النفسيـة (*)

لما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحان وقت الصلاة.. قام بلال رضي الله عنه يؤذن فى الناس، فلمَّا وصل إلى قوله: «أشهد أن محمـدًا رسول الله» خنقته الْعَبَرَات.. واحتبس صوته.

ثم أَذَّن بعد ذلـك ثلاثـة أيـام، فكـان كلـما وصـل إلى قولـه: «أشهد أن محمدًا رسول الله» بكى وأبكى.. فطلب بلال مـن أبـى بكر رضي الله عنه أن يُعفيه من الأذان، وأن يأذن لـه فى الخـروج إلى الجهـاد، والمرابطة فى بلاد الشام، فتردد الصديق أبو بكر رضي الله عنه.

فقال له بلال: إن كنـت اشـتريتنى لنفـسك فأمـسكنى، وإن كنت قد أعتقتنى لله فَخَلِّنِى لمن أعتقتنى له. فقال له أبـو بكـر: مـا أعتقتك إلا لله، وأَذِنَ له فى ترك الأذان والخروج إلى الجهاد.

*****

الناس مشارب مختلفة وميول متباينة؛ لذلك لا يمكن أن نطبع الناس بطابع

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبـى بكـر رضى الله عنهما، (٣٥٤٥) بلفظ: حدثنا ابن نمير عن محمد بن عبيد حدثنا إسماعيل عن قيس: « أن بلالًا قـال لأبـى بكر إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى وإن كنت إنما اشتريتنى لله فدعنى وعملى لله».

واحد، بل لابد من مراعاة الفروق بين الأفراد ومن هنا تأتى فكرة الخصوصية للإنسان فى آرائه الخاصة فى حدود وإطار: «لا ضرر ولا ضرار»(1). ولقد نهى الإسلام عن كل ما ينال من خصوصية الإنسان أو يعتدى عليها.

والموقف موضوع الحديث يعالج فكرة الخصوصية النفسية للإنسان، فنجد سيدنا بلالا ﵁ حين فاضت مشاعره لم يستطع أن يغالبها أو أن يتحكم فيها، فغلبته مشاعره وهو يُؤذِّن بعد وفاة النبى ﷺ؛ فبكى واحتبس صوته، فلما تكرَّر منه ذلك، ولم يعد يحتمل الأذان فى غياب رسول الله ﷺ استأذن أبا بكر ﵁ فى أن يترك المدينة، وينضم لإخوانه المجاهدين فى سبيل الله والمرابطين فى الشام.

ولقد رأى الصديق أبو بكر ﵁ برحابة نفسه وقوة روحه أن يستبقى بلالًا ليرفع الأذان ـ كما كان يرفعه على عهد رسول الله ﷺ ـ، وهذه طاقة خاصة لأبى بكر، ومَنْ كأبى بكر ﵁ فى طاقته الخاصة، التى لم تُتَح لكثيرين؟! ألم يأت بكل ماله مرات ومرات لرسول الله ﷺ؛ كى ينفقه فى سبيل الله؟ ألم يقف فى لحظة الحزن الشديد عندما أعلن خبر وفاة رسول الله ﷺ وقد اضطربت مشاعر المسلمين، حتى إن عمر بن الخطاب الفاروق ﵁ أمسك بالسيف، وقال: من قال إن محمدًا قد مات قطعت عنقه، فقام الصديق أبو بكر بثبات، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ

(1) أخرجه أحمد فى مسنده، من مسند بنى هاشم، مسند عبد الله بن العباس رضى الله عنهما، (٢٨٦٧)، وابن ماجه فى سننه، كتاب الأحكام، باب من بنى فى حقه ما يضر بجاره، (٢٣٤١)، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (١٨٩٦).

عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ (آل عمران).

فهذا هو أبو بكر ﷺ في همته وثباته، فى حين أن بلالًا ﷺ رجلٌ تغلبه مشاعر فياضة فى حب رسول الله ﷺ، فلم يستطع أن يسلك مسلك أبى بكر ﷺ.

ولَمَّا كان أبو بكر ﷺ له سبق فضل على بلال ﷺ لما أعتقه من الرق، وقع فى نفس بلال أنه لا يستطيع أن يرد كلام أبى بكر؛ بسبب هذا الفضل السابق لأبى بكر عليه. إن بلالًا يحس بضغط أدبى؛ بسبب فَضْل أبى بكر السابق عليه فى عتقه. فواجه بلالٌ نفسه ليحسم الأمر على نفسه، وقال لسيدنا أبى بكر ﷺ: إن كنت قد اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت أعتقتنى لله فخلِّنى لله. وهنا أوضح أبو بكر لسيدنا بلال بأنه أعتقه لله، وأذِن له فى الخروج من المدينة ليلحق بالمجاهدين والمرابطين فى الشام؛ رعاية لخصوصية مشاعر بلال ﷺ.

وهذا درس قَيِّم يعلمنا أدبًا من آداب الإسلام السامية، وهو مراعاة خصوصية الآخرين فى مشاعرهم، وفى اختياراتهم فى حدود: «لا ضرر ولا ضرار».

٣٨. تعال نؤمن ساعة (*)

قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال فيسألهم ربهم ــ وهو أعلم منهم: ما يقول عبادى؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك.

قال: فيقول: هل رأونى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك.

قال: فيقول: وكيف لو رأونى؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وأكثر لك تسبيحًا.

قال: يقول: فما يسألوننى؟ قال: يسألونك الجنة.

قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟

قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا وأشد

(*) أخرجه البخارى، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى (٦٠٤٥).

لها طلبًا وأعظم فيها رغبة.

قال: فَمِمَّ يتعوَّذون؟ قال: يقولون: من النار.

قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

*****

هذا الموقف يقدم لنا عظاتٍ هاديةً فى فضل مجالس الذّكْر، وكيف أن هذه المجالس تحبها الملائكة وتتباهى بها.

- ولكى ندرك منزلة الذكر بين العبادات يكفى أن نتأمل أن الله تعالى حين افترض على عباده كُلَّ عبادةٍ من العبادات وأمرهم بها، جعل لها حدًّا معلومًا ووقتا محددا؛ فالصلاة عبادة محددة فى أوقات محددة، وكذلك الزكاة والصيام، والحج، فى حين أنه لَمَّا أمر الله عباده المؤمنين بالذِّكْر جعله على قدر الوسع والطاقة، ولم يجعل

له حدًّا ولا وقتًا معلومًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ (الأحزاب).

وجعل الله الذكر غذاء للقلوب والأرواح، بل إن حاجة القلب إلى ذكر الله تفوق حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، للدرجة التى يعبر فيها النبى ﷺ عن الفرق بين الذاكر والغافل بقوله ﷺ: «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه: مثل الحى والميت»[(١)].

كما يتبين لنا فى هذا الموقف أن الملائكة تحب مجالس الذكر، وتحفُّها، وتتباهى بأهلها، والأحاديث فى ذلك كثيرة؛ منها قوله ﷺ: «ما اجتمع قومٌ يذكرون الله تعالى إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٢)].

- ومن دلالات الموقف أيضًا: حرص عبد الله بن رواحة ﷺ على تذكير إخوانه بذكر الله تعالى وهذا شأن المؤمن الذى يعين أخاه على الطاعة، وبخاصة فى أوقات الغفلة عن ذكر الله، وهذا من باب التواصى بالحق والتعاون على الخير. وفى هذا أخرج ابن أبى الدنيا عن أبى قلابة قال: «التقى رجلان فى السوق، فقال

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى، (٦٠٤٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد، (١٨٥٩).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده، كتاب المكثرين من الصحابة، مسند أبى سعيد الخدرى ﷺ، (١١٩١٠)، أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (٧٠٣٠).

أحدهما للآخر: يا أخى تعال حتى نـدعوا الله فى غفلـة النـاس، ففعـلا، ثـم مـات أحدهما، فأتاه فى منامه فقال يا أخى: علمت أن الله تعالى غفر لنـا عـشية التقينـا فى السوق»[1].

ويؤكد الموقف أن الله جعل ملائكة يلتمسون مجالس الـذكر، فـإذا وجـدوا مجلسًا تنادوْا: هلموا، حتى إذا انتهى المجلس صَعدوا يرفعون أحوال الذاكرين إلى الله تعالى، ويسألون ربهم الجنة، ويتعوذون ربهم من النار، فينعم الله بواسع مغفرته ورحمته، قائلًا: «أشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكـة: فـيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»[2].

هذا فضلًا عن ثمرات الذكر فى الدنيا من طمأنينة القلـب وراحـة الـنفس، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾ (الرعد).

- يضاف أيضًا أن الذاكرين لهم خاطر عنـد الله تعـالى، فجليـسهم يُكـرم لأجلهم. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم. اللهم اجعلنـا مـن الـذاكرين لله كثـيرًا والذاكرات.

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله ص (١١١) برقم (١٢٠)، ضعفه الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب (١٠٤٩).

(٢) أخرجه البخـارى فى صـحيحه، كتـاب الـدعوات، بـاب فـضل ذكـر الله تعـالى، (٦٠٤٥)، ومـسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل مجالس الذكر، (٧٠١٥).

٣٩. دعوة النبى ﷺ لأم أبى هريرة (*)

كان أبو هريرة رضي الله عنه كلما دعا أمه إلى الإسلام نهرته، حتى دعاها ذات يوم فأسمعته فى رسول الله ﷺ ما يكره.

فذهب رضي الله عنه من فوره يبكى لرسول الله ﷺ راجيًا إيّاه قائلًا: ادعُ الله أن يهدى أمَّ أبى هريرة، فدعا لها رسول الله ﷺ. فلما عاد أبو هريرة رضي الله عنه إلى المنزل، وجد الباب مردودًا.

فقالت له أمه: مكانك يا أبا هريرة. وَعَجِلَتْ إلى خِمارها بعد اغتسالها، ثم فتحت لولدها أبى هريرة، وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فرجع أبو هريرة رضي الله عنه يبكى فَرَحًا إلى رسول الله ﷺ، يخبره بهذا الخبر.

*****

هذا موقف إيمانى عظيم يحمل دلالات هادية منها:

- أن الإنسان لا يسلم من بعض المتاعب التى تشق عليه، وقد يعجز الإنسان ـ بما بين يديه من أسباب متاحة ـ أن يعالج هذه المتاعب، وهنا ينبغى على

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبى هريرة الدوسى رضي الله عنه، (٦٥٥١).

الإنسان أن يسارع بالتوجه إلى الله تعالى وحده ـ بالدعاء؛ فالله ـ وحده ـ هو القادر، هو القريب، هو المجيب، هو الذى يملك أن ينجز ما نعجز عنه من أمور، وللمؤمن أن يطلب الدعاء من أهل الصلاح والفلاح والتقوى، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (المائدة).

وقد بَشَّر القرآن الكريم كل من التجأ بالدعاء إلى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة/ ١٨٦).

- ويستفاد من الموقف البرُّ بالأم، لقد كان أبو هريرة ﵁ حريصًا على البر بأمه، وكان حريصًا على أن يقدم لها أسباب الهداية، فكان يُذكِّرها بحال رسول الله ﷺ، كما كان يذكِّرها بخلقه ﷺ، ويذكِّرها بآيات القرآن الكريم، ولكنها كانت مُعرِضة، غير راغبة، فعزَّ ذلك على أبى هريرة ﵁؛ فلما كرَّر على أمه الدعوة إلى الإسلام وذكر لها رسول الله ﷺ نالته بشىء من السوء فى الكلام، فخاف أبو هريرة على أمه أن ينزل قرآن فى شأنها، فتعجل من فوره، وذهب مسرعًا إلى رسول الله ﷺ يعرض أمر أمه عليه بأسلوب يستعطف فيه النبى ﷺ، فيطلب الدعاء منه ﷺ لأمه، فأكرمه رسول الله ﷺ، فدعا لها بالهداية، واستجاب الله تعالى لأبى هريرة ﵁.

وهنا يظهر أثر الإيمان فى سلوك الإنسان، فأبو هريرة لم يقابل إعراض أمه بإعراض مثله، ولا عَزَف عن تكرار الدعوة لأمه كى تدخل الإسلام، بل كان ينطلق فى ذلك كله من حقيقة كبرى وهى بالإيمان بالله تعالى، والإيمان يفرض عليه حُسْنَ العشرة والبر بأمه.

- ثم نأتى إلى فضيلة الدعاء؛ فإنها تأخذ حيزًا بارزًا ينبغى أن يلتفت إليه

المؤمن، وأشار إليه سيدنا محمد ﷺ مبشرًا كل من اتجه بالـدعاء لله قـائلا: «مـا مـن مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلَّا أعطاه الله بها إحدى ثـلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»(1).

فالنبى ﷺ يبين لنا أنه لا يكون هناك إهمالٌ لأية دعوة يتوجه بهـا الإنـسان لله تعالى، فإما أن يعجل الله له الدعوة فى الدنيا فتقضى حاجته، وإما أن يـصرف عنـه من السوء بمثلها، ويكون المؤمن فى هذه الحالة محتاجًا إلى صرف هذا السوء؛ لأنـه لا يحتمله، أو أن يدخر الله تعالى له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

وهذا درس للدعاة، يتعلمون منه أنهم مهـما بلغـت المعـصية، وأن الإنـسان مهما بلغ به الإعراض عن الهداية والرشاد، فإنَّ باب الرحمـة وبـاب التوبـة وبـاب الهداية مفتوح أمامه، والأمل فى هداية العصاة لا ينقطع.

رَبِّ ارحم والديّ كما ربيانى صغيرًا

---

(1) أخرجه أحمد فى مـسنده، مـسند المكثـرين مـن الـصحابة، مـسند أبـى سـعيد الخـدرى ﷺ، (11149)، والبخارى فى الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب ما يدخر للداعى من الأجـر والثـواب، (710)، وصـححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (1633).

٤٠. يـوم عيد وخُبـز خَشِـن (*)

دخل رجل على الإمام عـلى ـ كـرم الله وجهـه ـ فى يـومِ عيـد الفطر، فوجده يأكل خبزًا فيه خشونة، فقال: «يـا أمـير المـؤمنين، يوم عيد وخبز خشن؟!» فقال الإمام على: اليوم عيدٌ لمن؟!

فقال الرجل: لمن يا أمير المؤمنين؟، فقال الإمام عـلى: «اليـوم عيد لمن قُبلَ بالأمس صيامه وقيامه، عيد لمـن غُفِـرَ ذنبـه، وشـكر سعيه، اليوم لنا عيد، وغدًا لنا عيد، وكل يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد».

*****

هذا الموقف العظيم يحمل دلالات هادية، منها:

- إظهار حقيقة إيمانية بشأن فرحة العيـد وبـشأن مـشاعر المـسلمين فيـه، فالإسلام دين الفطرة التى فطر الناس عليها، فهو لا يصادر المشاعر، ولا يحجـب العواطف، وإنما يهديها ويوجهها توجيهًا إيمانيًا؛ لتعود بالخير على صاحبها، وتبنى فيه القيم الإيمانية؛ ولتكون هذه المشاعر وسيلة قرب لله تعالى، وتتربى فينا عاطفـة الامتثال لأوامر الله تعالى، وفى إطار هذا المفهوم الإيمانى الذى يـشير إليـه موقـف

(*) موسوعة خطب المنبر، خطبة عيد الأضحى المبارك للشيخ زياد بن محمد الصغير، ص ٤٢٠٤.

الإمام علىّ ﷺ نجد أن الله قد ربط العيدين فى الإسلام بطاعتين عظيمتين؛ فعيد الفطر ارتبط بطاعة الصيام، وعيد الأضحى ارتبط بطاعة الحج؛ ليتعلم المؤمن أن الفرح والسعادة تكون بإتمام الأعمال الصالحة كما يحب ربنا ويرضى، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (يونس).

ويقال أيضًا: ليس العيد لمن لبس الجديد، ولكن العيد لمن خاف يوم الوعيد؛ ولذلك أشار الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ إلى هذا المعنى أن يوم المؤمن إذا كان فى طاعة، وفى إخلاص لله تعالى كان اليوم يوم عيد.

لقد ربط الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ الفرح بالعيد بطاعة الله تعالى؛ لأن فرح المؤمن بعيد الفطر ليس لأنه قد انتهى من الصيام، وانقطع عنه الجوع والعطش، وإنما لأن الله تعالى وفقه إلى طاعة الصيام؛ ولذلك فالمؤمن يتمنى أن تكون السنة كلها رمضان.

- إن أعياد المسلمين كلها أعياد ربانية من اختيار الله رب العالمين، يشاركنا فيها الفرحة أهل السماء، وهى أعياد تبدأ بالتكبير والصلاة إعلانًا عن فرحة التوفيق بالانتصار على النفس والهوى والشيطان، وحمدًا لله تعالى على فضله وإعانته على ذكره وشكره وحسن عبادته، ومِنْ شُكْرِ نعمة الله على توفيقه ألا يعيش المسلم فرحة العيد وحده، بل يُشرك معه الفقراء والمساكين، ويجتهد فى التزاور والتراحم ولا يحرم نفسه من الترويح بما أحل الله، وقد أوضح الإمام علىّ ﷺ فى هذا الموقف أن أكل الطيبات أو عدم أكلها ليس هو المظهر الوحيد للعيد، ولكن المظهر الحقيقى أو حقيقة العيد هى ألا يعصى المؤمن ربه، وأن يكون على

طاعة دائمة مع الله ورسوله ﷺ، وهذه الحقيقة الإيمانية تتضح من قول الإمام علي رضي الله عنه: «فكل يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد»[1].

فليس معنى العيد ـ فى ضوء هذه العبارة ـ كما يحسب بعض الغافلين ـ انفلاتًا من كل قيد أو انطلاقًا للشهوات وقطعًا للصلة بالله تعالى، بل النجاة والسلامة من الذنوب والآثام من أهم المعانى الإيمانية للعيد عند المسلمين، وهذا ما تشير إليه أحاديث النبى ﷺ، وقدْ تعلم الإمام علىّ هذه الحقائق من سيدنا رسول الله ﷺ؛ فتأسى، واهتدى بها، وأراد أن يعلمها للأمة.

ومظاهر الفرحة فى العيد ـ كما وضحها الإسلام ـ متنوعة ومتعددة، ولها جوانب، فهنالك الجانب المادى المتمثل فى الطعام إن توفر للإنسان، وفى التزاور وفى الترويح بشرط أن يكون ذلك من جانب الحلال الذى أحله الله تعالى. وهناك جانب إيمانى، وهو أن تبدأ الفرحة بالتكبير بصلاة العيد، وذِكْرِ الله سبحانه وتعالى ولها جانب اجتماعى آخر وهو الإحسان والتصدق على الفقراء والمساكين واليتامى؛ كى يكفيهم مذلة السؤال فى هذا اليوم.

إذًا نرى الفرحة فى العيد بكل هذه الأبعاد، ولكن لا يريد الإسلام من المسلم بعد أن أتم صيامًا وقيامًا، وبعد أن عاش حياة إيمانية فى رمضان أن ينفلت زمامه، ويلهو مع اللاهين ويكون مع الغافلين، ويقع فى كثير الذنوب والآثام. هذا وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين.

(١) ذكره أبو طالب المكى فى قوت القلوب (١/ ١٢٠).

٤١. إنها سرٌّ! (*)

عن أنسٍ ﵁ قال: أتى علىَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغلمان، فسلَّم علينا، فبعثنى إلى حاجةٍ، فأبطأتُ على أُمِّى، فلما جئتُ قالت: ما حَبَسَك؟ قلتُ: بعثنى رسول الله ﷺ لحاجةٍ. قالت: ما حاجته؟ قلتُ: إنها سِرٌّ. قالت: لا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رسول الله ﷺ أحدًا. قال أنسٌ: والله لو حدَّثتُ به أحدًا لحدَّثتُك يا ثابت.

*****

هذا حوار إيمانى بين أم وولدها، فيه الأسوة والقدوة لمن أراد أن يتبع سبيل المؤمنين.

- وهذا الموقف يعالج عادة سيئة استحكمت فى كثير من الناس، ألا وهى التطلع بحرص إلى معرفة الأسرار، حتى شاع بين الناس أن إفشاء الأسرار لون من التقرب والمودة مع من يحبون، وندرك هذا من الكلمة الشائعة على لسان عامة الناس فى مثل هذا الموقف حين تقول لهم: إن هذا الأمر سر، فيقولون: سرٌّ علىَّ.. وهل بيننا أسرار؟!

والحق أن السر باب من أبواب الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة، وكشف السر

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك ﵁، (٦٥٣٣).

خيانة يأثم الإنسان بها عند الله تعالى، ويأخذ حكم السر كل مسألة استشعر الإنسان حرص صاحبها على عدم إشاعتها بين الناس وأن تظل طى الكتمان؛ لقول النبى ﷺ: «إذا حدَّث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة»[١].

وقد يتهاون البعض فى إفشاء الأسرار الخاصة بالحياة الزوجية ظنًّا منهم أنها ملك لهم، وهذا حرام؛ لورود تشديد النهى عنه فى السنة النبوية، قال رسول الله ﷺ: «إن من أشرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها»[٢].

- أيضًا من دلالات الموقف تأدب الأم بأدب الإيمان، فحينما علمت أنه سر، قالت لولدها: «لا تخبرنى بسر رسول الله ﷺ».

وفى ضوء هذا الموقف نود أن نتعرف على مزيد من الأمثلة التى توضح ما لحفظ السر من قيمة بالغة فى حياتنا الإسلامية.

نعم لنا أسوة فى حرص صحابة رسول الله ﷺ على حفظ الأسرار، روى البخارى من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن عمر ﷺ حين تأيمت[٣] حفصة قال: لقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فلبثت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ، فلقينى أبو بكر فقال: إنه لم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله ﷺ (١٥١٠٤)، وأبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب فى نقل الحديث، (٤٨٧٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٦).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، (٣٦١٥).

(٣) الأيمّ هى التى لا لها زوج، بِكْرا كانت أم ثيبًا. اللسان (أيم).

يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أنى قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سرَّ رسول الله ﷺ ولو تركها لقبلتها [1].

اللهم أدبنا بأدب سيدنا رسول الله ﷺ وخلِّقنا بخُلُقِه، يا رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب النكاح، باب تفسير ترك الخطبة، (٤٨٥٠).

٤٢. وماذا أقول لله عز وجل ؟! (*)

بينما كان ابن عمر يسير فى بعض نواحى المدينة ومعه أصحاب له، إذ مرَّ بهم راعى غنم، فأراد ابن عمر أن يختبر ورعه، فقال له: «هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه فنعطيك ثمنها ونعطيك من لحمها فتفطر عليه؟ وكان صائمًا.

فقال: إنها ليست لى بغنم، إنها غنم سيدى، فقال له ابن عمر: فما عسى سيدك فاعلًا إذا فقدها، فقلتَ: أكلها الذئب؟! فولَّى الراعى عنه وهو رافع إِصْبُعه إلى السماء ويقول: أين الله؟

قال: فجعل ابن عمر يردد قول الراعى وهو يقول: فأين الله؟!

فلما قدم ابن عمر المدينة، بعث إلى مولاه، فاشترى منه الغنم والراعى، فأعتق الراعى وأعطاه الغنم».

*****

(*) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، باب: فى الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، (٤/ ٣٢٩)، رقم (٥٢٩١).

هذا الموقف الكريم يحمل دلالات هادية منها:

- هذا الضمير اليقظ الذى تصان به حقوق الناس، وتحفظ به من دواعى الخيانة أو التفريط والإهمال، والأمانة من أوضح علامات صدق الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»(١)، لقد رفض هذا الشاب أن يبيع الشاة؛ لأنه لا يملكها، وأعلن خوفه من الله تعالى، واستشعر المسئولية عنها، وهذا المعنى الإيمانى يؤكده رسول الله ﷺ بقوله: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل فى أهله راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسؤولة عن رعيتها والخادم فى مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته»(٢).

وكما أن الأمانة من علامات الإيمان الصادق، فإن ضياعها من علامات الساعة؛ فقد جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟! فقال له ﷺ: «إذا ضُيِّعَتْ الأمانة فانتظر الساعة». فقال الرجل: وكيف إضاعتها؟ قال ﷺ: «إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، (١٢٤٠٦)، وحسنه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب العبد راع فى مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، (٢٢٧٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، (٤٨٢٨)، واللفظ للبخارى.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل فى حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل، (٥٩).

• أيضًا من دلالات الموقف وعظاته البالغة بيان الجزاء الأوفى من الله تعالى لمن ترك الحرام مخافة الله تعالى، فإن الله تعالى يبدله خيرًا منه، فالشاب حين ترك بيع الشاة بدراهم معدودة مخافة الله تعالى، عوَّضَه الله خيرًا كثيرًا؛ فقد اشتراه سيدنا عبد الله بن عمر، ثم أعتقه، ونال العبد حريته.

وهذا الموقف يجعلنا نقف وقفة إعجاب بهذا البطل، الشاب التقى العفيف النقى الذى كان عنده سلطان من ضميره، فلم يفرط فى الأمانة التى أمره الله بأدائها؛ كما يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النساء/ ٥٨)؛ هذا البطل الشاب يجعلنا نتعرف على هذه الأمانة، وهى سلطان المراقبة على الضمير، وهى تتمحور فى ثلاثة محاور:

المراقبة من النفس، ثم المراقبة من الله، ثم المراقبة من الناس، وفى ضوء هذه المعانى: أحب أن أذكر حقيقة إيمانية، وهى أن كل الفضائل من الإخلاص والأمانة والصدق والوفاء بالوعد، وغير ذلك أساسها المتين الإيمان بالله تعالى، فكلما زاد الإيمان زاد التمسك بالأخلاق، وزاد الالتزام بهذه الفضائل، فهذا كله انعكاس لمستوى الإيمان الصادق.

• ومن دلالات الموقف ـ أيضًا ـ ما نستفيده من تَصَرُّف عبد الله بن عمر؛ فقد وقف بجانب الشاب لأمانته وطاعته؛ كى يشعر الشاب بتقدير أهل الإيمان له، ويكون ذلك حافزًا له ولغيره على التمسك بالفضائل، وهذا من باب التعاون على فعل الخيرات وترك المنكرات، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة/ ٢).

• وفى هذا ـ أيضًا ـ تنمية للفضائل فى المجتمع، وتزكية الصالحين فى الحياة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.

وخلاصة هذا الموقف هو: أننا نريد أن يتعلم شبابنا أن الأمانة كانت بالنسبة لهذا الشاب طوق أمان، جعله يفوز بالعتق من العبودية، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتولانا، وأن يرضى عنَّا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٤٣. دع للصلح موضعًا (*)

شتم رجل أبا ذر الغفارى رضي الله عنه، فقال له أبو ذر: يا هذا لا تستغرق فى شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه. فهدأ الرجل وكف عن الشتم.

*****

• هذا الموقف يحمل دلالات هادية فى رحاب الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة فى التعامل مع الناس، فالمؤمن لا يشارك المسيء ولا يجاريه فى إساءته، بل يلتزم بهدى القرآن الكريم، ويتأدب بأدب نبى القرآن، وصاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ، علمنا أن لا نقابل السيئة بالسيئة، وأن نستجيب لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (فصلت/ ٣٤).

• كما يشير الموقف ـ أيضًا ـ إلى ثمرة الالتزام بحسن الخلق؛ حيث إن الرجل الشاتم هدأ، وكف عن شتمه، وتحول الموقف من البغضاء والعداوة إلى المودة والصفاء، وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت).

وكما أن لحُسْنِ الخلق أثرًا محمودًا فى إصلاح العلاقات بين الناس، فإن له أثرًا فى رفع منزلة العبد عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ.

(*) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦/ ٣٤٧)، برقم (٨٤٦٤).

قال رسول الله ﷺ: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا»[(١)].

وحين سئل النبى ﷺ: أى الناس خير؟ قال ﷺ: «أحسنهم خلقًا»[(٢)].

• وفى ضوء هذا الموقف نود أن نتعرف على الآثار التى تترتب على سوء الخلق، لا سيما وقد تعلمنا من سيرة رسول الله ﷺ، وفى موقف آخر مشابه لهذا الموقف أن الرسول ﷺ قد أقبل عليه رجل سيئ الخلق، فعندما دنا منه، بشَّ فى وجهه، وحدثه بكلام طيب، ثم قال للسيدة عائشة رضى الله عنها عندما تعجبتْ من صنيعه: «يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه»[(٣)].

وكما رغَّب رسول الله ﷺ فى حسن الخلق، فقد حذَّر ﷺ من سوء الخلق؛ لأن ذلك يفسد العمل الصالح، ولقد قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل وتصدق وتؤذى جيرانها بلسانها، فقال ﷺ: «لا خير فيها هى من أهل النار»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل(٥٦٨٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه، (٦١٧٧).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الكوفيين، حديث أسامة بن شريك ﷺ (١٨٤٧٩)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس، (٥٧٨٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والأداب، باب مداراة من يتقى فحشه، (٦٧٦١) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ص (٥٤) برقم (١١٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٧٨) برقم (٩٥٤٥)، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٨٨).

• وفى الموقف ـ أيضًا ـ دلالة عظيمة، وهى أن الشتم والطعن واللعن ليس من أخلاق المؤمن، ولقد قال النبى ﷺ: «ليس المؤمن بطعان ولا بلعان ولا الفاحش البذىء»[1].

وهكذا يظهر لنا أن حسن الخلق يبلغ بالعبد المنازل العالية عند الله تعالى، وعند رسول الله ﷺ، وإن العبد ليبلغ درجة الصائم القائم بحسن خلقه، ويظهر لنا ـ أيضًا ـ أن سوء الخلق يُفْسِد العمل الصالح، وينتكس بالعبد إلى منازل سيئة مع الكفار، والمنافقين ـ والعياذ بالله تعالى ـ والمؤمن لسانه طاهر زكى رطب بذكر الله تعالى، لا يعرف الطعن واللعن ولا الفحش.

ونتعرف على خلق المؤمن بمعاملته؛ فالمعاملة الطيبة هى التى تهدف إلى الإصلاح بين الناس عن طريق حسن الخلق، وعن طريق مقابلة الشر بالإحسان وعدم مقابلته بالإساءة؛ امتثالا لقول المولى تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت).

وهكذا كانت سيرة النبى ﷺ مثالًا ونموذجًا يحتذى فى جَذْب جميع الناس إليه، وإلى الإسلام بحُسْن خُلُقِه وبكلامه الطيب وسيرته الحسنة.

اللهم رطِّب ألسنتنا بذكرك، وطهرها من كل مكروه وسوء، وأدبنا بأدب سيدنا محمد ﷺ وخلِّقنا بخلقه، والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، (٣٨٣٩)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

٤٤. لو أقسم على الله لأبره (*)

كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أُوَيْسُ بن عامرٍ؟ حتى أتى على أويس فقال أنت أُوَيْسُ بن عامرٍ؟ قال: نعم. قال: من مرادٍ ثمَّ من قَرَنٍ؟ قال: نعم. قال فكان بك بَرَصٌ فَبَرَأْتَ منه إلَّا مَوضِع درهمٍ؟ قال: نعم. قال: لك والدةٌ؟ قال: نعم.

قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتى عليكم أويس بن عامرٍ مع أمداد أهل اليمن من مرادٍ ثمَّ من قَرَنٍ كان به بَرَصٌ فبرأ منه إلَّا مَوضِع درهمٍ، له والدةٌ هو بها بَرٌّ لو أقسم على الله لأَبَرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». فاستغفر لى. فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريدُ؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتبُ لك إلى عاملها؟ قال: أكون فى غبراء الناس أَحَبُّ إلَيَّ.

*****

هذ ه البشرى العظيمة التى بشر بها رسول الله ﷺ أويس بن عامر القرنى

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرنى رضي الله عنه، (٦٦٥٦).

قرنها رسول الله ﷺ وربطها بسبب هذه البشارة، يظهر ذلك من قوله ﷺ: «له والدة هو بها برٌّ».

من هنا فهذه البشارة تُظْهِر لنا دلالة عظيمة على أن البر بالوالدين بابٌ عظيم من الأبواب التى ننال بها رضوان الله تعالى وفضله، ولنتحصل بها على أعلى المنازل، ولنتأمل كيف أن سيدنا عمر ﷺ وهو من المبشرين بالجنة قد نصحه رسول الله ﷺ أن يطلب من أويس أن يستغفر له؛ أى: يلتمس منه الدعاء؟! ولهذا دلالة عظيمة على هذه المكانة العالية التى آتاه الله إياها، وتفضَّل بها على أويس ببركة بره بأمه؛ أى: أنه وصل إلى الحد الذى جعل دعوته مستجابة على الفور.

وأود فى هذا الإطار، أن أقرن هذا الموقف بمواقف أخرى إيمانية تُظْهِر أثر الإيمان وأثر أخلاق الإسلام بين الولد وأمه وبين الولد وأبيه، فالبر بالوالدين فضيلة ومنزلة قرآنية قرنها الله سبحانه وتعالى بعبادته: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (الإسراء/ ٢٣).

وحين نتأمل أحوال الصالحين من نجوم الهداية الذين تربوا فى مدرسة رسول الله ﷺ، فَضُرِب بهم المثل فى البر بالوالدين، وبخاصة الأم، أخص بالذكر منهم الخليفة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذى كان يتحسر على أنه ليس له أم يبرها، وعثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة ـ صهر رسول الله ﷺ ـ لم يتجرأ أن يرفع بصره إلى أن يلتقى ببصر أمه، تواضعًا لها وخشية من الله تعالى؛ لأن الله حرم حدة البصر للوالدين، أيضًا حارثة بن النعمان رضي الله عنه الذى كان يُطْعِمُ أمه، ويقوم على خدمتها ولا

يراجعها فى كلام تقوله؛ خوفًا أن تتضايق أو تتـذمر، والحسن بـن عـلى رضى الله عنهما كان يمتنع أن يجلس إلى مائدة أمـه؛ حتـى يكـون أسرع إلى تلبيـة حاجتهـا، ويقول فى ذلك: أخاف أن آكل معها فتقع عيناها على شـىء مـن الطعـام وأنـا لا أدرى، فتسبق إليه يدى فآكله.

وفى رحاب الهدى والإيمان يأخذ البر وجوهًا متعددة من: الإكرام والرعايـة وحسن الصحبة، والعنايـة وجميـل المعـاشرة، وإظهـار الوقـار والاحـترام للآبـاء والأمهات. كل ذلك فرضه الله تعالى، وكلما ازداد إيمان المؤمن ازداد بره بوالديه.

وعلى الجانب الآخر نلمس تواضع أويس؛ وذلك حينما قال له عمر ﷺ: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ فرفض، وفضَّل أن يكـون فى عمـوم النـاس، ولم يحـب أن يتميز على أحد من أهل اليمن، أو من أقرانه، أو من أصحابه، وهو فى ذلك يتأسى بسيدنا النبى ﷺ، فقد كان رسول الله ﷺ لا يحب أن يتميز على أحد مـن أصـحابه، بل حتى فى الأعمال الشاقة حينما كانوا فى صحراء، وأرادوا أن يأكلوا، ووزَّع النبى ﷺ الأدوار فى العمل، اختار لنفسه أصْعَبَ وأشق الأعـمال، فقـال ﷺ: «عَـلىَّ جمـع الحطب»، وكان إذا جلس إلى أصحابه جلس كأحدهم؛ فسيدنا أويس يتأسى هنا بسيدنا رسول الله ﷺ، لا يتعالى على إخوانه ولا يتمايز عليهم.

٤٥. رقيـة عجـوز (*)

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود ﵁ قالت: كـان عبـد الله إذا جاء داره، فانتهى إلى الباب تنحنح، وأَحْدَثَ صوتًا يعرف بـه؛ كراهة أن يَرَى أمرًا لا يحبه من أهله. تقول زوجه زينب: وإنه جاء ذات يوم، وعندى عجوز تَرْقِينِى من الْـحُـمْرَة (١) فأدخلتها تحـت السرير، فدخل ابن مسعود ﵁ فجلس إلى جانبى فـرأى فى عنقـى خيطًا. فقال: ما هذا الخيط؟! فقلت: خيط رُقِىَ لى فيه.

فأخذه وقطَّعه؛ ثم قال: إن آل عبد الله لأغنيـاء عـن الـشِّرْك، ثم قال لى: إنما كان يكفيـك أن تقـولى مثـل قـول رسـول الله ﷺ: «أذهب البـأس ربَّ النـاس، اشـف وأنـت الـشافى، لا شـفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا».

*****

يقدِّم لنا هذا الموقف دروسًا نافعة فى الأخلاق والعقيدة منها:

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﵁، (٣٦١٥)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

(١) الحُمْرَة: داء يعترى الناس، فيحمرُّ موضعها، وتغالبُ بالرقية. اللسان (ح م ر).

- أنه من سُنَّة الهادى البشير سيدنا محمد ﷺ أن يُعْلِمَ الإنسان أهله قبل أن يدخل عليهم كى تتهيأ له زوجه فى الصورة التى يستحسنها ويحبها؛ فيكون هذا من دواعى زيادة الألفة، وتنمية المودة بينهما؛ وحتى لا يقع بَصَرُ الإنسان إذا دخل فجأة على شىء يكرهه من زوجه، فتنقص المودة، ويؤثر هذا على ما بينهما من أُلْفَة؛ لذلك كان عبد الله بن مسعود ﵁ إذا أتى منزله أَعْلَمَ أهله وتنحنح قبل أن يدخل، وهذا أدب إيمانى رفيع أوصى به رسول الله ﷺ، وقد فعله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فقد كان حينما يعود من سفرٍ أو رحلة أو غزوة ينزل فى أقرب مسجد من البيت ثم يرسل إلى أهله، ثم بعد ذلك يذهب إليهم. ولنا فى ذلك أسوة وقدوة فى سيدنا رسول الله ﷺ.

- على الجانب الآخر، فقد قام ابن مسعود ﵁ بالمعالجة؛ لتنبيه زوجه إلى هذا الخطأ، فلما رأى ابن مسعود الرقية التى صنعتها العجوز لزوجه بدأ ينتقل بحال أهله إلى هدْى سيدنا رسول الله ﷺ، فكان منه المسارعة والمبادرة إلى هديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والدافع له فى ذلك هو أنه يخاف على أهله من إثم المخالفة وعقوبة المعصية، وهو سلوك إيمانى نابع من هدى القرآن الكريم؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ (التحريم/ ٦).

وأول حقوق المرأة على زوجها أن يُعَلِّمها أمر دينها، وأن يكون عونًا لها على الطاعة، وقد كانت معالجة ابن مسعود لهذا الموقف بحكمة إيمانية عظيمة؛ وذلك من خلال الحوار المقنع مع زوجه زينب، فقد وضح لها الحكمة من أخذه الخيط وتقطيعه؛ وذلك بقوله: «وإن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك»، وهو فى هذا

مستجيب لـهْدى رسول الله ﷺ فى قوله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك»[1].

- ولعل من المفيد للقارئ هنـا أن نوضـح دلالات ألفـاظ هـذا الحـديث؛ لتحقيق الفائدة منه:

التمائم: جمع تميمة، وهى الخَرَزَاتُ، كانت العرب يعلِّقُونها عـلى أولادهـم؛ لتحفظَهم من العين فى زعمهم؛ أى: الحسد.

التِّولة: بكسر التاء وفتح الواو ما يحبب المرأة إلى زوجها من السِّحْر وغـيره، وربما شُغِلَت بعـض النـساء بهـذه الأمـور، وقـول النبـى ﷺ: «إن الرقـى شرك»، المقصود بالرقى هنا: الرُّقْية التى تتم بالاستعانة بغـير الله، وهـذا هـو المحـرم مـن الرقية، أما الرقية الحلال فهى التى تكون بـالقرآن الكـريم، أو بـما ورد مـن دعـاء سيدنا رسول الله ﷺ فى صحيح السنة النبوية المطهرة، وهى التى نصح بها عبـد الله بن مسعود امرأته بقوله: إنما كان يكفيك قول رسول الله ﷺ: «أذهب البـأس رب الناس، واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا»[2].

لا شك أن هذه التربية الإسلامية تعمق صلة المؤمن بالعقيدة، وتقوى معنى التوكل واليقين عند المؤمن، ولنا أسوة فى سيدنا رسـول الله ﷺ حـين يبـين لنـا أن الرقى المحرمة التى فيها استعانة بغير الله تعالى، تنافى التوكـل عـلى الله تعـالى، وفى

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الطب، باب فى تعليق التمائم، (٣٨٨٥)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٩٧٢).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب بدء الوحى، (٥٧٥٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب السلام، بـاب استحباب رقية المريض، (٥٨٣٨).

حديث التوكل، جاء فيه وصف لحال السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، قال النبى ﷺ فى وصفهم: «هم الذى لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»(١).

وفى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة ما يغنى عن هذا كله.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الطب، باب من لم يرق، (٥٤٢٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، (٥٤٩)، واللفظ للبخارى.

٤٦. تـزفـزف مـن الحـمى (*)

قال جابر بن عبد الله: دخـل رسـول الله ﷺ عـلى أُمِّ الـسَّائب فقال: «ما لك يا أُمَّ السَّائب تُزَفْزِفين؟». قالت: الحُمَّى لا بارك الله فيها. فقال ﷺ: «لا تَسُبِّى الحُمَّى؛ فإنها تُذهب خطايا بنـى آدم كـما يُذهب الكِير خَبَثَ الحديد».

*****

- هذا الموقف ذو دلالة أخلاقية عميقة تتصل بجملة من أصول العقيـدة، كانت أم السائب تزفزف، أى: ترتعد، وكان فى جوابها لرسول الله ﷺ ما يعبر عـن ألمها من مرض الحمى، وبَدَرَت منها عبارة لا تتناسب ولا تليق بإيمان المؤمن؛ لأن المؤمن يعلم ويوقن أن الأمور لا تؤثر بذاتها، وإنما التأثير لقضاء الله وقـدره، فلِـمَ التعجل بسبِّ الحمى أو بسب المرض عامة، أو بسبِّ الأيام أو الزمن، أو بسبِّ أى حدث من أحداث الحياة؟! وفى الحديث: قال النبى ﷺ: «قـال الله تعـالى: يـؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب الليل والنهار»[1].

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثـواب المـؤمن فـيما يـصيبه مـن مـرض أو حزن، (٦٧٣٥).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الجاثية، (٤٥٤٩) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب، باب النهى عن سب الدهر، (٦٠٠٠).

أى أن المؤثر فى أحداث الحياة هو قضاء الله وقدره، فأم السائب هنا لم تنتبه لهذا المعنى وسبَّت الحُمَّى، فأرشدها النبى الأمين ﷺ إلى عدم فِعْل ذلك، وبيَّن لها الحكمة من وراء عدم سب الحمى.

وقد أرشد النبى ﷺ فى حديث من أحاديثه إلى أن المؤمن دائمًا أمره خير، إذا أصابته سراء كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء كان ـ أيضًا ـ خيرًا له؛ لأن فى كليهما الخيرَ والثوابَ، فهو الرابح فى النهاية وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن.

فالحقيقة أن هذا الموقف يعلمنا ويهدينا إلى أن ما صدر من أم السائب من سبّ ولعن للحمى أسلوب لا تقبله أخلاق الإسلام، موضحًا أن تَحمُّل الإنسان الألم فى صبر وجَلَد من مكفرات الذنوب، وليس هناك مسلم يستغنى عن مغفرة الله وعفوه عن ذنوبه، فالحمى فى حقيقتها بمثابة من يحسن إلى المحموم؛ حيث تكون سببًا فى تكفير ذنوبه وفى تحصيل عفو الله ﷻ.

ومن هنا ينبغى للمؤمن أن يتيقن أنه لن يتحصل على عفو الله إلا بالرضا بقضاء الله وقدره، فإن تبرم أو تضجر أو تأفف أو أظهر عدم الرضا، فالخسارة خسارته، أولا الخسارة المعنوية؛ مما يترتب على شدة التبرم والألم فى الدنيا، وزيادة المرض، وزيادة الإحساس به، والخسارة يوم القيامة، فهو خاسر لثواب الله، ولعفو الله سبحانه وتعالى.

وهذا لا يعنى أن الإنسان لا يحاول إن كان مريضًا أن يدفع المرض أو يحاول العلاج، أو يأخذ الدواء؛ لأن هذا له أصل آخر من أصول الإيمان نبه عليه سيدنا رسول الله ﷺ فى حديثه الذى يقول فيه: «تَداوَوْا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع

له دواء غير داء واحد الهـرم»[1]؛ فـإذا كـان الـصبر وسـيلة لتحمـل آلام المـرض وتخفيفها من الناحية المعنوية؛ فالـدواء وسـيلة أخـرى لتخفيـف هـذه الآلام مـن الناحية المادية، وهذا من عظمة الإسلام حين يراعى هذه الجوانب ويكون التكامل بينهما.

- يبقى لنا من هذا الموقف جانب من الأدب النبوى الذى أرشد إليه النبى ﷺ؛ وهو ألا يسب الإنسان المرض، لماذا؟!

لأنه إذا تدبر الإنسان وتأمل هذه المسألة وجد أنـه مـن العبـث واللغـو أن يشغل المريض نفسه بسب المرض، ولعن الألم؛ لأن الألم فى حقيقتـه رحمـة مـن الله تستوجب الشكر وتستبعد اللعن؛ فالمريض لا يستدل على وجود المرض إلا بالألم، فالألم فى حقيقته يشير إلى حقيقة العلة التى يعانيها المريض؛ كى يبحث عن العلاج والدواء، هذا فضلًا عن دور الألم فى تحريك إحساسنا ومشاعرنا نحو المرضى؛ كى نتعاطف معهم ونكون عونًا لهم.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الكوفيين، حديث أسامة بن شريك ﷺ، (١٨٤٧٧)، وأبـو داود فى سـننه، كتاب الطب، باب فى الرجل يتداوى، (٣٨٥٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٣٠).

٤٧. من فقه الضـرورات(*)

أخذ المشركون عَمَّار بن يـاسر ﷺ، فلـم يتركـوه حتـى سـبَّ رسولَ الله ﷺ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه. فلما أتى النبى ﷺ قـال له: ما وراءك؟ قال: شرٌّ يا رسول الله، ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ مِنْكَ يا رسول الله، وذكرت آلهتهم بخير. وقال ﷺ: «كيف تجد قلبـك؟». قال: مطمئن بالإيمان. فقال ﷺ: «إن عادوا فَعُد».

*****

• هذا الموقف أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى، يعلمنا فقه الـضرورات، وكيـف أن المسلم ينبغى أن يكون مرنًا يتفادى الضرر، وقد اعتمد النبى ﷺ هذا الفهم وأرشد إليه عمار بن ياسر؛ ليمحو مشاعر اللوم العنيف التى كانـت تمـلأ نفـسه؛ بـسبب اضطراره لأن ينال من رسول الله ﷺ بالقول؛ كى يَسْلَم من أذى المشركين وينجـو من كيدهم له. فبيَّن له النبى ﷺ أن الكلام الذى خرج منـه فى حـال الاضـطرار لا يؤاخذه الله عليه، وإنما الاعتبار والمؤاخذة تكون على ما يعتقده الإنسان بقلبه.

ولا شك أن هذا الموقف يُبـصِّر المـؤمن بفقـه الـضرورات، قـال الله تعـالى:

(*) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب التفسير، باب سورة النحل، (٣٣٦٢)، والبيهقى فى السنن الكـبرى، كتاب المرتد، باب المكره على الردة، (١٦٦٧٣)، وصححه الحاكم وقـال: هـذا حـديث صـحيح عـلى شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ (البقرة).

لكن ينبغى أن يعلم المؤمن أن الضرورة تُقدَّر بقدرها، ولا يجوز للإنسان أن يتمادى أو أن يبالغ؛ فأكْل الميتة مثلا مباح عند الضرورة، وهى خوف الموت جوعًا، لكن يأكل الإنسان منها بقدر ما يُبْقِى على حياته فقط.

أما عن القرآن الذى نزل بشأن هذا الموقف بين عمار وسيدنا رسول الله ﷺ، فهو قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾(النحل/ ١٠٦).

ويعبر رسول الله ﷺ بأن ما ذهب إليه عمار من دفع الأذى والضرر عن نفسه لون من الرشد فى الفهم؛ فقد أخرج الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما»[1].

- ومن دلالات هذا الموقف: أن العبرة ليست بالألفاظ والكلمات، وإنما العبرة بحقائق الأشياء. وقد نبهنا النبى ﷺ إلى هذه الحقيقة حين وضَّح لنا أن قومًا يَسْتَحِلُّون الخمر يسمونها بغير اسمها [2]، قال ﷺ: «ليشربن أناس من أمتى الخمر، يسمونها بغير اسمها»، فتغيير الأسماء والكلمات لا يُغَيِّر من الحكم على حقيقة الأشياء.

- أيضًا فى هذا الموقف: بيان أن أسلوب السيطرة على الإنسان عن طريق

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر ﷺ، (٣٧٩٩)، والنسائى فى السنن الكبرى، كتاب المناقب، حديث عمار بن ياسر، (٨٢٧٦)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦١٩).

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأشربة، باب فى الداذى، (٣٦٩٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٥٣).

الجسد بتعذيبه أو ضربه سيطرة ضعيفة واهية لا تُغَيِّر منه تغييرًا حقيقيًّا، وقد لجأ الكفار إلى هذا الأسلوب مع المسلمين بالتعذيب والإهانة والقتل، وفى المقابل نجد النبى ﷺ يسلك سبيل السيطرة على العقل والقلب من خلال الخطاب الفكرى وخطاب المشاعر بآيات الله تعالى.

وفى هذا أسوة حسنة للدعاة أن يتوجهوا بدعوتهم إلى مخاطبة العقل والقلب؛ لأن هذا الأسلوب له ثمرة طيبة فى التغيير والتحول بالإنسان من الشر إلى الخير.

٤٨. من أدب الاختــلاف (*)

عندما أمر رسول الله ﷺ المجاهدين الخارجين مـن المدينـة ألا يُصلُّوا العصر إلا فى «بنى قريظة»، تـأوَّل بعـضهم الأمـر عـلى أن ذلك حثٌّ عـلى الإسراع فى الـسير، ولمـا أدركهـم العـصر وقفـوا وصلوا فى الطريق، فى حين وقف البعض الآخر عند ظاهر الـنص وانتظروا حتى وصلوا. ولما عُرِض الأمر على الرسول ﷺ قَبِلَ فَهْم الفريقين، ثم صفَّهم بإزاء العدو جيشًا واحدًا.

*****

هذا الموقف العظيم يحمل دلالات متنوعة، أهمها هذا الفقه الذى يقدمه لنـا رسول الله ﷺ؛ ليكون أسوة لنا فى علاج الخـلاف العلمـى، وجَمْـعِ المـؤمنين صـفًّا واحدًا أمام عدوهم؛ فقد جمع الله بين أتباع هذا الدين بـروح الأخـوة، فـلا تنـاحر ولا شقاق، قـال الله تعـالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب، (٩٠٤) بلفظ: عـن نافع عن ابن عمر قال: قال النبى ﷺ لنا لما رجع من الأحـزاب (لا يـصلين أحـد العـصر إلا فى بنـى قريظـة)، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم بـل نـصلى لم يـرد منـا ذلـك فذكر للنبى ﷺ فلم يعنف واحدا منهم، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من لزمه أمـر فـدخل عليه أمر آخر، (٤٧٠١).

﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ (آل عمران/ ١٠٣).

وأخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وهل هان المسلمون أفرادًا وأممًا إلا حين وَهَنَت وضَعُفَتْ أواصر الأخوة بينهم، وشاع بينهم الخلاف والتنافر والتدابر؟! وحسبنا أن نتأمل كيف أن أواصر الأخوة فى الله هى التى أقامت هذا المجتمع الإيمانى فى المدينة أول مرة، وعليها اعتمد رسول الله ﷺ فى تأسيس أمته.

ويُزَكِّى الخطاب القرآنى روح الجماعة فى الأمة؛ حيث يُوَجِّهُ؛ الخطاب إلى الجماعة فى كل الأوامر والنواهى الواردة؛ من ذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ حيث تَكَرَّرت فى سياق التشريع القرآنى للأمة، وفى الدعاء: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ (الفاتحة).

وفى السنة النبوية ما يؤكد هذه الحقيقة؛ حيث أرشدنا النبى ﷺ إلى أن نعمِّم فى الدعاء، ولا يكون الدعاء خاصًّا بالإنسان الفرد فقط، ولقد زكى الإسلام فى أتباعه روح العمل الجماعى، ونهاهم عن التفرق والتمزق؛ كى لا يكونوا فريسة سهلة لأعدائهم.

من ذلك قوله ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، (٦٧٥١).

٤٩. من حقوق إخوة الإيمان (*)

كان رجل من أهل الشَّام ذو بأسٍ، وكـان يَفِـدُ إلى عمـر بـن الخطاب، ففقده عمر، فقال: ما فعل فلان بن فلانٍ؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، يتابِع فى هذا الشراب.

قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلانٍ، سلام عليك، «فإنى أحمد إليك الله الـذى لا إلـه إلا هو غافر الذَّنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول لا إلـه إلا هو إليه المصير، ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخـيكم أن يقبـل بقلبه، وأن يتوب الله عليه».

فلما بلغ الرجـل كتـاب عمـر، جعـل يقـرؤه ويُـردِّده غـافر الذنب، وقابـل التَّـوب، شـديد العقـاب، قـد حـذَّرنى عقوبتـه، ووعدنى أن يغفر لى.

*****

- هذا موقف عُمَرِىّ يفيض بالحكمة ويتسم بالبصيرة، فـسيدنا عمـر بـن

(*) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٢/ ١٧٥) تفسير سورة غافر.

الخطاب ﷺ يستشعر أمانة المسئولية، ويدرك أن كلَّ مَنْ ولى من أمر المؤمنين شيئًا فى أى موقع أو عمل؛ فقد جعله الله تعالى راعيًا لهم قائمًا على شئونهم، وأن الله سبحانه سيحاسبه على هذه المسئولية، وفى الحديث النبوى الشريف: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته: الأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[(١)].

لذلك رأينا أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يداوم على تتبع أحوال الرعية.

- ودرس آخر يستفاد من هذا الموقف وهو: أن المؤمن الصادق لا يترك صاحبه فى شدته، وأخطر الشدائد الوقوع فى معصية الله تعالى. وفى الحديث النبوى الشريف: «انصر أخاك ظالـمًا أو مظلومًا»، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟! قال: «تأخذ فوق يديه»[(٢)].

- وفى الموقف نرى سيدنا عمر يسارع بأمرين:

الأول: بَذْل النصيحة كتابة لبعد المكان بينهما، مستعينًا فى نصيحته بهدى القرآن الكريم؛ فهو خير سبيل للداعية، وأصدق منبع لكل مصلح.

الثانى: هو طلب الدعاء من الصالحين الحضور لأخيهم الذى أسرف على

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب العبد راع فى مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، (٢٢٧٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، (٤٨٢٨)، واللفظ للبخارى.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالـمًا أو مظلومًا، (٢٣١٢).

نفسه، ووقَع فى شرب الخمر، أن يمن الله عليه بالتوبة الـصادقة، وفى هـذا بـصيرة إيمانية من سيدنا عمر ﷺ؛ ففى الحـديث النبـوى الـشريف: «دَعْـوةُ المـرء المـسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعـا لأخيـه بخـير، قـال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل»[(١)].

وكما رأينا فى الموقف؛ فقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوات الصالحة، ونفع الله بهذه الرسالة العمرية الحكيمة الهادية.

فما إنْ بلغت الرسالة الرجل حتى وقعت فى قلبه وجعـل يرددهـا، ويقـول: غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذرنى ربى عقوبتـه، ووعـدنى أن يغفر لى، وتاب المذنب، وأصبح فى صفوف الصالحين.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الدعاء للمـسلمين بظهـر الغيـب، (٧١٠٥).

٥٠. توفيق الله لك (*)

روى أن مربيًّا حكيمًا رأى عنده تلميذًا معجبًا بنفسه مفتونًا بعمله، لا يكف عن مَدْح نفسه وتَزْكِيتِها. فاعترضه الحكيم المربى، وقال له: يا ولدى، نظرت إلى عملك، ولم تنظر إلى توفيق الله لك!!

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية؛ من أهمها:

- معالجة إعجاب المرء بنفسه حين يفخر على إخوانه بأعماله، ويفتن بنفسه، وهى حالة متكررة شائعة بين الناس. والمسارعة بتزكية النفس والإعجاب بها من أشد أمراض القلوب إهلاكًا؛ لأنها تُورِّث الغرور، والغرور مقبرة النجاح.

ومن هَدْى القرآن الكريم ألا نسارع بتزكية أنفسنا؛ لأن الله سبحانه وتعالى وحده هو العليم بحال أمورنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ (النجم).

وما يتمتع به الإنسان من نِعَم، هى فى حقيقتها من فضل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ (النحل/ ٥٣)، وما فيه الإنسان من صلاح

(*) موقف معاصر.

وفلاح ليس لأنه متميز على الناس؛ فكلنا لآدم وآدم من تراب، والحق أن هذا الصلاح وذلك الفلاح من فضل الله وتوفيقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (النور/ ٢١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ (هود).

والعبد الموفق من الله ينسب الفضل لصاحب الفضل؛ وهو الله رب العالمين؛ فيقول كما قال سيدنا سليمان ﷺ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (النمل)، وحكى القرآن الكريم حال الصالحين حينما يفعلون الخيرات، وكيف أنهم لا يعرفون التباهى بها، أو الإعجاب بشأنها، بل يخافون أن يكون قد دخلها رياء أو نقص ولقد سألت السيدة عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون).

قالت رضى الله عنها: هل هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال النبى ﷺ: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون فى الخيرات»[1].

- وهكذا يظهر لنا من موقف الحكيم المربى أنه نبه هذا التلميذ إلى هذه العلة الخطيرة؛ وهى ألا يفتن المرء بعمله وألا يعجب بنفسه، بل على الإنسان أن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، (٢٥٣٠٢)، والترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المؤمنون، (٣١٧٥)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

ينظر إلى توفيق الله وإلى فضل الله، وإلى نعم الله، والحق أن نِعم الله تستوجب الشكر لا العُجْب والغرور.

• وفى صَدْر هذا الموقف نتعلم حقيقة ينبغى أن ينتبه إليها كثير من الدعاة، وهى أنهم عندما يرون عيبًا ما فى شخص يُقبل على العلم ويُقبل على الدين، فمن واجبهم أن يوجِّهوا هذا الإنسان إلى خطورة هذا المرض أو هذا العيب أو هذا الداء الذى تَمَكَّن منه؛ فواجب العالم أن يكون أسوة وقدوة، وأن يقوم بالبناء الإيمانى، والفكرى فى رحاب القرآن والسنة، حتى يصاحب هذه المعارف العلمية الخلق الحسن والإيمان الصادق.

• أيضًا يوضح هذا الموقف أن الحكيم المربى كان طبيبًا بالنسبة لهذا التلميذ الذى قد تمكَّن داء العُجب منه، وهذا مرض خطير إذا تمكَّن من الإنسان جعله ينسب كل شىء إليه، ويَنْسَى فضل الله عليه، ولا شك أن أمراض القلوب من أخطر الأمراض التى يتعرض لها المبتدئ بالعلم وكثيرا ما يلبس إبليس على طالب العلم بهذه الأمور؛ حتى يفسد عليه ثواب العلم، وثواب البحث، وثواب العمل الصالح، ومن هنا لا يتنبه إلى هذه الأمراض الخفية إلا العالم الفاهم الراعى الناضج الذى يبصر بعين الخبرة، وَيُدرك ببصيرته هذه العلل الخفية فى تلاميذه.

• وفى الختام فإن هذا الموقف يؤكد لنا حقيقة مفادها: أنه إذا كان الطبيب من واجبه أن يعالج الأمراض الظاهرة، فمن واجب الحكيم والعالم أن يعالج أمراض القلوب والنفوس.

اللهم اشفنا بشفائك، وداونا بدوائك، وطهر قلوبنا ونفوسنا من كل ما لا يرضيك

٥١. معروف الكرخي يدعو للعصاة (*)

كان معروف الكرخى قاعدًا على نهر دجلة، فمر به شباب فى مركب يضربون الملاهى، ويشربون الخمر. فقال أصحاب معروف الكرخى له: هؤلاء يعصون الله، فادعُ عليهم.

لكن معروفًا رفع يديه، وقال: اللهم أسألك أن تفرحهم فى الآخرة؛ كما فرحتهم فى الدنيا. فاعترض أصحابه عليه، وقالوا له: إنما قلنا لك ادع عليهم وليس لهم.

فقال معروف: إذا فرَّحهم اللهُ فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا، ولم يضركم شىء.

*****

فى هذا الموقف دلالات هادية، تعد منهجًا تربويًا فى الإصلاح:

- أولى هذه الدلالات: أن الدعاء على المخطئ لا يصلح، وإنما إعانة المخطئ على التوبة والإقلاع عن المعصية هو الدليل القويم للإصلاح والتربية، وينبغى على العاقل ألا يكون ساخطًا ناقمًا فقط على الظواهر السلبية من حوله، بل

(*) ورد فى البيهقى فى شعب الإيمان، باب: فيما ورد من الأخبار فى التشديد على من اقترض من عرض أخيه المسلم شيئًا، (٥/ ٢٩٤)، رقم (٦٧٠٢).

يهتم بالعلاج متأسيًا بهدْى سيدنا رسول الله ﷺ حين قال: «سددوا وقاربوا»(١).

والقدوة الصالحة فى سيدنا رسول الله ﷺ، صاحب الخلق العظيم الرءوف الرحيم بأمته، فحين دعا أهل الطائف، وبالغوا فى إلحاق الأذى به تَضَرَّع إلى ربه، ونزل سيدنا جبريل عليه السلام يعرض عليه أن يطبق على الكفار الجبلين، وأن يهلكهم، فقال النبى محمد ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئًا»(٢).

ولم يتعجل سيدنا رسول الله ﷺ الدعاء عليهم، بل كان من خلقه العظيم أنه ادخر دعوته المستجابة شفاعة لأمته يوم القيامة، وفى القرآن الكريم منهج قويم فى مقابلة السيئة بالحسنة، ويبين القرآن هذا الأثر العظيم، وهذه النتيجة التى ينتظرها الإنسان المؤمن حين يقابل السيئة بالحسنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت)، هكذا تنقلب العداوة إلى مودة حين تقابل السيئة بالحسنة.

• ثانى هذه الدلالات: أن الاشتغال بالدعاء على العصاة والاشتغال بإدانتهم إنما هو لون من مساعدة الشيطان وتقديم العون لإبليس؛ كى يسيطر عليهم،والصواب هو الاشتغال بالدعاء لهم. كما أن الإعانة لإصلاح المخطئ فيها

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، (٦٠٩٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله،(٧٣٠٠).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، (٣٠٥٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (٤٧٥٤).

ثواب من الله تعالى، كما أنه يخشى على من يشتغل بالدعاء على غيره أن تقع منه شماتة؛ فيعاقبه الله تعالى، ولنا فى الحديث الذى رواه مسلم عبرة وعظة.

فعن جندب ﷺ أن رسول الله ﷺ حدث أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذى يتألى على أن أغفر لفلان، فإنى قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك[1]، فأبلغه النبى ﷺ.

وهنا تحذير من الله تعالى، يبلغه لنا رسول الله ﷺ بأن الاشتغال بالتغالى بالحكم على الناس وإساءة الظن بهم، واستعجال العقوبة لهم، ربما أصاب الناس بإحباطِ العمل، واستعجالِ العقوبة من الله تعالى عليه لا على مَنْ دعا عليه، بل الصواب أن يشتغل الإنسان بالدعاء بالإصلاح والهداية ونحو ذلك.

إذًا فواجب الداعية أن يأخذ بيد المخطئ أو بيد العاصى؛ حتى ينقذه إلى بر الأمان.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والأداب، باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، (٦٨٤٧).

٥٢. نصيحة أم توبيخ ؟!(*)

كان الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ فى مجلس علم يُعلِّم النـاس، فاعترضه رجل بكلام غليظ يتتبع فيه الهَفَوات.

فقال له الشافعى معلمًا:

تَعَهَّدْنى النصيحة فى انْفرادٍ وجنِّبنى النصيحة فى الجَمَاعَةْ

فإنَّ النُّصحَ بينَ النَّاسِ نوع من التوبيخ لا أرضَى اسَتِمَاعَهْ

وإن خالفتنى وعصيت قولى فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

*****

• هذ ا الموقف فيه تربية كريمة وتوجيه لسلوك المؤمن تجاه ما يسمو به، فينبغى للمؤمن أن لا يقف عند الهفوات، وإنما سبيل المؤمن أن يصطفى أحسن ما قيل؛ امتثالًا لهدْى القرآن الكريم حين مدح عباده الفائزين بهداه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ (الزمر).

وفى هذه الآية يقول ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع

(*) راجع ديوان الإمام الشافعى/ قافية الهاء.

الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدِّث بأحسن ما سمع، ويكفُّ عما سواه؛ وذلك لأن المؤمن حريص على فِعْل ما هو أكثر ثوابًا عند الله تعالى، ولا ينشر إلا الخير.

ولقد روى الطبرانى من حديث أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «إن أحبكم إلَيَّ أحاسنكم أخلاقًا الموطؤون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلَيَّ المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبرءاء العيب»(١).

وهكذا نرى أن التماس العيوب للغيبة ومحاولة تتبع الهفوات والاشتغال بها سلوك نهى عنه الرسول ﷺ ولقدْ تأسى الإمام الشافعى فى موقفه هذا بسنة رسول الله ﷺ.

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «إن من أحبكم إلَيَّ وأقربكم منِّى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إلَيَّ وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون». قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيهقون؟ قال ﷺ: «المتكبرون»(٢).

- أيضًا فى هذا الموقف نتعلم أدبًا كريمًا من آداب النصيحة، وهو تجنب تقديم النصيحة فى ملأ من الناس؛ لأن فى ذلك إساءة للمشاعر، ونوعًا من التوبيخ نهى عنه رسول الله ﷺ، كما أن المراد بالنصيحة هو الإصلاح، وليس التعالى أو

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٧/ ٣٥٠) برقم (٧٦٩٧)، وفى المعجم الصغير (٢/ ٨٩) برقم (٨٣٥)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب معالى الأمور، (٢٠١٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٧).

التفاخر بالعلم، أو إعلام الناس بهفوة هذا أو سقطة ذاك.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»[1].

يضاف إلى ما سبق أن تقديم النصيحة فى ملأٍ من الناس فيه فتنة للناصح، فربما دخله شىء من الزهو أو الافتخار. والأسوة الحسنة والقدوة الصالحة لنا جميعًا فى تقديم النصيحة هو سيدنا رسول الله ﷺ فقد كان ﷺ إذا أراد أن يصحح أمرًا أو ينصح أحدًا، قال ﷺ: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»[2]، ولا يخصص أحدًا بعينه.

هذا ما تعلمناه فى هذا الموقف؛ وهوأن النصح على الملأ قد يصادر المشاعر الإنسانية، ويجعلها تنفر وتضيق بالنصيحة ولا تتقبلها، أما النصح فى السر فيعد لونًا من ألوان الهداية والمحبة بين الناس.

فإبداء النصيحة على الملأ قَدْ يأتى بنتيجة عكسية، ولا ينال الناصح من المنصوح إلا الإعراض، وجرح المشاعر، ونحو ذلك من الأمور التى لم تكن من هدى النصيحة، ولا من أهدافها، وإنما حين تكون النصيحة فى حدود الانفراد بين الناصح والمنصوح بعيدًا عن الناس، فإنها تحقق النتيجة المرجوة، وبعيدًا عن الرياء أيضًا، ويجد المنصوح سبيلا؛ ليتفهم الخطأ أو العيب الذى وقع فيه، ويعود عنه،

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب فى النصيحة والحياطة (٤٩٢٠)، والبيهقى فى السنن الكبرى، كتاب قتال أهل البغى، باب ما فى الشفاعة والذب عن عرض أخيه المسلم من الأجر (١٦٤٥٨)، وحسن الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٥٦).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٥)، شرح رياض الصالحين (١/ ١٧٥).

أما حين تنصح الإنسان المذنب أو المخطئ فى ملأ من الناس؛ فإن الـشيطان يتخـذ ذلك وسيلة، لِيُعْلِيَ مـن مـشاعر التعظـيم للـنفس، وينتهـى بـه الأمـر إلى رفـض النصيحة.

كما أن الإخلاص فى تقديم النصيحة يجعلنا نبتعد بها عن الشهرة وعن الملأ، وكل هذه الأمور التى يُخشى أن يدخل الرياء فى قلوب الناصحين بسببها.

اللهم أدبنا بأدب القرآن وخلقنا بخلق سيدنا محمد ﷺ

٥٣. وبقيت أنا وأنت (*)

دخلت أم سعد بنت سعد بن الربيع ﷺ على أبى بكر الصديق ﷺ، فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه. فدخل عليه عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يا خليفة رسول الله، مَنْ هذه؟ قال أبو بكر: هذه بنت من هو خير منى ومنك. قال عمر: مَنْ؟! قال أبو بكر: رجل قُبِضَ على عهد رسول الله ﷺ، وتبوأ مقعده فى الجنة، وبقيت أنا وأنت.

*****

• دلالات هذا الموقف تُربِّى فينا خلق الوفاء وإعلاءَ شأن من ضَحَّوْا فى سبيل الله تعالى؛ بأن نكرمهم ونرعاهم فى أبنائهم وأُسَرِهم.

وسعد بن الربيع أنصارى ﷺ، من الذين آووا ونصروا رسول الله ﷺ، وجاهدوا فى الله حق جهاده، ولقد افتقده الرسول ﷺ فى غزوة أحد، وقال: من يأتى بخبر سعد بن الربيع، فبحث عنه أُبىّ بن كعب، فوجده بين الشهداء وبه رمق الحياة، فقال له أُبىّ: بعثنى إليك رسول الله ﷺ، فقال سعد: أقرئه منى

(*) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب ذكر سعد بن الربيع الأنصارى ﷺ، (٦٥٥٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبى فى التلخيص وقال: بل إسماعيل ضعفوه.

السلام، وأخبره أنى قد طُعنت اثنتى عشرة طعنة، وأنـى قـد أنفـذت مقـاتلى ـ أى قتلته ـ وأخبر قومك يا أُبىّ أنهم لا عذر لهم عند الله تعـالى إن قُتـل رسـول الله ﷺ وواحد منهم حى، ثم فارقت روحه جسده ﵁.

فلما بلغ النبى ﷺ خبره ومقالته أثنى عليـه خـيرًا، وتـلا قولـه تعـالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (آل عمران).

لذا كان سيدنا أبو بكر ﵁ يكرم سـعد بـن الربيـع فى أولاده؛ وفـاءً لـه بـما ضَحَّى وقَدَّم، فقيمة المرء فى قَدْر عطائه وتضحيته من أجل أمته ودينه ومقدساته.

- ودلالة أخرى فى هذا الموقف تُلْمَح من قول أبى بكر ﵁ لعمـر ﵁ عـن سعد بن الربيع الأنصارى الشهيد: رجل قـبض عـلى عهـد رسـول الله ﷺ وتبـوأ مقعده فى الجنة، وبقيت أنا وأنت.

فمع مكانة سيدنا أبى بكر ﵁ وقربه من الله ورسوله ونـزول آيـات القـرآن الكريم تزكِّيه، وبشرى رسول الله ﷺ له بأنه من أهل الجنة، مع هذه المكانة السامية فى منازل المقربين والسابقين، نجد فى هذا الحذر الذى يخالطه التواضع مـن سـيدنا أبى بكر ﵁؛ فهو لا يرى نفسه خيرًا من غـيره مـن الـصحابة، وبخاصـة أولئـك الذين استشهدوا وكان لهم حـسن الخاتمـة، فى حـين أنـه مـا زال فى دار الاختبـار والفتن، وهذا حال من مدحهم الله فى قرآنه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون).

- أيضًا هناك دلالة تستفاد من هذا الموقف؛ وهى أن العبرة بالخواتيم، فقد

خُتِم لسعد بن الربيع بالشهادة فى سبيل الله وحاز المنزلة العالية فى الجنة فى حين أن من لا يزال حيًّا يرزق فى الدنيا لا يدرى بماذا يُخْتَم له، وهل سينال الشهادة أو لا؟ وقد قال ﷺ: «إنما الأعمال بالخواتيم»[1].

وهذا يحمل المؤمن على مواصلة التقرب إلى الله؛ عملا بقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾(الحجر).

أى: حتى يأتيك الموت، وتكون الخاتمة، فمن خُتم له بخير كان من أهل الفلاح.

نسأل الله تعالى أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، (٦٢٣٣).

٥٤. هكذا تُمحق بركة الوقت[*]

شكا أحد طلاب العلم إلى أستاذه وشيخه سرعة انقضاء الوقت دون إنجاز عمل، فقال له شيخه: لعلَّك تؤخر صلاة الصبح إلى ما بعد شروق الشمس؛ فالوقت يبارك فيه بطاعة الله، وتمحق بركته بمعصية الله.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية منها:

- الدلالة الأولى: إحساس طالب العلم بسرعة مرور الوقت، دون أن ينجز شيئًا ينتفع به فى دنياه أو آخرته.

هذا الإحساس يدل على يقظة الطالب وحرصه على وقته، وهكذا شأن المؤمن حريص على وقته وعمره؛ وهذا مستفاد من قول النبى ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسئل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[1].

- الدلالة الثانية: بصيرة الشيخ وإدراكه ـ بتوفيق الله له ـ سبب هذه

(*) موقف من حياتنا المعاصرة.

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب فى القيامة، (٢٤١٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٠٠).

الظاهرة. وليس فيما قاله الشيخ رجمًا بالغيب، ولكنه لَمَّا عَرَض هذه الظاهرة على القرآن والسنة وجد لها تفسيرًا وتعليلا فى قول رسول الله ﷺ، فذكَّره الشيخ ولم يَجْزِم؛ فلعلَّ سببًا آخر كان وراء مَحْقِ بركة الوقت، فكان توفيق الله تعالى للشيخ فيما اختار من سنة رسول الله ﷺ.

والحديث الذى أشار إليه الشيخ فى جوابه هو موقف سيدنا رسول الله ﷺ من السيدة عائشة رضى الله عنها لَمَّا رآها قد نامت حتى شروق الشمس دون أن تصلى الصبح، فقال لها: «قومى اشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين؛ فإن الله يُقسِّم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[1].

ومعلوم أن الجادين والكُسالى يتمايزون فى هذا الوقت، فيُعطى كل امرئٍ حسب استعداده من خير الدنيا والآخرة.

أيضًا يرتبط جواب الشيخ مباشرة بالحديث النبوى الشريف الذى دعا فيه سيدنا النبى ﷺ للمبكرين بالبركة؛ وهو قوله ﷺ: «اللهم بارك لأمتى فى بكورها»[2].

- الدلالة الثالثة: بيان الشيخ للقاعدة العامة لمحصول الانتفاع بالأوقات وربطه بالطاعة، وعدم الانتفاع بالأوقات وربطه بالمعصية.

وهذا فى إطار حديث رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان،

(١) اخرجه البيهقى، راجع الترغيب والترهيب (٢/ ٥٣١).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكيين، من حديث صخر الغامدى ﷺ، (١٥٤٨١)، وأبو داود فى سننه كتاب الجهاد، باب فى الابتكار فى السفر، (٢٦٠٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٤١).

فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضُّرمة بالنار»[1].

وهو من نبوءات النبي ﷺ؛ حيث تمحق بركة الوقت بسبب كثرة المعاصي.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ، (١٠٩٥٦)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب تقارب الزمان وقصر الأمل، (٢٣٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٢٢).

٥٥. أنا فَجْر جديد (*)

اعتاد رجل تضييع أوقاته بين اللهو والكسل والخمول، وكان كلما حَدَّثَه أهله أن يُقلع عن حالته تلك التى خسر بسببها أعمالًا كثيرة وأرباحًا طائلة، قال لهم: العمر طويل، والأيام آتية، وسوف أعمل.

فحضره الحسن البصرى ﵁، فاعترضه بقوله المأثور: «يا هذا، ما مِنْ يوم ينشق فجره إلا نادى منادٍ: يا ابن آدم أنا خَلْقٌ جديد، وعلى عَمَلِك شهيد، فاغتنم منى؛ فإنى لا أعود إلى يوم القيامة».

*****

- هذا موقف فيه فِقْه ووعْى بأهمية العمر والزمن، ويوضح أهمية عمارة الأوقات بصالح الأعمال، والمتأمل لأيام العمر وكيف مضت، وكيف أن عامة الناس يحسبون أعمالهم بالأيام والشهور والسنوات، فى حين أن أهل الحكمة والصلاح يحسبون أعمارهم بقدر ما ينجزون فيها من أعمال عظيمة تنفع فى دنياهم، وخيرات يثابون عليها فى آخراهم، وإن المتأمل لأيام العمر يدرك هذه

(*) ابن رجب الحنبلى، جامع العلوم والحكم، ص ٤٢.

الحقيقة التى أشار إليها الحسن البصرى، وهى أن كل شىء يفقده الإنسان يتعلـق بعودته أمل إلا العمر؛ فإنه إن مضى لا يتعلق بعودته أمل فكل لحظة مـن لحظـات الحياة نعمة أنعـم الله بهـا عـلى الإنـسان، وهـى فرصـة لإنجـاز الخـيرات وفعـل الصالحات.

- وأيضًا يشير الموقف إلى عادة تعطيل عمارة الأوقـات بالعمـل الـصالح، ويأتى فى قمة هذه المعطِّلات تلك العادة التى استحكمت فينا؛ إنها عادة التسويف والتأجيل لما يُطْلَبُ إنجازه من أعمال، لا لسبب سوى التكاسل والتراخى، وتضيع آلاف الساعات، وتفقد عشرات الأيام دون إنجاز عمل، ونحن نسمع فى مجتمعنا المعاصر من يؤجل فعل خير أو ترك منكر إلى أيام قادمة؛ كقولهم: من أول الـشهر سَأُصلِّى، من أول الأسبوع سأستذكر، حين تتحسن أحوالى سأقلع عن التـدخين، أو سأتصدق... إلى آخر هـذه الأمـور التـى هـى مـن وسوسـة إبلـيس وخداعـه للإنسان.

فالحكمة تقول: «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد»، فالتسويف يؤدى إلى تراكم الأعمال على الإنسان وإلى عدم قدرته على إنجازها فيما بعد، ولا شك أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد علَّما المؤمن أن يوزع الأعمال على الأوقات؛ كما وزع الله الصلوات الخمس على الأوقات، ووزع أعمالا كثيرة على وقت المسلم اليومى فى ليله وفى نهاره، وليتنا نتعلم هذا السلوك الإيمانى فى حياتنا العملية، وأنه مع التسويف تضيع خيرات كثيرة، والقرآن الكريم ينقلنا من هذا التراخى، وذلك التسويف إلى الجدية والمبادرة لفعل الخيرات والمسارعة إلى الصالحات، قال الله

تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾ (البقرة/ ١٤٨)، ويقول سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ (آل عمران)، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة/ ٩).

فتأمل أيها المؤمن قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾.. وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾، وكلها أوامر تحث الإنسان على أن يسارع إلى فعل الخيرات وإلى هدى القرآن وإلى سنة رسول الله ﷺ، وفى الحديث النبوى الشريف يقول الرسول ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنظرون إلا فقرًا مُنسيًا، أو غنًى مطغيًا، أو مَرَضًا مفسدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مُجْهِزًا، أو الدَّجَّال؟! فشرُّ غائب ينتظر، أو الساعة، والساعة أَدْهى وأَمَرّ»(١).

إن ظروف الغد والمستقبل ليست ملكًا لأحد، وأمْرُها إلى الله تعالى؛ لذا ينبغى اغتنام الفرصة التى بين أيدينا، والنبى ﷺ يقول: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمِكَ، وصحتك قبل سَقَمِك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغْلك، وحياتك قبل موتك»(٢).

وفى الحقيقة إن كان الإنسان جادًّا فى سيره إلى الله تعالى، فعليه أن يستعين

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب المبادرة بالعمل، (٢٣٠٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٣٥٧) برقم (١٠٥٧٢)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٦٦٦).

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب الرقاق، (٧٨٤٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٦٣) برقم (١٠٢٤٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

بالله ولا يعجز، وليبدأ الآن، وليس غدًا؛ فالغد ليس ملكًا لنا، وقد أشار الحسن البصرى ﷺ إلى ضرورة أن يسارع المؤمن إلى استغلال وقته، والاستفادة منه فى فِعْل الخيرات؛ لأنه ـ كما يقول الشاعر ـ:

من كُلِّ شىءٍ إذا ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ ... وما من اللهِ إن ضيَّعتَهُ عِوَضُ

فالمؤمن الصادق الموفق هو الذى يستغل وقته فى فِعْل الخيرات، وبالله التوفيق.

٥٦. البيئة علم إسلامى(*)

اعتاد رجل من السلف الصالح العناية بـالطريق الـذى أمـام بستانه، فكان يُعْنى به بنفسه فيُنحِّى (يُبعد) الأحجار والشوك وما يُلْقَى فيها من الفضلات والأذى، فقال لـه صـاحبه: لِــمَ تـشغل نفسك بالطريق، فبستانك أَوْلى باهتمامك؟!

فقال له: إن إزالة الأذى عن طريق الناس عمل صالح؛ فقـد قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يَمْشِى بطريق وَجَـدَ غُـصْن شـوك على الطريق، فأَخَّره، فشكر الله له، فغفر له».

*****

هذا الموقف يربطنا بأدب إسلامى رفيع وخُلُق إسلامى قويم فى التعامل مع البيئة التى حولنا، وينتفع الناس بها، سواء أكانت هذه البيئة طريقًـا يـسير النـاس فيه، أم شجرة يستظل الناس بها، أم هواءً يستنشقه النـاس، ونحـو ذلـك؛ حيـث يتعامل المسلم مع هذه الأشياء على أنها نِعَمٌ تفضَّل الله بها علينا.

وكى يستمر الانتفاع بهذه النعم شرع الله سبحانه وتعالى هديًا للتعامـل مـع

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل التهجير إلى الظهـر، (٦٢٤)، ومـسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، (٥٠٤٩).

البيئة يتركز فى محاور ثلاثة:

الأول: تشريع وقائى للبيئة:

فقد نهانا الله عن الإفساد فى الأرض، وعاقب المفسد فى البيئة فى الدنيا والآخرة؛ فأما العقوبة العاجلة فى الدنيا فبالضرر الناتج عن الإفساد من التلوث ومسببات الأمراض، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الروم).

ومن هدى الإسلام الوقائى للبيئة نَهْى رسول الله ﷺ عن التغوط فى طريق الناس، أو قطع شجرة يستظلون بها، وكذلك نهى الإسلام عن التلوث الصوتى؛ فقال تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ (لقمان).

والقاعدة الإسلامية فى التشريع الوقائى هى قول رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[1]؛ فكل ما يتسبب فى إضرار البَشَر من أدخنة السجائر مثلا، أو عادم السيارات، أو إلقاء الفضلات الضارة، أو تلويث المياه الجارية؛ كماء النيل عندنا كل هذا منهيٌّ عنه فى القرآن والسنة كتشريع وقائى للبيئة.

الثانى: تشريع علاجى:

فكما أمرنا الله تعالى ألا نتسبب فى الإضرار بالبيئة وأن نحافظ عليها، فقد أمرنا أن ندفع الضرر عنها إذا تعرضت للعدوان من الآخرين، وجعل إزالة الضرر عن البيئة عملا صالحًا ننال به رضا الله تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، من مسند بنى هاشم، مسند عبد الله بن العباس ﷺ، (٢٨٦٧)، وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (٨٩٦).

وفى الحديث النبوى الشريف، قال رسول الله ﷺ: «وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[1]. ومن ذلك الحديث النبوى الذى ورد بالموقف، وهو قوله ﷺ: «بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأَخَّرَهُ، فشكر الله له، فغفر له»[2].

الثالث: تشريع للتعمير والتنمية:

ويظهر ذلك من خلال الترغيب فى الإضافة للبيئة؛ ليكون الإنسان دعمًا لها، لا عبئًا عليها، فالنبى ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[3].

ومن الهدى النبوى المبارك قول رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة، وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[4].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، (٢٨٢٧)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل التهجير إلى الظهر، (٦٢٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، (٥٠٤٩).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، (٢١٩٥)، ومسلم فى صحيحه، كتاب المساقاه، باب فضل الغرس والزرع، (٤٠٥٥).

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ، (١٣٠٠٤)، والبخارى فى الأدب المفرد، ص، ١٦٨ برقم (٤٧٩)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٢٤).

٥٧. من تلبيس إبليس (*)

اعتاد رجل أن يعتذر عن ارتكابه المعاصى بأن رحمة الله ﷻ وسعت كل شىء، فاعترضه الحسن البصرى رضي الله عنه. وقال له: هذا من تلبيس إبليس عليك؛ إنما الرحمة للمتقين، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ (الأعراف).

*****

هذا موقف إيمانى يحمل دلالات هادية تعالج وهمًا من أوهام العصاة، وتعالج فهمًا معوجًّا لمعنى الرحمة عند بعض الغافلين حين يتخذون الرحمة سلمًا للمعصية، وسبيلًا للسلامة من العقاب، وحجتهم: يا أخى نحن بَشَرٌ ولسنا ملائكة، ورحمة الله واسعة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ (الأعراف/ ١٥٦).

والحق أن هذه الأقوال ومثلها من تلبيس إبليس على الناس، وليس معنى سعة رحمة الله فتح باب المعصية أو التهاون فى ارتكابها، فالرحمة ليست عاطفة لا عَقْل معها أو شفقة تتنكر منها؟!

(*) جامع العلوم والحكم ٣/ ٦٣.

ولقد ضرب الإمام أبو حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ مثلًا للـذين يتعللـون بـأنَّ رحمة الله وسعت كل شـىء، فـلا يبـالون مـع ذلـك بفعـل المنكـرات وارتكـاب المعاصى. قال ـ رحمه الله: لو أن هناك قاعـة تـسع ألـف جـالس، ولكـن لا يـؤذن بدخول هذه القاعة إلا لمن يحمل بطاقة محددة، فإذا رفض بعضهم حمل هذه البطاقة المحددة، وحُرِم من الدخول، هل ذلك عيب فى سعة القاعة أم العيب فى تكاسلهم عـن اسـتيفاء الـشروط؟! وليـت هـؤلاء يقـرأون الآيـة لآخرهـا، قـال تعـالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (الأعراف).

إذًا فطريق الوصول إلى رحمة الله تعالى كما توضح الآية هو الإيمان والتقـوى والاقتداء بهدى رسول الله ﷺ، ويؤكد هذا المعنى آية أخرى تشير إلى قـرب رحمـة الله من المحـسنين، قـال الله تعـالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأعراف).

وفى المقابل يبـين الله فى الحـديث القدسـى أن العدالـة لا تـساوى فى عطـاء الرحمة بين الصالح والطالح. ويجب أن يتنبه المؤمن إلى أن الرحمة قـد تأخـذ شـكلا قاسيًا وصورة مؤلمة فى ظاهرها فى بعض الأحوال؛ فرحمة الطبيب بالمريض مثلا أن يمد المشرط؛ ليستأصل الداء، وقد يدفع الأب ولده إلى المدرسة وإلى العمل فى جو ممطر أو فى حرٍّ وازدحام، ومثل ذلك من الأفعـال التـى يكـون فى ظاهرهـا الـشدة والألم، ولكن يكمن فى باطنها الرحمة، فحين يؤخذ على يد المـسىء ويعاقـب عـلى إساءته لينتظم العمل، فذلك عين الرحمة.

ولا شك أن مجال الرحمة فى الإسلام واسع ممتد، فيكون بالتعاطف مع أهل الاحتياج من الفقراء والمساكين والأرامل والمصابين، والمرضى، ونحو ذلك، ويمتد مجال الرحمة فيشمل مجال الحيوان والطير، فلا نحمل عليه فوق طاقته، أو نتركه بدون طعام ولا شراب، ونحو ذلك.

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «بينما رجل يمشى بطريق فاشتد عليه العطش، فنَزَل بئرًا، فشرب منها، ثُمَّ خَرَج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بَلَغَ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسَقَى الكلب، فَشَكَرَ الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرًا؟ قال ﷺ: «فى كل كَبد رطبة أجر»[1].

ورحمة الإنسان بنفسه: أن يلزمها طاعة الله تعالى، وأن يباعد بينها وبين المعاصى، هذا هو مجال الرحمة، أما أن ينتقل مجال الرحمة بوهم فاسد عند بعض الغافلين وبعض العصاة من هذه المساحة الطيبة الودودة التى فيها هذه المشاعر النبيلة الحميمة إلى مجال المعصية، ويتخذ الرحمة؛ لتكون سبيلًا إلى فعل المعاصى، فهذا فهْم فاسد عالجه الإمام الحسن البصرى، ووضح أنه من فعل الشيطان ووسوسته، وقال لفاعله: هذا من تلبيس إبليس عليك.

ولعل الإمام الحسن البصرى رضي الله عنه قد أراد بهذا المقال: «هذا من تلبيس إبليس عليك» بيان أن الخطورة كل الخطورة تكمن فى أن يستمر المرء على معصيته؛

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل سقى الماء، (٢٢٣٤) ومسلم فى صحيحه، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، (٥٩٩٦).

بحجة أن رحمة الله تعالى واسعة فينتهي مآله إلى النار، وهذا مكمن الخطورة، ولكن على الإنسان أن ينتبه، وأن يبادر بالتوبة والمغفرة حتى يثوب إلى رشده؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المطففين)، أعاذنا الله من ذلك المصير.

والله المستعان

٥٨. لا تعلِّق القلب برضا النـاس (*)

اعتاد رجل السعى فى طلب رضا الناس تحصيلًا للمنافع مـن أحد الأغنياء، فوقع بسبب ذلك فى ذنـوب كثـيرة؛ منهـا الظلـم، وإهمال الفرائض.. وما إلى ذلك؛ وبسبب وشاية وصلت عنـه إلى هذا الرجل الغنى غضب عليـه وأَبْعَـدَه، فجعـل يتوعَّـد الواشـى بالانتقام، فرآه أحد الصالحين من علـماء الـسلف فنـصحه قـائلًا: «هلا انتهيت من تعلق قلبـك بالنـاس والـدنيا؟ والله لـو شـغلت نفسك برضا ربك لَحَقَّقَ لك مرادَك، وأغناك من فضله».

أين أنت من قول النبى ﷺ: «من الـتمس رضـاء الله بـسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضـاء النـاس بـسخط الله وكله الله إلى الناس». ففعل الرجل ما نصحه به العـالم، فأغنـاه الله من فَضْله.

*****

(*) كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن اكتبى إلى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى على؛ فكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «من التمس رضـاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس رضاء الناس بـسخط الله وكلـه الله إلى النـاس» والـسلام عليك. أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب: الزهد، باب منه، (٢٤١٤)، وصححه الألبانى فى تعليقه.

هذا موقف إيمانى يحْمل من دلالات الهداية والرشـاد الكثـير، ومـن يتأمـل الحياة يجد أن هذا الموقف يتكرر كثيرًا، وإن كان بصورٍ مختلفـة، ووجـوه متباينـة، فكلنا يرى هذه المغريات التى تغشى الناس بضيائها مـن بعيـد، كمغريـات المـال والمنصب والشهرة والقوة، وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وكـم من أناس انساقوا أمام هذه المغريـات؛ طلبًـا لرضـا النـاس، وتحقيقًـا للمـصلحة المادية، فكانت خسارتهم عظيمة، وفى قمة هذه الخسارة خسارتهم لرضا الله تعالى، والمؤمن العظيم إذا رأى نفسه متحـيِّرًا بـين الله والنـاس جاهـد نفسه وهواهـا، واستعان بالله واستعاذ به، وعَلِم يقينًا أن كل ما فاته دون الله تعالى فهو يـسير، وأن كل ما جاء به سوى الله قليل.

يقوِّى هذا المعنى ويؤيِّـده حـديث رسـول الله ﷺ: «مَـنْ أرضى الله بـسخط الناس كفاه اللهُ الناسَ، ومن أسخط الله برضا الناس؛ وكله الله إلى الناس»[1].

وإلى هذا المعنى تشير آيات القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (التوبـة)، وقوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ (النساء/ ١٠٨).

والمتأمل لواقع حياة صحابة رسول الله ﷺ الذين تركـوا أمـوالهم وديـارهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، ماذا كانت النتيجة لموقفهم هذا؟! لقد نَصَرهم الله سبحانه وتعالى وأيـدهم بجنـده، وأعَـزَهم بعزتـه، وعطَّـر الله ذِكْـرهم فى الـدنيا

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر، (٢٧٧)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٣١١).

والآخرة، وجعلهم مصابيح هداية للناس فى كل زمان ومكان، وفى المقابل نجد أن هناك الملايين من الناس اندثروا فى التراب، فلا ذِكْرَ لهم فى الدنيا، ولا حظَّ لهم فى الآخرة، بل وربما كان بعضهم كالمنافقين موضع لعنة إلى يوم القيامة، وهذا يظهر لنا ويوضح كيف أن سَعْى العبد إلى رضا الله تعالى يأتى له بكل خير.

يضاف إلى هذا أن إرضاء الجميع غاية مستحيلة، وليست مطلبًا لعاقلٍ أبدًا؛ لذلك ينبغى للإنسان ألا يجعل الناس أمله فى المقدمة، بل عليه أن يجعل رضا الله تعالى هدفه ومقصده، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لا يكون أحدكم إمعة، قالوا: وما الأمعة يا أبا عبد الرحمن؟ قال: يقول: إنما أنا مع الناس إن اهتدوا اهتديت، وإن ضلوا ضللت، ألا ليوطن أحدكم نفسه على أن كفر الناس أن لا يكفر[(٢)].

نعم ينبغى للإنسان العاقل المسلم أن لا يتلون أو يتقلب مع تيار المصالح المادية، يصفق لكل قائم، ويتمسح بكل قوى، ويتساقط صريعًا على أعتاب المنافع الدنيوية، لقد رفع النبى ﷺ بصائر المؤمنين إلى المنزلة العالية؛ إلى الإيمان بالله تعالى، فلا يصدر من المؤمن إلا ما وافق إيمانه.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب الإحسان والعفو، (٢٠٠٧). وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٢٧١).

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٩/ ١٥٢) برقم (٨٧٦٥)، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٣٧)، وصححه الألبانى فى مشكاة المصابيح بعد حديث (٥١٢٩).

وهكذا يعلمنا هذا الموقف أنه إذا كانت لكل إنسان غاية فى هذه الحياة الدنيا، فلابد أن يسلك لها الوسائل الشريفة التى تقربه من الله تعالى، وتباعده عن الشيطان، حتى لا يغترف من الذنوب والآثام ما يبعده عن دائرة الإيمان ويوقعه فى سخط الله تعالى.

والله المستعان

٥٩. بل الدنيا هى التى زهدت فيك (*)

كان أحد علماء السلف يُعلِّم تلاميذه فى مجلس علم، فأقبل عليه رجلٌ فى ثيابٍ رثَّةٍ متسخةٍ وهيئةٍ غير محمودة، وما إن انتهى إلى المجلس حتى أقبل على الناس يطلب منهم الصدقات، فأشار إليه العالم، وقال له: اجتهد فى طلب عمل شريف؛ لتقوم بحاجتك بدلًا من التعرض لسؤال الناس. فأنكر الرجل ذلك، وقال: إنّى زاهدٌ فى الدنيا. فقال له العالم: بل الدنيا هى التى زَهِدَتْ فيك.

*****

هذا الموقف يصحح مفهومين من المفاهيم الخاطئة التى شاعت بين كثير من الناس:

- الأول: عدم التمييز بين الدنيا المحمودة التى أوصى الله بها، وبين الدنيا المذمومة التى حذَّرنا الله منها، فالدنيا المحمودة هى التى تعين على طاعة الله تعالى، وفيها نفع للعباد وعمارة للبلاد، وتكون من حلال، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص/ ٧٧).

(*) موقف من حياتنا المعاصرة.

وقد علمنا القرآن أن نسأل الله تعالى الدنيا المحمودة؛ قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ (البقرة).

كما يبين لنا القرآن الكريم أن التقرب إلى الله تعالى، كما يتم بالعبادات والشعائر، فإنه كذلك يتم بكل عمل من الخيرات فى دنيا الناس ينفع الناس فى شتى نواحى حياتهم. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (الحج).

فدلت الآية على أن التقرب لله تعالى، كما يتم بالركوع والسجود والعبادة، فإنه كذلك يتم بالعمل النافع وبفعل الخيرات فى الدنيا.

وهذه الدنيا المحمودة التى أشار إليها العالِم فى هذا الموقف، حينما قال: بل الدنيا ـ أى: المحمودة ـ هى التى زهدت فيك؛ لأنك لم تسلك سبيل الخير وأبوابه، ونَبَّه هذا الرجلَ الذى اشتبه عليه الموقف فى حقيقة الزهد إلى أن يسلك سبيلها، وأن يحصلها طاعة لأمر الله تعالى.

أما الدنيا المذمومة فهى كل ما يشغل الإنسان من طاعة ربه ويلهيه عن ذكر الله تعالى، وتلك هى الدنيا التى حذرنا الله سبحانه منها، ففى شأنها يقول ربنا ﷻ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ (لقمان).

ولعل العالم الجليل الذى أوصى الرجل بضرورة البحث عن عمل كان يعلم جيدًا قيمة العمل وأهميته فى حفظ ماء الوجه وحفظ الإنسان من التعرض لمذلة السؤال.

وهذا موقف مطابق لتوجيه رسول الله ﷺ للرجل الذى جاء يسأل ويتذلل بالسؤال بين يدى رسول الله ﷺ، وأمام الصحابة، فأراد النبى ﷺ أن يحول هذه الحالة المستهلكة المتذللة بالسؤال إلى حالة منتجة كريمة عزيزة عفيفة، وهذه هى الطاقة التى تُنَمَّى وتستخدم وتُوَجَّه، وجاء له النبى ﷺ بقَدوم، وقال له: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا»[1]، وعاد الرجل بعدها بهيئة كريمة، وبربح وفير.

إذا فليس مفهوم الزهد فى الدنيا أن يُقبل الرجل بثياب رثَّة متسخة وهيئة غير محمودة، وهذا ما فعله الرجل، وفَهِمَ خطأ أن الزهد هو أن يرتدى هذه الملابس، فصحح النبى ﷺ له هذا المفهوم، بأن أرشده إلى العمل الشريف الذى يمكن أن يقتات منه، ويوفر له أسباب الراحة فى هذه الحياة.

- وهذا هو المفهوم الثانى الذى يعالجه هذا الموقف، وهو بيان حقيقة الزهد فى الدنيا، وأنَّه لا يعنى خلو اليد منها، بل امتلاكها مع عدم الافتتان بها، فمن ملك الدنيا من حلال، ولم تفتنه ولم تشغله عن طاعة ربه، وقدم أوامر الله على هواه فهو زاهد فيها، أما من تعلق قلبه بها وخلت يده منها، فهو مفتون بها، مشغول بأمرها، فليس بزاهدٍ فيها.

وهكذا يظهر لنا من خلال هذا الموقف أن الحياة الدنيا فيها جانب محمود ينبغى للإنسان أن يسعى لتحصيله؛ كى يحفظ كرامته، وأن يظهر الإنسان بين

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، (١٦٤٣)، وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود (٣٦٠).

الناس بصورة مقبولة محترمة، ولا مانع فى الشرع أن يأخذ زينته، وأن يحرص على جماله.

فالمؤمن الحق حريصٌ على أن يكون نافعًا كله عطاء، ينفع الناس بما ينجز من أعمال، يعطف على المساكين، يمد يده للمحتاجين.

وبالله التوفيق

٦٠. رب كريم .. وعبد لئيم (*)

رأى أحدُ الصالحين رجلًا لا ينقطع عن المعاصى، وقد غمره الله بنعيم ظاهر، وقد تعجَّب الناس من أمره، فقال لهم الرجل الصالح: «لا تعجبوا من أمره، ربٌّ كريمٌ وعبدٌ لئيم!».

فسمع الرجل العاصى هذه الكلمة، فتأثر وبكى، وطلب من الرجل الصالح أن يدعو له بقبول توبته، وغفران ذنوبه.

فقال له: يا هذا، أين أنت من فضل الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ (هود)؟!

*****

هذا موقف يحمل دلالات هادية، فى قمتها بيان لفضل عظيم من أفضال الله على عباده جميعًا؛ ألا وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ (هود).

والمتأمل لأحوال الناس يرى أنه قد جرت العادة أن يتودد الأدنى إلى الأعلى، فيتودد الفقير إلى الغنى، ويتودد أصحاب الحاجات إلى من بيدهم قضاء هذه الحاجات، وهكذا حال عامة الناس، أما الصالحون فيتوددون إلى الله تعالى بفعل الطاعات، وترك المنكرات.

(*) موقف من حياتنا المعاصرة.

وأن يتودد العبد إلى خالقه ورازقه؛ فهذا شرع وفرض، أما أن يتودد الله الغنى المتعال القوى العزيز إلى عباده الفقراء، فهذا مِنَّةٌ وفضل، وكما ظهر من الموقف، فقد تحبب الله وتودد إلى عبده بستره، فلم يفضحه بين خلقه وتودد فتاب عليه، وأصلح حاله.

وأما قول الرجل الصالح فى وصف كرم الله تعالى على عبده فى مقابل تمادى المذنب فى تفريطه: «ربٌّ كريم وعبدٌ لئيم»، ففيه مقابلة بين كرم الله البالغ وإعراض العبد وإسرافه على نفسه،وتحريك لمشاعر الإيمان ونوازع الخير داخل العبد الغافل، وفيه أيضًا إيقاظ له من غفلته لإخلاص الناصح لكلمته الحكيمة، نفع الله بها وتاب على العبد العاصى ببركتها.

كما يستفاد من قول الرجل الصالح: أين أنت من فضل الله فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾؟ أن فى ذلك تذكيرًا لكل تائب بأن رحمة الله فى انتظاره، وهو على موعد مع العفو والمغفرة والرحمة، وهذا من ود الله تعالى لعباده، والمتأمل لآيات الله فى كتابه الكريم، يجد أنها فتحت أبواب الأمل والرجاء للتائبين، من ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر)، وقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان).

ومن وُدِّ الله سبحانه وتعالى فى يوم القيامة أنهُ يـدْنِى عبده إليه؛ كما ورد فى الحديث الصحيح، فيقرره بذنوبه كلها ذنبًا ذنبًا، حتى يظن العبد أنه قد هلك،

حينئذ يقول الله تعالى له: «سترتها عليك في الدنيا،وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

ومن وُدِّ الله سبحانه وتعالى أنه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل؛ ومن وده سبحانه وتعالى أنه من أعرض وتولى عنه ناداه من قريب، ومن أقبل عليه تائبًا تلقاه من بعيد.

ومن وده سبحانه وتعالى ألا يعجل العقوبة، بل جعل لملك الحسنات سلطانًا على ملك السيئات، فإذا اقترف العبد خطيئة أمر مَلَكُ الحسناتِ مَلَكَ السيئاتِ أن ينتظر، لعل العبد يستغفر أو يتوب، فإن تاب كتبها ملك اليمين حسنة، وإلا كتبها ملك السيئات سيئة واحدة.

ومن وده سبحانه ما ألقى في قلب الأم والأب من مودة وحنان نحو الأبناء، وأن جعل بين الزوجين مودة ورحمة؛ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم/ ٢١)، فكل ود بين العباد هو من ود الله سبحانه وتعالى، وهذا من سعة فضل الله ورحمته.

وإذا ما تأمل العبد كيف يتودد الله إليه في مقابل جحود العبد وإسرافه على نفسه، فما من شك أن العبد سيخجل من رحمة الله وسعة فضله، وتتحول مشاعره من المعاصي، ومن مخالفة الله تعالى إلى مبادلة الله ودًّا بودٍّ، وتنشط عند العبد المشاعر الودودة الرحيمة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾، (٢٣٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (٧١٩١).

٦١. علامَ التعالى؟! (*)

مَرَّ رجل يتباهى، يظهر عليه آثار التَّرَفِ والغِنَى، فقال النبى ﷺ لرجل يجلس عنده: ما رأيُك فى هذا الرجل؟

فقال: هذا رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِىٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شَفَعَ أن يُشفَّع، فسكت رسول الله ﷺ.

ثم مَرَّ رجل آخر تبدو عليه أمارات الفقر، فقال النبى ﷺ للرجل الذى يجلس عنده: «ما رأيك فى هذا الرجل؟».

فقال: هذا رجل من فقراء المسلمين، إن خطب لا يُزوَّج، وإن شفع لا يُشفَّع، وإن قال لا يُسمع لقوله.

فقال النبى ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض من ذاك الأول».

*****

هذا موقف تربوى عظيم يحمل دلالات هادية منها:

- الدلالة الأولى: الأسلوب التربوى من رسول الله ﷺ فى التعليم، وإظهار الحقائق بشكل ملموس، تتجسد فيه المعانى، وتثبت فى ذهن المتعلم، فيكون

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء فى الدين، (٤٨٠٣).

أجدى وأنفع من الكلام المجرد، وهذا اتجاه تربوى محمدى من بين اتجاهات تربوية كثيرة تظهر فى السنة المطهرة، وتطلب من الباحثين فى التربية ومناهجها أن يتوفروا لها بالبحث والدراسة؛ كى تنتفع الأمة والدنيا كلها بهدى رسول الله ﷺ فى مناهج التربية.

فالملاحظة السريعة تُظهر أن النبى ﷺ كان يستخدم الحوار المقنع، ويلجأ إلى الاستدلال، كما يقدم الأسوة والقدوة فيما يقول، كما كان يستعين بالوسائل التوضيحية التى كانت تتناسب مع البيئة فى عصره ﷺ.

من ذلك رسمه ﷺ على الأرض خط الأجل وخط الأمل، واستخدام الحصى والعصا فى بعض البيانات العملية، وغير ذلك كثير تفيض به سنة الهادى البشير سيدنا محمد ﷺ، وكل هذا يكشف عن حرص رسول الله ﷺ على أمانة تبليغ الدعوة، ووصولها سهلة ميسرة إلى قلوب الناس وعقولهم، قال ﷺ: «إن الله لم يبعثنى مُعنتًا ولا مُتعنتًا ولكن بعثنى معلمًا ميسِّرًا»(١).

وفى هذا أسوة للدعاة والمعلمين فى اصطفاء ما يناسب المتلقى للعلم من وسائل وأساليب.

• الدلالة الثانية: وهى تمثل بيانًا عمليًّا لتأكيد مفهوم إيمانى، هو أن منازل الناس وأقدارهم عند الله تعالى، لا تتأتى من مظاهرهم؛ فقد تكون المظاهر مضللة خادعة، ولا تتأتى من أموالهم ولا من متاع دنياهم، وإنما الذى يضع الإنسان فى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، (٣٧٦٣).

المقدمة عند ربه هو صدق إيمانه بالله تعالى، وصلاح عمله، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات/ ١٣).

ولذا قال النبى ﷺ بعد أن مر الرجل المتباهى، ثم مرَّ الرجل الصالح المتواضع الفقير: «إن هذا الرجل ـ أى الصالح الفقير ـ خير من ملء الأرض من مثل هذا؛ أى الرجل المتباهى الغَنِىّ»؛ وذلك لأن الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، فعلامَ التباهى، وفيمَ التفاخر؟!

حُكِىَ أن أحد الصالحين رأى عالمًا أصابه الزهو بعلمه، والفخار بذكائه، فأحب أن يعظه، فسأله عن تفسير ثلاث آيات من القرآن الكريم؛

الأولى: عن قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (النحل/ ٧٨).

والثانية: عن قوله سبحانه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ (النحل).

والثالثة: عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء).

فأدرك العالم الموعظة، وقال: «بين جهل البداية وجهل النهاية علم قليل، فسبحانك يارب، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم».

وهكذا ينبغى ألَّا يتعالى الإنسان بما عنده من نِعَم؛ لأن النعم من فضل الله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل/ ٥٣)، كما ينبغى على الإنسان ألا يَسْخَر ممن هم دونه فى صحة أو مال أو علم، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا
تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ (الحجرات).

نسأل الله أن يهدينا، وأن يتولانا، وأن يرضى عنا

٦٢. فقه الأولويات(*)

خرج عبد الله بن المبارك فى قافلةٍ للحج، فمرَّ ببعض البلاد، فمات طائرٌ كان معهم، فأمر بإلقائه فى مكانٍ يلقى الناس فيه فضلاتهم، فإذا جارية تأتى فتأخذ الطائر الميت، فسألها عبد الله بن المبارك عن سبب أخذها الميتة.

فأخبرته الجارية بأنهم وقعوا فى الاضطرار ولا يجدون طعامًا منذ أيام. فأعطاها عبد الله بن المبارك نفقة الحج، ثم رجع، وقال: هذا أفضل من حجتنا هذا العام.

*****

فى هذا الموقف درس عظيم فى فقه الأولويات، فالأعمال الصالحة تتفاوت فى المنازل والدرجات.. والنبى ﷺ قال: «الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»(١).

وكان الصحابة ﷺ حريصين كل الحرص على معرفة أفضل الأعمال عند الله تعالى، وعلى معرفة أحب الأعمال عنده سبحانه؛ وذلك لأن أحب الأعمال

(*) البداية والنهاية، ابن كثير، (١٠/ ١٩١).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، (١٦١).

وأفضلها أرجى للقبـول عنـده؛ ولـذلك كثـرت أسـئلتهم عـن أفـضل الأعـمال وأحبها.

ومن يتتبع ما جاء فى القرآن والسنة فى هذا المعنى يرى أن الشرع وضـع لنـا جملة من المعايير؛ لبيان الأفـضل والأَوْلى والأحـب إلى الله تعـالى: فـصلاة الجماعـة تفضل صلاة الفرد بسبع وعـشرين درجـة، والفـرائض مقدمـة عـلى النوافـل... وهكذا؛ فالموقف الذى بين أيدينا هو تطبيق عملى وأسوة وقدوة فى هذا المعنى.

فعبد الله بن المبارك لما خرج فى قافلة للحج، ومَرَّ ببلد، وماتت دجاجـة مـن الطيور التى مع القافلة، أَمَر عبد الله بن المبارك وكيلَه أن يلقى بهـا فى مكـان يلقـى الناس فيه فضلاتهم على مقربة من طريق القافلة، وكانت المفاجأة إذ أقبلت جارية تأخذ هذه الدجاجة الميتة، وتسرع بها إلى دارها القريبة، فتحرك قلب عبـد الله بـن المبارك، وأحسّ أن ضائقة وراء أمر الجارية، فذهب إليها وسـألها، فأخبرتـه بأنهـا وإخوتها قد حلت لهم الميتة منذ ثلاثة أيام؛ لوقوعهم فى الاضطرار، فليس عنـدهم طعام ولا مال، فقد جاء لصوص فقتلوا أباهم وأخذوا مالـه، فتأكـد عبـد الله بـن المبارك من ضائقة هذه الأسرة، وأنها أولى بنفقة حَجِّه؛ حيث إن حَجَّه كان تطوعًا، حيث كان قد أدى حجة الفرض؛ فأعطاهم نفقـة الحـج، ثـم رجـع، وقـال: هـذا أفضل من حجنا هذا العام.

وهذا الفهم فقه دعا إليه القرآن الكريم، حين بيَّن الله أن جنس أعمال الجهاد فى سبيل الله، وإعانة المجاهدين أفضل من جنس أعمال الحج، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا

يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (التوبة).

ثم يقول ربنا مؤكدًا فى الآية التالية أفضلية الجهـاد وأولويتـه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (التوبة).

وهذه دعوة قرآنية إلى المتطوعين بالحج كل عام أن يوجهوا هـذه النفقـة إلى رعاية البائسين من المرضى والمحتاجين، وإخواننا فى بلاد العالم الإسلامى بين بطالة ومجاعة وحصار ومرض وَيُتْمٍ وديون... وكوارث شتى وكل هذه الحالات النفقـة فيها أولى.

والله المستعان

٦٣. عموم المغفرة لحجاج بيت الله الحرام [*]

قال النبى ﷺ عشية عرفات: «معاشر النـاس، أتـانى جبريـل آنفًا، وأقرأنى من ربى الـسلام، وقـال: إن الله تعـالى غفـر لأهـل عرفات، وأهل المشعر الحرام، وضَمِن عنهم التبعات».

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟

فقال النبى ﷺ: «هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة».

فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: كَثُرَ خير الله وطاب.

*****

• فى هذا الموقف العظيم بشرى من رسول الله ﷺ بعمـوم المغفـرة لحجـاج بيت الله الحرام، حتى المظالم والتبعات؛ فالله تعالى يتحملها ـ تفضلًا وكرمًـا ـ عـن الحاج.

والنبى ﷺ حريص على بيـان صـفة الحـج الـذى تتـأتى بـه عمـوم المغفـرة؛ قال ﷺ: «من حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُق، رجع كيوم ولدته أمه»[1].

(*) أخرجـه ابـن عبـد الـبر فى التمهيـد (١/ ١٢٨)، وصـححه الألبـانى فى صـحيح الترغيـب والترهيـب (١١٥١).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحـج المـبرور، (١٤٤٩)، ومـسلم فى صـحيحه، كتاب الحج، باب فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، (٣٣٥٧).

وقال ﷺ: «... الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(١).

وقال ﷺ: «من قضى نُسُكَه، وسَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذنبه»(٢).

• ودلالة أخرى فى هذا الموقف، وهى شدة غيظ الشيطان، وبخاصة فى يوم عرفة؛ لما يرى من تَنَزُّل الرحمات وعموم المغفرة من الله على عباده حجاج بيته الحرام، وفى هذا يقول ﷺ: «ما رُئى الشيطان يومًا هو أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام»(٣).

وفى هذا تأكيد لعداوة الشيطان للإنسان، وأنه ليسوؤه كل الإساءة أن يكون الإنسان طائعًا مستغفرًا تائبًا، ومن هنا ينبغى على الإنسان أن يَحْذَرَ هذا العدو الذى حذرنا الله سبحانه وتعالى منه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الأعراف)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ (الإسراء)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ (يس).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، أبواب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها، (١٦٨٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الحج، باب فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، (٣٣٥٥).

(٢) أخرجه عبد بن حميد فى مسنده ص (٣٤٨) برقم (١١٥٠)، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٩/ ٣٦٢)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢٢٨١).

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ، كتاب الحج، جامع الحج، ١٥٩٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣/ ٤٦١) برقم (٤٠٦٩)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب (٧٣٩).

لذا أمرنا القرآن ألا نتبع وسوسة الشيطان وحِيَله ومكره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ (البقرة).

وأمرنا القرآن أن نستعين بالله تعالى؛ لدفع مكره ووسوسته، قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ (فصلت)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ (الناس).

٦٤. مراعاة أصحاب الأعذار (*)

رأى كُثَيِّرُ بن جهمان سيدَنا عبدَ الله بن عمر رضى الله عنهما يمشى فى المسعى بين الصفا والمروة. فقال له: أتمشى فى السعى بين الصفا والمروة؟

فقال ابن عمر: لئن سعيتُ فقد رأيتُ رسول الله ﷺ يسعى، ولئن مشيتُ لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يمشى، وأنا شيخ كبير».

*****

هذا الموقف فى فقه التيسير على أصحاب الأعذار من المرضى وكبار السن، وتجنب أذى الآخرين بالمزاحمة والمدافعة، وعدم تحميل النفس فوق طاقتها من المشقة، وفيه هدى كريم لحجاج بيت الله تعالى، وقد قال سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة/ ٢٨٦).

إنَّ الناس تتفاوت قوتهم وطاقاتهم؛ ولذلك كان النبى ﷺ يجيب عن السؤال الواحد بإجابات متعددة؛ رعاية لحال السائل وظروفه، فحين سُئل النبى ﷺ عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله أجاب ﷺ الشاب الجلد القوى بالجهاد فى سبيل الله،

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، (٥٢٥٧)، وأبو داود فى سننه، كتاب المناسك، باب أمر الصفا والمروة، (١٩٠٦)، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٦٧٥).

وأجاب من يقوم على رعاية أبويه لكبرهما بأن جهاده فى البر والإحسان لوالديه، ويفتى الشيخ الهرم الذى لا يستطيع الجهاد فى ساحة الحرب بأن أفضل العمل له هو ذكر الله تعالى... وهكذا.

والموقف تطبيق عملى وأسوة حسنة فى هذا المعنى، فحين رأى الرجل ابن عمر يمشى فى المسعى، والمسعى بين الصفا والمروة حركة السير فيها نوعان:

الأول: المشى فى الذهاب والإياب بين الصفا والمروة ما عدا المسافة المحددة بين الميلين الأخضرين، فَيُسَنُّ الهرولة فيها إذا بلغها الإنسان، وهو ما يسمى بالرمل.

الثانى: فإن عجز الإنسان عن الهرولة بين الميلين الأخضرين؛ بسبب عجز أو ضعف أو ازدحام فلا يدافع ولا يؤذى غيره بل عليه بالمشى.

ويقوى هذا المعنى ويؤكده قول رسول الله ﷺ لسيدنا عمر ؓ فى أثناء الحج: «يا عمر: إنك رجل قوى، لا تزاحم على الحجر، فتؤذى الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله فهلل وكَبِّر»[1].

ومن هنا قرر الفقهاء أن تقبيل الحجر سُنَّة، فى حين أن إيذاء الغير جناية وذنب، فعلى الحاج أن يلزم السكينة والتؤدة، وأن يتجنب مدافعة إخوانه، بل يتحمل ويصبر دون جدال أو مدافعة، فالطمأنينة والسكينة والخشوع من علامات فقه المؤمن للعبادة، وصدق إخلاصه لله تعالى فيها.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب ؓ، (١٩٠)، وحسنه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

وكان من وصايا رسول الله ﷺ لحجاج بيت الله تعالى أن يلزموا السكينة، وذِكْرَ الله، ويتجنبوا إيذاء الآخرين والجدل؛ قال ﷺ: «أيها الناس عليكم بالسكينة؛ فإن البر ليس بالإيضاع»[1].

والإيضاع: هو الإسراع.

ولنا أسوة في حضرته ﷺ؛ فقد جاءه سائل في الحج يقول: يا رسول الله، لم أُشعِر، فنحرت قبل أن أرمي، فقال النبي ﷺ: «ارم ولا حرج»، فما سُئل النبي ﷺ يومئذ عن شيء قَدَّم ولا أخر؛ إلا قال: «افعل ولا حرج»[2].

اللهم فقِّهنا في ديننا، وخلِّقنا بِخُلُقِ رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة عند الإفاضة، (١٥٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها،(٨٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي، (٣٢١٦).

٦٥. يُبْعَثُ مُلبِّيًا (*)

بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته، فكسرت عنقه ومات. فقال النبى ﷺ: «اغسلوه بماء وسِدْرٍ، وكفنوه فى ثوبيه، ولا تحنطوه (لا تَمَسُّوه بطيب)، ولا تُخَمِّروا رأسه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة مُلَبِّيًا».

*****

• هذا الموقف يبين لنا فضل من مات أثناء الحج، وأنه يبعث يوم القيامة ملبيًا؛ يقوم بين الناس فى أرض الموقف، وهو يقول: لبيك اللهم لبيك...إلخ، وفى هذا ما فيه من حُسْنِ الخاتمة، وعظيم الجزاء الأوفى فى يوم القيامة بدخول الجنة، وحصول عَفْو الله، وعموم مغفرته لمن مات وهو يحج.

• كما يشير الموقف إلى فضل التلبية، وأنها شعار الحج، وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «جاءنى جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد مُرْ أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية؛ فإنها من شعائر الحج»[1]، ومعلوم أن الجهر

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب الكفن فى ثوبين، (١٢٠٦)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، (٢٩٤٨).

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الأنصار، حديث زيد بن خالد الجهنى رضي الله عنه، (٢١٧٢٢)، وصحح إسناده الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

للرجال والسر للنساء.

أيضًا أخرج الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال: «ما أهلَّ مُهِلٌّ قَطُّ وإلَّا بُشِّر، ولا كبَّر مكبر قط إلا بُشِّر». قيل: يا رسول الله، بالجنة؟ قال: «نعم»(١).

ونَصُّ التلبية هو: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

ويقولها المُحْرِم عند الشروع فى الإحرام من عند الميقات، ويستحب تكرارها ورفع الصوت بها وتجديدها عند كل مناسبة من نزول أو طلوع أو ركوب أو إقامة صلاة أو فراغ منها أو ملاقاة الرفاق.. ونحو ذلك.

وتظل التلبية على لسان الحاج حتى يصل إلى مِنًى بعد الوقوف بعرفات، والوقوف بالمزدلفة، فعندما يصل إلى منى يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات، ويُكَبِّر، ومن هذه اللحظة تنقطع التلبية مع آخر حصاة، ويبدأ التكبير: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد».

• كما يشير الموقف إلى فضل ثياب الإحرام، وأنها يكفن بها الحاج إذا مات وهو مُحْرِم؛ فهى ثياب شهدت طاعة من أعظم الطاعات، ونالت بركة الذكر والتلبية والصلاة، فهى شاهد خير لصاحبها.

وهكذا كان الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ـ يعلمون أن الأشياء تُبارك بالطاعة، وبأهل الطاعة، يشهد لذلك ما رواه

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٧/ ٣٧٩) برقم (٧٧٧٩)، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٢١).

البخارى عن سهل بن سعد ﷺ أن امرأة جاءت النبى ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها أتدرون ما البردة؟! قالوا الشملة قال: نعم. قالت: نسجتها بيدى فجئت لأكسوَكها، فأخذها النبى ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا، وإنها إزاره، فحسنها فلان فقال: اكسِينها، ما أَحْسَنَها! قال القوم:

ما أحسنتَ! لبسها النبى ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألتَه، وعلمتَ أنه لا يرد، قال: إنى والله ما سألته؛ لألبسها، إنما سألته؛ لتكون كفنى، قال سهل: فكانت كَفَنَه[1].

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب من استعد الكفن فى زمن النبى ﷺ فلم ينكر عليه، (١٢١٨).

٦٦. حياة الشهيد عند ربه (*)

لما استشهد عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ يوم أحد، قال النبى ﷺ لابنه جابر ﷺ: «يا جابر: ألا أخبرك ما قال الله تعالى لأبيك؟» قال جابر: قلت: بلى يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ: «لقد كَلَّم الله أباك، فقال له: يا عبدى تَمَنَّ علىَّ أُعْطِك!! فقال: يا رب تحيينى فأُقتل فيك ثانية، قال الله تعالى له: «إنه سبق القول منى أنهم إليها لا يرجعون».

وأنزل الله قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (آل عمران).

*****

فى هذا الموقف بيان لمكانة الشهيد عند الله تعالى؛ ولأجل هذه المكانة كان الصحابة يتسابقون ويتنافسون ويسارعون لنيل الشهادة فى سبيل الله؛ فقد روى مسلم عن جابر ﷺ قال: قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، (١٤٩٢٤)، والترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة آل عمران، (٣٠١٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

قال ﷺ: «فى الجنة»، فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتل[1].

• ومن دلالات هذا الموقف: أن الشهيد سعيدٌ باستشهاده، وأنه يتمنى أن يرد إلى الدنيا؛ ليقتل فى سبيل الله مرة ثانية، كما أن الشهيد يحب أن يُعلم إخوانه النعيم الذى يتقلب فيه فى الجنة؛ لذلك قال عبد الله: يا رب أبلغ مَنْ ورائى. كيف لا والشهيد حى عند ربه؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (البقرة).

• ومن دلالات هذا الموقف أيضًا أن الإسلام يربى فى أتباعه روح التضحية والفداء، فإما النصر وإما الشهادة؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ (التوبة/ ٥٢).

ورغبت الآيات أهل الإيمان فى الجهاد، وجعلت فيه عِزَّهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المغازى، باب غزوة أحد، (٣٨٢٠)، ومسلم فى صحيحه كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، (٥٠٢٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ (الحشر).

وأنذرت، وحذَّرت من تَرْكِ الجهاد، وجعلت في تركه ذُلَّـهُمْ؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ (التوبة/ ٣٩).

٦٧. رياضة فى بيت النبى ﷺ (*)

خرجت السيدة عائشة رضى الله عنها مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، وكانت سريعة الحركة خفيفة، وهى آنذاك جارية، فقال النبى ﷺ للناس: «تقدموا»، فتقدموا، ثم قال: «تَعَالَىْ أسابقْكِ»، فسابقَتْهُ، فسبقته، فسكت ﷺ حتى إذا امتلأت، وزاد وزنها، وكانا فى سفرة أخرى، قال النبى ﷺ للناس: «تقدموا»، فتقدموا، ثم قال: «تعالىْ حَتَّى أسابقْك» فسابقته، فسبقها، فجعل يضحك، ويقول: «هذه بتلك».

*****

هذا موقف نبوى كريم يحمل دلالات تربوية هادية:

- أولاها: هذا الود وهذا الحنان، وهذه الملاطفة التى كانت من رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها؛ ليضرب للأزواج الـمَثَل، ويقدم لهم الأسوة الحسنة فى حُسْن العِشْرة وملاطفة الزوجات.

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، (٢٦٣٢٠)، وأبو داود فى سننه، كتاب الجهاد، باب فى السبق على الرجل، (٢٥٨٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٠٧).

• ثانيتها: أن رسول الله ﷺ يقدم لنا أسلوبًا حكيمًا فى الترويح عن الأهـل، وبخاصة فى الأوقات التى تتسم بالشدة والصعوبة؛ كأيام السفر، أو العمل الشاق ونحو ذلك؛ فالنبى ﷺ حين دعا عائشة إلى أن تسابقه كان فى سفر.

وفى الحديث: «يا حنظلة ساعة وساعة»(١).

ويستفاد من هَدْيه ﷺ فى هذا الموقف أن أسـلوب الملاطفـة والـترويح يُهـون الصعاب، ويدخل السرور على الصاحب.

• ثالثتها: فى الموقف إشارة إلى لون من ألـوان الرياضـة، وهـو المنافـسة فى الجرى، وهو من جملة سنته ﷺ التى تحث المسلم على الرياضة والعناية بجسده؛ لأن الجسد نعمة من نعم الله تعالى.

وفى هذا الإطار نجد سـيدنا عمـر ﷺ يحثنـا عـلى تعلـيم أولادنـا الـسباحة والرماية وركوب الخيل. وحين تصدى فـارسٌ مـصارِعٌ لرسـول الله ﷺ صـارعه النبى ﷺ فصرعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة، (٧١٤٢).

٦٨. لا أسبقه إلى خير أبدًا(*)

قال عمر بن الخطاب ﵁: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، ووافق ذلك مالًا عندى، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر ﵁، فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ: «ما أَبْقَيْتَ لأهلك؟» قلت: مثله. وأتى أبو بكر ﵁ بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟». قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقال عمر: لا أسبقه إلى خير أبدًا.

*****

هذا الموقف يحمل لنا هديًا وفقهًا فى هِمَمِ الرجال الأفذاذ فى الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى؛ من أجل بناء الأمة ورفعة شأنها.

ونحن فى هذا الموقف نعيش مع هؤلاء الصحابة ﵃ وقد مضوا إلى ربهم، وبقيت آثارهم فيها الأسوة والقدوة؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ (الأنعام/ ٩٠).

(*) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الزكاة، باب فى الرخصة فى أن الرجل يخرج من ماله، (١٦٨٠)، والترمذى فى سننه، كتاب المناقب، باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. (٣٦٧٥) وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٤٧٢).

فأين نحن ـ المسلمين ـ من هذه القيم؟!

أين نحن من هذه القدوة؟

بل أين نحن من هذا الواجب؟

إن النفقة ابتغاء مرضاة الله لا تقتصر على الضعفاء والمرضى وأصحاب الحاجات كما هو شائع بين الناس فى زماننا المعاصر، بل تمتد الصدقة فى الإسلام لتشمل كل ما ينهض بأمتنا ويرفع من شأنها بالإنفاق على بناء العقول والقلوب.

نحن بحاجة إلى أن نصعد بالعمل التطوعى خطوة لنتجاوز مجال الإيواء وحفظ الحياة وتخفيف آلام المنكوبين إلى صنع الحضارة؛ كى يستعيد المسلمون دورهم المتقدم فى الحياة، وما أحوجَ المسلمين لهذا الدور فى عالم العولمة؛ حيث السيادة لثقافة الأقوى والأعلم والأغنى، أما الضعيف المتأخر فليس له إلا موائد الهبات والمنح والإعانات، وبهذا يكون الضعيف تابعًا للأقوى الذى يملك العلم والحضارة.

وحين يرقى وعى الأمة ليدرك دوره المعاصر، فسيدرك أن الصدقات فى الإسلام شرعت وفاءً بحاجات الأمة، وقد جعل الله تعالى من بين مصارف الزكاة والصدقات مصرفًا يشمل هذه الجوانب التى تعود بالنفع على المجتمع والأمة معًا، هذا المصرف هو: فى سبيل الله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ (التوبة).

٦٩. تضحية وفداء (*)

حمل مصعب بن عمير ﷺ اللواء يوم أُحد، فلما خالف الرماةُ أمر رسول الله ﷺ وتحول النصر إلى هزيمة، تكاثر المشركون عليه فضربه أحدهم على يده اليمنى، فقطعها، فأخذ مصعب اللواء بيده اليسرى، فضربه المشركون على يده اليسرى، فقُطعت، فضم اللواء إلى صدره بعضديه، ثم حملوا عليه فما تركه ﷺ حتى استشهد.

*****

هذا الموقف يعلمنا درسًا فى معنى التضحية والفداء فى سبيل الله تعالى كما يظهر لنا هذا الموقف البناء الإيمانى لشخصية المؤمن، ذلك البناء الذى يهيئ المؤمن ـ فى ساحة المواجهة والقتال ـ إلى التعلق بالله سبحانه؛ لذلك لا يرضى المؤمن إلا بإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ (التوبة/ ٥٢).

وفى عرض تفاصيل موقف سيدنا مصعب ﷺ توضيح لدرس التضحية والفداء، وإظهار لموعظة غالية فى عُلو همة المؤمن فى ساحة الجهاد.

(*) راجع أسد الغابة (٤/ ٤٠٦)، سيرة ابن هشام (٢/ ٧٣، ١٢٢).

ففى غزوة أُحد، وقف رسول الله ﷺ بين صفوف المسلمين، ينظر إلى الوجوه المؤمنة ليختار من بينها من يحمل الراية، وينادى ﷺ: «يا مصعب، تقدَّمُ واحملِ اللواء».

وتبدأ المعركة، ويشتد القتال، ويخالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، ويتركون موقعهم فى أعلى الجبل بعد أن رأوا المشركين ينسحبون منهزمين؛ وبسبب هذه المخالفة تحول نصر المسلمين إلى هزيمة؛ حيث أسرعت فرسان قريش تأتى المسلمين من أعلى الجبل، وحدث شىء من الذعر والفوضى، وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قُتل.

وأدرك مصعب بن عمير الخطر الغادر، فرفع اللواء عاليًا، وأطلق تكبيرة قوية كزئير الأسد، ومضى يصول ويجول، وكل همه أن يلفت نظر الأعداء إليه، ويشغلهم عن رسول الله ﷺ.

وإنه لموقف مشهود لمصعب: يَدٌ تحمل الراية، ويد تضرب بالسيف، ولكن الأعداء يتكاثرون عليه، ومصعب يرفع الراية بيمينه، ويضرب بالسيف بيساره، ويتلو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (آل عمران/ ١٤٤).

حتى جاءه فارس مشرك من بين هؤلاء الذين تكاثروا عليه، وأحاطوا به؛ لقتله، فضرب اليد اليمنى لمصعب، والتى بها الراية فقطعها، فسقطت يد مصعب، ولم تسقط الراية، لقد التقطها بيساره، فضربه الفارس على يده اليسرى فقطعها، فسقطت يده اليسرى، ولم تسقط الراية؛ لأن مصعبًا قد حنا على الراية بصدره،

وضمها بعضديه، حتى أجهز المشركون عليه، فلم يترك الراية حتى استشهد ﵁،

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ

وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب).

٧٠. ابدأ بنفسك(*)

جاء رجل لابن عباس رضى الله عنهما وقال له: إنى أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، فقال له: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله تعالى فافعل، وإلا فابدأ بنفسك، قال الرجل: وما هى؟

قال: قوله سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة/ ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ (هود/ ٨٨). فقال الرجل: أبدأ بنفسى.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية لأهل الدعوة والإرشاد:

- أولًا: أهمية القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فيمن يتصدى للدعوة والإرشاد، فعلى الداعية أن يبدأ بنفسه؛ حتى يكون كلامه موافقًا لحاله، فيرى

(*) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦/ ٨٨) برقم (٧٥٦٩)، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٣/ ٧٣).

الناس فيه الأسوة والقدوة، وبهذا يكون لكلامه أبلغ الأثر فى النفوس، ومن الحِكَم المأثورة فى هذا المعنى قولهم: «حال رجل فى ألف رجل أبلغ من كلام ألـف رجـل فى رجل».

• ثانيًا: الأسلوب الحكيم فى الإقناع، والذى يقوم على بيان الحجة البالغـة التى تستند إلى آيات القرآن الكريم. وهكذا نـتعلم مـن الـصحابة ﷺ الأسـلوب العلمى فى التفكير، ومعالجة الأفكار وإقامة الحوار، فالعلم حقائق نتوصـل إليهـا بالأدلة الصحيحة بعيدًا عن الهوى، وهكذا ينبغى أن يكون حال أهـل الـدعوة فى معالجة الأفكار والمشاعر بأسلوب مقنع يقوم على تقديم الدلائل والبراهـين، وأن نثير انتباه العقل إلى الحقائق النافعة، وأن نلفت نظر المحاور إلى النتائج المترتبة على رأيه.

• ثالثًـا: الآيات التى اتخذها ابن عباس رضى الله عـنهما برهانًـا لنـصيحته يدور معناها حول أهمية القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فى الداعية؛ فالآية الأولى هى قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة/ ٤٤).

أى: ليس من شأن العاقل أن يأمر الناس بالبر، ويدعوهم إلى الخير، ويهمـل نفسه.

والثانية قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف).

فهذا إنكار ـ من الله تعالى ـ على من وعد وعدًا أو قال قولا ولم يفِ بـه؛ لأن ذلك من علامات النفاق.

والآية الثالثة هى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ (هود).

وفى الآية بيان لحال نبى الله شعيب مع قومه، وذكره الله فى القرآن؛ كى نتأسى به فى الدعوة إلى الله تعالى، ومعنى الآية: أى لم أكن أنهاكم عن شىء وأرتكبَه، وإنما قصدى ومرادى إصلاح حالكم مع الله، واستمد عونى وتأييدى فى ذلك من الله تعالى، فعلى الله توكلى فى كل أمورى، وإليه المرجع والمآب.

٧١. مفتاح الرضا (*)

مات ابنٌ للحُسين بن على رضى الله عنهما فلم يُر عليه كآبـة، فعُوتِب فى ذلك، فقال: إنَّا ـ أهلَ البيت ـ نسأل الله تعالى فيعطينـا، فإذا أراد ما نكره ـ فيما نحب ـ رضينا.

*****

هذا الموقف يعلمنا أدب الرضا بقضاء الله وقدره، فالمؤمن يرضى بما يـرضى الله به، وهذه أخلاق آل بيت المصطفى ﷺ، فهى من أخـلاق جـدهم ﷺ. رضـاهم فى رضا الله تعالى، فهم موقنون بأن المعطى هو الله تعـالى، فـإذا اسـترد الله عاريتـه وأخذ ما أعطاه، فالمؤمن الموفق يسلم لمولاه، ويَرْضَى قلبه بما قدَّره الله وقضاه.

والرضا درجة لا تتأتى إلا لخواص المؤمنين، فالرضا درجة أعلى من الصبر، فالصبر تسليم بقضاء الله مع وجود الحزن والألم، ومع التألم والحزن يلزم الإنـسان نفسه هدْى الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فى القول والفعل عند وقوع البلاء، وفى هـذا مجاهدة للنفس.

وفى المقابل نجد أن الرضا فيه تسليم كامل دون تألم أو حـزن أو جـزع؛ لأن برد الإيمان يطفئ نار المصيبة، ويتجلى الله بلطفه وكرمه عـلى هـذا القلـب المـؤمن فيملؤه رضًا بقضاء الله وقدره.

(*) ذكره ابن شرف النووى فى بستان العارفين، ص (١٩).

وقد جعل الله جزاء الرضا من جنسه؛ فمن رضى فله الرضا، قال الله تعـالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (البينة/ ٨). ثم بيَّن ربنا سبيل الرضا؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾ (البينة).

وثمرات الرضا بقدر الله فينا طيبة، تطيب بها حياة المؤمن فى الدنيا، وتورثـه المنازل العالية والدرجات العظيمة فى الجنة يـوم القيامـة، فمـن رضى بقـدر الله فى رزقه جعل الله غناه فى قلبه، وفى الحديث النبوى الشريف، قال النبـى ﷺ: «وارْضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»(1).

ومن رضى عن الله فى كل قضائه وقدره، فقد بشَّره الله بـالفوز العظـيم يـوم القيامة، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١١٩﴾ (المائدة).

وأنعم عليهم برضاه، ونسبهم إلى نفسه، ووصفهم بـالفلاح؛ فقـال تعـالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ (المجادلة).

وليعلم المؤمن أن أفضل حال له هو ما اختاره الله سبحانه وتعالى، فينبغى ألَّا تلعب الأهواء بعقولنا وقلوبنا، فكم من شىء من زخرف الدنيا أحببناه وطلبناه، فلما تحقق لنا أصابنا بسببه الشقاء والعناء، وسبحان الله القائل: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ (البقرة).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﷺ، (٨٠٨١)، والترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، (٢٣٠٥)، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٣٠).

٧٢. الناسك حقًّا (*)

رأت السيدة الشفاء ابنة عبد الله رضى الله عنها، فتيانًا يقصدون فى المشى، ويتكلمون رويدًا، فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نسَّاك. فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًّا.

*****

هذا الموقف يحمل بصائر هادية تصحح الخلل الذى يقع فيه بعض العامَّة، وهو تكلف إظهار الخشوع والخضوع فى الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، بل وربما بالغ بعضهم فى إهمال هيئته ومظهره.

- وفى الموقف الذى بين أيدينا أنكرت السيدة الشفاء رضى الله عنها على هذا الرجل الذى يتكلف ويتصنع فى حركاته ومظهره؛ ليظهر فى ثياب الخاشعين المتبتلين، ويظهر هذا من قولها: «ما هذا؟»، ثم وضَّحت رضى الله عنها حقيقة الصلاح والخشوع، وأنه يكون فى الجدِّية والالتزام وترك التكلف والتصنُّعٍ؛ كى يكون مظهر الإنسان معبرًا عن جوهره، ويكون خشوع الجوارح تعبيرًا عن خشوع القلب؛ فالإسلام ينكر الزيف فى الأفعال والأقوال، فى الحركات والسكون، ويربِّى فى أبنائه الصدق.

(*) أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٠)، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٨٨)

• ومن بصائر هذا الموقف الهادية أن السيدة الشفاء رضى الله عنها أوضحت حقيقة إيمانية وهى أن التصنع باب من أبواب الرياء، وأن الله تعالى لا يقبل عمل المرائين الذين أشركوا مع الله تعالى غيره فى أعمالهم، وفى هذا يقول النبى ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»[1].

ولقد حدد الإسلام وصفين للعمل الذى يرجى له القبول عند الله تعالى:

الوصف الأول: صلاحية العمل، وذلك بموافقته هدى القرآن وسنة رسول الله ﷺ.

والوصف الثانى: هو إخلاص العمل لله؛ كما يتضح من قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك فى عمله غير الله، (٧٦٦٦).

٧٣. ما قلت شيئًا من عندى (*)

شكا رجل إلى الحسن البصرى الـجُدُوبة، فقال لـه: اسْـتَغْفِر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له الحسن البصرى: اسـتغفر الله. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقنى ولدًا، فقال له: استغفر الله.

فسُئِلَ عن ذلك، فقال: ما قلت شيئًا من عندى، فكل ذلك مستفادٌ من قول الله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ (نوح).

*****

هذا الموقف يوضح لنا فضل الاستغفار؛ حيث إن الذنوب من أكبر العوائق والحجب التى تمنع عن الإنسانَ خيرًا كثيرًا، قـال الله تعـالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ (الشورى).

وإن العبد لَيُحْرَمُ الرزق بالذنب يصيبه؛ لذلك كان الاسـتغفار مـن أعظـم السبل التى تُرجى بها إزالة الحُجُب والعوائق التى تمنع الإنسان من خير كثير.

ينطلق الحسن البصرى ـ فى هذا الموقف ـ فى نصحه للسائلين من منطلق

(*) ذكره القرطبى فى تفسيره (١٨/ ٣٠٢).

إيمانى ووعى بحقائق القرآن الكريم؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (نوح).

لذلك نصح الحسن من شكا إليه الفقر بالاستغفار، ومن رغب فى الولد بالاستغفار أيضًا... وهكذا.

وعن أثر الاستغفار فى محو الذنوب يقول النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان فيك ولا أُبالى، يا ابن آدمَ، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء، ثم استغفرتنى غفرتُ لك ولا أُبالى، يا ابن آدم، إنك لو أتيت بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشركُ بى شيئًا لأتيتك بِقُرابها مغفرة»(1). وقراب الأرض يعنى: ملء الأرض.

والاستغفار من ألوان الذكر التى كان النبى ﷺ حريصًا عليها فى اليوم والليلة، قال ﷺ: «والله إنى لاستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»(2).

وبشَّر الله المستغفرين بعفوه ومغفرته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (النساء).

وجعل الله الاستغفار من سمات المؤمنين الصادقين فى ليلهم مع الله، قال

---

(1) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب الدعوات، باب فى فضل التوبة والاستغفار، (٣٥٤٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٨٠٥).

(2) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الدعوات، (٥٩٤٨).

تعالى: ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ ﴾ (الذاريات).

ومن علم السلف المبارك المستفاد من القرآن الكريم، قولهم: إن الله تعالى جعل للأمة أمانين من العذاب، وقد رفع أمانًا من الأمانيين، وأبقى لنا أمانًا إلى يوم القيامة.

ـ الأمان الأول: الذى رفعه الله هو سيدنا رسول الله ﷺ، ورفع هذا الأمان بموت النبى ﷺ.

ـ الأمان الثانى: الذى أبقاه لنا ليوم القيامة هو الاستغفار. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ ﴾ (الأنفال).

٧٤. آه من بُعْدِ السفر (*)

لَّما مرض أبو هريرة ﷺ مـرض المـوت، بكـى، فقيـل لـه:مـا يبكيك يا أبا هريرة ؟! فقال: أما إنى لا أبكـى عـلى دنيـاكم هـذه، ولكننى أبكى لبُعْدِ السفر وقلة الزاد، ونفس مقبلـة عـلى الـرحمن، ولا أدرى أإلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم دعا ربه قائلًا: اللهم إنى أحب لقاءك فأَحِبَّ لقائى، وعَجِّـل لى فيـه، ثـم فـارق الحياة بعدها.

*****

هذا الموقف يفيض بأنوار الإيمان، ويظهر لنا أثر هذا النور إذا دخـل القلـب وهو موافق لهدْى الحبيب المصطفى ﷺ، وما أحوجنا جميعًـا إلى مثـل هـذا الـدعم المعنوى الإيمانى الذى يُقربنا من الله تعالى، ويرفـع مـن همتنـا فى فعـل الـصالحات وترك المنكرات.

قد تسيطر النزوات والشهوات والرغبات على بعـض النـاس فتحـولهم إلى قيمة استهلاكية تجعلهم عبئًا على مجتمعهم وتحرمهم من المشاركة فى فعل الخيرات

(*) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص (٣٨) برقم (١٥٤)، وابن أبى الدنيا فى المحتـضرين ص (٢٨٠) بـرقم (٢٧٠).

من صدقة أو تعليم أو إصلاح. فإذا استجابوا لهدى الله تعالى ولسنة الرسول ﷺ تحولت حياتهم إلى نعيم، وتصبح لحياتهم قيمة عند الله وعند الناس، ينتفع بهم مجتمعهم ويسعد بهم، فضلا عن سعادتهم ورضاهم.

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام/ ١٢٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال/ ٢٤).

وهكذا صنعت تعاليم الإسلام وهدايات القرآن والسنة فى سيدنا أبى هريرة رضي الله عنه حالة من التجافى والبعد عن الأطماع والرغبات والنزوات والشهوات فى دار الغرور، وحالة من الإنابة والخضوع لله والتبتل إليه والخوف والخشوع مع الرجاء والأمل فى رحمة الله تعالى، وتذكر الموت والاستعداد له بفعل الصالحات وترك الموبقات.

وعلى هذا المنوال وبنفس الأسلوب يكون إكرام كل من أقبل على الله تعالى جادًّا صادقًا، فله البشرى، قال ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١٦) ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (١٧٤)

٧٥. دأب الصالحين (*)

أشفق بعض الصحابة على سيدنا عمر رضي الله عنه من اشتغاله فى نهاره بمصالح الرعية، فإذا جاء الليل أطال قيام الليل، فلما حدثوه فى ذلك، قال لهم: «إذا نمتُ بالنهار ضيعتُ رعيتى، وإذا نمت بالليل ضيعتُ أمرى».

*****

هذا الموقف العُمَرِىّ يحمل فقهًا عظيمًا فى فضل قيام الليل، وأهمية حرص المؤمن عليه حتى مع اجتهاده فى عمله فى نهاره، وأن الصالحين فى هذه الأمة لا يمنعهم جهدهم بالنهار من قيام الليل، وكذلك لا يؤثر قيامهم الليل فى درجة إجادتهم واجتهادهم فى أعمالهم بالنهار.

وحسب أهل قيام الليل من الثناء ما مدحهم الله به فى قرآنه، ووعدهم به من المثوبة، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة).

ولقد مدح الله سبحانه وتعالى عباد الرحمن بأن نهارهم كله طاعة وتواضع بين الناس، وليلهم سجود وتعبد، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

(*) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٧٣).

ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ (الفرقان).

ويُعَدُّ ترك قيام الليل نقصًا فى صاحبه؛ لقول النبى ﷺ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل»[1]، فكان عبد الله بعدها لا ينام من الليل إلا قليلًا.

وهناك أسباب مُعِينَةٌ على قيام الليل، وأهمها:

١. الحرص على الحلال فى المطعم والمأكل والمشرب.

٢. ترك الفضول واللغو من الكلام والعمل أثناء النهار، فمِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

٣. الراحة فى وقت القيلولة إن أمكن ذلك.

٤. النوم مبكرًا وعدم تضييع الوقت فيما لا يفيد، فإذا نام الإنسان متأخرًا ضيع على نفسه قيام الليل وصلاة الفجر.

٥. النوم على السنة: بأن يتوضأ ويذكر الله تعالى ويقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين، ويمسح جسده ثم يسمِّى الله تعالى، ويدعو بدعاء النبى ﷺ: «باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه»[2]... إلى آخر الدعاء.

٦. ثم يسامح كل المسلمين، ولا يجعل فى قلبه حقدًا ولا حسدًا لأحد أبدًا.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه أبواب التهجد، باب فضل قيام الليل، (١٠٧٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، (٦٥٢٥).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند النوم، (٥٩٦١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، (٧٠٦٧).

٧. وأن ينوى الاستيقاظ لقيام الليل وصلاة الفجر، ويطلب ذلك من ربه بقلبه.

ويبشرنا رسول الله ﷺ بأن من قام الليل نال من الخير والبر الكثير، قال النبى ﷺ: «إن من الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كُلَّ ليلة»(١).

ولقد مدح الله عباد الرحمن وأثنى عليهم بسبب أنهم يبيتون لربهم سُجَّدًا وقيامًا، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الفرقان).

والله المستعان

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فى الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، (١٨٠٦).

٧٦. كما بررتنى كبيـرًا (*)

ظَلَّ أبو هريرة ﷺ طوال حياته بارًّا بأمه، فعن أبى مـرة مـولى أم هانئ، أنه ركب مع أبى هريرة إلى أرضه بـالعقيق، فـإذا دخـل أرضه صاح بأعلى صوته السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أمتاه.

تقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. يقول: رحمـك الله كما ربيتنى صغيرًا. فتقول: يا بنى وأنت فجزاك الله خـيرًا، ورضى عنك كما بررتنى كبيرًا.

*****

هذا الموقف أسوة أخلاقية وقدوة إيمانية فى البر بين الآباء والأبناء.

وبِرُّ الأبناء ما هو إلا ثمرة لبرٍّ سابق من الآباء، وهذا هـدى إيمانـى أرشـدنا إليه الإسلام الحنيف؛ فقد أمرنا رسـول الله ﷺ بـالبر بالأبنـاء، بدايـة مـن اختيـار الزوجة الصالحة التى هى الأم المربية بعد ذلـك، وكـذلك أرشـدنا رسـول الله ﷺ باصطفاء أفضل الأسماء وأحسنها لأبنائنا، ثم تربيتهم بأدب القرآن والسنة، ويبين المصطفى ﷺ أنه ما نَحَلَ ـ أى ما أعطى ـ والد لولده أفضل من أدب حسن، فـإذا

(*) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، ص (١٩) بـرقم (١٤)، وحسنه الألبـانى فى صـحيح الأدب المفـرد، ص(٦).

كان برُّ الآباء سابقًا على هذا النحو الذى أرشد إليه رسول الله ﷺ، فإن الثمرة والنتيجة له بر الأبناء للآباء.

وبشأن بر الأبناء بالآباء فقد أمر الله تعالى به، وعظم من شأنه، فجعله فى سياق الأمر بالتوحيد وعبادة الله تعالى وعدم الشرك به، من ذلك قول سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الإسراء).

وفى السنة النبوية المطهرة بيان ومزيد توضيح لبر الوالدين وبخاصة الأم؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبى ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أىٌّ؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قلت: ثم أىٌّ؟ قال: «ثم الجهاد فى سبيل الله»[1].

وهنا فقه يجب أن نتنبه إليه وهو أن الله يقوى ويدعم العلاقات الودودة الحميمة بين أفراد الأسرة، التى يقوم الترابط فيها على قيم الإيمان والخلق والوفاء؛ رغبة فى مرضاة الله سبحانه، بدلا من قيم المصالح والمنافع، فإذا كبر السن ووهن العظم أخرج الأبناء الآباء إلى دور غريبة، يعيشون كمن انقطع أصله ورحمه.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، (٥٠٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال،(٢٦٤).

وفى هذا حماية لكيان الأسرة المسلمة؛ لأن ترابط هذا الكيان بالإيمان والخلق والبر فيه استقرار نفسى للمسلم، كما أن فيه التراحم والتعاطف، وإن من يُضيِّع أباه أو أمه أو يعقُّهما، فهو إلى تضييع مجتمعه ووطنه أسرع.

٧٧. اليهود أهل غدر وبهتان (*)

لما أسلم عبد الله بن سلام كَتَم إسلامه عن اليهود فترة من الزمن، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادع زعماء اليهود، وسلهم عن منزلتى عندهم قبل أن يعلموا بإسلامى؛ فإنهم إن علموا أنى أسلمت عابونى، فلما سألهم النبى ﷺ عن عبد الله بن سلام قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبرُنا، وعالمنا. فقال النبى ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم أفتسلمون؟».

فقال اليهود: حاشا لله، أعاذه الله من أن يُسلم. فخرج إليهم عبد الله بن سلام، وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله وآمنوا برسوله الذى تجدونه عندكم فى التوراة، وإنى قد أسلمت. فقال اليهود: كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، وعابوه.

*****

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، (٣١٥١).

هذا الموقف يكشف لنا عـن أسـلوب اليهـود فى مواجهـة الحقـائق، فـإنهم ينكرون الحق الواضح، ويضللون، وأن الجدال بالباطل من طبعهم، من وافقهم فى طغيانهم وإفسادهم مدحوه، ومـن خـالفهم فى ضـلالهم عـابوه، حتـى الأنبيـاء لم يسلموا منهم؛ فإنهم عابوهم، وقتلوهم.

وفى ثنايا الموقف ـ الذى بـين أيـدينا ـ مـواعظ وعـبر للمـسلمين، ودروس تكشف لنا عن طبيعة أعداء الدين، فلا نُخدع.

لقد أسلم عبد الله بن سلام لما رأى النبى ﷺ يدعو إلى الفضائل، وينهى عـن الرذائل، ويبشِّر مَنْ آمن بالجنة، ولقد أسلم أهل بيته معه.

وطلب عبد الله بن سلام من أهله أن يكتموا إسلامه عن اليهود، ثـم رجـع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإنى أحب أن تدعو رؤساءهم إليك، وأن تسترنى عـنهم فى حجـرة، ثـم تـسألهم عـن منزلتـى عندهم قبل أن يعلموا بإسلامى، ثم تدعوهم إلى الإسلام، فـإنهم إن علمـوا أنـى أسلمت عابونى، ورَمَوْنى بكل نقيصة وبهتان.

فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض حُجُراته، ثم دعاهم إليـه، وأخـذ يحـضهم على الإسلام، ويحبب إليهم الإيمان، ويذكرهم بما عرفوه فى كتبهم من أمره ﷺ.

فجعلوا يجادلونه بالباطل، فلما لم يستجيبوا لرسول الله ﷺ، قال لهم: ما منزلة ابن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سـيدنا، وحبرنـا وابـن حبرنـا، وعالمنـا وابـن عالمنا. قال النبى ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم، أفتسلمون؟».

فقالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، أعاذه الله من أن يسلم. فخرج إلـيهم عبـد

الله بن سلام وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، وتجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته، وإنى أشهد أنه رسول الله، وأومن به، وأصدقه.

فانقلبوا رأسًا على عقب، وتحولوا عن عبد الله بن سلام وحملوا عليه بكلام شديد، فقالوا: كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، ولم يتركوا عيبًا إلا عابوه به.

وهذا هو طبع اليهود فى التضليل والجدال بالباطل، ونسج التهم حول الزعماء إذا خالفوهم أو أظهروا إفسادهم، كذلك يزرعون الفتن ويشعلونها بين الشعوب؛ كى تضعف وتذل لهم، ويدبرون المؤامرات، ويلفقون التهم للتخلص من العناصر المؤثرة فى الصراع معهم، ويفسدون فى الأرض بإشاعة المخدرات بين أبناء شعوبنا، ونشر الثقافات الانحلالية بين أبنائنا، فليحذر شباب أمتنا؛ فإن عدونا غادر ماكر يكيد لنا فى كل لحظة، ولنتمسك بهدى القرآن والسنة؛ فهما حصن لنا من كل مكروه وسوء.

٧٨. تميل حينًا وتستقيم أحيانًا (*)

جاء رجل إلى الحسن البصرى، فقال: يا أبا سعيد، ما تقول فى رجل يذنب ثم يتوب؟ قال الحسن: لم يزدد بتوبته من الله إلا قربًا. قال الرجل: ثم عاد فى ذنبه، ثم تاب.

قال الحسن: لم يزدد بتوبته إلا شرفًا عند الله تعالى؛ فإن مثل المؤمن مثل السنبلة تميل حينًا، وتستقيم أحيانًا، وفى ذلك تكبر فإذا حصدها صاحبها حمد أمره كما حمد صاحب السنبلة بره، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف).

*****

• هذا الموقف يوضح لنا جانبًا من جوانب كرم الله الغفور الرحيم؛ حيث تتجدد توبة الله على عباده، فالرجل الذى أذنب ثم تاب، ثم عاد إلى الذنب ثم تاب ـ أخبر الحسن البصرى بأن توبته المتكررة تزيده من الله قربًا وشرفًا، وهذا شأن المبتدئ فى الطاعة حديث العهد بالتوبة، فقد تغلبه نفسه فيعود فى لحظة غفلة إلى الذنب، ثم لا يلبث أن يتنبَّه ويستيقظ فيندم ويتوب، وهكذا حتى تتحوَّل نفسه

(*) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٥/ ٤٠٨) برقم (٧٠٩٦).

من النفس اللوَّامة إلى النفس المطمئنة، التى تطمئن للخير وتستقر عليه وتنقطع عن الشر ولا تميل إليه.

وهذه الفترة ـ فى رحلة المجاهدة من المؤمن ـ والتى يُغالب فيها شهواته وأهواءه ونزواته ـ هى أشبه بفترة التدريب والمحاولة الجادة، وفيها يقول النبى ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة»(١). أى لا يُعَدُّ من المصرِّين المقيمين على المعصية ما دام يستغفر الله، وإن كثرت ذنوبه.

وينبغى أن نميِّز بين الرجوع للذنب فى غفلة، وبين الاستهتار والاستخفاف بفعل المعاصى، فالمستغفر العاصى المقيم على المعصية بإصراره عليها، يحذره النبى ﷺ بقوله «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه، ومن آذى مسلمًا كان عليه من الإثم مثل منابت النخل»(٢).

- كما يعلمنا الموقف أن المؤمن يسارع إلى التوبة إذا حدث منه ذنب، وحسبُنا ترغيبًا فى المسارعة بالتوبة قول النبى ﷺ: «إذا تاب العبد أنسى الله الحَفَظَة ذنوبَه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض، حتى يلقى الله تعالى وليس عليه شاهد من الله بذنب»(٣).

ولقد وعد الله التائبين إذا صدقوا فى توبتهم أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يبدل

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الوتر، باب فى الاستغفار، (١٥١٦)، والترمذى فى سننه، كتاب الدعوات، (٣٥٥٩)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٠٠٤).

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٥/ ٤٣٦) برقم (٧١٧٨)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٦١٦).

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (١٤/ ١٧)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢٤١٨).

سيئاتهم حسنات، قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الفرقان).

وترغيبًا فى التوبة والمغفرة جعل الإسلام لكل مسلم ثلاثة أنهار يتطهر فيها من الذنوب والآثام: النهر الأول: هو نهر التوبة، يقول ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]، والنهر الثانى: هو نهر الحسنات، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (هود/ ١١٤).

والنهر الثالث: هو نهر الابتلاءات التى تحط الذنوب والخطايا، يقول ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»[2].

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، (٤٢٥٠)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣١٤٥).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﷺ، (٧٨٤٦)، والترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء، (٢٣٩٩)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨١٥).

٧٩. أتدعونى إلى الخطأ ؟! (*)

سأل رجل الحسن البصرى: يا أبا سعيد، ما تقول فى رجل مات، وترك «أبيه» و«أخيه»؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه. فقال له: فما «لأباه» و«أخاه»؟ فقال له الحسن: إنما هو: فما لأبيه وأخيه؟ قال الرجل: يا أبا سعيد، ما أشدَّ خلافَك علىَّ! فقال له الحسن البصرى: بل أنت أشد خلافًا علىّ، أدعوك إلى الصواب وتدعونى إلى الخطأ!

*****

هذا الموقف يبين لنا حرص السلف ـ رحمهم الله ـ على اللغة العربية، وتجنب الخطأ فى قواعدها: نحوها وصرفها وأصواتها ومعانيها؛ إذ هى لغة القرآن، والحرص عليها حرص على الوسيلة التى نفهم من خلالها كتاب الله، ونقف على أسراره وهداياته المباركة.

لذلك لم يقبل الحسن البصرى رضي الله عنه سؤال السائل على ما فيه من خطأ حين قال الرجل: «ما تقول فى رجل مات وترك أبيه وأخيه؟» والصواب: وترك أباه وأخاه؛ لأنهما من الأسماء الستة، وهما هنا فى موقع المفعول به؛ فيستحقان النصب

(*) ذكره ياقوت الحموى فى معجم الأدباء (١/ ٥).

بالألف؛ ولذلك صحَّح له الحسن البصرى خطأه. ولمَّا أخطأ الرجل فى السؤال الثانى، وقال: فما لأباه وأخاه؟ والصواب: فما لأبيه وأخيه، حيث إن الكلمتين مسبوقتان باللام؛ فتستحقان الجر بالياء. وقد صحَّح له الإمام خطأه ثانية وأرشده إلى الصواب.

وهكذا كانت اللغة العربية حية على لسان أسلافنا، وكان الوقوع فى الخطأ شيئًا لا يقبل؛ لذلك لانت لهم اللغة وطاوعتهم؛ فاللغة ممارسة واستعمال.

ولعل هذا يرفع همتنا للعناية باللغة العربية؛ لتعود حية على الألسنة وترقى إلى مستواها الفصيح، وتأخذ مكانها فى حياتنا بديلا عن ركاكة العامية التى تعدُّ عدوانًا على الفصحى.

وما أود أن أشير إليه هنا هو لفت الانتباه إلى حقيقة مهمة تتضح من خلال السؤال التالى:

لماذا نحن مَهَرة فى الحديث بالعامية، فى حين أن الفصحى عصيّة علينا، على الرغم من أن لها قواعد تدرس بالمدارس والجامعات، ولها نصوص مضبوطة؟

إننا مهرة فى العامية؛ لأننا نستعملها ونمارسها، بينما استعصت علينا الفصحى؛ بسبب هجرنا لها فى محافل الدرس والمحاضرات والحوارات... إلخ.

وأود أن أشير ـ هنا أيضًا ـ إلى أن استقامة اللسان العربى مرهونة بالقرآن الكريم؛ بما له من حلاوة لا تنقضى، وفصاحة ميسَّرة تخاطب كل العقول.

٨٠. أهديت إلىَّ حسناتك (*)

قيل للإمام الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ: إن فلانًا اغتابك. فبعث إليه طبق حلوى، وقال له: بلغنى أنك أهديتَ إلىَّ حسناتِكَ؛ فكافأْتُك.

*****

• هذا الموقف من الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ أسوة وقدوة فى الخُلُق الحَسَن الذى يسمو بصاحبه إلى قمة إيمانية هى أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك.

فهذا رجلٌ قد اغتاب الإمام الحسن؛ حيث ذكره بسوء فى غيبته، فلـمَّا علم بذلك عامل المغتاب بمنطق الإيمان، وقابل السيئة بالحسنة، فجهَّز طبقًا من الحلوى وبعث به إلى المغتاب، وقال له: «بلغنى أنك أهديت إلىَّ حسناتك فكافأتك».

وهذا شأن الصالحين الذين تأدَّبوا بأدب القرآن والسنة، قال الله تعالى فى هذا المنهج الإيمانى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت).

• ويعلمنا الموقف أيضًا ألا نجارى الآخرين فى معصية أو سوء، كما ينبغى ألا يخرجنا سفه السفهاء عن أدب الإيمان وحسن الخلق، وكما أخبرنا الحبيب النبى

(*) وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م، (٢/ ٧١).

ﷺ: «ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللَّعان ولا الفاحش ولا البذىء»[1].

• ومن دلالات الموقف أيضًا ما فيه من تربية للمسىء؛ حيث نبَّـه الحسن البصرى المغتاب إلى خسارته بارتكاب معصية الغيبة، وأن المغتاب ـ بهذه المعصية ـ قد خسر جزءًا من حسناته، وفى هذا تعليـم وتربيـة بأسـلوب حكـيم وموعظـة نافعة.

• وقريبٌ من هذا الموقف ما حدث مع رجل صالح أبلغه آخرُ بأن إنسانًا شتمه وسبَّه، فقال له: بلِّغ صاحبى أن الموت يعمُّنا، وأن القبر يضمنا، وأن القيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا وهو أحكم الحاكمين.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ، (٣٨٣٩)، والترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء فى اللعنة، (١٩٧٧)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٢٠).

٨١. أفلح إن صدق (*)

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات فى اليوم والليلة».

فقال: هل علىَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تَطَوَّع». قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان».

فقال: هل علىَّ غيره؟ قال له الرسول ﷺ: «لا، إلا أن تطوَّع».

وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. فقال: هل علىَّ غيرها؟ قال له الرسول ﷺ: «لا، إلا أن تطوع» فأدبر الرجل، وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.

فقال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق».

*****

- هذا الموقف يعرض للمنهج الإسلامى الذى يقوم على التيسير ورفع الحرج، وعدم التكليف بما لا يُستطاع.

فالإسلام درجات متفاوتة، وقد أوضح النبى ﷺ للسائل الحد الأدنى

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، (٤٦)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الإسلام، (١٠٩).

للتكاليف بعد الإيمان، وهو أداء الفرائض المفروضة على كل مسلم ومسلمة، وأعلى منه التطوع بالنوافل، ثم المزيد من البر والإحسان، وهناك منازل شتى لأهل العمل وأصحاب العزائم والهمم يتنافسون ويتسابقون في إدراكها وتحصيل خيرها.

لكن النبي ﷺ ـ وهو المعلم الهادى ـ أرشد سائله إلى الحد الأدنى؛ تيسيرًا على أمته، وأكَّد هذا في مواقف أخرى، فعن أبى ثعلبة الخشنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم حرماتٍ فلا تنتهكوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيانٍ، فلا تبحثوا عنها»[(١)].

وقال عبيد بن عمير: إن الله أحلَّ وحرَّم، فما أحلَّ فأحِلُّوه، وما حرَّم فاجتنبوه، وترك بين ذلك أشياء لم يحلِّلها ولم يحرمها، فذلك عفو من الله، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة/ ١٠١)[(٢)].

- ويفهم من هذا الموقف أن المؤمن إذا أدى ما عليه من فرائض، ولم يزد عليها كان من المفلحين؛ لأنه أتى بما فُرِضَ عليه. ولا يفهم من هذا الحديث ـ بطبيعة الحال ـ أن من يزيد على الفرائض ليس مفلحًا، فبدهى أن من يفعل

(١) الدار قطنى في سننه، كتاب الرضاع، (٤٢)، وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الأطعمة، (٧١١٤)، وحسنه الألبانى في شرح العقيدة الطحاوية ص (٣٣٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٥٣٤) برقم (٨٧٦٨)، وابن أبى شيبَة في مصنفه (٧/ ١٦٤) برقم (٣٥٠٠٤).

الواجب والمندوب معًا أفضل ممن يفعل الواجب فقط، كما يستفاد من هذا الموقف ضرورة تبشير الناس والابتعاد عن التنفير؛ يؤكد ذلك قول النبى ﷺ فيما أخرجه الشيخان: «يسروا ولا تعسّروا، وبشِّروا ولا تُنَفِّروا»(١).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا، (٦٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فى الأمر بالتيسير وترك التنفير، (٤٦٢٦).

٨٢. خبأنا لك هذا (*)

قسَّم النبى أثوابًا، ولم يرسل إلى مخرمة منها، وكان رجلًا أعمى مُشاحنًا، فقال لولده: خذ بيدى إلى النبى ﷺ. فلما طرق عليه بابه، خرج النبى ﷺ، وعلى يده ثوب منها. فقال ﷺ: «خبأنا لك هذا يا مخرمة». فلما أخذه، قال النبى ﷺ: «رضِى مخرمة».

*****

هذا الموقف يُعلمنا فقهًا من فقه الدعوة إلى الله تعالى، ويوضح لنا أسلوبًا حكيمًا لاستمالة القلوب؛ فقد طبع الله النفوس على حب من يتألفها ويستميلها، وجعلها تنفر ممن يهاجمها ويعيبها.

ولعلَّ مما يوضح ذلك ما جاء من أمر الله تعالى للنبيين الكريمين موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بالرفق واللين مع واحد من جبابرة خلقه هو فرعون؛ حيث قال لهما سبحانه: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (طه).

وهو أمر مشترك عام فى أساليب خطاب الأنبياء والرسل لأقوامهم برفق ولين، وما قول: «يا قوم»، وقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: «يا أبتِ» وقول نوح عليه السلام

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب كيف يقبض العبد والمتاع، (٢٤٥٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة، (٢٤٧٨).

لابنه: «يا بُنَيَّ» ـ إلا نماذج واضحة تنطق بالرفق والحب. وبمثل هذه الدعوات الكريمة يقترب البعيد ويعود الشارد. وتتفتح القلوب والأسماع لدعوة الله.

ومن ذلك قول النبى الكريم (فى فتح مكة) ﷺ لأبى سفيان يتألفه، وكان حديث عهدٍ بالإيمان: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»(١).

إن هذه الدعوات الرقيقة تستميل القلوب إلى وَجْه الحق وتردهم ردًّا جميلًا، بخلاف ما يفعله المتشددون ناسين قول النبى ﷺ: «يسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشروا ولا تنفِّروا»(٢).

ولقد كان هذا منهج النبى ﷺ فى دعوته إلى الإسلام، يبين من مبادئه ما يكون أقرب إلى النفوس وأدنى إلى عاداتها، والإسلام غنى بالمبادئ التى تَأْلفُهَا القلوب وتحبها؛ لأنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فإذا آنس الداعى ممن يدعوهم ألفةً ورغبة فى التعرف على حقائق الدين وأسراره فصَّل لهم ذلك، اقتداءً بهديه ﷺ فى التَّحبُّب إلى الناس وتبشيرهم، والابتعاد عن التعسير والتشدد والتنفير.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، (٤٧٢٤).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا، (٦٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فى الأمر بالتيسير وترك التنفير، (٤٦٢٦).

٨٣. الوثيقة العمرية فى فتح بيت المقدس (*)

عندما فتح المسلمون مدينة القدس، وخلصوها من ظلم الرومان فى سنة ١٥هـ؛ أى بعد وفاة النبى ﷺ بخمسة أعوام، تفاوض أهلها مع الفاتحين المسلمين بأن تكون المدينة تحت حمايتهم وإمرتهم، واشترط حاكمها أن يتسلم المدينة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه.

فأرسل أبو عبيدة بن الجراح بالوثيقة التى اتفق عليها معهم، وكانت الوثيقة العمرية نموذجًا للمعاهدات السياسية فى ظل حضارة الإسلام وتسامح المسلمين، فرحب عمر وسافر إلى بيت المقدس.

*****

- هذا موقف إسلامى خالد يظهر من خلاله فضل حضارة الإسلام، وما تتميز به من احترام الآخر، واحترام إنسانيته، لا تَسَامُحَ الضعيف المغلوب على أمره.

(*) راجع: تاريخ الرسل والملوك، الطبرى، ذكر فتح بيت المقدس، (٢/ ٣٠٧).

• كما يدل هذا الموقف العمرى على التزام المسلمين بعهودهم، وعلى أن قوة الفاتحين المسلمين كانت لأهداف إنسانية سامية تُخلِّص الشعوب من المستغلين لثرواتها والمحتلين لأراضيها، كما أنها كانت تحارب الذين يصدون الدعوة الإسلامية، ويقفون فى وجهها حماية لمصالحهم الظالمة فى استعباد الشعوب.

ولم تكن قوة الحضارة الإسلامية قطٌّ أداة لقهر أحد أو جبره على الدخول فى الإسلام، بل تركت الدخول فى الإسلام طواعية لمن يرغب فى ذلك؛ امتثالا لقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة/ ٢٥٦).

والمتدبر لما جاء بهذه الوثيقة يتأكد له أن المسلمين حين ملكوا أحسنوا، ولم يسيئوا ولم يدمروا ولم يظلموا، فى حين أن غيرهم ـ كما يصنع اليهود الآن ـ ملكوا فأساءوا ودمروا.

ومن نص الوثيقة العمرية: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وسائر ملتها، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضام أحد منهم.

ولما شاء الله تعالى رد الحملة الصليبية، وأعاد صلاح الدين الأيوبى القدس إلى الإسلام إلى أمانها وكرامتها، وكانت لديه الدوافع القوية للانتقام بسبب بشاعة ما ارتكبه الصليبيون من جرائم لا تليق بإنسانية الإنسان، إلا أن صلاح الدين لم يحاول أن يَتَشفَّى، بل حررَّ القدس وأعادها للإسلام دون أن يقتل أو أن يعتدى على طفل أو شيخ أو عجوز، ولاقى أهل القدس من لطف وتسامح صلاح الدين فوق ما انتظروه.

وكل ذلك مرده ومرجعه إلى رسول الله ﷺ حين فتح مكـة وأقبـل أهلهـا فى خوف من أن يبطش بهم، فقال لهم بلطفه وسماحته ﷺ: «مـاذا تظنـون أنـى فاعـل بكم؟» قالوا: أخٌ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى، كتاب السير، باب فتح مكة حرسها الله، (١٨٠٥٥)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١١٦٣).

٨٤. أبـو اليسـر(*)

كان لأبى اليسر كعب بن عمرو دَيْنٌ على رجل، فأتاه يتقاضاه من أهله، فخرجت إليه جارية الرجل تقول: ليس مولاى ها هنا، وكان مولاها بالداخل، وسمع أبو اليسر صوته فناداه: اخرج؛ فقد سمعتُ صوتَك. فخرج الرجل كاسف البال يتألم من عذاب التخجيل والخجل.

فسأله أبو اليسر: ما الذى حملك على ما صنعت؟ فقال الرجل: العُسرة. فَلَطَّف أبو اليسر للرجل القول، وقال له: اذهب، فلك ما عليك. إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله».

*****

هذا الموقف الإيمانى يفيض بالدلالات الهادية، وقبل الشروع فى بيان دلالات الموقف، أود أن نتعرف على صاحب هذا الموقف النبيل: إنه أبو اليسر، كعب بن عمرو: من بنى كعب بن سلمة، وهو صحابى أنصارى خزرجى، كان

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الذهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر، (٧٧٠٤).

بدريًّا من أهل بدر الذين رضى الله عنهم، ونصرهم وهم أذلة، وأيّدهم بالملائكة، وهو ممن شهد بيعة العقبة الأخيرة، وكانت حياته سلسلة من الجهاد المتواصل والعطاء السخى لدعوة الله تعالى.

ومن بين مواقفه الإيمانية هذا الموقف الذى يحمل لنا دلالات هادية، ويقدم لنا دروسًا تربوية هادفة.

أولها: أبو اليسر رجل يتابع الحقوق المالية التى تخصه، وهذا فهم إيمانى صائب؛ للمحافظة على الحقوق من الضياع بسبب الإهمال وعدم المتابعة، فالحرص على الحق والمطالبة به أمر إيمانى لا غبار عليه، بل أُمِرْنَا به؛ من ذلك قول النبى ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»[1].

ثانيها: غير أن متابعة الحقوق والحرص على استردادها يُصاحبه روح الإيمان الودودة العطوفة التى تراعى ظروف الناس وأحوالهم فى الشدائد، وفى هذا استجابة لـهْدى قرآنى كريم أمرنا الله به فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ (البقرة/ ٢٨٠).

فالتيسير فى التقاضى عمل صالح يُضاف ثوابه إلى ثواب القرض الحسن، وفى الحديث الشريف: «من أنظر معسرًا، أو وَضَع عنه أظله الله فى ظله»[2].

ثالثها: التثبت من أحوال الناس ومعرفة الأسباب والدوافع التى تمنعهم من

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب القدر، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز، (٦٩٤٥).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر، (٧٧٠٤).

السداد والوفاء ومحاولة العلاج؛ لذلك سأل أبو اليسر الرجل: ما الذى حملك على ما صنعت؟ فلما أجاب الرجل بأن السبب العسرة وضيق الحال، عفا أبو اليسر عنه، وأسقط الدَّيْن الذى على الرجل.

والتثبت من أحوال السائل ـ إذا كان ذلك فى الاستطاعة، وبصورة كريمة لا تنال من كرامته ـ تجعل الصدقة تصل إلى مستحقيها، بدلا من وصولها إلى أهل الحيلة والمكر، فالمؤمن كيِّس فَطِن.

هدانا الله إلى ما يحب ويرضى

٨٥. لهذا جئت (*)

ركب عقبة بن عامر إلى مسلمة بن مخلَّد، فقال له: أتذكر يوم قال رسول الله ﷺ: «من علم عن أخيه سيئة فسترها، ستره الله بها من النار يوم القيامة؟». قال: نعم. قال: لهذا جئت.

*****

هذا موقف تربوى هادف، يظهر من خلاله عظيم خلق الصحابة وعظيم أدبهم، كيف لا، وقد كانت أخلاقهم من أخلاق حبيبهم ونبيهم وقدوتهم رسول الله ﷺ ؟!

كانوا رضى الله عنهم ينصحون ولا يفضحون، يصلحون ولا يعيبون، تأسيًا بهدى حبيبهم المصطفى ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه»(١).

وكان بين الصحابيين الكريمين عقبة بن عامر ومسلمة بن مخلد تناصح وإصلاح فى ستر من الناس.

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الشاميين، حديث مسلمة بن مخلد رضي الله عنه، (١٧٠٠١)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب فى النصيحة والحياطة، (٤٩٢٠)، والبيهقى فى السنن الكبرى، كتاب قتال أهل البغى، باب ما فى الشفاعة والذب عن عرض أخيه المسلم من الأجر، (١٦٤٥٨)، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٢٦).

وما أطيب قولَ الإمام الشافعى فى هذا المعنى:

تَعَهَّدْنى النصيحةَ فى انفرادٍ وجنِّبْنى النصيحةَ فيالجماعةْ

فإنَّ النُّصْحَ بينَ الناسِ نوعٌ من التوبيخ لا أرضى استماعَهْ

ونتعلم من هذا الموقف أن التناصح بين الإخوان يكون بالموعظة الحسنة التى تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، دون زجر أو تأنيب، ودون فضح للأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية؛ فإن الرفق فى الموعظة كثيرًا ما يهدى القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة.

ويكون التناصح أيضًا بالجدال بالتى هى أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل وتقبيح، حتى يطمئن المنصوح إلى الناصح بأن الهدف هو النصيحة وليس التشفى أو العلو والغلبة؛ لأن النفس الإنسانية قد يصيبها العناد والكبرياء، فتدافع عن الباطل؛ كى لا تشعر بالهزيمة، وربما تختلط الأمور عند بعض الناس، فيعتبر النزول عن الرأى تنازلا عن قيمته وكرامته الشخصية.

ومن هنا أمرنا الإسلام بأن نراعى إخواننا حين يكون منا دعوة أو تناصح أو إصلاح، وإلى هذه المعانى والقيم يشير قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل/ ١٢٥).

٨٦. رضينـاه حكمًا (*)

جَدَّدت قريش بناء الكعبة، وأرادت إعادة الحجر الأسود إلى مكانـه، فاختلفـت القبائـل فـيمن يكـون لـه شرف حمـل الحجـر الأسود ووضعه فى مكانه بالكعبة، ثم اتفقوا على أن يُحَكِّمـوا أول داخل عليهم من باب شيبة، فكان أول داخل هو سيدنا محمد ﷺ، فقالوا: هذا هـو الأمـين، رضـيناه حكـمًا؛ فبـسط النبـى ﷺ رداءه ووضع فيه الحجر، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثـوب»، فرفعوه جميعًـا حتـى انتهـوا إلى موضـعه، فأخـذه رسـول الله ﷺ، ووضعه مكانه.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية منها:

- أولًا: فطنة النبى ﷺ لروح القبلية من التعالى والتفاخر التـى تـسود بـين أهل مكة، وكم كانت هذه القبلية سببًا للتنازع والتناحر والتقاتل!! على نحـو مـا ظهر فى الموقف عن اختلاف القبائل فيمن يكون له شرف حمل الحجر ووضـعه فى مكانه بالكعبة؛ ليكون له الذكر والثناء بين القبائل حتى يتباهى ويتعـالى ويفتخـر

(*) سيرة ابن هشام، (١/ ١٩٦).

بذلك، وقد وصل بهم الخلاف إلى درجة كاد أن ينشب القتال بينهم، فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ثم تعاقدوا مع بنى عدى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، دون أن يردها إلى الوفاق أى رأى أو تدبير، حتى كان خمود الفتنة على يد رسول الله ﷺ.

وما من شك فى أن هذه الروح هى روح الجاهلية وأخلاقها، وقد عالجها الإسلام وعلمهم التواضع والتسامح والإيثار والتخلِّى عن التنازع والأهواء المضلة.

• ثانيًا: حكمة النبى ﷺ فى معالجة الموقف وفض التنازع بينهم؛ حيث قام حُكْم رسول الله ﷺ على العدل، وإقامة العدل بين الشركاء، وهذه أسرع السبل لتحقيق الرضا والأمن، فى حين أن اختلال ميزان العدالة هو الذى يجلب المصائب، ويتولد عنه الشحناء والحقد والرغبة فى التشفى والانتقام، ولذلك نرى فى الموقف أن رسول الله ﷺ حقق العدالة بين القبائل المتشاحنة حيث بسط رداءه ووضع الحجر فيه، وأتاح لهم جميعًا المشاركة فى حمل الحجر.

• ثالثًا: موقف قبائل قريش من رسول الله ﷺ حين دخل عليهم من باب المسجد؛ إذ قالوا: إنه الأمين، رضينا به حكمًا. فهذا القول منهم يشير إلى ما كانت عليه حياة المصطفى ﷺ قبل النبوة؛ فقد كان ﷺ صاحب فكر صائب ونظر سديد؛ لأن الله قد حباه بحظ وافر من الفطنة والذكاء والحكمة والسداد، ولأنه ﷺ لم يتأثر بأخلاق الجاهلية فى شىء؛ فقد أحاطه الله تعالى بحفظه وعنايته، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتمتع فى قومه بأخلاق فاضلة وشمائل كريمة، فكان أحسنهم

خلقًا، وأصدقهم حديثًا، وأعفَّهم نفسًا، وأكرمهم خيرًا، وأوفاهم عهدًا، وآمنهم أمانة؛ لذلك سماه قومه «الأمين»؛ لما رأوا فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية.

والخلاصة: أن هذا الموقف المحمدى درس قيم فى فقه تدبير الأمور وسياسة القضايا وقطع دابر الخصومات، وأن الأساس فى تكوين شخصية سيدنا محمد ﷺ أنه نبى ورسول يرعاه ربه ويتولاه بالحفظ والعناية. كما يعبر الموقف عن مدى سمو منزلته ﷺ بين رجال قريش على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم.

وصلى الله على معلم الناس الخير سيدنا محمد ﷺ والحمد لله رب العالمين

٨٧. إن كان قال فقد صدق (*)

لما أخبر النبى ﷺ الناس بأمر الإسراء والمعراج فى صبيحة اليوم التالى لهذه الرحلة المباركة، أسرع بعض المشركين إلى أبى بكر رضي الله عنه يخبرونه بما قاله النبى ﷺ من أمر الإسراء والمعراج؛ رجاء أن يستعظمه، فلا يصدقه. فقال أبو بكر: إن كان قال ذلك فقد صدق، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك.

*****

فى هذا الموقف الإيمانى دلالات هادية:

- الأولى: أدب التلقى عن الله وعن رسول الله ﷺ، فحين يُسند الفعل لله تعالى ينبغى أن يكون التسليم والتفويض والسمع والطاعة؛ فإن الله على كل شىء قدير، وفعل الحكيم كله حكمة؛ لذلك نرى سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه فى هذا الموقف يعلمنا درسًا فى حسن التلقى عن رسول الله ﷺ، فقد أعلن تصديقه للنبى ﷺ فى أمر الإسراء والمعراج، وكان رضي الله عنه كلما أخبر النبى وأجاب عن أسئلة المشركين حين سألوه أن يصف لهم المسجد، قال أبو بكر: صدقت صدقت، فسمى الصِّدِّيق.

(*) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، (٤٤٠٧)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٠٦).

وهذا شأن أهل الإيمان يتلقون أوامر الله بالامتثال والطاعة، ولا يجدون فى نفوسهم غضاضة من أمر الله تعالى، بل إنهم يستشعرون حلاوة الإيمان فى قلوبهم بالامتثال لأمر الله سبحانه.

والقرآن الكريم يوضح لنا أن المؤمن ليس له أمام أمر الله تعالى إلا التسليم والامتثال، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب/ ٣٦).

ويستفاد من هذا أن التسليم لحكم الرسول ﷺ الذى قضى الله به من أساسيات الإيمان، وأن أوامر الله لا تُناقش، وليست مواطن للمجادلة ولا مواضع للمناقشة.

- الثانية: الثبات على الحق وعدم التأثر أمام الضغوط والحيل والمكر، فالمؤمن يقظ حذر، ثابت على الحق، لا تنهار قيمه ولا مبادئه؛ لينال نصيبًا وافرًا من تأييد الله له، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ (إبراهيم/ ٢٧).

- الثالثة: درس للدعاة والمصلحين بأن طريق الدعوة والإصلاح أمامه عقبات من أهل الباطل والشرك، وهذه سنة الله فى خلقه، فليصبر الدعاة كما صبر أولو العزم من الرسل، وليستعينوا بالله تعالى؛ ليمدهم كما أمد نبيه ﷺ من فيض عطائه وواسع فضله وتأييده، فيكتب لدعوتهم الفلاح.

وفى الموقف نرى المشركين واليهود يثيرون ضجة على النبى ﷺ حين أخبرهم

بأمر الإسراء والمعراج ويقودون حملات التشكيك فى صدقها، ثم ذهبـوا إلى أبعـد من ذلك بالتحدى وسؤال النبى ﷺ أن يصف لهم معالم المسجد الأقـصى، وهكـذا نرى أن الجولة بين الخير والشر قائمة إلى يوم القيامة؛ ليخلص أهل الحـق لحقهـم، فينالهم من تأييد الله ونصره.

٨٨. فجلاه الله له (*)

لما أصبح رسول الله ﷺ صبيحة الإسراء والمعراج، وأخبر قومه بما أراه الله تعالى، ركز المشركون أسئلتهم لرسول الله ﷺ عن بيت المقدس، فَجَلَّاه الله له، وجعل يخبرهم عنه، فلم يستطيعوا أن يردوا من ذلك شيئًا.

*****

• هذا موقف يفيض بالدلالات والأسرار، وبخاصة تلك الدلالات المتعلقة بمستقبل الأقصى مع الإسلام والمسلمين، لقد حاول اليهود والمشركون التشكيك فى أمر الإسراء والمعراج، لكن العناية الإلهية كشفت للنبى ﷺ مرادهم، وأمدته العناية الربانية بمعالم بيت المقدس، فأجابهم ﷺ عن كل سؤال.

وربما عجزت عقول المشركين عن فهم دلالة الإسراء بالنبى ﷺ إلى المسجدالأقصى، وعن تسميته مسجدًا ولم يكن ساعتها تحت سلطان المسلمين، وربما عجزت عقول المشركين عن إدراك دلالات صلاة النبى ﷺ بالأنبياء فيه إمامًا، لكن المتأمل لسورة الإسراء والمتدبر فى سياق آيات هذه السورة يرى إجابات شافية وتفسيرات واضحة لهذه التساؤلات وتلك الأمور، لقد ذكر الله تعالى قصة الإسراء فى آية واحدة فقط فى صدر سورة الإسراء، ثم أخذ فى ذكر

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب فى ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، (٤٤٨).

فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم إلى أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم.

والله تعالى يشير بهذا الأسلوب وهذا التعاقب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الإنسانية؛ بسبب ما ارتكبوه من جرائم، وأن الله تعالى سينقل هذا المنصب فعلًا إلى رسول الله ﷺ، فقد آن الآوان لانتقال القيادة إلى أمة وصفها الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران/ ١١٠)، أمة تتدفق بالخير والبر والحق والعدل والرحمة بعد أن ملأ اليهود التاريخ بالغدر والخيانة والإثم والعدوان والطغيان والفساد، ولكن كيف تنتقل هذه القيادة والرسول ﷺ يطوف جبال مكة مطرودًا من قومه؟ والله تعالى يجيبنا من خلال القرآن؛ فقد أنزل ساعتها قرآنا يحمل الإنذار والوعيد بزوال طغيان المشركين، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ (الإسراء).

وبجانب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين القواعد والمبادئ التى تقوم عليها حضارة الإسلام، وفى هذا إشارة إلى بزوغ حضارة الخير والبر.

- كما يظهر من الموقف أن إسلامية المسجد الأقصى حقيقة قرآنية، وقد بشر النبى ﷺ بأن العاقبة للمسلمين فى المواجهة المرتقبة بين المسلمين واليهود، وأن الجمادات والأشياء سوف تتعاطف مع المسلم وتخبر عن مكان اليهودى؛ ليتمكن منه المسلم فيقتله.

٨٩. ذهب المفطرون بالأجر (*)

عن أنس ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلًا فى يوم حارّ، أكثرنا ظِلًّا صاحب الكساء، ومنا من يتقى الشمس بيده، فسقط الصُوَّام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وَسَقُوا الركاب. فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون بالأجر».

*****

هذا الموقف يعلمنا درسًا قيمًا فى فقه العبادة، وأن أمر العبادة ليس مقصورًا على العبادات المفروضة من الصلاة والصيام والزكاة والحج، بل يمتد معنى العبادة ليشمل كل فعل صالح من الأعمال النافعة التى تعود بالخير على الإنسان ومجتمعه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧﴾ (الحج).

- وفى الموقف الذى بين أيدينا قام المفطرون بخدمة الصُوَّام، وأنجزوا الأعمال المطلوبة فى هذا الحين، فأعلن النبى ﷺ أنهم فازوا بالأجر، ومن هنا ندرك أن العامل فى مصنعه، والفلاح فى حقله، والمعلم فى مدرسته، حين يصحح كل

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الخدمة فى الغزو، (٢٧٣٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الصيام، باب أجر المفطر فى السفر إذا تولى العمل، (٢٦٧٨).

منهم النية فى عمله بأن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى، فإن هذا العمل يكون عبادة.

- ومن دلالات الموقف التربوية: مراعاة الفروق الفردية فى قدرات أفراد المجموعة حين يتولى الإنسان قيادتهم والإشراف عليهم، فالصحابة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ منهم من كان صائمًا، ومنهم من كان مفطرًا، دون أن يشق النبى ﷺ على أحد أو يلزمه بالصوم، ما دام الأمر فى إطار النافلة، فكل إنسان يأخذ منها على قدر طاقته.

وحين اشتد الأمر ودعت الحاجة إلى بعض الأعمال، أسندت الأعمال لمن يقوى عليها ويستطيع إنجازها، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ. وهنا درس فى الإدارة من حضرته ﷺ يعلِّمنا كيف نُوزع الأدوار.

- ومن دلالات الموقف التربوية أيضًا: إعلان النبى ﷺ أن المفطرين قد ذهبوا بالأجر اليوم، وفى هذا تقدير منه ﷺ؛ لما بذلوا من جهد، وأن الثواب ليس فقط لهؤلاء الصوَّام العُبَّاد، بل للمكافحين العاملين ثواب وأجر عظيم.

والمكافأة والثواب من عوامل التشجيع ورفع معنويات العامل ودفعه إلى الاجتهاد فى عمله.

وبالله التوفيق

٩٠. هل أضعناك يا فتى؟ (*)

كان للإمام أبى حنيفة النعمان جار يلهو ويغنى:

أضاعُونى وأىَّ فتًى أضاعوا   ليومٍ كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ

وكان الضيق يصيب أبا حنيفة بسبب إزعاج الفتى وضجيجه فى وقت الليل، وعلى الرغم من ذلك كان أبو حنيفة صابرًا محتسبًا.

وذات يوم وضع رجال الشرطة هذا الفتى المزعج فى الحبس، فلما علم أبو حنيفة بأمر حبسه شفع له، ثم قال له هاديًا ومعلمًا: هل أضعناك يا فتى؟ فقال الفتى: لا والله! وانتهى الفتى عن لهوه، وكفَّ عن إزعاجه.

*****

هذا الموقف يعلمنا كيف نعالج الأمور حين تكون مشكلة بين من تجمعهم صلة أو علاقة من العلاقات الإنسانية، كعلاقة الجوار، وعلاقة أخوة الإيمان، وعلاقة العلم فالعلم بين أهله رحم، وعلاقة قرابة النسب... ونحو ذلك.

(*) المستطرف فى كل فن مستظرف، الأبشيهى، د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، (٢/ ٣٢١)، وذكره ابن حجر فى الخيرات الحسان بمناقب الإمام أبى حنيفة النعمانى، ص ٧٠.

• والموقف يتناول علاقة الجوار، تلك العلاقة التى اهتم بها الإسلام اهتمامًا بارزًا، فقد جاءت التوصية بحق الجار فى سياق كريم يأمر فيه الله تعالى عباده بحقه وحق الوالدين والأقربين، قال الله سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ (النساء).

والنبى ﷺ يعظم حق الجار، قال ﷺ: «ما زال يوصينى جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1].

أى: سيجعل له نصيبًا من الميراث كالأقارب.

وما من شك فى أن الإحسان إلى الجار، ورعاية حقوقه، وتحمل أذاه يؤدى إلى حصول المحبة والألفة والمودة بين أفراد المجتمع، ويصبح المجتمع أسرة كبيرة تواجه ظروف الحياة من يسر وعسر.

والنبى ﷺ جعل الإحسان إلى الجار علامة على خيرية الإنسان وأمارة على صلاحه؛ من ذلك قوله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»[2].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، (٥٦٦٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، (٦٨٥٢).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو، (٦٥٦٦)، والترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب حق الجوار، (١٩٤٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٧٠).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها، قال النبى ﷺ: «هى فى النار»، قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى جيرانها» قال النبى ﷺ: «هى فى الجنة»[1].

وهكذا يكون إيذاء الجار سببًا فى دخول النار، والإحسان إلى الجار سببًا فى دخول الجنة.

- وفى الموقف فضيلة من فضائل الإحسان إلى الجار، وهى أن الجار إن عصى الله فيك فينبغى أن تطيع الله فيه، وهذا ما فعله أبو حنيفة مع الفتى اللاهى، وهذا منهج قرآنى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت).

- أيضًا: نتعلم من الموقف متى نسدى النصيحة، واصطفاء الموقف المؤثر لذلك، فالإمام أبو حنيفة ما كان يستطيع أن يعظ هذا اللاهى إلا بعد هذا الموقف.

والله المستعان

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٧٩) برقم (٩٥٤٦)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٦٠).

٩١. طفل نابه (*)

كان أبو يزيد البسطامى طفلًا نابهًا، أرسله أبوه إلى معلم يعلمه القرآن، فلما قرأ الطفل أول سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ (المزمل). قال لوالده: لم لا تقوم الليل يا والدى استجابة لأمر الله تعالى؟ فقال والده: هذا خاص برسول الله ﷺ.

فلما وصل الطفل فى التلاوة إلى قوله تعالى من نفس السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ (المزمل/ ٢٠)، قال لوالده: يا والدى، لا خير فيمن لا يقتدى بالنبى ﷺ وصحبه والذين آمنوا معه. فأسرع الوالد إلى قيام الليل.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، ودروسًا تربوية مفيدة:

- أولها: اصطفاء النبهاء لرسالة القرآن والدعوة؛ كما صنع والد أبى يزيد البسطامى، حيث أرسله إلى معلم يعلمه القرآن.
- ثانيها: إتاحة الفرصة لأبنائنا للحوار معنا والإعلان عن آرائهم وأفكارهم، فلا نحجر على آرائهم، أو نصادر أفكارهم؛ بحجة أنهم صغار، كما

(*) حلية الأولياء، ترجمة أبى اليزيد.

ينبغى أن نأخذ بحجتهم وبرأيهم إذا كان صوابًا.

وهذا المعنى يظهر من الموقف حين سأل أبو اليزيد الطفل والده، لما قرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢﴾: لم لا تقوم الليل؟

وأجاب والده بأن ذلك خاص برسول الله ﷺ.

ولكن ما إن وصل الطفل أبو يزيد إلى قوله تعالى فى السورة نفسها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ (المزمل/ ٢٠).

فقال الطفل لوالده: لا خير فيمن لا يقتدى بالنبى ﷺ وصحبه والذين آمنوا معه.

- ثالثها: يؤكد الموقف أهمية قيام الليل، تلك السُنَّة التى تنادى المسلمين، بعد أن هجرها بعض المسلمين إلا من أنعم الله عليهم بها.

ومن وصف القرآن لأهل الإيمان قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾ (الذاريات)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ٦٤﴾ (الفرقان).

وفى الحديث النبوى، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[1].

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، أبواب التهجد، باب قيام النبى ﷺ حتى ترم قدماه، (١٠٧٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة، (٧٣٠٢).

وعن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[(١)].

وحسب من حافظ على قيام الليل أن يفوز بساعة إجابة الدعاء التى أخبر عنها النبى ﷺ بقوله: «إن فى الليل لساعة، لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذى فى ا، باب ما جاء فى قيام الليل، (١٣٣٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٦١٦). سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٨٥)، وابن ماجه فى سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيه.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فى الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، (١٨٠٦).

٩٢. التثبت من الأخبار (*)

أرسل النبيُّ ﷺ الوليدَ بنَ عقبةَ لجمع صدقات بنى المصطلق، فلما سمع القوم خرجوا للقائه تعظيمًا لأمر الله وأَمْر رسوله، فهابهم، فحدَّثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، وقال: إن بنى المصطلق قد منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلى.

فغضب النبى ﷺ وهمَّ أن يغزوهم، فأسرع وفد من القوم إلى رسول الله ﷺ وقصوا عليه الأمر، وبينوا أنهم تَلقَّوْه بالصدقة، فرجع، وتعوذوا بالله من غضب الله ورسوله.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات نبوية هادية:

- الأولى: أهمية التثبت من الأخبار ومصادر المعلومات؛ حتى لا نبنى أحكامًا خاطئة على الأخبار غير الصحيحة أو المعلومات المضللة، وكثيرة هى الأخبار عبر وسائل الإعلام المختلفة وشبكات الإنترنت.

وعلى المسلم أن يكون حذرًا من الشائعات والأخبار الكاذبة، وعليه أن

(*) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٢٨٦).

يتثبَّت ويتأكد قبل أن يسهم بحسن نية فى إشاعة الخبر الكاذب.

وهذا ما وجهنا القرآن الكريم إليه من خلال هذا الموقف، فحين رجع بنو المصطلق إلى رسول الله ﷺ، ووضَّحوا له الأمر بأنهم تلقوا الوليد بن عقبة بالصدقة؛ تعظيمًا لأمر الله ولرسوله، وتعوذوا بالله من غضب الله ورسوله، أنزل الله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ (الحجرات/ ٦).

- الثانية: الأثر السيئ للأخبار الكاذبة، فنرى فى الموقف أن الحرب كادت أن تقوم بين رسول الله ﷺ وهؤلاء القوم.
- الثالثة: خطورة الانقياد وراء وسوسة الشيطان وحديث النفس.

ففى هذا الموقف نرى أن الوليد بن عقبة انقاد لوسوسة الشيطان، وبنى على الوسوسة والأوهام أحكامًا مضللة.

والمؤمن كيِّس فطن ينبغى أن تقوم أحكامه على الحقائق والأدلة الصحيحة وليس على حديث النفس أو وسوسة الشيطان، وليدفع المؤمن عن نفسه هذه الوسوسة بذكر الله تعالى، والاستعانة بالله من الشيطان الرجيم.

والله المستعان

٩٣. يا ودود (*)

كان أبو معلَّق الأنصارى فى سفر فقطع عليه لـصٌّ الطريـقَ، يريد ماله وقتله، فقال أبو معلق له: خذ أموالى ولا تقتلنـى، فـأبى اللص، فقال أبو معلق له: دعنى أصلى.

فتركه اللص يصلى، حتى إذا كان فى الـسجدة الأخـيرة دعـا ربه فى خشوع قائلًا: «يا ودود، يا ذا العرش المجيـد، يـا فعَّـال لمـا تُريد، أسـألك بعزتـك التـى لا تـرام، وملكـك الـذى لا يُـضَام، وبنورك الذى ملأ أركـان عرشـك، أن تكفينـى هـذا اللـص، يـا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى».

وكرَّر الدعاء ثلاثًا فـإذا بفـارس يـأتى مـن حيـث لا يـدرى يضرب اللصَّ، وانصرف الأنصارى آمنًا.

*****

• هذا الموقف يوضح لنا حقيقة مهمة، وهى: فضل دعاء المـضطر، فنـرى أن هذا الأنصارى يقع فى هذا الاضطرار عندما خرج عليه لـص فـاجر لا يكتفـى

(*) أخرجه ابن أبى الدنيا فى مجابى الدعوة ص (٦٤) برقم (٢٣).

بسلب ماله فقط، بل يريد مع ذلك قَتْله.

ولما لم تنجح محاولة الأنصارى فى إقناع اللص بأن يكتفى بالمال ويرجع عن القتل، طلب من اللص أن يمهله لصلاة ركعتين، وقام الأنصارى يصلى حتى إذا كان فى الركعة الأخيرة دعا ربه دعاء المضطر فى خشوع وخضوع: «يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعَّال لما تريد، أسألك بعزتك التى لا ترام، وملكك الذى لا يُضام، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك، أن تكفينى هذا اللص، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى» والله تعالى يقول فى كتابه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (النمل/ ٦٢).

واستجاب الله للأنصارى ورزقه بفارس يدفع عنه هذا اللص.

ما أحوج المؤمن إلى اللجوء إلى الله تعالى فى أوقات الشدائد.

- أيضًا يظهر من هذا الموقف أن صلاح الإنسان فى أوقات الرخاء يعود عليه بالمعونة والتأييد فى أوقات الشدة.

فمن تعرَّف على الله فى الرخاء تعرَّف الله عليه فى الشدة، ومن هنا كان صلاح الأنصارى وحرصه على مرضاة ربه فى أوقات الرخاء ذخرًا له عند ربه.

٩٤. فأذن لـه النبى ﷺ (*)

جاء رجل من بنى عـامر إلى بيـت النبـى ﷺ، فقـال الرجـل: أَلِج؟ فقال رسول الله ﷺ لخادمه: «اخرج وعلِّمه الاستئذان».

فقال له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟ فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبى ﷺ، فدخل.

*****

هذا الموقف يعلمنا أدبًا من آداب التعامل، هو أدب الاستئذان، فالإسلام الحنيف يحترم ويراعى خصوصية الآخرين، ومن مظاهر مراعاة خصوصياتهم أن يستأذن الإنسان غيره فى الدخول عليه فى أماكنه الخاصة؛ كمنزله أو مكتبه ونحو ذلك، وهذا هدى قرآنى مبارك، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ (النور/ ٢٧).

وعبر القرآن عن الاستئذان بالاستئناس؛ لأنه يوحى بأن القادم أو الـداخل يستأنس بأهل البيت كما يستأنس أهل البيت به، الاستئذان والـسلام يحـصل بهـما مودة ورضا؛ ولأن الاستئناس فيه تلطف فى طلب الإذن.

ومن أدب الاستئذان إذا قيل له: من بالباب؟ لا يجيب بلفظ «أنا»؛ حيـث لا

(*) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب كيف الاستئذان؟ بـرقم (٥١٧٩)، وصـححه الألبـانى فى السلسلة الصحيحة (٨١٩).

تحصل به معرفة محددة بالإنسان المستأذن، بل يذكر اسمه، لأن المقصود بالاستئذان التوضيح والإفصاح، وليس الإيهام.

لأجل هذا أمرنا الإسلام بأدب الاستئذان والسلام، وعلمنا أنَّ لا ندخل إلا إذا أُذِن لنا، والاستئذان ثلاث فقط، فلا يواصل الإنسان الاستئذان أكثر من ثلاث لما فيه من إزعاج وإلحاح لا يليق بالمؤمن، وإذا لم يؤذن له، وقيل: ارجع، فليرجع دون غضب ودون ضجر؛ فإن هذا أزكى وأطهر للمستأذن، قال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ (النور/ ٢٨).

ومن آداب الاستئذان ألَّا يستقبل المستأذن الباب بوجهه، ولكن يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره.

وأيضًا من آداب الاستئذان أن يطرق المستأذن الباب ثلاثًا، فإن لم يجبه مَنْ بالداخل انصرف ولا يُلحَّ فى طرق الباب أكثر من ثلاث، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ (النور/ ٢٨).

٩٥. أوى إلـى اللـه (*)

بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد، والناس معـه؛ إذْ أقبـل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجـة فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر، فجلس خلفهم، وأما الثالـث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: «ألا أخبركم عـن النفـر الثلاثة؟ أمـا أحـدهم فـأوى إلى الله فـآواه الله إليـه، وأمـا الآخـر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

*****

هذا الموقف يقدم لنا دروسًا إيمانية هادية:

- الأول: فضل حلق الذِّكر، فمنزلتها عند الله تعالى عالية وغالية، وأهلهـا مبشرون بمغفرة واسعة وجنة عالية، وفى الموقف رأينا أن من التحق بالحلقة فى أى مكان بها نال حظًّا من رضوان الله وفضله.

فالرجل الأول الذى رأى فُرجَة فجلس فيها، أخبر النبى ﷺ عنه بأنـه رجـل أوى إلى الله فآواه الله إليه؛ أى: تولاه بالرعاية، وقرَّبه لرحمته وفضله وإحسانه.

والرجل الثانى الذى استحيا فجلس فى آخـر الحلقـة، أخـبر النبـى ﷺ بأنـه

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهـى بـه المجلـس، (٦٦)، ومـسلم فى صحيحه، كتاب السلام، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها، (٥٨١٠).

رجل استحيا فاستحيا الله منه، وهذا تعبير مـن بـاب المـشاكلة في اللغـة العربيـة، حيث يكون الجزاء من جنس العمل، والمعنى أن الله سيكرمه، ولن يرده ولن يحرمه من واسع فضله.

• الدرس الثاني من الموقف: أن الـمُعرِض عن حلق الـذكر والـذاكرين محروم من فضل الله وسعة رحمته.

وفي هذا الموقف أخبر النبـي ﷺ عـن الرجـل الـذي أعـرض بأنـه أعـرض فأعرض الله عنه، أي حرم نفسه بإعراضه، نعم لقد حرم نفـسه مـن فيوضـات الله ورحماته التي تتنزل على الذاكرين، وعلى حلق الذكر برحمـات واسـعة. مـن ذلـك قول النبي ﷺ «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»(١).

• الدرس الثالث: أن الناس في الطاعة منازل ودرجات، وكلها يرجى لهـا القبول والثواب عنـد الله تعـالى، وفي هـذا مراعـاة مـن الداعيـة لأحـوال النـاس المتفاوتة؛ كي يتعامل معها بحكمة.

• الدرس الرابع: هو التوجيه التربوي التعليمي من رسـول الله ﷺ حيـث اتخذ النبي ﷺ من الموقف العملي وسيلة إيضاح تربوية للمعاني الإيمانية.

وهذا من هديه ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى؛ حيث نوَّع ﷺ أسـاليب الـدعوة، فكان ﷺ يـدعو إلى الله تـارة بالنـصيحة وتـارة بالإشـارة، وتـارة بالهديـة، وتـارة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تـلاوة القـرآن وعـلى الذكر، (٧٠٣٠).

بالإكرام، وتارة بالموقف العملي، وتارة بالترغيب، وتارة بالترهيب... وهكذا حسب ما يقتضيه الحال. وصلى الله على معلم الناس الخير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبالله التوفيق.

والحمد لله رب العالمين

٩٦. إن ربك لبالمرصاد (*)

حَرَّض أبو جهل قومه على إيذاء النبى ﷺ، فعمد عقبة بن معيط إلى أحشاء وأمعاء جمل، فحملها وألقاها على رسول الله ﷺ وهو ساجد، حتى جاءت فاطمة رضى الله عنها وأبعدت القذر عن رسول الله ﷺ. فقام النبى ﷺ وقال: «اللهم عليك بالملأ من قريش»، وسمى أقوامًا. قال ابن مسعود: فرأيتهم جميعًا قتلوا يوم بدر.

*****

هذا موقف نبوى مبارك يعلمنا التضرع إلى الله تعالى والدعاء؛ فالإنسان لا يسلم ولا يخلو من وجود بعض المتاعب التى تَشُقُّ عليه، ويعجز بما بين يديه من أسباب خاصة أن يدفع هذه المشاكل.

وهذا الموقف يعلمنا كيف نصنع إذا ضاقت بنا السبل وأحاطت بنا المخاوف، فنرى فى الموقف أن عقبة بن معيط تحامل بالأذى على رسول الله ﷺ وألقى على رأسه وهو ساجد أحشاء وأمعاء جمل، ولم يجرؤ أحد أن يقترب من رسول الله ﷺ؛ كى يرفع هذا الأذى عن رأسه خوف بطش قريش وأهل الكفر فى

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب طرح جيف المشركين فى البئر، (٣٠١٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (٤٧٥١).

مكة، حتى جاءت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فرفعت هذا الأذى عن أبيها.

فقام النبى ﷺ يدعو ربه على من صنع به هذا الصنيع قائلا: اللهم عليك بالملأ من قريش، وسمى أقوامًا.

وكان العون من الله لنبيه ﷺ والانتقام الإلهى من أهل الشر والكفر.

قال ابن مسعود: فرأيتهم جميعًا؛ أى: رأى كل من دعا عليه المصطفى ﷺ قد قُتِلوا يوم بدر، وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر/ ١٤).

وقد أخبر الحبيب النبى ﷺ أنه ما من مؤمن يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان له بها إحدى ثلاث:

- إما أن يعجل الله له دعوته فى الدنيا (أى يحقق له ما دعا به).
- وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها.
- وإما أن يدخرها له يوم القيامة(١).

والله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة).

(١) ورد فى مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى سعيد الخدرى ﷺ، (١١١٤٩) بلفظ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرَف عنه من السوء مثلها»، أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب ما يدخر للداعى من الأجر والثواب، (٧١٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٣).

٩٧. بقيت كلها (*)

دفع النبى ﷺ شاةً للسيدة عائشة رضى الله عنها؛ كى توزعها على الفقراء، وبعد وقت يسير سأل النبى ﷺ عائشة عن توزيع لحم الشاة، فقالت: ذهبت كلها، ولم يبق غير كتفها. فقال النبى ﷺ: «بل بقيت كلها، ولم يذهب غير كتفها»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ (النحل/ ٩٦).

*****

هذا الموقف المبارك يقدم لنا الأسوة والقدوة فى السخاء والعطاء والادخار للدار الآخرة الباقية، ويؤكد الحقيقة الإيمانية والهدى القرآنى بشأن ثواب النفقة فى سبيل الله.

فهنالك فى حياتنا نفقات كثيرة، لكن نفقة واحدة من بين النفقات هى التى يباركها الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾ (البقرة/ ٢٦١).

أيضًا ما ننفقه فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته، هو الذى يبقى، أما ما عداه من مَطْعَم أو مشرب أو ملبس ونحو ذلك من شئون الدنيا فإنه يفنى، قال الله

(*) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٧٠)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٥٤٤).

تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ (النحل/ ٩٦).

وجاء الموقف نموذجًا عمليًّا وتطبيقًا لهذا المعنى، فلما سأل النبى ﷺ السيدة عائشة رضى الله عنها عن توزيع لحم الشاة، قالت ذهبت كلها ولم يبق غير كتفها، أى: تم توزيعها صدقة ماعدا لحم الكتف، لكن النبى ﷺ لم يُرْضِه هذا التعبير الذى قالته السيدة عائشة رضى الله عنها، وقال لها مصححًا ومعلمًا ومرشدًا:

قولى يا عائشة: بقيت كلها، ولم يذهب غير كتفها. فما تم إبقاؤه للطعام هو الذى ذهب، أما ما تم التصدق به فهو الذى بقى لنا ثوابًا عند الله تعالى يدخره لنا ليوم القيامة.

ومن هنا كان على المؤمن أن يقدم أفضل ما عنده للنفقة، وأن يجعل الصدقة فى مقدمة نفقاته لينال ما عند الله من خير،قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾﴾ (آل عمران).

وقد يحسب بعض الناس أن ثواب الصدقة فى الآخرة فقط، والحق أن للصدقة جزاءً فى الدنيا أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (سبأ).

٩٨. بالإيمان يتجدد الأمل (*)

رأى إبراهيم بن أدهم رجلًا تبدو عليه علامات الضيق والحزن، فقال له: يا أخى، إنى سائلك عن ثلاث فأجبنى:

الأولى: أيحدث فى هذا الكون شىء لا يريده الله تعالى؟ قال الرجل: لا.

فسأله الثانية: أينقص شىء من رِزْقٍ قدَّره الله لك؟ قال الرجل: لا.

فسأله الثالثة: أينقص من عمرك لحظة كتبها الله لك؟ قال الرجل: لا.

فقال إبراهيم بن أدهم للرجل: «فعلام الحزن يا رجل؟!!»

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية فى فقه معالجة الهموم ودفع الكآبة عن النفس.

- وأولى هذه الدلالات: اهتمام المسلم بأمر أخيه المسلم، فإبراهيم بن أدهم حين رأى الرجل تبدو عليه علامات الهم والحزن أسرع إليه يسأله عن سبب

(*) تنبيه الغافلين، ص ٢١٣.

همه وضيقه؛ كي يخفف عنه، ويرى كيف يمكن مساعدة الرجل وإعانته، مع الدعاء له.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، يهتم بإخوانه، يخفف عنهم، ويتعرف على أحوالهم لإعانتهم، وليس كما شاع في حياتنا المعاصرة من السؤال العاجل إذا التقى الواحد منا بصاحبه سأله: كيف حالك؟ ثم يجيب بنفسه: بخير والحمد لله، ثم ينصرف، دون أن ينتظر إجابة أخيه ويطمئن على أحواله.

فمثل هذا السؤال العاجل يتحلل به الإنسان من واجباته الاجتماعية وحقوق أخوَّة الإيمان، وكي لا يتهم الإنسان بالتقصير في حق صاحبه. أما أهل الإيمان فإنهم يسألون باهتمام ورغبة في إعانة من يسألون، وهذه الروح الودودة الحميمة من سنة الهادي البشير سيدنا محمد ﷺ، وفي الحديث: «مَثل المؤمنين في تَوَادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١).

• الدلالة الثانية: دور الداعية، فالداعية كالطبيب يداوي جراحات النفوس بهدي القرآن الكريم والسنة النبوية، فحين علم إبراهيم بن أدهم ما بالرجل من ضيق، وما أصابه من هم أقبل عليه يسأله عن ثلاثة أشياء لا يمكن الإجابة عنها إلا بالنفي؛ لأنها مما قدَّره الله تعالى، ولا قدرة لأحد على تغييره أو تبديله.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (٦٧٥١).

وفى هذا حكمة غالية؛ حيث كان الخطاب بشكل مقنع، كما يلفت انتباه المهموم إلى حقائق عالية خالدة فى هذا الكون أمرها بيد الخالق وحده، ليبث الطمأنينة والرضا فى قلب المهموم، حيث قال ابن أدهم:

أيحدث فى هذا الكون شىء لا يريده الله تعالى؟

أينقص شىء من رزقك قدره الله لك؟

أينقص من عمرك لحظة كتبها الله لك؟

وتتأكد هذه المعانى وينتبه المهموم إلى هذه الحقائق؛ حيث كانت إجابته على الأسئلة الثلاثة بقوله: لا. وارتقى إبراهيم بن أدهم بالرجل إلى قمة إيمانية بسؤاله: فعلام الحزن يا رجل؟!

- الدلالة الثالثة: نتعلم من هذا الموقف أنه بالإيمان يتجدد الأمل، فرجاء المؤمن فى الله لا ينفد، وأمل المؤمن فى ربه لا ينقطع.

وفى الحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»(١).

فإن كانت الأمور بيد الله تعالى فلنجعل الهموم همًّا واحدًا هو مرضاة الله تعالى، فمن جعل الهموم همًّا واحدًا استراح ونجا من السقوط فى هوة اليأس والإحباط. والمؤمن يتجدد أمله بتجدد الأنفاس؛ ثقة منه ويقينًا فى الله تعالى. إن الله على كل شىء قدير.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، (٧٤١٢).

٩٩. كيف النجاة؟ (*)

قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة. قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ. فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال الفضيل: أتعرف تفسير إنا لله وإنا إليه راجعون؟! فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جوابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة. قال: ما هى؟ قال: تُحسن فيما بَقِى يُغْفر لك ما مضى؛ فإنك إن أسأت فيما بقى أُخِذْتَ بما مضى وما بقى.

*****

- هذا الموقف يقدم لنا حقيقة إيمانية غالية، ويقف بمن تفلتت أعمارهم فى الزلات والمعاصى على سبيل الخلاص وطريقة النجاة.

(*) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلى، ص ٣٨٣.

ما أسرعَ مرورَ العمر! وإنها لحسرة وندامة أن تمر الأيام، ويمضى العمر فى غفلة وإثم ومعصية، ولقد حذرنا القرآن الكريم من انقضاء العمر فى المعاصى والذنوب دون توبة صادقة؛ فنأتى يوم القيامة يأكلنا الندم وتعذبنا الحسرات، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (الزمر).

فعلى العاقل أن يبادر بالتوبة فى الدنيا؛ كى يفوز بالغفران والرحمة فى الآخرة، والسبيل العملى لذلك هو ما دلنا عليه الموقف؛ حيث قال القاضى للرجل الذى تفلت منه العمر فى المعاصى: ألا أدلك على الخلاص؟ أى النجاة: أصلح ما بقى يغفر لك ما مضى.

ويقول النبى ﷺ: «إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله تعالى وليس عليه شاهد من الله بذنب»[1].

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (١٤/ ١٧)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢٤١٨).

ووعد الله من تاب وآمن وعمل صالحًا أن يبدل سيئاته حسنات، قال تعالى في سياق الحديث عن عباد الرحمن: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الفرقان).

- كما يستفاد من الموقف أن يغتنم المؤمن ما بين يديه من فرص للطاعة والاستغفار والتقرب إلى الله تعالى؛ فاغتنام الفرص هَدْى إسلامى كريم، وفى الحديث النبوى الشريف: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»[1].

وفى الحديث أيضًا: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[2].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب القدر، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز، (٦٩٤٥).

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب الرقاق، (٧٨٤٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٢٦٣) برقم (١٠٢٤٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٥).

١٠٠. هَلَك مَنْ قبلَنا (*)

سرقت امرأة من بنى مخزوم، وهم من أشراف قريش، فتشفَّع قومها للرسول ﷺ بأسامة بن زيد، فلما تكلم أسامة مع رسول الله ﷺ، غضب النبى ﷺ، وقال: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما هلك الذين من قبلكم؛ لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقَطَع محمد يدها».

*****

فى هذا الموقف عبر وعظات غالية، ودروس تربوية هادية؛ منها:

- أن الناس سواسية أمام ميزان العدالة، يستوى فى الخضوع لها الملك المتوج والفقير البائس، وينبغى ألا يختل ميزان العدالة فى يد القاضى مهما كانت الدوافع والأسباب.

وجاءت آيات القرآن الكريم لتؤكد الأمر الإلهى بالعدل، من ذلك قوله تعالى:

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾، (٣٢٨٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، (٤٥٠٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل).

وفى هذا الموقف نرى أنه عندما سرقت امرأة من بنى مخزوم، وهى قبيلة من أشراف قريش، وخاف قومها أن يلحق بهم عار وسوء بين القبائل، فهداهم تفكيرهم إلى أسامة بن زيد حِبِّ رسول الله ﷺ وابن حِبه؛ ليشفع لهم عند رسول الله ﷺ فى شأن هذه المرأة، وظنوا أن الرسول ﷺ سيقبل شفاعته؛ لمكانته الغالية عنده، فلما كلم أسامة الرسول ﷺ فى شأن المرأة المخزومية التى سرقت غضب النبى ﷺ وقال: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟!

ولم يقبل النبى ﷺ أن يختل ميزان العدالة لأجل أحد.

ويمتد معنى العدالة إلى جوانب حياتنا، فلا يقتصر على المحاكم فقط، فالأب قاضٍ فى بيته والمدرس قاض بين تلاميذه، والمدير قاض بين موظفيه، وفى الحديث عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل فى أهله راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسؤولة عن رعيتها والخادم فى مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته»[(١)].

• وفى الموقف أيضًا بيان لأثر اختلال ميزان العدالة فى المجتمع؛ حيث قال

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب العبد راع فى مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، (٢٢٧٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، (٤٨٢٨)، واللفظ للبخارى.

النبى ﷺ لأسامة بن زيد: «إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

ثم أقسم النبى ﷺ بربه بأنه لا مجاملة لأحد، ولا شفاعة فى حد لأحد حتى ولو كان شريفًا مكرمًا، فقال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت (وحاشاها أن تسرق) لقطع محمد يدها».

وهكذا أكد النبى ﷺ من خلال بيانه أثر الظلم، وكيف أن اختلال ميزان العدالة فى الأمم السابقة قد أهلكهم؛ لأن المظلوم إذا تأكد له ضياع حقه، وأصابه اليأس لجأ إلى طرق خاصة للانتقام والتشفى، ولا تؤمن العاقبة لمثل هذه الأفعال. فالعدل أساس الأمن، وهذه حقيقة تؤكدها آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام).

١٠١. مهلا لِمَ تبكِى ؟ (*)

دخل الصُّنابحى على عبادة بن الصامت ﵁ وهو فى أنفاسه الأخيرة قبل الموت، فبكى. فقال له عبادة: مهلًا، لِمَ تبكى؟ فوالله لئن استُشْهِدْتُ لأشهدن لك، ولئن شُفِّعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك.

ثم قال: ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه نفع إلا حدثتكموه، إلا حديثًا واحدًا وإنى محدثكموه الآن: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة».

*****

- فى هذا الموقف دخل الصنابحى ـ وهو من أئمة التابعين ـ على عبادة بن الصامت ﵁، وهو آخر من مات من الصحابة على قَوْلٍ له، فبكى؛ لأنه كان آخر من بقى من صحابة رسول الله ﷺ، فقال الصحابى الجليل: لم تبكى؟ فليس هناك سبب يحملك على البكاء، فإن كنت تخشى الآخرة فإن صحبتك لى سوف تكون خيرًا لك ـ إن شاء الله ـ فلئن استشهدت لأشهدن لك.

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة، (١٥١).

أى: لو كنت ممن قال الله فيهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة/ ١٤٣)، فسوف تكون ممن أشهد لهم، ولئن شفعت لأشفعن لك؛ أى، فسوف تكون ممن أشفع فيهم عند الله سبحانه، ولئن استطعت لأنفعنك؛ فإن الرجل ينتفع يوم القيامة بأصحابه الصالحين، وبآبائه الصالحين، وبذريته الصالحين، فله منهم نصيب؛ لأنهم من أعماله الخيِّرة؛ ولذا قال النبى ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمنًا»[١].

ثم يبين له أنه ينبغى ألا يحزن وألا يفكر فى أنه بموت الصحابة سوف ينقطع العهد برسول الله ﷺ، فإنه ما من حديث إلا حدَّث به إلا واحدًا خاف أن يحدث به؛ لأنه ربما لا يفطن الغافلون إلى معناه؛ ألا وهو قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، والمعنى أن كل من قال كلمة الإخلاص وعمل بحقها دخل الجنة.

فقد روى الإمام البخارى فى صحيحه معلقًا عن وهب بن منبه رضي الله عنه قيل له: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: «بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك»[٢].

- ونتعلم من هذا الموقف فضل صحبة الصالحين، حيث إن لهم شفاعة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، (١١٣٥٥)، والترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب صحبة المؤمن، (٢٣٩٥)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٣٦).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه معلقًا، كتاب الجنائز، باب فى الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، قبل حديث رقم (١١٨٠).

يوم القيامة. وأن صحابة النبى ﷺ لهم خصوصية ومزية، فهم السابقون الأولون، والفلاح فى اتباعهم قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾ (التوبة).

- كما يبين لنا الموقف فضل كلمة الإخلاص، لا إله إلا الله، وأن ثوابها الجنة بشرط أن يعمل المسلم بحقها من إحلال الحلال وتحريم الحرام.
- كما يتضح لنا من الموقف أن بركة العلم فى العمل به.

١٠٢. رجل بألف(*)

عزم المسلمون فتح مصر التى بَشَّرهم رسول الله ﷺ بها، فاتجه إليها عمرو بن العاص رضي الله عنه بجيش كبير، ولكن عندما وصل إلى مشارف مصر رأى كثرة عدد الروم، فطلب مددًا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستجاب عمر لرأى عمرو، وكتب له: إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألفٍ رجلٌ بمقام ألف.

من هؤلاء الأربعة عبادة بن الصامت الذى وجهه عمرو على رأس جيش إلى الإسكندرية ففتحها.

*****

هذا موقف يعلمنا فقه المواجهة، وأن القائد ينبغى ألا يدخل معركة لا يملك فيها أسباب النصر، فلا مكان للعواطف الهائجة ولا الانفعالات الطائشة، وإنما الحكمة وتقدير الموقف، ومعرفة حجم العدو وقراءة أبعاد المعركة قبل وقوعها، كل هذه الملامح من صفات القائد الذكى الفطن. ومن هنا لم يبدأ عمرو بن العاص فتح مصر إلا بعد تحديد حجم العدو ومعرفة قوته وتقدير القوة

(*) فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم، تحقيق: محمد الحجيرى، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (١/ ٧٠).

اللازمة لتحقيق النصر عليه.

فلما رأى عمرو بن العاص قوة الروم وكثرتهم، طلب مددًا من المقاتلين من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فأمده بأربعة آلاف، على كل ألفٍ رجلٌ بمقام ألف، إشارة إلى كفاءة المقاتلين ومهارتهم وصدقهم وشجاعتهم.

واستفاد عمرو بن العاص من هذا التقييم لهذه القوة الخاصة التى أرسلها سيدنا عمر؛ لتقوية جيشه عند فتح مصر، فوجه رجلًا من الأربعة الأفذاذ الذين زَكَّاهم سيدنا عمر، وجعل الواحد منهم بمقام ألف؛ ومنهم سيدنا عبادة بن الصامت الذى قاد فرقة من الجيش فتح بها الإسكندرية، وكانت بداية مباركة لفتح مصر وتخليصها من سيطرة الرومان وظلمهم للمصريين؛ بما فرضوه من ضرائب باهظة وأحكام جائرة ونهب لثروات مصر.

ولم يفرض الفاتحون المسلمون الإسلام على أحد من أهل مصر بل الدعوة والبيان، فلما رأى أهل مصر أخلاق الفاتحين من صحابة رسول الله ﷺ وقيم الخير والعدل دخلوا فى دين الله أفواجًا.

١٠٣. تدرى ما هذا (*)

كان لأبى بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشىء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدرى ما هذا؟ فقال أبو بكر وما هو؟

قال: كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته، فلقينى فأعطانى بذلك، فهذا الذى أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شىء فى بطنه.

*****

هذا موقف إيمانى يفيض بالدلالات الهادية ومنها:

حرص المؤمن على الحلال فى مطعمه ومشربه وسائر شأنه، والحذر من الحرام ومن الشبهات. وفى الموقف نرى أبا بكر ﵁ قد وضع إصبعه فى حلقه، وجعل يتقيأ حتى أخرج كل ما دخل جوفه من الأكل، لمَّا علم أن غلامه جاء به من طريق به شبهة؛ حيث قام غلامه بأعمال الكهان والدجالين مقابل هذا الأكل؛ وذلك لأن الحلال باب القبول والإكرام، وفى الحديث النبوى الشريف قال ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل من الأعمال إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية، (٣٦٢٩).

المرسلين؛ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ (المؤمنون/ ٥١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ (البقرة/ ١٧٢)، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك؟!»[١].

فالحرص على الحلال طريق لإجابة الدعاء.

وحذرنا رسول الله ﷺ من كسب الحرام مهما كانت الدوافع، حتى وإن أنفق فى الصدقات أو فى باب من أبواب البر فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا.

فهذا الموقف يوضح لنا أهمية تزكية المواقف الإيمانية من الدعاة والعلماء وأولى الأمر والحث عليها.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، (٢٣٩٣).

١٠٤. يُبخِّلان ابنى علىَّ(*)

كان قيس بن سعد رضى الله عنهما فى جيش العسرة، وكان ينحر ويُطعم حتى استدان بسبب ذلك، فقال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه، فمشيا فى الناس يقولان ذلك، فلما سمع والده سعد، قام خلف النبى ﷺ وقال: «من يعذرنى من ابن أبى قحافة وابن الخطاب؟ يبخِّلان ابنى عَلَىَّ.

*****

هذا الموقف الإيمانى درس فى العطاء والنجدة والتضحية؛ من أجل نصرة الأمة، وما من شك فى أن هذه النماذج الإيمانية هى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة لنا فى البناء والتنمية والإعداد حين نتأسَّى بهم، ونقدم مصلحة الجماعة والمجتمع والأمة على مصلحة الفرد، ونعلم ونوقن أن جميع صور الإقدام المخلص والتضحية والعطاء والنجدة صفقة رابحة مباركة عقدها الله مع عباده المؤمنين الصالحين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (التوبة/ ١١١).

وما من شك فى أن ساعات الشدة التى تمر بالأمم تجعل الأمة فى أشد الحاجة

(*) سير أعلاء النبلاء ٣/ ١٠٦، وأسد الغابة ٤/ ١٢٥،تاريخ الإسلام للذهبى (٤/ ٢٩٠).

إلى مواقف التضحية والفداء والنجدة؛ كى تدفع شرور الأعـداء، وتمكّـن للحـق على الأرض بعزة وأمان.

ومن هنا رأينا ـ فى الموقف ـ الصحابى المبارك: قيسًا ووالده سـعدًا يـضربان المثل فى قيمة العطاء؛ حيث مر المسلمون بشدة فى جـيش العـسرة، وأقبـل قـيس؛ ليطعم أصحابه وجنود الجيش، وكان ذلك يتكلـف الكثـير، واسـتمر الـصحابى الكريم قيس ينحر الذبائح ويطعم الجيش، حتى نفد ماله فاستدان، فقال أبو بكـر وعمر رضى الله عنهما: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه. فمشيا فى الناس يقولان ذلك، فلما سمع سعد قام خلف النبى ﷺ وقال: من يعذرنى من ابـن أبـى قحافـة وابن الخطاب؟ يُبخِّلان علىَّ ابنى!.

والذى أود أن أشير إليه هنا هو أن الصحابى الكريم قيس بن سعد بن عبادة كان يستدين، وعنده من عروض التجارة والأملاك ما يسد به هـذا الـدين، أى: لم يكن أمره انفعالا لا يعرف التدبير، أو تهورًا تمليه العاطفة فى غيبة العقل.

١٠٥. استطلاع ذكى (*)

أمسك الصحابة بغلامين لقريش بالقرب من مكان جيش المسلمين الذى كان يتأهب للقتال فى غزوة بدر. فخاطب النبى ﷺ الغلامين قائلًا: أخبرانى عن قريش. قالا: هم وراء هذا الكثيب بالعُدْوَة القُصْوَى.

فقال لهما: كم القوم؟ قالا: كثير. فقال لهما: ما عِدتُّهم؟ قالا: لا ندرى. فقال لهما: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا. فقال النبى ﷺ: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف.

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وعدُّوا رجالًا منهم.

*****

فى هذا الموقف دروس تربوية هادية، تشتد إليها الحاجة فى حياتنا المعاصرة، فالنبى ﷺ يعلمنا الأخذ بأسلوب التفكير العلمى فى معالجة الأحداث وإدارة شئون الحياة بعيدًا عن العشوائية والانفعال الطائش، أو الاندفاع المتهور.

بل إننا نرى رسول الله ﷺ فى هذا الموقف يقوم باستطلاع ذكى يستطيع من

(*) السيرة النبوية، ابن هشام، (١/ ٦١٦).

خلاله أن يحصل على معلومات خطيرة ومهمة بشأن العدو.

فسأل الغلامين عن مواقع العدو، وعن عددهم، وحين عجز الغلامان عن تقدير العدد، استخدم رسول الله ﷺ أسلوب الاستدلال والاستنباط، فسألهم: كم ينحرون فى اليوم؟

فأجاب الغلامان: ينحرون تسعًا أو عشرًا من الإبل، ومعلوم عند العرب أن الواحدة من الإبل تكفى مائة فرد.

وهنا تم التقدير القائم على الحساب العلمى الدقيق، فقال ﷺ: «القوم بين التسعمائة إلى الألف».

ثم سأل النبى ﷺ الغلامين عن العناصر المؤثرة فى صفوف جيش الأعداء، فأخبر الغلامان بوجود عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وعدَّا أقوامًا.

وهكذا يكون سلوك المؤمن فى معالجة الأحداث يتحرى الأخذ بالأسباب، فهذا نبى الله ورسوله ﷺ قد بشَّره الله بالنصر، وهو مع ذلك لا يألو جهدًا فى الأخذ بالأسباب، فما بالنا فى حياتنا المعاصرة نريد أن ننجز الأشياء بعصا سحرية من الغيب دون جهاد أو تضحية، نطلب النصر ولا نأخذ بأسبابه، ونطلب التقدم ولا نأتى دواعيه، سبحانك ربنا، ورحماك ربنا، فما أعجب حالنا!!

إن الله تعالى كما أمرنا أن نؤمن بالغيب كلفنا الأخذ بالأسباب، وجعل فعل السبب طاعة، وترك السبب معصية، والاعتماد على السبب شركًا بالله تعالى.

والله المستعان

١٠٦. لو كانت لكِ مائة نفس (*)

كان سعد بن مالك ـ وهو ابن أبى وقاص ـ بارًّا بأمه، فلما أسلم قالت أمه له: لتَدعنَّ دينك هذا أو لا أطعم، ولا أشرب حتى أموت، فَتُعيَّر بى؛ فيقال: هذا قاتل أمه. فقال سعد: إنى لا أدع دينى هذا لشىء.

فمكثت أمه ثلاثة أيام دون أن تأكل حتى اشتد جهدها، فقال سعد لأمه: والله لو كانت لكِ مائة نَفْسٍ، فخرجت نَفْسًا نَفْسًا، ما تركت دينى هذا لشىء، فلمَّا رأت ذلك أكلت وشربت.

*****

هذا الموقف يحمل دروسًا إيمانية فى المعاملة بين الآباء والأبناء:

• الدرس الأول: أهمية البر بالأم؛ فقد رأينا فى الموقف أن سعد بن مالك كان بارًّا بأمه، ولقد وصَّى الله فى القرآن الكريم بالبر بالوالدين، وبخاصة الأم؛ من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ (لقمان/ ١٤).

• الدرس الثانى: درس فى العقيدة ومراتب الإيمان، فإن كان الله تعالى قد

(*) أسد الغابة، ابن الأثير، (١/ ٤٣٩).

أمر بالبر بالوالدين، وجعله فى سياق الأمر بتوحيد الله تعالى والإيمان به،والبرّ بالوالدين ينبغى أن لا يتقدم على حق الخالق سبحانه وتعالى، فالله سبحانه هو الخالق للأبناء والآباء، والله سبحانه صاحب الفضل على الجميع. فالابن يطيع والديه فى كل شىء إلا فى ما يغضب الله الخالق، وهذا أدب مع الله الخالق سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة).

وهذا ما ينبغى أن يكون عليه قلب المؤمن وعقله؛ كى ينال فضل الله تعالى من كمال الإيمان به، ومن حلاوة الإيمان فى القلب؛ لقول النبى ﷺ لسيدنا عمر بن الخطاب ؓ حين قال له: يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى.

فقال النبى ﷺ: «لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلى من نفسى فقال النبى ﷺ: «الآن يا عمر»[1].

أى: الآن كمل إيمانك يا عمر.

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ، (٦٢٥٧).

أيضًا قول النبى ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر، كما يكره أن يُقْذَفَ فى النار»[1].

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١٦)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (١٧٤).

١٠٧. الحـذر (*)

فى أثناء الهجرة النبوية الشريفة، وفى الطريق إلى المدينـة، بعـد خروج النبى ﷺ وصاحبه أبى بكر الصديق من الغـار، جعـل أبـو بكر يلتفت يمينًا مرة ويسارًا مرة وخلفه مرة.

فقال له النبى ﷺ: «لا تخف يا أبا بكـر». فقـال أبـو بكـر: يـا رسول الله، أنا لا أخاف على نفسى؛ فـإنى إن هلكـتُ هلـك فـرد واحد، وإنما أخاف عليك يا رسول الله؛ فإنك إن هلكت هلكـت الأمة بأسرها.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية، أهمها:

• الحذر فى حياة الإنسان، فالمفروض فى العاقل أنْ يكون حَذِرًا؛ كى لا يقع فريسة لمكر عدوه وكيده، وهذا شأن المؤمن، يكون واعيًـا بـما حولـه مـن أحـوال وشئون؛ فإن الله يحب عبده الكَيِّس الفَطِن الحذر؛ كـما رأينـا فى هـذا الموقـف مـن سيدنا أبى بكر، وهو يلتفت حوله حذرًا وخوفًا على رسول الله ﷺ.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب يقول: لست بالخِبِّ، ولكن الخِبَّ لا يخدعنى.

(*) راجع أسد الغابة، (١/ ٦٤١).

أى: لست بالماكر المخادع، ولكن الماكر لا يستطيع خداعى.

نعم فليس الإيمان وسيلة للغفلة والسذاجة والانخداع، بل الإيمان طريق لمزيد من الحذر واليقظة والانتباه، والله تعالى يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ (المائدة/ ٩٢).

ومعنى الحذر يمتد فى حياة المسلم ليشمل جوانب كثيرة، فالمؤمن يَحْذَرُ عدوه ويَحْذَرُ نفسه الأمّارة بالسوء، ويحذر شيطانه المتربص به دائمًا، ويحذر أخطاء الآخرين، ويحذر أكثر ما يحذر من مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (النور)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ (آل عمران)، وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ (البقرة).

- أيضًا يظهر من الموقف درس التضحية من أجل الأهداف الغالية والمقاصد السامية، فهذا أبو بكر الصديق ﷺ يضحى من أجل رسول الله ﷺ، ويبين أنه يعلم أن حياة رسول الله ﷺ حياة للأمة كلها، وأن النبى ﷺ يمثل الأمة كلها.

ويظهر هذا من قول أبى بكر حين سأله النبى ﷺ: لِمَ تلتفت يا أبا بكر؟ قال: يا رسول الله، أنا لا أخاف على نفسى فإنى إن هلكتُ هلك فرد واحد، وإنما أخاف عليك فإنك إن هلكتَ هلكَتْ أمة بأسرها.

وبمثل هذه التضحيات وهذه الهمم العالية تُبنى الأمم وتتقدم المجتمعـات، ونسود العالم؛ حين نقدم مصلحة الأمة على المصلحة الشخصية، ونقدم النفع العام على النفع الخاص. والرجال مواقف ومعادن لا تظهر إلا فى أوقات الشدائد.

١٠٨. اجعل لنا من نفسك يومًا (*)

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلِّمُنا مما علمك الله. قال ﷺ: «اجتمعن يوم كذا وكذا». فاجتمعن، فأتاهن النبى ﷺ، فعلمهن مما علمه الله.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، أهمها:

- الدلالة الأولى: إظهار فَضْل العلم، وبخاصة العلم الذى فرضه الله على عباده، وجعله فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وهو العلم الذى تصح به العقيدة وتصلح به العبادة، كيف لا ؟ والله تعالى لما أراد أن يجعل لآدم عليه السلام منزلة عالية، لم يجعل ذلك له بمال ولا سلطان، وإنما بالعلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبى ﷺ أمته من الرجال والنساء، (٦٨٨٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، (٦٨٦٨).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة).

• والدلالة الثانية: هى أن الله تعالى حين أمر حبيبه المصطفى ﷺ بأن يـدعو ربه لطلب الزيادة، لم يأمره بالدعاء بطلب الزيادة من مال ولا سلطان، وإنما أمـره بطلب الزيادة فى العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طـه).

وقد أدركتْ الصحابية الفُضلى هذا الفضل للعلـم فـذهبت لرسـول الله ﷺ تطلب منه أن يجعل للنساء مجلسًا يعلمهن فيه مما علمه الله.

وما مـن شـك فى أن للعلـم أهميـة بالغـة فى تـشكيل عقليـة المـؤمن وبنـاء شخصيته؛ كى يقوم تفكيره وقوله وفعله على علـم وبـصيرة بـدلا مـن عـشوائية التفكير أو الانصياع وراء العادات والتقاليد أو اتباع الهوى... وغير ذلك.

• الدلالة الثالثة: أهمية تعليم المرأة فى المجتمع المسلم؛ كى ينهض المجتمع بجناحيه، فالمرأة هى الأم وهى الزوجة وهى الأخت، وهى التى حباها الله بفـضل الأمومة والتربية بدون علم؛ لذلك استجاب النبى ﷺ، وجعل لهن مجلسًا يكون فيه التعليم المباشر والحوار المباشر معهن، وبأن يقوم الزوج بتعليم زوجه ما تعلمه من رسول الله ﷺ.

وهذا درس للدعاة أن يجعلوا نصيبًا وافيًا للنساء من الدروس والمحاضرات تأسـيًا برسـول الله ﷺ، والمتأمـل لتـاريخ الـدعوة؛ يـرى بوضـوح أن كثـيرًا مـن الصحابيات قمن بواجب الدعوة، ورواية الـسنة النبويـة المطهـرة، وبخاصـة مـا يتصل بشؤون النساء، والسيدة عائشة رضى الله عنها خير نموذج لهذا.

كما قامت المرأة فى تاريخ الدعوة بدور بطولى رائع فى التضحية والجهاد، ومن هؤلاء السيدات أسماء بنت أبى بكر وأم كلثوم بنت عقبة، وأم سليم، وأم عمارة، وأم ذر، وأم حرام بنت ملحان... وغيرهن.

كل ذلك يؤكد مشاركة المرأة وإسهامها فى بناء الأمة، وحسبنا أن نقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (آل عمران/ ١٩٥).

لكن الذى ينبغى تأكيده هنا فى هذا السياق هو أن مشاركة المرأة وإسهامها فى الحياة كان دون تفريط أو تهاون فى شرع الله تعالى.

١٠٩. الانهيار (*)

وجد النبى ﷺ امرأة تبكى عند قبر، فقال لها: «اتقى الله واصبرى». ولم تكن المرأة تعرفه ﷺ، فقالت له: إليك عنى، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى. ثم عرفته، فاعتذرت له قائلة: لم أعرفك. فقال لها الرسول ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

*****

هذا الموقف يقدم لنا قيمة غالية فى حياة الإنسان، ألا وهى قيمة التماسك وقت المحن، وعدم الانهيار أمام الشدائد؛ فإنه لا ينهار على الطريق من أول صدمة إلا الضعفاء، ويتخطاهم الزمن ويطويهم التاريخ كأنهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا!!

وحين نسأل أنفسنا: ما الذى يحمينا من الجزع والانهيار عند الشدائد؟

فتكون الإجابة: إنه الصبر، وقد مدح القرآن من واجهوا الشدائد بصبر ويقين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ (البقرة/ ١٧٧).

والذى يقوى صبر الإنسان هو الإيمان بالله تعالى، فكلما زاد الإيمان زاد المؤمن يقينًا وصبرًا.

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، (١٢٢٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب فى الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، (٢١٧٩).

وأود أن أشير إلى حقيقة مهمة بشأن الشدائد والمصائب، وهى أن أكثر الناس تعرضًا للشدائد هم الأقوياء والقادة وأصحاب الرسالات من الدعاة والمصلحين والعلماء الذين لا يعيشون لأنفسهم وإنما لشعوبهم، ومن هنا كان الأنبياء هم أشد الناس بلاء؛ قال النبى ﷺ:«الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه، وإن كان فى دينه رقة (أى: ضعف) خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»[1].

وهذا رسول الله ﷺ تعرض لما لم يتعرض له مصلح أو نبى، فقالوا فيه ما قالوا من أنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون...إلخ، وقالوا إفكًا فى أهل بيته أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها ما قالوا. وقالوا فى حق الله تعالى: «إن الله فقير»، والملائكة بنات الله...إلخ ما قالوا مما يؤذى النبى ﷺ.

فيصبر النبى ﷺ، ويرشده الله إلى أبواب تقوية الصبر وإزالة الضيق؛ وذلك بكثرة التسبيح لله والصلاة تضرعًا إلى الله وشغل النفس بما هو أعلى، ألا وهو الإعداد للقاء الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الحجر).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبى وقاص ﷺ، (١٤٨١)، والترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء، (٢٣٩٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٩٢).

وهكذا يربى الإيمان فينا الصبر، والصبر يعطينا قوة التحمل والمواجهة ليس مع الناس وأحداث الحياة فقط، بل مع شرور النفس الأمارة بالسوء؛ لقوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٥٧٦٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (٦٨٠٩).

١١٠. إنها الرحمة (*)

دخل عبد الرحمن بن عوف على رسول الله ﷺ وولده إبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان الدمع. فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه: حتى أنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يا ابن عوف، إنها الرحمة». ثم قال ﷺ: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا: إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

*****

هذا موقف نبوى كريم تتجلى فيه مظاهر الرحمة وأثرها فى العطف على الآخرين، كيف لا وصاحب الموقف هنا هو من أرسله ربه رحمة لسائر العوالم من إنس وجن، ونبات وطير، وحيوان وجماد، وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء).

ووصفه ربه بالرحمة فى معالجة شؤون أصحابه وأمته، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ (آل عمران/ ١٥٩).

وظهرت آثار رحمته ﷺ فى شفقته على أمته وخوفه عليها من أن تقع فى مشقة أو ضيق، فكان التيسير منهجه، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبى ﷺ: «إنا بك لمحزنون»، (١٢٤١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، (٦١٦٧).

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة).

ويعلمنا رسول الله ﷺ أن معنى الرحمة ومداها يمتد ليشمل القريب والغريب، وربط بين منسوب الإيمان والرحمة، فقال ﷺ: «لن تؤمنوا حتى تراحموا» (أى: لن تؤمنوا إيمانًا كاملا)، قالوا يا رسول الله كلنا رحيم، فقال النبى ﷺ: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[(١)].

ونتعلم من الموقف أن الإسلام لا يصادر المشاعر ولا يمنع العواطف، وإنما يهذبها فى إطار ما يرضى الله تعالى، ولعل بعض الصحابة حين رأى دموع الحزن من سيدنا رسول الله ﷺ أصابته الدهشة، وقال: حتى أنت يا رسول الله؟ وكأنه يفهم أن العظماء ليس لهم إظهار ذلك، وكأن جمود المشاعر أمام الحوادث من سمة القادة والعظماء، فصحح النبى ﷺ هذا المفهوم وبيَّن أن الإنسان لا تصادر مشاعره ولا دموعه ولا عواطفه، وإنما المطلوب أن تجرى هذه المشاعر وتلك العواطف فى حدود ما يرضى الله تعالى، ولا تدفع الإنسان مع الانفعال بها إلى شىء يغضب الله تعالى.

وهذا هو قول النبى ﷺ: «يا ابن عوف إنها الرحمة، إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا: إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

اللهم صلِّ على صاحب الخلق العظيم وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب البر والصلة، (٧٣١٠)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٥٣).

١١١. كيف تركتَ أصحابك ؟ (*)

دخل شقيق البلخى رضي الله عنه على إبراهيم بن أدهم فقال له: كيف تركت أصحابك يا إبراهيم؟ قال: تركتهم إن أُعطُوا شكروا، وإن مُنِعُوا صبروا. قال: هكذا حال العامة. لقد تركت أصحابى إن مُنعوا شَكَروا، وإن أُعْطُوا آثروا غيرهم على أنفسهم.

*****

هذا موقف كريم يحمل هديًا وفقهًا فى واحدة من مكارم الأخلاق التى نبتت فى رحاب هَدْى صاحب الخلق العظيم، الذى بعثه الله ليتمم الله مكارم الأخلاق، نبى الله ورسوله، سيدنا محمد ﷺ، ونتعلم من الموقف أن أصحاب الهمم العالية لهم من مكارم الأخلاق ما يعبر عن كمال إيمانهم بالله وصدق أسوتهم برسول الله ﷺ.

فإذا كان شأن عامة المسلمين أنهم إن أُعْطُوا شَكَروا وإن مُنِعوا صَبَروا، هو ما عَبَّر عنه إبراهيم بن أدهم، فإن أصحاب الهمم الإيمانية العالية ومكارم الأخلاق السامية أخلاقهم ترقى إلى مستوى الأحسن والأفضل، وهو ما عَبَّر عنه شقيق البلخى بقوله: لقد تركت أصحابى إن مُنِعوا شَكَروا، وإن أعطوا آثروا غيرهم على أنفسهم.

(*) إحياء علوم الدين، الغزالى، (٤/ ٢١٥).

كما يلفت الموقف انتباهنا إلى خلق الإيثار، ولقد مدح الله السابقين الأولين بهذا الخلق؛ قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ (الحشر)، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ (الإنسان).

وفى خلق الإيثار لون من التضحية من أجل الآخرين رغبة فيما عند الله من خير ومثوبة، قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾ (البقرة).

ولقد قَدَّم الإمام على ﷺ صورة رائعة من صور الإيثار حين نام فى فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة؛ فداءً لرسول الله ﷺ، وهكذا يؤثر المسلم غيره على نفسه، ويجود حتى بنفسه، وهذا غاية الجود والإيثار.

فالجودُ بالمالِ جُودٌ فيه مَكْرَمُةٌ   والجودُ بالنَّفْسِ أقصَى غايةِ الجودِ

وتقدم لنا السنة النبوية المطهرة الأسوة والقدوة من إيثار الرسول ﷺ وإيثار صحابته الكرام، فعن أبى هريرة ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فقال: إنى مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن جميعًا مثل ذلك: لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا الماء.

قال النبى ﷺ: «من يضيف هذا الليلة؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رَحْله، فقال لامرأته هل عندك شىء؟ فقالت: لا، إلا قوت

صبيانى. قال: علِّليهم بشىء وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج، وأريه أنَّا نأكل؛ فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين (أى جائعين)، فلما أصبح غَدَا على النبى ﷺ، فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»[1].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، (٥٤٨٠).

١١٢. خصلة تستر سائر العيوب (*)

اجتمع قسٌّ بن ساعدة وأكثم بن صيفى، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟ فقال: هى أكثر من أن تُحصى، والذى أحصيته ثمانية آلاف عيب، ووجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها. قال: ما هى؟ قال: حفظ اللسان.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية:

• الأولى: ما ينبغى أن تكون عليه مجالسنا من الاشتغال بالحوار المفيد، والمناقشة النافعة، قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(النساء/ ١١٤).

• الدلالة الثانية: أن الموقف يقدم لنا هديًا أخلاقيًّا عظيمًا، وهو حفظ اللسان عن كل ما نهى الله عنه من غيبة، أونميمة، أو كذب، أو إفك، أو بهتان، أو قول زور، أو إشاعة فتنة، أو لغو الكلام، والقرآن يبين لنا أن المؤمن مُعْرِضٌ عن

(*) الأذكار للنووى، تحقيق: أحمد عبد الله باجور، دار الريان، القاهرة، ط١، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، ص ٤٢٢، ٤٢٣.

لغو الكلام، فقال الله تعالى فى أوصاف المؤمنين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ (المؤمنون).

وفى الحديث النبوى الشريف، قال النبى ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1]، وقوله ـ أيضًا ـ: «كل كلام ابن آدم عليه لا لـه، إلا أمـر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى»[2].

وقال الحكيم: احفظ لسانك، واعلم أن ذكـر النـاس داء، وذكـر الله تعـالى دواء.

فعلى المؤمن الصادق أن ينظر إلى نعمة اللسان وقدرته على البيان ويجتهـد فى استعمال هذه النعمة فيما يرضى الله تعالى من نشر العلم وتعليم القـرآن، وذكـر الله تعالى، والدعوة إلى الله تعالى.

- الدلالة الثالثة: هى أثر حفظ اللسان فى ستر العيوب؛ فإن الإنسان مخبوء تحت لسانه إذا تكلم ظهر واتضح حاله، وظهرت أخطاؤه.

ومن هنا فإن حفظ اللسان عن كثرة الكلام، وعن الكلام فيما لا يحسن الإنسان يكون سترًا لعيوبه.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، (٥٦٧٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، (١٨٢).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب الزهد، (٢٤١٢)، وابن ماجه فى سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان فى الفتنة، (٣٩٧٤)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٣٦٦).

كما أن الصمت سلامة من فلتـات اللـسان، وبخاصـة فى أوقـات الغـضب والانفعال، فإن جراحات اللسان خطيرة، يترتب عليها قطع المودة وتغير الصدور وشيوع العداوة، هذا بين الناس، أما عند الله تعالى فقد يتكلم العبـد بالكلمـة مـن سخط الله تعالى فتُودِي به فى جهنم وبئس المهاد.

نعوذ بالله تعالى من غضبه وعقابه، ونسأله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة.

والله المستعان

١١٣. موائد علمية (*)

نزل بأبى الدرداء ضيف، فقال له أبو الدرداء: أما إنى لا أجد ما أضيفك به أفضل من شىء سألت عنه رسول الله ﷺ. قلت: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصومون كما نصوم، ويصلون كما نصلى، ويتصدقون وليس لنا أموال نتصدق.

فقال النبى ﷺ: «يا أبا الدرداء، ألا أدلك على شىء إن أنت فعلته لم يسبقك مَنْ كان قبلك، ولم يدركك مَنْ كان بعدك إلا مَنْ جاء بمثل ما جئت به؟ تسبِّح الله فى دُبُرِ كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وتحمده ثلاثًا وثلاثين، وتكبره أربعًا وثلاثين».

*****

• هذا موقف تربوى كريم، يقدم لنا هديًا تشتد الحاجة إليه فى عالم طغت فيه وعليه المادة. فإن كانت عادة الناس قد جرت على أن يقدم للضيف ما لذ وطاب من الطعام والشراب، فهذا الموقف يلفت انتباهنا إلى نوع آخر من كرم الضيافة وهو كرم أبقى أثرًا وأنفع من كرم الطعام والشراب، فإن كان الطعام

(*) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب التسبيح والتكبير والتهليل، (٩٩٧٦).

والشراب غذاءً للأبدان فإن موائد العلم النافع الذى يقربنا إلى الله تعالى غذاء الأرواح والعقول.

ومن هنا عَدَّ أبو الدرداء ﷺ الزاد العلمى زادًا لا يفضله زادٌ آخر مما تعارف عليه الناس.

وهذه نظرة تأكدت لدى هذا الصحابى، وكثيرًا ما كان يلفت انتباه المسلمين إليها، وقد استمد هذا الفهم من هدى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ (البقرة).

فهذا هو الزاد الحقيقى الذى يبقى ويصل معنا إلى القبر وعند الحساب.

أما زاد الدنيا من أملاك وطعام وشراب ونحو ذلك فيتخلف عنا، يرثه الناس ونحاسب عليه بين يدى الله تعالى.

وفى الحديث، قال النبى ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

• ومن دروس الموقف أيضًا ما أشار إليه الحديث النبوى عن فضل المحافظة على التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين فى دبر كل صلاة، وأنه يرفع منزلة الإنسان عند الله درجات عالية لا يدانيه ولا يساويه فيها إلا من عمل مثل عمله، وفضل الله أوسع.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (٤٣١٠).

١١٤. هيبة الإسلام (*)

صحب أبو عبيدة بن الجراح عمر بن الخطاب رضى الله عنهما إلى الشام، وكان بينهما مناوبة لركوب الدابة، وعلى مشارف الشام جاء الدور على عمر ليمشى على الأرض، فقال له أبو عبيدة: يا عمر، أخشى من نظر أهل الشام إلينا، أنت تمشى بينما أنا راكب. فقال له عمر: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نبالى بمقالة الناس فينا.

*****

إن هذا الموقف يُظْهِر لنا تماسك الأمة واعتزازها بإسلامها فى مواجهة الآخر فلا تذوب فيه ولا تقلده تقليدًا أعمى، وإنما هى فى المقدمة دائمًا؛ لأنها الأفضل فهى خير الأمم، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران/ ١١٠).

لكن واقع أمتنا ليس كذلك، فما الذى نزع هيبة الأمة؟ وما الذى حرمنا مما كانوا عليه من بركات وفيوضات؟ وكيف هُنَّا ؟!

هذه تساؤلات حول واقع أمتنا، ويجيبنا النبى ﷺ؛ كى ندرك موضع الخلل وأسباب الضعف والهوان والفرقة والتمزق والاختلاف. بقوله ﷺ: «إذا عظمت

(*) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب الإيمان، (٢٠٨)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥١).

أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحى»(١).

نعم حين فتنا بالأموال والماديات ولم نعمل لبناء ورفعة الأمة، حين قدمنا المصالح الشخصية على المصلحة العامة للأمة، حين أهملنا حق الله تعالى فينا فى العبادات والمعاملات، وأصبح الطموح والأمل مرتبطًا بالملذات والشهوات أصابنا الضعف وتداعت علينا الأمم. قال النبى ﷺ: «يوشك الأمم أن تَدَاعَى عليكم كما تَدَاعَى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال ﷺ: «بل أنتم يومئذ كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال ﷺ: «حب الدنيا وكراهية الموت»(٢).

وحين ضعفت منا الاستجابة لهدى قرآن الله وسنة نبيه حُرِمْنَا بركة الوحى، بركة القرآن والسنة؛ لأن الله تعالى جعل بركته منوطة بالإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الأعراف).

وحين تبادلنا الاتهامات، واختلفنا وتمزقنا، وأخذ بعضنا يتتبع عيوب

---

(١) ذكره العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء (٢/ ٣٩٢) وعزاه إلى ابن أبى الدنيا فى كتاب الأمر بالمعروف، وضعف إسناده.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، من حديث ثوبان ﷺ، (٢٢٤٥٠)، وأبو داود فى سننه، كتاب الملاحم، باب فى تداعى الأمم على الإسلام، (٤٢٩٩)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

بعض، حُرِمْنَا تأييد الله لنا، فَسُبَاب المسلم فسوق، وقتاله كُفْر[1]، ومن تتبع عـورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله[2] كما أخبر المعصوم ﷺ، وحين أصاب شبابنا التغريب بالتقليـد الأعمـى بـدلا مـن أن نقـوم بدورنا فى التأثير فى غيرنا أصابنا ما أصابنا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد/ ١١).

ورأينـا فى الموقـف أن سـيدنا عمـر بـن الخطـاب ؓ يـرد أبـا عبيـدة بـن الجراح ؓ إلى منطق الإيمان؛ حيث تكون العـبرة بـالله وبرسـوله ﷺ؛ ولهـذا قـال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نبالى بمقالة الناس فينا».

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، (٤٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبى ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، (٢٣٠).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب البر والـصلة، بـاب تعظـيم المـؤمن، (٢٠٣٢)، وصـححه الألبـانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٥).

١١٥. أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟! (*)

قام النبى ﷺ من الليل، وتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلى، فأطال القراءة، وأطال الركوع، وأطال السجود، فلما رأت السيدة عائشة رضى الله عنها حال رسول الله ﷺ من التبتل والخشوع وطول القيام من الليل حتى تفطرت قدماه، قالت: يا رسول الله، لِمَ تصنع هذا، وقد غَفَر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!».

*****

- هذا موقف نبوى كريم، يقدم لنا الأسوة والقدوة فى القيام بواجب العبودية لله رب العالمين، فهو ﷺ سيد العابدين وإمام الخاشعين، خاطبه ربه بقوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الحجر).

صلى الله وسلم على سيدنا محمد، فلم تمنعه مشاغله عن وقوفه بين يدى ربه إذا أرخى الليل سدوله، وغارت النجوم ونامت العيون.

وما أكثر المشاغلَ التى كانت عند رسول الله ﷺ: مشاغل الحياة، والدعوة،

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الفتح، (٤٥٥٧)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد، (٧٣٠٤).

وبناء الأمة، ومواجهة الأعداء من اليهود ومن والاهم، ومواجهة المنافقين. كل ذلك لم يشغل رسول الله ﷺ عن التبتل والخشوع والقيام تضرعًا لله تعالى، وهو ﷺ لا يؤدى ذلك لمجرد الامتثال فقط لأمر الله تعالى، بل بدافع من الشوق والحب، كان النبى ﷺ يتشوق ويحن للقاء ربه، وهو القائل ﷺ: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[1].

• ويعلمنا النبى ﷺ من خلال هذا الموقف أن نقابل نعم الله علينا بالشكر؛ وذلك لقوله ﷺ: «يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!».

• كما يعلمنا النبى ﷺ من خلال هذا الموقف أن المؤمن يطيل الصلاة إذا كان وحده، ويطيل قراءتها وركوعها وسجودها، أما إذا صلى بالناس فالتخفيف سنته ﷺ؛ مراعاةً لأحوال الناس من المرضى وأصحاب الحاجات ونحوهم.

قال ﷺ: «أيها الناس إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة»[2].

فما بال بعض الناس الذين إذا صلَّوا بالناس جماعة أطالوا، وإذا صلى الواحد منهم نافلة منفردًا أسرع وقَصَّر... إن هذا مخالف لهديه ﷺ.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ أن الحياة إنما تكون لله وبالله، فكل الأنفاس وكل

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، (١٤٠٦٩)، والنسائى فى سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، (٣٩٤٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب الغضب فى الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، (٩٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة فى تمام، (١٠٧٢)، واللفظ للبخارى.

الحركات وكل الأقوال والأفعال لله. هكذا علمه ربه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ (الأنعام).

- كما يعلمنا الموقف ألَّا نركن إلى شهادات الثناء والتقدير، بل ينبغي أن يكون ذلك دافعًا لنا إلى مزيد الإحسان والإجادة.

ويرشدنا الموقف أيضًا إلى فضل قيام الليل، وهو هدى نبوى كريم، قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[1].

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٨٥)، وابن ماجه فى سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فى قيام الليل، (١٣٣٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٦١٦).

١١٦. رسـول الله ﷺ يحبك (*)

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقـبرة فقـال: «الـسلام عليكم دار قومٍ مؤمنين وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقـون، وَدِدتُ أنـا قد رأينا إخواننا». قالوا: أولسنا إخوانك يا رسـول الله؟ قـال ﷺ: «أنتم أصحابى وإخواننا الذين لم يأتوا بَعْدُ».

فقالوا: كيف تعرف من لم يأتِ بعدُ من أُمَّتك يا رسول الله؟! فقال ﷺ: «أرأيتَ لو أن رجلًا له خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلةٌ بين ظَهْرَىْ خَيْـلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرفُ خَيْلَه؟!».

قالوا: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: «فإنهم يـأتون غُـرًّا مُحَجَّلِـينَ من الوضوء وأنـا فَـرَطُهم عـلى الحـوض ألا لَيُـذادَنَّ رجـالٌ عـن حَوضِى كما يُذادُ البعيرُ الضَّالُّ، أناديهم: ألا هَلُمَّ. فيُقال: إنهـم قـد بدَّلوا بَعدك. فأقول: سُحْقًا سُحْقًا».

*****

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتـاب الطهـارة، بـاب اسـتحباب وإطالـة الغـرة والتحجيـل فى الوضـوء، (٦٠٧).

معانى بعض الكلمات:

بهم: جمع بهيم وهو الأسود وقيل الذى لايخالط لونه لون سواه.

الدهم: جمع أدهم وهو الأسود.

• هذا موقف نبوى يحمل للأمة حبًّا وودًّا من رسول الله ﷺ. وأن نحب رسول الله ﷺ فهذا شرع وفرض، أما أن يحبنا رسول الله ﷺ فهذا شرف وفضل، ولقد أكد القرآن الكريم حب رسول الله ﷺ لأمته وحرصه عليها. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة).

ومن مظاهر حب النبى ﷺ لأمته أن الله أعطى كل نبى دعوة مستجابة، فتعجل كل نبى دعوته، وادخر النبى ﷺ دعوته شفاعةً لأمته يوم القيامة.

ومن حب الرسول ﷺ لأمته أنه كان فى بداية الإسلام لا يصلى على من عليه دَيْن، فلما اتسع بيت المال كان يقول: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى من المؤمنين فتَرك دَيْنًا فعلىّ قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته»[1]. قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب/ ٦).

وإذا كان هذا الحب عامًّا لكل الأمة، فقد زاد عليه رسول الله ﷺ حبًّا خاصًّا لمن آمن به ولم يره.

ولقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ: وكيف تعرف يوم القيامة من آمن بك

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الكفالة، باب الدين، (٢١٧٦)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، (٤٢٤٢).

ولم يرك ولم تره يا رسول الله؟

فأجاب النبى ﷺ: «أرأيتم لو أن رجلًا له خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلة (ومعنى غُـرّ، أى: بمقدمة وجهها بياض بالجبهة، ومعنى محجَّلة: أى بالقوائم الأمامية بياض أيـضًا) بين ظهرانى خيل دُهْم بُهْم (أى: سوداء سوادًا خالصًا) ألا يَعْرِفُ خيله؟».

قالوا: بلى يا رسـول الله، قـال النبـى ﷺ: «فـإنهم يـأتون غـرًّا محجلـين مـن الوضوء»[1].

حيث تأتى أعضاء الوضوء يشع منها نور يَعْرِفنـا بـه حـضرة النبـى ﷺ يـوم القيامة.

- ومن دلالات الموقف أيضًا: أدب زيـارة القبـور، فمـع تحـصيل العظـة والعبرة من الزيارة، ينبغى الدعاء لهم تأسيًا برسول الله ﷺ، فإذا دخل المقابر سـلَّم عليهم قائلًا: السلام عليكم ورحمـة الله، ثـم يـدعو لهـم: أنـتم الـسابقون ونحـن اللاحقون.

نسأل الله لنا ولكم العافية

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء، (٦٠٧).

١١٧. هل عاملته ؟ (*)

سمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا يُزَكِّى رجلًا ويُثْنِى عليه، فقال له سيدنا عمر ﷺ: هل تعرفه؟ فقال الرجل: نعم. فقال عمر: لعلك رأيته يطيل السجود فى المسجد. فقال الرجل: نعم. فقال سيدنا عمر: هل عاملته؟ فقال الرجل: لا. فقال سيدنا عمر: إذًا فأنت لا تعرفه.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية منها:

- أهمية جانب السلوك الاجتماعى فى تقييم الأفراد، فسيدنا عمر ﷺ نبه الرجل إلى أن المعرفة الحقيقية بالناس لا تتأتى فقط بمعرفة أنهم عُبَّاد، ولكن بصلاحهم فى معاملاتهم الاجتماعية بين الناس.

ولقد رفع الإسلام من شأن الواجبات الاجتماعية، فجعل رتبتها تلى رتبة الإيمان بالله تعالى، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ (الماعون)، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ

(*) راجع: شرح رياض الصالحين، محمد بن محمد العثيمين، ص ١٠٩٣.

﴿بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾ (الحاقة).

كما ربط الإسلام بين العبادة والسلوك الاجتماعى فى الإسلام، فامرأة عابدة كانت تكثر الصلاة والصيام، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها، قال عنها رسول الله ﷺ: «هى فى النار»، وأخرى لا تصلى إلا الفرائض ولا تصوم إلا رمضان، لكنها أحسنت المعاملة لجيرانها، فقال رسول الله ﷺ: «هى فى الجنة»[1].

إن العبادة لها عظيم الأثر فى تصفية النفوس وإعانة العبد على فعل الخيرات والإحسان لإخوانه.

- ومن دلالات الموقف أيضًا عدم التسرع فى الحكم على أحد إلا بعد معاملته؛ كى يتم التقييم بأسلوب علمى يتسم بشمول جوانب الشخصية، ويستوفى العناصر الأساسية، ويقوم على أسس وحقائق، ولا يقوم على الهوى أو الرؤية الشخصية، أو الإحساس الفردى.

ولذلك لم يقبل سيدنا عمر تقييم الرجل، وقال له: أنت لا تعرفه.

- ومن دلالات الموقف أيضًا أن المؤمن كيّس فطن حذر، يحترس من الناس، فكم أصاب الأذى أناسًا بسبب فرط ثقتهم بمن ليسوا أهلًا للثقة! ومن وصايا القرآن لأهل القرآن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ٧١﴾ (النساء).

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٧٩) برقم (٩٥٤٦)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٦٠).

١١٨. قَلَّ صبرى عنك يا رسـول اللـه!! (*)

كان ثوبان رضي الله عنه شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه يومًا باكيًا قد تغيّر لونه، فسأله النبى ﷺ عن سبب تَغَيُّرِ لونه، فقال: يا رسول الله، ما بى مرض ولا وَجَع، غير أنى أستوحش وحشة شديدة إن لم أَرَكْ، ثم أتذكر أمر الآخرة وإنك تُرفع مع النبيين، فأَنَّى لى برؤيتك؟! فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ (النساء).

*****

هذا الموقف يقدم لنا دلالات هادية فى رحاب محبة المصطفى ﷺ، وما كان عليه أصحابه من الحب والود له:

- الدلالة الأولى: هذا التعلق العظيم وهذه العاطفة الودودة من الصحابة لرسول الله ﷺ، لقد أحبوه ﷺ حبًّا تجاوز أولادهم وأموالهم بل وأنفسهم، ولقد أورثهم هذا الحبُّ حلاوةَ الإيمان بالله تعالى. وفى الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه

(*) ذكره الثعلبى فى تفسيره (٣/ ٤٦٣)، وصححه الألبانى فى فقه السيرة، ص (١٩٩).

إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقذَف فى النار»[1].

• الدلالة الثانية: التأسِّى برسول الله ﷺ فى سؤال المسلم عن إخوانه؛ للاطمئنان عليهم إذا ظَهَر له من حالهم ما يستوجب السؤال، ويظهر هذا من قول النبى ﷺ لثوبان لما تَغَيَّر لونه: ماذا بك؟

• الدلالة الثالثة: التأسى برسول الله ﷺ فى عدم التعجل فى الفتوى والإجابة، وأن هناك أسئلة جوابها عند الله تعالى لا يملكه بشر مهما كان علمه، ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ سكت حتى جاءت الإجابة وحيًا من عند الله تعالى، وأنزل الله على قلب نبيه ﷺ قرآنًا يُتلى.

• الدلالة الرابعة: ما تحمله الآية التى نزلت فى هذا الموقف من عبر وعظات، حيث أكدت الآية حقيقة مهمة؛ وهى أن الحب ليس كلامًا ولا مشاعر جوفاء، وإنما هو مشاعر صادقة تدفع صاحبها إلى الاستجابة لـهَدْى الله تعالى والتأسى بحضرة النبى ﷺ، وإلا فما أرخص الحبَّ إن كان كلامًا!

ولقد جعل الله استجابة المؤمن وطاعته لربه وتأسيه برسول الله ﷺ من وسائل الفوز بالرفقة المباركة مع النبيين والشهداء والصالحين يوم القيامة فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (النساء).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١٦) ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (١٧٤).

١١٩. لا تَعْدُ عَيناك عنهم (*)

دخل عيينة رئيس قومه على النبى ﷺ، وعنده صهيب وسلمان الفارسى وبلال بن رباح، وعليهم ثياب خَلِقَة، فقال عيينة للنبى ﷺ: إن لنا شرفًا، فإذا دخلنا عليك فأَخْرِجْ هؤلاء، واجعل لنا مجلسًا. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف).

*****

هذا موقف حسبه شرفًا أن الله أنزل فيه قرآنًا يُتلى، ولنا فيه دلالات هادية وعِبر نافعة:

- فى غيبة الإيمان يتعاظم الشعور عند الإنسان بالتعالى والتفاخر بالقبلية أو بالمال أو بالسلطان، وهذا ما ظهر من عيينة وقومه؛ وذلك من قوله: «يا محمد، إذا نحن أتيناك، فأخرج هذا وضرباءه من عندك، لا يؤذونا، فإذا خرجت، فأنت وهم أعلم».

(*) أخرجه ابن حاتم فى تفسيره (٩/ ١٩٩) برقم (١٣٨٢٩) تفسير سورة الكهف.

أما فى الإسلام فلا مكان للتباهى أو التعالى والتفاخر بالماديات حيث لا يكتسب الإنسان قيمته مما يملك، أو ينتسب إليه من شؤون الدنيا، وإنما بتقواه وعلمه ونفعه لمجتمعه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ (الحجرات).

فالذى يضعه فى المقدمة عند الله تعالى الإيمان والتقوى.

• ومن عبر الموقف ما أرشدت إليه الآية الكريمة: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ (الكهف).

حيث تشير الآية إلى أن الطاعة تجعل الإنسان كريمًا على الله تعالى، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء الفقراء؛ لأنهم يدعون ربهم ليل نهار بإخلاص وحب لله سبحانه، وأمر الله نبيه ألَّا يهملهم لخاطر عرض الأغنياء، ونهاه عن صحبة أصحاب الأهواء المضلة.

• ومن دلالات الموقف أيضًا تنبيه الدعاة والعلماء من ورثة الأنبياء أن يحذروا عُرُوضَ الإغراء التى تُعرض عليهم؛ لتحولهم عن غايتهم ومقصودهم مهما بدت هذه العروض برَّاقة لامعة؛ فالداعية لا يقول ما يرضى الناس، بل ما يرضى الله تعالى.

١٢٠. إذًا تُكْفَى همَّك (*)

قام النبي ﷺ من الليل يصلي، ثم قال: «يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة، جاء الموت بما فيه».

فقال أبي بن كعب ؓ: يا رسول الله: إني أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال النبي ﷺ: «ما شئت».

قال أبي بن كعب: أجعل لك الربع. قال النبي ﷺ: «ما شئتَ، وإن زدتَ فهو خير لك».

قال أبي بن كعب: أجعل لك الثلث. قال النبي ﷺ: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك».

فقال أبي بن كعب: أجعل لك صلاتي كلها. فقال النبي ﷺ: «إذًا تُكْفَى هَمَّك، ويغفر لك ذنبك».

*****

هذا موقف نبوي كريم يقدم لنا دروسًا تربوية هادية، كما يبين لنا فضل

(*) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٧٠).

الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ.

• فأما عن فضل الصلاة والسلام على الرسـول ﷺ، فحسبنا فيهـا أن الله تعالى أمر أمرًا فى القرآن بدأ فيه بذاته العَلِيَّة، وثَنَّى بملائكة قدسه، وثلَّث بالمؤمنين من إنسه وجِنِّه، فقال تعظيمًا وتكريمًا لحضرة النبى ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب).

ويكفى المصلى على رسول الله حديث النبى ﷺ: «من صلَّى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا»[1]، وقوله ﷺ: «أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة»[2].

وفى الموقف نرى أن النبى ﷺ بشَّر من جعل مجلس ذكره كله الصلاة والسلام على النبى ﷺ أن يكفيه الله همه، وأن يغفر له ذنبه.

وذلك قوله لسيدنا أبى بن كعب ﷺ: «إذًا تُكْفَى هَمَّك ويغفر لك ذنبُك».

• أما بشأن الدروس التربوية فى الموقف: فهـى التربيـة عـن طريـق إثـارة الحب والرغبة فى الشىء والاقتناع به عن طريق إظهار النفع والثمـرة التـى تعـود على فاعله والملتزم به، بدلا من أن يُفرض إجبارًا فتنفر منه النفس، ويظهر هذا من قول النبى ﷺ لأبى بن كعب إجابة عن سؤاله المتكرر: كم أجعل لك من صلاتى؟ أى من ذكرى ودعائى.

فكان جواب النبى ﷺ: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك».

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، (٨٧٥).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، أبواب الوتر، باب فضل الصلاة على النبى ﷺ (٤٨٤)، وابن حبان فى صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، (٩١١)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٦٦٨).

فقوله: «ما شئت»، يترك له الرغبة والاختيار، وقوله: «وإن زدت فهو خير لك»، يشوِّقه ويقنعه بالزيادة لما فيها من خير وفلاح.

وهذا أسلوب تربوى تشتد الحاجة إليه فى عصرنا مع الأبناء والطلبة؛ وذلك لأن الأوامر الصارمة، والإجبار والإكراه على الفضيلة لا يصنع مؤمنًا، وإنما سبيل الإقناع بمخاطبة العقل، وسبيل التأثير على العواطف والمشاعر بإظهار المحاسن هو السبيل المفيد والمثمر فى إنجاز بناء الأجيال بناءً إيمانيًا كما يحب ربنا ويرضى.

١٢١. لو كان فى سبيل الله (*)

عن إبراهيم بن ميسرة أن أعرابيًّا طلع على أصحاب رسول الله ﷺ فأعجبهم شبابه وقوته ونشاطه ونحو هذا، فقالوا: لو كان شباب هذا ونشاطه وقوته فى سبيل الله؟

فسمع رسول الله فقال: «أو ما فى سبيل الله إلا من قاتل أو قال غزا ؟ من سعى على والديه ليعفهما ففى سبيل الله، ومن سعى على عياله يعفهم ففى سبيل الله، ومن سعى على نفسه ليعفها فهو فى سبيل الله، ومن سعى مكاثرًا ففى سبيل الشيطان».

*****

هذا الموقف يصحح فيه سيدنا محمد ﷺ مفهومًا خاطئًا شاع بين الناس قديمًا وحديثًا؛ وهو اقتصار مفهوم العمل الصالح والعبادة على الشعائر الإسلامية المعروفة؛ كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج.

وعلمنا النبى ﷺ أن معنى (فى سبيل الله) يمتد ليشمل الأعمال النافعة الحلال التى نقوم بها فى دنيانا لتحصيل الأرزاق وعمارة الدنيا وكفاية الحاجة.

وقد رأينا فى الموقف موضوع الحديث أن النبى ﷺ عَدَّ عمل الشاب وسعيه

(*) أخرجه أبو عبد الله المروزى فى البر والصلة ص (١٦٠)، وقال: رجال إسناده ثقات.

من أجل أسرته عبادة فى سبيل الله يثاب عليها من الله تعالى.

والقرآن يؤكد هذا المفهوم الإيمانى، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧﴾ (الحج).

فجاء ذكر فعل الخير عامًّا وشاملًا فى سياق ذكر العبادات المشهورة؛ كالسجود والركوع، وفى هذا تعظيم لقيمة العمل، وعمارة الدنيا، وبناء الأمة بالحلال الطيب.

ولقد جعل الله السَّعْى على المعاش سببًا من أسباب المغفرة؛ لقوله ﷺ: «من أمسى كالًّا (أى: متعبًا) من عمل يده أمسى مغفورًا له»[1].

- كما يستفاد من الموقف الهمة العالية فى إنجاز الأعمال، فالتبكير والمواصلة فى العمل سبيل لإنجاز الأعمال، وقد دعا النبى ﷺ للمبكرين إلى أعمالهم؛ فقال ﷺ: «اللهم بارك لأمتى فى بكورها»[2].

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٧/ ٢٨٩) برقم (٧٥٢٠)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الكوفيين، حديث صخر الغامدي ﷺ، (١٩٤٩٧)، وأبو داود فى سننه، كتاب الجهاد، باب فى الابتكار فى السفر، (٢٦٠٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٦٩٣).

١٢٢. خذ الخلافة وأرحنى منها (*)

جاء رجل إلى أبى بكر الصديق ﷺ فى حاجة، فوجهه إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فمنعه عمر؛ لعدم استحقاقه، فرجع الرجل ناقمًا، وقال كذبًا لأبى بكر: يا خليفة رسول الله، منعنى عمر، وما وَقَّرَ لك رأيًا ولا سمع لك قولًا، وقال: إنه أحق منك بالخلافة.

فدعا أبو بكر عمر بن الخطاب، وقال له: يا عمر ألم أقل لك: خذ الخلافة، وأرحنى منها؟! فقال عمر ﷺ: والله ما أجد أحق بها منك؛ وإنما منعت الرجل لكذبه.

*****

هذا الموقف يحمل دلالات هادية ودروسًا نافعة:

- الدرس الأول: درس فى أسلوب الإدارة إذا ازدحمت الأعباء وجاوزت حد الطاقة، فللإنسان المسئول أن يلجأ إلى تفويض غيره؛ ليقوم بمهام الوظيفة؛ كى لا تتعطل المصالح، وكى تسير الأمور فى نصابها، وقد استفادت الإدارة الحديثة من أسلوب التفويض فى إنجاز الأعمال وتدبير الأمور.

وقد رأينا خليفة رسول الله ﷺ يُرْسِى هذه القاعدة حين وجَّه صاحب الحاجة إلى سيدنا عمر؛ ليقوم بما ينبغى له.

• الدرس الثانى: عدم التسليم لصاحب الحاجـة وطالـب المـصلحة دون بحث وتمحيص؛ كى تصل الصدقات إلى أصحابها، ولا يحجبها أهل المكر والحيلة ومحترفو التسوُّل، فإن ثبت صدقهم أُعْطُوا، وإلا فلا. وهذا ما صنعه سـيدنا عمـر بن الخطاب ﷺ فى الموقف.

• الدرس الثالث: التثبت إذا ما جاءنا من يريد إفساد العلاقات، فـسيدنا أبو بكر دعا سيدنا عمر رضى الله عنهما؛ ليتثبت من كلام الرجل.

وهذا هدى قرآنى كريم، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ (الحجرات).

• الدرس الرابع: هو هذه الروح الودودة التى تحدث بها أبو بكر مع عمر؛ حيث إن عبارته وضحت للرجل ـ الذى أساء وأراد أن يفسد لما لم يُعْطَ ما طلَب ـ أن ما بين الرجلين (أبى بكر وعمر) رابطة عظيمة لا تنال منهـا نميمـة ولا إفـك، فقد قال أبو بكر لعمر: يا عمر، ألم أقل لك خذ الخلافة وأرحنى منها؟!

• الدرس الخامس: الإحـساس بالمـسئولية وهمِّهـا الثقيـل، وأنهـا أمانـة، ويظهر هذا الإحساس من قول أبى بكر ﷺ: أرحنى منها.

ويظهر من هذا أن صحابة النبى ﷺ لم يكونوا حريـصين عـلى الإمـارة، بـل كانوا يتورعون عنها إلا إذا كُلِّفوا بها؛ لعلمهم بقول النبى ﷺ: «إنهـا أمانـة، وإنهـا يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها»[1].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، (٤٨٢٣).

١٢٣. إنى لأخشاكم لله (*)

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته. فلما أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها؛ فقالوا: أين نحن من النبى ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

*****

هذا الموقف يحمل فقهًا تشتد الحاجة إليه فى حياتنا المعاصرة، ومن أهم دلالاته: النهى عن الغلو فى الدين، كما يشير إلى أن التيسير من هدى المصطفى ﷺ.

- أما الغلو فى الدين فقد نهى القرآن عنه، فلا نبالغ ولا نتجاوز الحد ولا نتشدد. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب فى النكاح، (٤٧٧٦)، ومسلم فى صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن طاقت نفسه إليه، (٣٤٦٩).

تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (المائدة).

وقال النبى ﷺ: «إياكم والغلو فى الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين»(١).

والموقف الذى بين أيدينا يعالج الغلو والتشدد بشكل مقنع، فقد كان الدافع وراء غلو هؤلاء أنهم رأوا اجتهاد رسول الله ﷺ فى العبادة، على الرغم من أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأحسوا أنهم دون رسول الله ﷺ بكثير، يظهر هذا من قولهم: وأين نحن من رسول الله ﷺ ؟، وظنوا أنهم بتشددهم وغلوهم سيكونون أكثر قربًا من الله وتعبدًا، فأزال النبى ﷺ هذه الشبهة من تفكيرهم بقوله ﷺ: «إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

• وهكذا يظهر من هدى رسول الله ﷺ التيسير على الأمة، والله تعالى أخبر عن حبيبه النبى ﷺ أنه يعز عليه أن تقع أمته فى مشقة وأنه حريص على الأمة؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، من مسند بنى هاشم، مسند عبد الله بن العباس رضى الله عنهما، (٣٢٤٨)، والنسائى فى سننه، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، (٣٠٥٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٨٠).

وقال النبى ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[1].

وتخبر السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ ما خُير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها [2].

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (٣٩).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبى ﷺ، (٣٣٦٧)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته للآثام واختياره، (٦١٩٠).

١٢٤. شر الناس منزلة يوم القيامة (*)

استأذن رجل على رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ عنه: «بئس أخو العشيرة»، فلما جلس هَشَّ وبَشَّ وانبسط إليه، فلما انطلق قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت: بئس أخو العشيرة!! ثم تطلَّقت فى وجهه وانبسطت إليه؟! فقال النبى ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتنى فحَّاشًا؟! إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَنْ تَرَكَه الناس اتقاء شَرِّه».

*****

هذا موقف نبوى كريم يحمل دلالات هادية؛ منها:

- ما عَلَّمنا إياه النبى ﷺ: وهو كيف نسلم من أهل السوء والأذى، فلا نجاريهم فى سوء قولهم أو فعلهم، بل المؤمن يصون لسانه عما يغضب الله تعالى.

ومن هدى النبى ﷺ قوله: «ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذىء»[1].

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبى ﷺ فاحشا ولا متفحشًا، (٥٦٨٥)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقى فحشه، (٦٧٦١).

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ، (٣٨٣٩)، والترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب اللعنة، (١٩٧٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٨١).

ولعل السيدة عائشة رضى الله عنها كانت تنتظر أن يعامل رسولُ الله ﷺ الرجل ـ الذى وصفه بأنه بئس أخو العشيرة ـ بقسوة وشدة، فلما رأت حسن معاملة رسول الله ﷺ له، سألت تطلب تفسيرًا للموقف، فوضَّح لها النبى ﷺ إنما صنع ذلك اتقاء فحشه وشره، كما بيَّن لها أنه رسول الله ﷺ، ولا يجوز به أن يخرج منه ما لا يليق، فقال لها ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتنى فحّاشًا؟» لقد كان خُلُق رسول الله ﷺ، القرآن، ولم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخَّابًا فى الأسواق، ولكنه يعفو ويصفح.

وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا يجزى السيئة بمثلها. وكان يحب الرفق فى شأنه كله ﷺ، كيف لا، وقد بعثه الله؛ ليُتَمِّمَ مكارم الأخلاق، ووصفه ربه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (القلم).

- ومن دلالات الموقف أيضًا الحذر من إرهاب الناس وتخويفهم؛ فإن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره وفحشه، فالضرر بالناس عاقبته وخيمة وعقابه عند الله أليم.

- ومن دلالات الموقف ـ أيضًا ـ ألَّا نقابل السيئة بالسيئة، وإنما ندفع بالتى هى أحسن، وهذا هدى قرآنى.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ ﴾ (فصلت).

١٢٥. لا تعينوا الشيطان (*)

أُتِيَ النبيَّ ﷺ برجل قد شرب؛ فقال: (اضربوه). قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف الرجل. قال بعض القوم: أخزاك الله، قال ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان».

*****

هذا موقف نبوى كريم يقدِّم فيه النبى للأمة درسًا فى التربية وأسلوب معاملة المخالفين والعصاة، كيف لا، وهو ﷺ الذى قال: «إن الله لم يبعثنى معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثنى معلمًا مُيسِّرًا»[1].

بل كانت الحكمة منهجه، واللين فى القول طريقته، والتيسير على الناس هديه ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ أمر بضرب هذا الرجل عقوبة وزجرًا له، وهذا نوع من العلاج، لكن النبى ﷺ لم يوافق على شتم الرجل أو الدعاء عليه؛ لأن سب الرجل والوقوع فيه من باب التشديد المخالف لسماحة الدين ويسره، وقال النبى ﷺ: «لا تعينوا عليه الشيطان».

وهنا نتعلم من رسول الله ﷺ الحرص على المخالف والأخذ بيده؛ ليعود إلى

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، (٦٣٩٥).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، (٣٧٦٣).

صوابه، ويرجع إلى هدى ربه تعالى.

وهذا من هدى المصطفى ﷺ: لا يعامل العاصى بالتكفير، وإنما إن عوقب فأقيم عليه الحد فهو كفارة له وطُهْر وتطهير للمجتمع، ومن ستر الله عليه وتاب فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فى مجلس، فقال: «بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه)، فبايعناه على ذلك»[1].

ومعاوية بن الحكم السلمى ﷺ أثناء صلاته شمت رجلًا عطس، ولم يكن يعلم حرمة الصلاة بمنع الكلام فيها، فتعجب الصحابة من أمره، فمنهم من يضرب فخذه، ومنهم من ينظر إليه بشدة، فلما انتهى من صلاته ناداه النبى ﷺ وقال له: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[2]. فقال معاوية: والله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه ﷺ، فو الله ما نهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، (١٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، (٤٥٦٠).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام فى الصلاة، (١٢٢٧).

١٢٦. هلا جلستَ فى بيت أبيك ؟! (*)

استعمل رسول الله ﷺ رجلًا على صدقات بنى سليم، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وحاسبه النبى ﷺ، قال لرسول الله ﷺ: هذا مالُكُمْ وهذه هديَّة أُهديت لِى. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا قعدت فى بيت أبيك وأمك فتنظُرَ أَيُهَدى إليك أم لا؟»!

*****

• هذا موقف نبوى كريم يعالج فهمًا معوجًّا، كثيرًا ما يقع فيه من تُسند إليهم المصالح العامة، فيقع بعضهم فى غفلة من أمره أو نسيان فى هذا الخطأ، لقد نسوا أنهم وُضِعُوا فى مواقعهم ووظائفهم؛ ليحققوا النجاح لهذه المواقع، فهم يعملون لحساب هذه المواقع، وليس لحساب أشخاصهم، ويوم أن تتحول الوظيفة إلى مغنم، وتتحول الوظائف لخدمة من يشغلونها، تكون خيانة الأمانة التى حذرنا منها رسول الله ﷺ لَمَّا سأله أبو ذر ﷺ عن الإمارة فقال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خِزْىٌ وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها»[١].

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ، (٦٢٦٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، (٤٨٤٥).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، (٤٨٢٣).

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من خيانة الأمانة، وبيَّن أنها علامة من علامات النفاق، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[1].

وقال ﷺ: «إن الغادر ينصب الله له لواء يوم القيامة، فيقال: ألا هذه غَدرْةَ فلان»[2].

- ومن دلالات الموقف: التربية بالحجة؛ حيث لجأ النبى ﷺ إلى إظهار الحجة على بطلان تفكير الرجل الذى جمع الصدقات، وقال: هذا لكم وهذا أُهدى إلىّ، فقال له ﷺ: «هلَّا جلس أحدكم فى بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته؟!».

والمعنى أن هذا النفع وهذه الهدية حصلت عن طريق الوظيفة، ولو كنت خارج الوظيفة ما أهدى إليك أحد ممن عليهم الصدقات شيئًا.

إذن ليس الدافع المحبة ولا المودة؛ لتكون هذه الهدايا من قبيل قول النبى ﷺ، «تهادوا تحابوا»[3]؛ ولكنها إلى الرشوة أقرب؛ فلابد وأن لها مقابلًا فى تسهيل أمور، أو المرونة فى تقدير نسبة ما، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (٣٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، (٢٢٠).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، (٥٨٢٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، (٤٦٢٩).

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ص (٢٠٨) برقم (٥٩٤)، وأبو يعلى فى مسنده (١١/ ٩) برقم (٦١٤٨)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٠٤).

• ومن دلالات الموقف مسئولية المتابعة، فالمتابعة من أهم أسرار نجاح الإدارة، فمن يتولى شئون عمل من الأعمال وجب عليه أن يتابع من أَسْنَد إليهم أدوارًا وأعمالا؛ ليتأكد من إنجازها على الوجه المطلوب.

ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ تابع الرجل الذى كَلَّفه بجمع الصدقات وحاسبه، وكانت نتيجة الحساب هذا الجزء الذى جعله الرجل فى جانب وحده، فلما سأله النبى ﷺ عنه، قال: أهدى إلىَّ، فصحَّح له النبى المفهوم، وعالج الموقف بحكمته ﷺ.

١٢٧. حَدِّثُونى ما هى؟ (*)

بينما الصحابة جلوس حول رسول الله ﷺ إذ سألهم النبى ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المؤمن، فحدثونى ما هى؟» فوقع الناس فى شجر البوادى، ووقع فى نفس ابن عمر أنها النخلة، لكن الحياء منعه من الإجابة؛ لصغر سنه بين الحاضرين، ثم قال القوم للنبى ﷺ: حدثنا ما هى يا رسول الله؟ فقال النبى ﷺ: «هى النخلة».

*****

هذا موقف نبوى كريم يفيض بالقيم التربوية الهادية؛ ومنها:

- الإشارة إلى أسلوب من أهم أساليب التعليم؛ وهو التعليم بالسؤال؛ وكيف يثير المعلم انتباه التلميذ والمتعلم للفهم، وكيف يحرك رغبته فى معرفة الإجابة، فإن ما يُساق بعد الطلب أعز وأغلى مما يُساق بلا طلب، وهذا من هديه ﷺ، ورأينا فى الموقف كيف سأل النبى ﷺ. وعلى الدعاة وأهل التعليم أن يتأسوا برسول الله ﷺ فى إثارة ذهن المستمع وتهيئة الطالب للدرس.

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا، (٦١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة، (٧٢٧٦).

• كما يشير الموقف إلى أسلوب تربوى آخر، وهو ضَرْبُ المثل؛ لما فيه من التوضيح والبيان للحقيقة المطلوبة، أيضًا فى المثل تيسير للفهم على المتعلم، ورأينا النبى ﷺ يضرب المثل للمسلم بالنخلة، والذى يجمع بينهما صفات حميدة؛ مثل: العطاء المتنوع، والقوة، والصمود، والارتفاع، ودوام الانتفاع، وهكذا المؤمن صبور يتحمل ما لا يتحمل غيره، قوى بإيمانه يواجه الشدائد، وينجز الأعمال العظيمة بإتقان وإحكام وهو مرتفعٌ عن الأحقاد والدسائس والنقائص والعيوب، والمؤمن يداوم على السعى الصالح والعمل النافع؛ كما يظهر من ضرب المثل بالنخلة، أن المؤمن يقابل السيئة بالحسنة، كما تُرمَى النخلة بالحجارة فترجع على الرامى بالتمر والرطب.

ومن يتأمل أمثلة المؤمن فى القرآن والسنة يرى أنها تعددت وتنوعت ويجمعها كلها الصفات الحميدة التى ينبغى للمؤمن أن يتحلى بها.

• كما يظهر من الموقف أن رسول الله ﷺ كان لا يثقل على أصحابه بالموعظة الطويلة، بل كانت موعظته خلاصة مركزة، واضحة بيِّنة، وفى هذا بيان للدعاة ألَّا يثقلوا على الناس فى دروسهم أو موعظتهم؛ تأسيًّا بسيدنا رسول الله ﷺ؛ حتى ينصرف الناس على شوق للحديث ورغبة فيه؛ وحتى لا نشتت الناس بكثرة الكلام، فإن كثرة الكلام ينسى بعضُه بعضًا.

وقد نبه القرآن أن الفائدة من ضرب الأمثال إنما هو للعظة والعبرة والتدبر، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (إبراهيم/ ٢٥)، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾(الحشر).

- ونتعلم من الموقف أن السن ليس معيارًا للعلم؛ فقد يكون من هو أصغر سنًا أكثر نباهة وفهمًا، فقد رأينا ابن عمر قد عرف أنها النخلة، ولم يمنعه من الإجابة إلا الحياء، في حين أخفق الكبار في معرفة الصواب.

١٢٨. علِّمنى شيئًا (*)

بينما كان العباس بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ فى مجلس، سأله قائلًا: يا رسول الله، علمنى شيئًا أسأله الله تعالى، فقال له النبى ﷺ: «سَلِ الله العفو والعافية».

فمكث العباس أيامًا، ثم جاء لرسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، علمنى شيئًا أسأله الله تعالى. فقال النبى ﷺ: «يا عباس، يا عم رسول الله ﷺ، سَلِ الله العافيةَ فى الدنيا والآخرة».

*****

هذا الموقف يقدم لنا دروسًا هادية:

- أولها: حِرْصُ صحابة رسول الله ﷺ على اغتنام فرصة جلوسه ﷺ معهم؛ ليتعلَّموا ويهتدوا، ويسألوه ﷺ عما يدور بأذهانهم من أفكار، ورأينا فى الموقف أن العباس رضي الله عنه يتقدم للنبى ﷺ بسؤاله.

والمؤمن الموفَّق هو الذى يقتدى بسلوك صحابة رسول الله ﷺ فى اغتنام الفرص؛ للإفادة من هدى النبى ﷺ وعرض أفكاره على سنته ﷺ. فما وافق هديه

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، من مسند بنى هاشم، حديث العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما، (١٧٨٣)، والترمذى فى سننه، كتاب الدعوات، (٣٥١٤)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٣٨).

اتبعناه وما خالفه ﷺ اجتنبناه.

- ثانيها: فضْل الدعاء؛ حيث وَجَّه النبى ﷺ العباس لما سأله أن يعلمه شيئًا يسأله الله تعالى، أرشده إلى الدعاء بالعافية، ولم يرشده النبى إلى شىء آخر مما يتكالب الناس عليه من أمور دنياهم، وفى هذا إشارة إلى أن فَضْل الدعاء يَسْبِق كل فضل.

والله تبارك وتعالى يبين فى قرآنه أنه قريب سميع مجيب؛ فليجتهد العبد فى الدعاء، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة).

- ثالثها: فضْلُ الدعاء الجامع، وهذا من هديه ﷺ؛ حيث كان دعاؤه جملة واحدة أو جملا يسيرة؛ كى لا يشق على أمته بطول الدعاء، ومن خصائص النبى ﷺ أنه أوتى جوامع الكلم ﷺ.

ولذلك لما عاود العباس سؤال النبى ﷺ بنفس سؤاله السابق بعد مرور عدة أيام، أجابه النبى ﷺ بنفس الإجابة؛ ليشعره بأن هذا الدعاء فيه كفاية وخير كثير؛ لأنه ربما استقل العباس هذا الدعاء القصير، كما أن النبى ﷺ قال له فى الإجابة الثانية: «يا عباس يا عمَّ رسول الله ﷺ»؛ ليشعر العباس بقربه منه ﷺ، فهو عمه، وجعل النبى ﷺ يعلمه من الدعاء ما يناسب حاله.

- رابعًا: فضْل الدعاء بالعافية فى الدنيا والآخرة، فمن عافاه الله فى بدنه، وفى عقله، وفى سمعه، وفى بصره، وفى لسانه، وفى سائر أعضائه فقد أنعم الله عليه بنعمة عظيمة، يبين لنا قدرها رسول الله ﷺ بقوله: «نعمتان مغبون فيهما كثير من

الناس: الصحة والفراغ»[1].

ويقول النبي ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها»[2].

هذا عن فضل العافية والصحة في الدنيا، فأما عن فضل العافية في الآخرة فإنما يكون بالسلامة من عقاب النار والسلامة من شدائد وأهوال يوم القيامة.

ومن هنا كان الدعاء بالعافية يحمل خيرًا كثيرًا للمؤمن في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ، (٦٠٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الزهد، باب، (٢٣٤٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٣١٨).

١٢٩. ارجع فصلِّ (*)

رأى النبى ﷺ رجلًا يسرع فى صلاته، فلا يتم ركوعها ولا سجودها، فقال له النبى ﷺ: «ارجع فصلِّ فإنك لم تُصلِّ».

فأعاد الرجل صلاته مسرعًا كالمرة الأولى، فقال له النبى ﷺ: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ». فرجع الرجل، وأعاد صلاته مسرعًا، فقال له النبى ﷺ للمرة الثالثة: «ارجع فصل فإنك لم تصلِّ». فقال الرجل: والذى بعثك بالحق ما أُحسن غير هذا، فعلمنى مما علّمك الله.

فقال له النبى ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها».

*****

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، (٧٢٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة، (٩١١).

هذا موقف نبوى كريم يحمل دروسًا تربوية نافعة:

- الأولى: تعدد أساليب التربية عند حضرة النبى ﷺ رعاية لحال المتلقى.

فهو يربى بالموعظة، ويربى بالحوار، ويربى بالقصص، وغير ذلك من عشرات الأساليب التى ربى بها ﷺ، ومن بين أساليب التعليم عند النبى ﷺ التعليم الذاتى؛ بتربية القدرة الذهنية عند الإنسان على الانتباه واليقظة والتفطن إلى أخطائه بالتجربة العملية؛ كى يصلحها.

ونرى فى الموقف أن النبى ﷺ طلب من المسيء فى صلاته أن يعيدها مرارًا؛ كى ينتبه إلى أخطائه، ولما لم ينتبه الصحابى إلى خطئه، وإلى أنه مسرع فى صلاته ـ لا يتم الركوع ولا السجود ـ وأعلن الرجل عن عدم قدرته على إدراك الخطأ الذى وقع فيه فى أثناء صلاته تحول النبى ﷺ إلى أسلوب آخر أنسب لحال الرجل، وهو أسلوب الشرح والتفصيل تلقينًا للرجل بما ينبغى عليه فعله.

- الثانى: أهمية الاطمئنان فى الصلاة، وأنه ركن من أركانها لا تصح إلا به، وهو مذهب المالكية.

وحَدُّ الاطمئنان للأعضاء الظاهرة استقرار الأعضاء فى القيام والسجود والركوع، والتلفظ بالذكر والدعاء المطلوب ـ فى كل حركة من حركات الصلاة ـ نطقًا سليمًا.

وهذا المظهر الخارجى الخاص بالجوارح ينبغى أن يكون معبرًا عن حقيقة وواقع حاصل فى قلب المسلم فى أثناء الصلاة، وهى الطمأنينة؛ حتى لا يكون ذِكْرُه أو صلاته ذكر وصلاة الغافلين.

وسبيل تحصيل الخشوع فى الصلاة يتأتى بإسباغ الوضوء، واستحضار عظمة الله تعالى، والتفكر فى معانى ما يقرأ من الآيات، مع تعظيم الله بالقلب فى الركوع والخشوع التام بالتعظيم والتقديس بالقلب فى السجود.

وعلى العاقل أن يتدبر عظمة الموقف فى أثناء الصلاة، وإذا كان أحدنا يتهيأ للقاء أصحاب القدر والمكانة والمنزلة العالية فى دنيا الناس، ويراعى آداب اللقاء، ويجتهد فى اصطفاء ألفاظ التحية اللائقة بقدر هذا الإنسان صاحب المنزلة الرفيعة، فأولى بالمؤمن أن يستشعر عظمة الله فى قلبه وأن يستحضر جلال هذه اللحظات النورانية التى يخاطب فيها ربه.

بهذا يتأتى للمسلم أن ينال الطمأنينة والخشوع فى صلاته، ويشعر بلذة المناجاة التى هى من حلاوة الإيمان.

كما نتعلم من الموقف ـ أيضًا ـ أن رسول الله ﷺ نصح الرجل فى رِفْق ولين دون تعنيف، وهذا أدب نبوى كريم فى الرفق بالجاهل؛ حتى يتعلم، يقول رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب إستتابة المرتدين والمعاندين، باب إذا عرض الذمى بسب النبى ﷺ ولم يصرح، (٦٥٢٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، (٦٧٦٦).

١٣٠. لا يا أخى يا جبريل !! (*)

لما ذهب النبى ﷺ إلى أهل الطائف؛ ليدعوهم إلى الإسلام طردوه وسلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم، فآذوه حتى دميت قدماه الشريفتان، فشكا النبى ﷺ إلى الله تعالى ضعف قوته، وقلة حيلته، وهوانه على الناس، فنزل عليه جبريل عليه السلام وقال له: يا محمد، لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت. فقال النبى ﷺ: «لا يا أخى يا جبريل، لعل الله أن يخرج من أصلابهم ذرية تُوَحِّد الله».

*****

هذا موقف نبوى كريم يقدم لنا دروسًا نافعة وقيمًا تربوية هادية:

- الدرس الأول: الجدية والمحاولة الدائمة والسعى لتحقيق الهدف؛ فالنبى ﷺ لما جفاه أهل مكة ولم يستجيبوا له لم يقف مكتوف الأيدى أمام صدهم وجفائهم ورفضهم لدين الله تعالى، بل فكَّر ﷺ فى منفذ لهذه الدعوة، فأرسل أصحابه إلى الحبشة؛ لأن بها ملكًا عادلًا.

ومن جانبه ﷺ فقد ذهب إلى الطائف، وبعد الطائف وما حدث له بها، كان لقاؤه بوفود الحجيج وعرضه الإسلام عليهم؛ فكانت بيعة العقبة الصغرى ثم

(*) السيرة النبوية، (٢/ ١٧).

الكبرى، وهكذا لم يهدأ ﷺ، ولم يستسلم أمام عناد الكفار وصدهم له.

بل كانت العقبات التى تصادفه ﷺ تزيده حماسًا وقوة وثباتًا.

وهذا درس قيم للمؤمنين فى حياتهم المعاصرة.

- الدرس الثانى: عدم الانهيار فى أوقات الشدائد، فالمؤمن لا يصاب بإحباط ولا انهيار، ولكن إن لم يوفق فى جولة، فأمامه جولات أخرى، فلينهض، وليراجع نفسه، وليبدأ الإعداد لجولة أخرى يملك فيها أسباب النصر.

- الدرس الثالث: التمييز بين أمرين: بين أمر الدعوة إلى الله تعالى وما ينال الإنسان من إيذاء فى سبيلها، وبين شخص الإنسان وذاته، فسيدنا رسول الله ﷺ لم يكن يغضب لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى. ورأينا فى الموقف أن النبى ﷺ لم ينتصر لنفسه، وإنما عينه وفكره كله نحو المقصد الأعلى الذى يتحرك من أجله ويتحمل الأذى من أجله، وهو نشر الدعوة والتمكين لدين الله تعالى فى الأرض، لا أن تتحول المواجهة إلى مواجهة شخصية يسيطر عليها الهوى وتتسلط عليها نزغات الشيطان كما يحدث فى أحوال كثيرة فى حياتنا المعاصرة.

- الدرس الرابع: النبى ﷺ يعلمنا من خلال هذا الموقف أن نراجع مواقفنا، وأن نعود باللائمة على أنفسنا، مع الاستعانة بالله نشكو إليه حالنا ونستمد منه العون، وهذا ما نستشعره من دعائه الخاشع بعد أن طُرِدَ وأُوذى.

قال ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، أنت أرحم الراحمين، إلى من تَكِلُنى، إلى عدو يتجهمنى، أو إلى قريب ملكته

أمرى؟ إن لم تكن غضبان علىّ فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بى غضبك، أو تَحِلَّ علىَّ سخطك، لك العُقبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الدعاء ص (٣١٥) برقم (١٠٣٦)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢٩٣٣).

١٣١. اجعلوا بيوتكم قبلة(*)

أتى أنصارى لرسول الله ﷺ قائلًا: يا رسول الله، إذا كانت الأمطار وسال الوادى صليت بأهلى بالمنزل، ووددت يا رسول الله أنك تأتينى فتصلى فى بيتى، فأتخذه مُصَلًّى.

فذهب النبى ﷺ إلى بيت الأنصارى، وقال له: «أين تحب أن أصلى من بيتك؟» فأشار الأنصارى إلى ناحية من البيت، فقام النبى ﷺ فيها فقمنا، فصففنا، فصلَّى ركعتين، ثم سلم.

*****

هذا موقف إيمانى يحمل دلالات هادية ودروسًا نافعة:

- الدرس الأول: الحرص على صلاة الجماعة.

فقد رأينا فى الموقف العظيم أن الرجل الأنصارى من حرصه على صلاة الجماعة، إذا عجز عن الصلاة فى المسجد بسبب عذر المطر أو غيره صلى بأهله جماعة فى بيته؛ كى يحظى، ويفوز بفضل صلاة الجماعة، فهى تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة؛ لقول سيدنا رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأطعمة، باب الخزيرة، (٥٠٨٦)، ومسلم فى صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة فى التخلف عن الجماعة بعذر، (١٥٢٨).

الفذِّ بسبع وعشرين درجة»[1].

كما أن صلاة الجماعة من كبريات الوسائل التى تُغفر بها الذنوب وترفع بها الدرجات؛ لقول النبى ﷺ: «صلاة الرجل فى جماعة تُضعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا؛ وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحُطَّتْ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه، اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة»[2].

كما أن صلاة الجماعة حصن يحفظنا من الشيطان؛ لقول النبى ﷺ: «ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب القاصية»[3].

- الدرس الثانى: الحرص على أمر الأهل بالصلاة وإعانتهم على ذلك، فهى وصية الله لنبيه ﷺ، قال الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طـه/ ١٣٢). كما أوصى القرآن أهل الإيمان أن يحرصوا على تعليم أزواجهم أمر الدين، وجعل ذلك فى مقدمة واجبات الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، (٦١٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد فى التخلف عنها، (١٥٠٩).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، (٦٢٠).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الأنصار، باقى حديث أبى الدرداء ، (٢١٧٥٨)، وأبو داود فى سننه، كتاب الصلاة، باب فى التشديد فى ترك الجماعة، (٥٤٧)، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود (٥١١).

﴿أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ (التحريم/ ٦).

قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصَلَّت، فإن أَبَتْ نَضَحَ فى وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت فى وجهه الماء»[1].

- الدرس الثالث: الحِرْصُ على عمارة البيوت بالذكر والصلاة، وقد رغَّب النبى ﷺ فى عمارة البيوت بذكر الله، قال ﷺ: «مثل البيت الذى يُذكر الله فيه، والبيت الذى لا يُذكر الله فيه مثل الحى والميت»[2].

كما رغب النبى ﷺ فى عمارة البيوت بالصلاة وبخاصة النوافل دون المكتوبات، فصلاة المكتوبات بالمساجد أفضل، لقوله ﷺ: «فصلوا أيها الناس فى بيوتكم؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة»[3].

وقوله ﷺ: «اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا»[4].

ويبين النبى ﷺ أن الله يجعل الخير والبركة فى البيت بسبب الصلاة فيه، قال

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﷺ، (٧٤٠٤)، وأبو داود فى سننه، كتاب التطوع، باب قيام الليل، (١٣١٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد، (١٨٥٩).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب صلاة الليل، (٦٩٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد، (١٨٦١).

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه، أبواب المساجد، باب كراهية الصلاة فى المقابر، (٤٢٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته، (١٨٥٦).

ﷺ: «إذا قضى أحدكم الصلاة فى مسجده فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته، فإن الله جاعلٌ فى بيته من صلاته خيرًا»[1].

- الدرس الرابع: حرص النبى ﷺ على أمته ورأفته بها؛ فقد جبر خاطر الأنصارى، وذهب معه كى يعينه على الطاعة، ومدح الله نبيه ﷺ وبَيَّن هذه النعمة للأمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد، (١٨٥٨).

١٣٢. أبو طلحة يرجو ما عند الله (*)

كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس فلما أُنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۝٩٢﴾ (آل عمران)، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۝٩٢﴾ (آل عمران)، وإن أحب أموالى إلى بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فَضَعْها يا رسولَ الله حيثُ أَراكَ الله.

*****

هذا موقف إيمانى يحمل دروسًا إيمانية تقربنا إلى الله تعالى:

- الأول: فِقْهُ الأولويات، فالمؤمن يراعى ترتيب الأعمال مُقَدِّمًا الأَوْلى فالأَوْلى، والصلاة عبادة عَظَّم الله شأنها، وجعل لها المقدمة بين أعمال الخير، قال

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب الزكاة على الأقارب، (٢/ ٥٣٠)، (١٣٩٢).

النبى ﷺ: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»[1].

وأوصى النبى ﷺ أهل الإيمان بالتبكير فى أداء الصلاة، فالصلاة فى أول الوقت تستجلب رضوان الله تعالى، وقد مدح الله المؤمنين الذين يحافظون على صلاتهم؛ فقال تعالى فى سياق وصف المؤمنين الفالحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (المؤمنون).

ولقد حَذَّر النبى ﷺ من الانشغال عن الصلاة مهما كانت دواعى الانشغال.

• الدرس الثانى: تعظيم شعائر الله تعالى، وهذا شأن المؤمن مع أوامر الله تعالى؛ فلقد مدح الله هذه الفضيلة فى أهل الإيمان، وجعلها علامة على صحة القلب وصدق إيمانه، قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحج)؛ لذا نرى من أهل الإيمان الفورية والمسارعة فى شأن العبادات استجابة لأمر الله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحديد).

• الدرس الثالث: شعور المؤمن بالتقصير يحمله على تصحيح الأخطاء، وفى الحديث: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، من حديث ثوبان ﷺ، (٢٢٤٣٢)، وابن ماجه فى سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء، (٢٧٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٩٧).

الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مر على أنفه»[1].

ورأينا ـ فى الموقف ـ أبا طلحة يبكى لما أخذه النسيان بسبب الانشغال بِفِلاحة الحديقة حتى غروب الشمس، ولم يَكْفِه البكاءُ بل لامَ نفسه قائلا: لقد هلك أبو طلحة. وهذا أدب كريم مع النفس، تربَّى الصحابة عليه فى حجر النبوة.

• الدرس الرابع: إتْباع السيئات بالحسنات؛ فقد جعل أبو طلحة الحديقة التى شغلته عن صلاة العصر فى أول وقتها صدقة لله تعالى؛ حرصًا على مرضاته سبحانه وعملا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (هود)، وقول النبى ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها»[2].

وهكذا يكون حال المؤمن يقظًا حذرًا من الزلات والهفوات والذنوب والآثام، حريصًا على فعل الخيرات، وعلى مرضاة الله تعالى، كما يبادر بالحسنات لتكون كفارة للسيئات.

• الدرس الخامس: مرجعية السنة النبوية كمعيار إيمانى للمسلم، فأبو طلحة قد عرض عمله على النبى ﷺ، وأقره النبى عليه، والنبى ﷺ فينا بسنته، وربنا تبارك وتعالى قال فى قرآنه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (النساء/ ٦٥).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الدعوات، باب التوبة، (٥٩٤٩).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبى بن كعب ﷺ، (٢١٣٩٢)، والترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب معاشرة الناس، (١٩٨٧)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٧).

١٣٣. ما على هذا اتبعتك ! (*)

لمـا عاد النبى ﷺ ومعه المسلمون من إحدى الغـزوات بنـصر الله تعالى أخذ النبى ﷺ فى توزيع الغنائم على أصحابه، حتـى جـاء الدور عـلى أحـدهم فغـضب واحْمـرَّ وجهـه ولم يأخـذ شـيئًا مـن الغنائم، وقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله: ما على هـذا اتبعتـك! لكنى اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا بسهم ـ وأشار بيـده إلى حلقـه ـ فـأموت فأدخـل الجنـة. فقـال رسـول الله ﷺ: «إن تـصدق الله يصدقك».

*****

هذا موقف إيمانى عظيم فى تعظيم أمر الدين والتضحية من أجل مرضاة الله تعالى، فهذا رجل خرج مع النبى ﷺ فى أول غزوة خرجها بعـد إسـلامه، وانتـصر المسلمون وعادوا بالغنائم، ولما هَمَّ النبى بتقسيمها، وجاء دور الرجـل ودعـاه ﷺ ليعطيه نصيبه؛ احمرَّ وجه الرجل، وقال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله ما عـلى هـذا اتبعتك، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى ها هنا بسهم؛ كـى أنـال الـشهادة، وأدخـل

(*) أخرجه النسائى فى سننه، كتاب الجنائز، باب الـصلاة عـلى الـشهداء، (١٩٥٣)، وصـححه الألبـانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٣٣٦).

الجنة»، فقال النبى ﷺ: «إن تصدق الله يصدقك».

وفى الغزوة التالية خرج الرجل مجاهدًا مع رسول الله ﷺ، وبعد انتهاء الغزوة، وجد الصحابة ومعهم رسول الله ﷺ الرجل قد استشهد وقد أصابه السهم فى الموضع الذى أشار إليه عند عنقه؛ فقال النبى ﷺ: «صَدَق الله، فصدقه الله تعالى».

إن الصدق قيمة عالية، تسمو بالمؤمن إلى الدرجات العُلا من رضوان الله تعالى، وأفضل الصدق وأعلاه ما كان مع الله تعالى. ولقد جعل الله الصدق فى قمة الفضائل التى أوصانا بها فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ﴿١١٩﴾﴾ (التوبة)، وقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب).

ووضح لنا النبى ﷺ أن الصدق باب من أبواب الخير والبر الذى ينتهى بالعبد إلى الجنة، قال ﷺ: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدِّيقًا وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإ ن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، (٥٧٤٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، (٦٨٠٣).

١٣٤. أرانى لم يرقَّ قلبى (*)

ذات يوم استمع الحسن البصرى رضي الله عنه إلى رجل يعظ الناس، وبعدما انتهى من موعظته وانصرف الناس، أقبل الحسن البصرى إلى الرجل الواعظ، وقال له ـ فى السرّ ـ: أرانى لم يرقَّ قلبى، ولم تصل موعظتك إلىّ، فإما بقلبى شىء أو بقلبك، فانصرف الرجل باكيًا.

*****

هذا موقف تشتد الحاجة إلى معانيه الهادية فى واقعنا المعاصر، إنَّ أحدنا إذا أصابه تعب أو إعياء، فأحس معه بأعراض أى مرض فى جسمه، أسرع إلى الطبيب على الفور؛ حفاظًا على صحته، وهذا أمر طَبَعِى. ولكن من غير المعقول أن يرى أحدنا الأعراض الواضحة لمرض القلب من القسوة وعدم الخشية والوجل، ولايهتم؛ ذلك لأن مرض القلب أخطر من مرض الجسد؛ وما ذلك إلا لأن القلوب محل نظر الله تعالى؛ لما رواه مسلم فى صحيحه من قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١].

(*) الرسالة القشيرية، ص ٢١١.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، (٦٧٠٨).

وهذا الموقف ينبهنا إلى وجوب الاهتمام بصحة القلب، أى بأحوال الإيمان فيه، ومؤشرات صحة القلب يبينها القرآن فى هديه الحكيم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الأنفال)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون)، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج/ ٣٥)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحديد/ ١٦).

ويقول النبى ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[(١)].

فإذا فارق القلب الخشوع والوجل أثناء الذكر، وأصيبت العين بالجمود، فتلك أمارات المرض، فلا يتحرك القلب لذِكْر ولا طاعة، قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر/ ٢٢)، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة/ ٧٤).

كما وصف الله فى القرآن القلوب المريضة بالعمى؛ أى أنها لا تدرك النور ولا تنتفع بالهدى، فحال القلب المريض أخطر من حال العين التى أصابها العمى، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج).

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٥٠)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٣٣٥).

إن أثر الذنوب على القلوب خطير، قال النبى ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب؛ صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الران الذى ذكر الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين)[1].

على المؤمن أن يكون بصيرًا بأحوال قلبه كما رأينا فى الموقف من الحسن البصرى حين استمع للواعظ فلم يرقَّ قلبه، ولا تأثرت مشاعره، ولم تصل موعظة الواعظ إليه، فقال للرجل الواعظ: إما بقلبى شىء أو بقلبك.

وهنا درس جديد وفقه نافع؛ حيث تشير العبارة فى شقها الأول إلى أن مرض قلب المستمع يمنعه من الإفادة من المواعظ التى يستمع إليها، فمرض القلب حجاب خطير عند المستمع.

والشق الثانى من كلمة الحسن البصرى قوله: أو بقلبك، أى بقلبك شىء أفقد كلامك التأثير، فما من كلام يخرج من إنسان إلا وعليه حُلَّة من قلب قائله، وكم من كلمات تموت على ألسنة تحترف الكلام ولا تعمل به! قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (الفتح/ ١١)، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف/ ١٧٩).

فالمعاصى حجاب عند المتحدث أيضًا، وكم من كلمات بسيطة تحيا، وتؤثر تأثيرًا عظيمًا فى المستمع حين تخرج من قلب محب لها مهتم بها يعمل بها! ولذلك

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المطففين، (٣٣٣٤)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٦٢٠).

نرى أن كثيرًا من العلماء الصالحين يكثرون من قيام الليل وذِكْرِ الله تعالى، ويحرصون على فعل الخيرات، ولا يتقدمون لحديث أو موعظة إلا مِنْ بعد أن يكونوا من أهل العمل بها، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر/ ٢٣).

وهذه موعظة من الحسن البصرى تجعلنا نراجع أنفسنا حين يلقى كل منا باللائمة على الآخر؛ المستمع يلقى باللائمة على الخطيب، والخطيب يلقى باللائمة على الجمهور، فما أحوجنا لموعظة الحسن البصرى: إما بقلبك شىء أو بقلبى!

وسبيل صلاح القلوب يبدأ بصدق التوبة إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم/ ٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التغابن/ ١١)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد).

وكذلك الاستعانة بالله تعالى والتفرغ إليه سبيل عظيم لعلاج القلوب؛ فالله سبحانه وتعالى صاحب الفضل العظيم فى صلاح القلوب، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات/ ٧).

كما أن طُهر القلب من أمراض الحقد والغل والحسد والكراهية ونحو ذلك طريق للفوز بالجنة، فالرجل الذى بشره النبى ﷺ بالجنة لما دخل عليه والصحابه حوله، كان بسبب طُهر قلبه من الحقد والحسد.

١٣٥. كيـف تفتـح القلـوب ؟ (*)

بينما كان مصعب بن عمير ﷺ ضـيفًا عنـد أسـعد بـن زرارة بالمدينة المنـورة للـدعوة إلى الإسـلام، إذ أقبـل أُسـيد بـن حـضير غاضبًا؛ وقال لمصعب: إن كنت باقيًـا عـلى حياتـك فـاخرج مـن بلادنا.

فقال له مصعب: يا سَيِّدَ قومـه، اجلـس فاسـمع منـى، فـإن رضيتَ قولى قَبلْتَه، وإلا أجبتـك لمـا تريـد. فجلـس أُسـيد، فقـرأ مصعب ﷺ عليه بعض آيات القرآن، فرقَّ قلب أُسُـيَد، وأسـلم، ثم أسلم قومه بإسلامه.

*****

هذا موقف عظيم تشتد الحاجة إليه فى واقعنا المعاصر؛ حيث يعلمنا الموقف درسًا تربويًا عظيمًا فى الدعوة الناجحة إلى الله تعالى.

يعلمنا الموقف كيف تُفتح العقول بالقرآن، وكيف تكون حكمـة المواجهـة، وكيف يكون ذكاء الداعية، وكيف يكون خُلُقُه.

- وأول درس فى الموقـف: هـو سـعة صـدر سـيدنا مـصعب ﷺ، فأمـام

(*) راجع: سيرة ابن هشام، (١/ ٤٣٥).

الغضب الشديد والتهديد والوعيد من أُسيد بن حضير لم يَتَخَلَّ مصعب عن دماثة الخلق وبسمة الوجه وطيب الكلام، وأجاب فى هدوء الإيمان، وثبات المتوكل على الله، وحكمة العاقل فى الدعوة إلى الله تعالى؛ حيث قال لأسيد: يا سيد قومه، اجلس واسمع: فإن رضيت قولى قبلته، وإلا أجبتك إلى ما تريد، فجلس أُسيد، فقرأ مصعب عليه شيئًا من القرآن؛ فرقَّ قلب أُسيد، واهتدى عقله إلى الحق؛ فأسلم، ثم أسلم قومه لإسلامه.

وهكذا يكون أثر الخلق الطيب والدفع بالتى هى أحسن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت).

• والدرس الثانى فى الموقف: هو أنه عَلَّمنا كيف تُفتح العقول الجامدة والقلوب القاسية.

إنه يقف بنا على سر نجاح الخطاب الدينى الإسلامى فى بواكير الدعوة، وكيف اهتز معسكر الشرك والكفر رغم امتلاكه أدوات السيطرة والهيمنة؟! وكيف فتحت المدينة المنورة دون سيف ولا قتال؟!

إنه يضع أيدينا على أهم أسباب نجاح الداعية، وأهم وسائل الخطاب المؤثر، إنه القرآن الكريم.

لقد قرأ مصعب بعض آيات القرآن على أُسيد فأثَّرت فى قلبه وعقله، وهكذا فُتحت المدينة بالقرآن، لقد تعلم مصعب كيف يفتح القلوب والعقول بالقرآن من رسول الله ﷺ.

فحين جاء أبو الوليد (عتبة بن ربيعة) إلى رسول الله ﷺ ليفاوضه فى أمر الدين بعد أن اهتز معسكر الشرك بإسلام حمزة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما وعجزت قريش عن القضاء على الدعوة وصاحبها ﷺ بالحصار الاقتصادى، أو بالتصفية الجسدية قتلا وتعذيبًا، أو بالسخرية والاستهزاء.

جاء أبو الوليد بعد أن حاروا فى أمر هذا النبى ودعوته، وقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرْتَ من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك أن تقبل منا بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع»، قال: يا ابن أخى، إن كنت تريد بما جئت به شرفًا شرفَّناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا من الجن تراه، ولا تستطيع أن ترده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه. أو لعل هذا الذى يأتى به شعرًا جاش به صدرك، فإنكم لعمرى يا بنى عبد المطلب تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد حتى إذا فرغ عنه ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال رسول الله ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟».

قال: نعم. قال: «فاسمع منى». قال: أفعل. فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا

عَرَبِيًّا﴾ فمضى رسول الله ﷺ فقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى بيده خلف ظهره معتمدًا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ للسجدة فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

فقال: ورائى أنى والله قد سمعت قولًا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها فىَّ: خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فإن يصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال هذا رأى لكم فاصنعوا ما بدا لكم(١).

أيضًا كانت الوفود التى تأتى إلى النبى ﷺ فى المدينة فيشير إلى أُبىٍّ بن كعب أن يقرأ عليهم القرآن.

وعمر بن الخطاب بشدته وقسوته وقوته وعناده قَبْلَ الإسلام.. لما ذهب إلى دار أخته غاضبًا معاقبًا لها ولزوجها على إسلامهما؛ لما قرأ القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه). فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ (طه)،

(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٣٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وحسنه الألبانى فى فقه السيرة، ص (١٠٦).

قال: دلونى على هذا النبى، إنه القرآن الكريم فيه سر الهداية، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء/ ٩).

وفيه شفاء العقول بما لا يملك من وسائل الإقناع والحوار ومقارعة الحجة بالحجة، وهو شفاء للنفوس بما لا يملك أمر تزكيتها وأمر صلاحها.

فبالقرآن حوَّل النبى ﷺ مجتمع البداوة والقبلية والضلال إلى مجتمع هداية وخير وفلاح للدنيا كلها، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران/ ١٦٤).

وهكذا تصنع الكلمات الإلهية فى العقول والقلوب والنفوس؛ ولذلك قال ابن كثير وابن عباس فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ٥٢﴾ (الفرقان).

أى: جاهدهم بالقرآن الكريم.

يبقى أن نسأل أنفسنا: لماذا كان للقرآن على ألسنتهم هذا الأثر الخطير فى القلوب والعقول، ولا يكون للقرآن معنى هذا الأثر؟

وتأتى الإجابة حقيقة واضحة يؤكدها القرآن نفسه؛ حيث تؤكد الآيات أن بركة القرآن لمن يعمل به، قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ٨٢﴾ (الإسراء).

فالذى ينتفع بالقرآن هو الذى يعمل بالقرآن ابتغاء مرضاة الله تعالى.

فهذا هو القرآن، فأين منه المسلمون؟! أين المسلمون من تعظيم كتاب الله تعالى بتعظيم أوامره والحذر من إتيان نواهيه؟! أين المسلمون من العمل بتعاليم القرآن فى شتى شئون حياتهم؟!

أم أننا نستمع إلى القرآن نغمًا نطرب له دون أن نعتبر.

إن القرآن هو روح الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى/ ٥٢). والقرآن سر حياة المسلمين، قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾(الأنعام/ ١٢٢)، وقوله ـ أيضًا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال/ ٢٤).

والقرآن نور البصائر والأبصار، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى).

هذا هو القرآن، فأين منه المسلمون؟!

أفمسلمونَ وأمَّةٌ شَلَّاءُ لا مَيِّتُونَ ولا هُمُ أحياءُ!!

يَهِنُون والإسلامُ أَشْرَف منزلٍ ومُحمَّدٌ مما أتَوْهُ بَرَاءُ!!

نعم أصبح المسلمون كما وصفهم النبى ﷺ: «غثاء كغثاء السيل»[1].

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، من حديث ثوبان ﷺ، (٢٢٤٥٠)، وأبو داود فى سننه، كتاب الملاحم، باب فى تداعى الأمم على الإسلام، (٤٢٩٩)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

وما لم يتحول المسلمون عن مقاطعتهم وهجرهم للقرآن، وما لم يستمسكوا بكتاب ربهم، وما لم يستجيبوا لهديه، فلن يزدادوا إلا هوانًا ومَذَلَّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد/ ١١).

فكفانا تبعية للغرب أو للشرق، كفانا تبعية للآخر، لأفكار البشر بما تحمله من أخطاء فادحة فى حق أمتنا وإسلامنا، ولنصحح وجهتنا إلى القرآن، بما فيه من قيم حضارية للمسلمين وللإنسانية كلها، وبما فيه من آفاق علمية تدفع الأمة إلى أن تأخذ مكانها فى المقدمة بين الأمم.

عودًا حميدًا للقرآن الكريم؛ كى تتحقق الخيرية التى زكَّى الله بها هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران/ ١١٠).

نسأل الله تعالى أن يردنا إلى القرآن ردًّا جميلًا.. والله المستعان

١٣٦. من بركة التسبيح (*)

عن على رضي الله عنه أن فاطمة رضى الله عنها شَكَتْ ما تَلْقَى فى يـدها من الرحى؛ فأتت النبى ﷺ تسأله خادمًا، فلم تجده، فذكرت ذلـك لعائشة، فلما جاء ﷺ أخبرته. قال: فجاءنا وقـد أخـذنا مـضاجعنا فذهبتُ أقوم، فقال: (مكانك). فجلس ﷺ بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى. فقال ﷺ: (ألا أدلكما على ما هو خير لكما مـن الخادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما أو أخذتما مـضاجعكما فكـبرا ثلاثـا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثـين، فهـذا خـير لكما من خادم).

*****

نحن أمام بيت تعمره زوجة أرهقها العمل، وزوج له ظروفـه الاقتـصادية، لكنَّ قلبه مملوء بهموم كبار فى سبيل الله.

هذه بنت رسول الله ﷺ، وهذه حياتها فى دنيا الناس. لقـد أحـست مـن أول يوم دخلت فيه بيت الزوجية بظروف زوجها الذى لم يجد مهرًا لها سوى درع عنده يستخدمها فى الحرب، ولا يستطيع أن يستأجر لها من يقوم بـالأعمال الـشاقة مـن

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الدعوات، باب التكبير والتسبيح عند المنام، (٥٩٥٩).

إدارة الرحى ونحو ذلك فى بيته، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيـت، ورضى الله عنكم.

وبعد عودة النبى ﷺ منتصرًا من إحدى غزواته بغنائم وسبايا، دخل الإمـام علىّ بيته فرأى زوجته فاطمة متعبة من مشقة إدارة الرحى، فأشـفق عليهـا، وقـال لها: «اذهبى لرسول الله ﷺ فالتمسى منه خادمًا يعنيك».

وذهبت رضى الله عنها على استحياء، فلـما رآهـا رسـول الله ﷺ فـرح بهـا، وسألها: «ما جاء بك يا بنية؟» فمنعها الحياء أن تُصرِّح بما جاءت من أجله، قالـت «جئت لأسأل عنك»، وانصرفت.

وكانت السيدة فاطمة رضى الله عنها كـما يـصفها الـرواة صـغيرة الجـسم، نحيلة العود، رقيقة الإحساس، مرهفة الشعور.

ولما تكررت رؤية الإمام علىّ رضي الله عنه للمشقة التى تظهر على السيدة فاطمة رضى الله عنها والتعب الذى تعانيه من إدارة الرحى وحمل القربة، اصطحبها إلى رسـول الله ﷺ، وتولى الحديث عنها، فقال: يا رسول الله، أدارت فاطمة الرحى حتى أثَّرت فى يدها، وحملت القربة حتى أثَّرت فى نحرها، فلما جاءك الخدم بعد الغزوة أمرتهـا أن تأتيك فتعطيها خادمًا.

يا له من موقف! إن الأمر يتعلق بفاطمـة رضى الله عنهـا أقـرب النـاس إلى أبيها رسول الله ﷺ، إنها قطعة منه.

وقد كان بوسع رسول الله ﷺ أن يبدى تلميحًـا يـسيرًا لواحـد مـن أغنيـاء المسلمين بحاجة فاطمة، فيذهب إلى بيتها الخدم والعمال.

ألم يكن بوسع رسول الله ﷺ أن يجعل لها شيئًا من الغنائم؟!

لكن الرسول ﷺ يعلمنا أن من تولى أمانة أمر ما عليه أن يؤدى الأمانة، وألا تهتز العدالة بين يديه تبعًا لعواطفه ومشاعره لأهله وأبنائه وقرابته؛ لذلك قال النبى ﷺ لعلىّ وفاطمة رضى الله عنهما: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصُفَّة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكنى أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا»(١).

وانصرف الإمام علىّ ومعه السيدة فاطمة، رضى الله عنهما.

وكأنى بك يا رسول الله تمضى ابنتك.. وهى قطعة منك، والقلب ينسحب معها انسحابًا، لكن أمر الله أغلى وأعلى؛ أغلى من الولد، وأعلى من كل شىء.

وفى المساء ذهب الحبيب المصطفى ﷺ إلى منزل الحبيبين الإمام علىّ والسيدة فاطمة رضى الله عنهما يردهما إلى الله تعالى؛ لنتعلم أن ما نعجز عن تحقيقه من آمال أو طموحات لأولادنا، علينا أن نوجه أولادنا إلى أن يرفعوه إلى الله تعالى، وأن يستعينوا بالله.. إن الله على كل شىء قدير.

فقال النبى ﷺ لهما: «عليكما بكلمات عَلَّمَنيهنَّ جبريل ؈: إذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين، وتكبران ثلاثًا وثلاثين».

فكانت القوة والعافية والبركة من ثمرات الاستجابة لنصح رسول الله ﷺ ووصيته.

وفى هذا درس قيم فى ثمرة اتباع هدى رسول الله ﷺ عن إيمان وحُبٍّ لأن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند على بن أبى طالب ؓ، (٨٣٨)، وحسن إسناده الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى.

فينبغى التأسِّى بالمفلحين، بأهل بيت النبى ﷺ وصحابته الكرام ﷺ فى اتباع رسول الله ﷺ دون تردد أو مراجعة؛ لنفوز بما فازوا به من توفيق الله تعالى وعنايته فى الدنيا، وبالجنة والرضوان فى الآخرة.

وهكذا يتأكد لكل مؤمن من هذا الموقف أن بركة السنة النبوية لمن يعمل بها.

رضى الله عن آل بيت رسول الله ﷺ، وأدَّبَنا الله بأدبهم وخلَّقنا بأخلاقهم،

والحمد لله رب العالمين

١٣٧. أمين حق أمين (*)

لما ذهب عمر بن الخطاب ﵁ إلى الشام، صحبه أبو عبيدة بن الجراح ﵁ إلى بيته، فلم يرَ عمر من الأثاث شيئًا، لم يجد إلا سيفه وترسه ورَحْلَه. فسأل عمر بن الخطاب أبا عبيدة: هلا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس؟! فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المقيل.

*****

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين آمنوا به واتبعوه، واتبعوا النور الذى أنزل معه.

أيُّ رجال هؤلاء؟! إنه الإيمان الذى يصنع بالنفوس المعجزات، إنه القرآن الذى يربى رجالا على الفضائل والمكارم، إنه النبى محمد ﷺ الذى كان أسوة لأصحابه فى كل أحواله.

لذلك هانت ملذات الدنيا فى نظرهم، فحَسْبهم أنهم عظَّموا ما عَظَّم الله، وهذا شأن المؤمن، يُعظم ما عظم الله، ويحقر ما حقره سبحانه.

إن حب مرضاة الله ملأت قلوبهم؛ فكانت أفعالهم كأفعال حبيبهم المصطفى ﷺ كلها لمرضاة الله رب العالمين.

(*) رجال حول الرسول، صـ ٢٦٤.

لذلك نرى أبا عبيدة حين رأى بعض أهل الشام قد فُتنوا بقوته وعظمته وأمانته، خاطبهم فى تواضع جم قائلًا لهم: «يا أيها الناس: إنى مسلم من قريش، ما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى فى إهابه».

هذا حال أمين هذه الأمة سيدنا أبى عبيدة بن الجراح الذى أثنى عليه النبى ﷺ بقوله: «إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(١).

ويخبرنا الموقف أن هذه القمة الإيمانية كان بيته بلا أثاث فاخر، وكان بوسعه أن يتخذ أعظم المتاع، وأفخر الأثاث!

هذه حال واحد من العشرة المبشرين بالجنة، بيته من البساطة بهذه الدرجة، وإلى الحد الذى لا يوجد فيه إلا الضروريات فقط.

نعم، لقد علموا أن الذى يجعل المقدمة للمؤمن عند الله تعالى ليس الأثاث الفاخر، ولا ممتلكات الدنيا، ولا الأموال الكثيرة، إن الذى يجعل المقدمة للعبد عند الله سبحانه، ويجعل العبد كريمًا على الله تعالى هو الإيمان والعمل الصالح.

أما القيم الاستهلاكية التى تجعل الإنسان فى صفوف المستهلكين للحضارة لا المنتجين لها، والتى تجعل الإنسان عبئًا على مجتمعه ـ فإنها تؤخر ولا تقدم ـ فرضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ.

لأجل كل هذه المعانى تَمَنَّى عمر ﷺ؛ فقال: لو كنت متمنيًا ما تمنيت إلا بيتًا مملوءًا برجال من أمثال أبى عبيدة بن الجراح ﷺ.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبى عبيدة بن الجراح ﷺ، (٣٥٣٤)، ومسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبى عبيدة بن الجراح ﷺ، (٦٤٠٥).

ومن عبر الموقف: جواب سيدنا أبى عبيدة ﷺ على سيدنا عمر ﷺ لما سأله: ألا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس؟!

فأجاب ﷺ: هذا يبلغنى المَقيل!

وفى هذا درس لنا؛ لكى نأخذ من المتاع والأثاث والفراش بقدر حاجتنا دون إسراف ولا تبذير، نأخذ منها بقدر بقائنا فى الدنيا، إنها لقدرٌ قليل يفنى سريعًا، والآخرة خير وأبقى.

وكان هذا شأن كثير من صحابة رسول الله ﷺ إذا دخل عليهم بعض الناس، فسألوهم: أين أثاث البيت؟ وأين الفراش؟ قالوا: أرسلنا كل ذلك إلى هناك.. فإن لنا بيتًا آخر.

يقصدون بيوتهم فى الجنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

١٣٨. إن الله أمرنى أن أقرأ عليك !! (*)

حدَّثنا محمد بن المثنَّى وابن بَشَّارٍ قالا: حدَّثنا محمد بن جعفرٍ حدثنا شُعْبَة قال: سمعتُ قَتَادَة يُحدِّث عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ لأُبَىِّ بن كعبٍ: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك (لم يكن الذين كفروا)».

قال: وسمَّانى. قال: «نعم». قال: فبكى.

*****

يؤكد هذا الموقف النورانى جملة من الحقائق الهادية:

- أولاها: أن الله يرفع بالقرآن الكريم من استجاب لهديه وأخلص له؛ فسيدنا أبىّ رضي الله عنه تعاهد القرآن وتدارسه فى سفره وفى حضره، فى ليله ونهاره، يقرأ ويحفظ، ويفهم ويتفقه، يكتب الوحى كما أُنزل على رسول الله ﷺ، ويرتل القرآن؛ ليحاكى نُطق رسول الله ﷺ كما أُنزل عليه. فإذا جاءت الوفود أجلسها النبى ﷺ مع سيدنا أُبىّ؛ لتستمع منه إلى القرآن، وليشرح لهم ويعلمهم.

فإذا غاب النبى ﷺ فى سفر عن المدينة أمر أُبىّ بن كعب رضي الله عنه أن يؤم الناس،

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البينة، (٤٦٧٧)، ومسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبى بن كعب وجماعة من الأنصار، (٦٤٩٧)، واللفظ لمسلم.

وزكاه النبى ﷺ فقال: «أَقْرَؤهم لكتاب الله أُبىّ بن كعب»[1].

وزكاه عمر بن الخطاب ﷺ بقوله: هذا سيد المسلمين أُبىّ بن كعب[2].

وهكذا نال سيدنا أُبىّ الدرجات العالية والمنازل الرفيعة.

وفى هذا أسوة وقدوة للمسلمين، أن يجعلوا القرآن الكريم إمامهم فى شتى نواحى حياتهم، إذا أرادوا أن يرفع الله ذكرهم، وأن يحقق لهم مجدهم، وأن يتولاهم ويرضى عنهم.

- ثانيتها: هذا الأدب الجم من سيدنا أُبىّ بن كعب بين يدى رسول الله ﷺ؛ فقد بكى أمام هذه المكرمة الغالية التى أكرمه الله بها، فألزم نفسه التواضع أمام رسول الله ﷺ.

- ثالثتها: أن الآيات التى قرأها النبى ﷺ من سورة البينة جاءت تثبيتًا لقلب سيدنا أُبىّ؛ حيث اشتملت السورة الكريمة على توبيخ أهل الكتاب والمشركين؛ لإصرارهم على ضلالهم بعد أن تبين لهم الحق، والتعجب من تناقض أحوالهم، وبيان أن كفرهم لم يكن بسبب جهلهم، وإنما كان بسبب جُحودهم وعنادهم، وحسدهم للنبى ﷺ على ما أتاه الله من فضله، ثم بيّن الله حُكمه فيهم أنهم شرُّ البرية.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، (١٢٩٢٧)، والترمذى فى سننه، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأُبّى ﷺ، (٣٧٩١)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٥).

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٣/ ٤٩٩).

وفى مقابل ذلك مدح الله تعالى المؤمنين أنهم خير البرية، وفى هذا إشارة إلى أن سيدنا أُبىّ مقصودٌ بهذه المعانى العالية، وإنه من أهل هذه البشريات القرآنية، وأنه من خير البرية، وأنه من أهل الرضا، الذين قال الله تعالى فى شأنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (البينة).

وهكذا حمل ختام الآيات البشرى ـ له ولكل المؤمنين ـ بما أعد الله لهم من الرضوان والفوز بجنات عدن.

فهنيئًا لك يا أبا المنذر، يا من بلغْتَ هذه المنزلة العالية من قلب رسول الله ﷺ، ونلت هذه الدرجة الرفيعة عند الله تعالى، فأمر الله نبيه أن يعرض عليك القرآن، وذُكرْتَ هنالك فى الملأ الأعلى باسمك ونسبك، رضوان الله عليك وعلى صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

والله المستعان

١٣٩. غسيل الملائكة (*)

عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد: «إن صاحبكم تُغَسِّلُهُ الملائكة ـ يعنى حنظلة ـ فاسألوا أهله ما شأنه، فَسُئلت صاحبته، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهائعة (صيحة النداء للجهاد)، فقال رسول الله ﷺ لذلك غسلته الملائكة».

*****

هذا موقف عظيم يفيض بالدلالات الهادية والقيم التربوية النافعة.

- الدلالة الأولى: المسارعة لنداء الجهاد دون تثاقل أو تباطؤ، وهذا ما صنعه القرآن فى صحابة رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ (المؤمنون).

وأيضًا تقديم أمر الله، والجهاد فى سبيله على ما جُبلت النفوس على حبه من

(*) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب حنظلة بن عبد الله ﷺ، (٤٩١٧)، والبيهقى فى سننه، كتاب الجنائز، باب الجنب يستشهد فى المعركة، (٦٦٠٦)، وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (٧١٣).

متعة الأهل، فهذه درجة إيمانية عالية.

وفى الحديث: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقذفَ فى النار»(١).

ونتعلم من هنا أن نجعل أمر الله تعالى فى المقدمة، فأوامر الله غالية، وهذا شأن المقربين الأبرار.

وكان الجزاء موفورًا، فمع نيل منزلة الشهادة، نال سيدنا حنظلة ﷺ شرف تولى الملائكة غُسْله، وأخبر بذلك النبى ﷺ. وبمثل هذه التضحيات وهذه المسارعة تبنى الأمم ويرتفع شأنها.

- الدلالة الثانية: حكمة رسول الله ﷺ فى الاستفادة من المواقف الإيمانية لتعليم أصحابه ولفت أنظارهم إلى مواطن الموعظة والعبرة من المواقف الإيمانية المختلفة.

وفى الموقف أخبر النبى ﷺ الصحابة عن المنزلة السامية التى وصل إليها حنظلة بإخلاصه وحبه لأمر ربه، حتى تولت الملائكة غُسْله، ووجههم إلى أن يسألوا أهله؛ كى يعلموا العمل الذى وصل به إلى هذه المنزلة، وهذا من عظيم حكمته ﷺ فى تربية أصحابه، وفى هذا أسوة وقدوة للدعاة والمصلحين والمربين أن يتخذوا من مواقف الحياة الحية مادة لاستخلاص العظات والعبر وإرشاد الناس

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١٦) ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (١٧٤)

وهدايتهم من خلالها.

- الدلالة الثالثة: أن رسول الله ﷺ يُعلم أصحابه من الواقع العملى، وفى أرض الميدان كيف يعيش المؤمن هذا الدين، وكيف يحيا بالإسلام، إنه ﷺ يفتح أعينهم على المستقبل العظيم الذى ينتظرهم عند الله تعالى، ويلفت انتباههم إلى ما عند الله من المنازل العالية والدرجات الرفيعة؛ مما يدفع الصحابة لمزيد من التضحية والفداء من أجل إقامة دين الله تعالى.

١٤٠. عـلامَ نـرضى الدَّنيَّـة فى ديننـا ؟ (*)

عن أبى وائل، قال: قام سَهل بن حُنَيفٍ يوم صِـفِّينَ، فقـال: أيها النـاس: اتهمـوا أنفـسكم، لقـد كنـا مـع رسـول الله ﷺ يـوم الحديبية ولو نرى قتالًا لقاتلنا، وذلك فى الصلح الـذى كـان بـين رسول الله ﷺ وبـين المـشركين، فجـاء عمـر بـن الخطـاب، فـأتى رسول الله ﷺ، فقـال يـا رسـول الله: ألـسنا عـلى حـقٍّ وهـم عـلى باطل؟! قال ﷺ: «بلى». قـال: ألـيس قتلانـا فى الجنـة وقـتلاهم فى النار؟! قال ﷺ: «بلى».

قال فَفِيمَ نُعْطِى الدَّنيَّة فى ديننا، ونرجـع ولمـا يحكـم الله بيننـا وبينهم؟ فقال النبى ﷺ: «يا ابـن الخطـاب إنـى رسـول الله، ولـن يُضَيِّعنى الله أبدًا». قال: فانطلق عمر. فلم يصبر متغيِّظًا، فأتى أبـا بكر فقال يا أبا بكر: ألسنا على حقٍّ وهم عـلى باطـلٍ؟ قـال: بـلى. قال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال: بلى.

قال فعلام نعطى الدَّنِيَّة فى ديننا؟ ونرجع ولما يحكـم الله بيننـا

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية فى الحديبية، (٤٧٣٣).

وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يُضَيِّعه الله أبدًا.

قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فَأَقْرَأَه إياه، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أَوَفَتْحٌ هو؟ قال ﷺ: «نعم»، فطابت نفسه ورجع.

*****

- هذا موقف يظهر فيه التدبير الإلهى لنبيه ﷺ؛ حيث وضع الله فيه سر النجاح والنصر والفتح المبين، ومن هذا الموقف يُدْرَكُ الفرق بين تدبير النبوة وتدبير الفكر البشرى، بين من يعمل بعقله فقط، ومن أرشده الله إلى الحق وحيًا وإلهامًا، مع ما أولاه الله من نعمة العقل والتدبير والبصر والبصيرة.

فبحكم الأسباب وحدود العقل البشرى دُهش المسلمون من شروط صلح الحديبية، ودهشوا أكثر مما رأوه من رسول الله ﷺ من التساهل والموافقة على كل شروط المشركين فى الصلح: أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت الحرام، وأن يرد الرسول ﷺ على المشركين من يأتيه منهم، أما من جاء من المسلمين إليهم فلا يردونه إلى رسول الله ﷺ.

فنظر العقل المجرد ـ إلى هذه الشروط ـ هو الذى استفزّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحماسه للدين ولعزة هذا الدين؛ فتوجه إلى النبى ﷺ، ثُمَّ إلى أبى بكر رضي الله عنه بأسئلته اللاهبة: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟! فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟!

• وتأتى حكمة رسول الله ﷺ فى معالجة الأمر؛ حيث بين ﷺ أن الأمر له بُعْد أعمق، وأن النبى ﷺ لا يتصرف بعقله المجرد فقط ولا ببشريته المطلقة، ولكنه يتصرف من موقع النبوة المؤيدة بالوحى من الله تعالى، وأن النبى ﷺ لا يعصى ربه، وأن الله لن يضيعه، وعندئذ هدأت نفس سيدنا عمر رضي الله عنه بعد بيان رسول الله ﷺ لحقيقة الأمر، وما هو إلا وقت يسير حتى نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ (الفتح).

وهكذا تأكد المسلمون أن صلح الحديبية كان مقدمة لنصر مبين وفتح عظيم، وفى هذا يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ (الفتح).

• لقد كان صلح الحديبية هدنة مَكَّنَت للمسلمين؛ حيث اختلطوا بالكفار ونادَوْهُم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جَهْرةً آمنين، وظهر مَنْ كان مستخفيًا بالإسلام، حتى دخل فى الإسلام ـ أثناء فترة المعاهدة بعد صلح الحديبية ـ مثل مَنْ كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

• ومن دلالات الموقف العظيمة: أن الله تبارك وتعالى أراد أن يجعل فتح مكة لنبيه فتح مرحمة وسِلْم، لا فتح ملحمة وقتال، فتحًا يدخل الناس فيه فى دين الله أفواجًا، فكان صلح الحديبية تمهيدًا لذلك، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

١٤١. فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ! (*)

آثر بعض المسلمين بمكة الإقامة مع الأهل والعشيرة على الهجرة إلى رسول الله ﷺ واللحاق به بالمدينة، والإيمان بالله ورسوله والمشاركة فى الجهاد، فلمَّا استحثَّهم المسلمون على الهجرة تَعَلَّلُوا بقيامهم بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، وهذه طاعات لها منزلتها عند الله، ولم يهاجروا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة).

*****

هذا موقف يحمل دلالات هادية، تشتد إليها حاجة أمتنا فى واقعنا المعاصر:

- الدلالة الأولى: فقه الأولويات فى الإسلام، فالأعمال الصالحة ليست كلها على مرتبة واحدة، وإنما تتفاضل الأعمال وتتفاوت درجاتها بحسب أهميتها

(*) راجع تفسير الخازن (٣/ ٢٣٩).

ومنزلتها عند الله سبحانه وتعالى، وكان الصحابة ﷺ حريصين كل الحرص على معرفة الأَوْلَى من الأعمال؛ ليتقربوا به إلى الله تعالى، فكثر سؤالهم للنبى ﷺ: ما أفضل الأعمال؟ وما أحبها عند الله تعالى؟

لكنَّ بعض المسلمين لم يدرك هذا الفقه، وسوَّى بين أعمال الهجرة والجهاد وبين عمارة البيت؛ فأنزل الله قرآنًا يصحح هذا المفهوم، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ (التوبة).

وقد آثر بعض المسلمين البقاء بمكة مع الأهل والعشيرة، ومع تجارته وأمواله على الهجرة إلى المدينة واللحاق برسول الله ﷺ والمشاركة فى الجهاد، فلمَّا استحثهم المؤمنون على الهجرة تعللوا بقيامهم بخدمة الحجاج وعمارة البيت وحاجة الأهل إليهم والخوف على أموالهم؛ فأنزل الله قرآنًا يرد عليهم، ويصحح لهم ويرشدهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ (التوبة).

وهكذا تقرر الآية بأنه على المسلم أن يجعل أمر الله فى المقدمة، وألا يقدم على أمر الله ومرضاته شيئًا، وأن الركون للراحة والأهل والمال وترك الجهاد فى سبيل الله فيه نذير بسوء العاقبة والتعرض لمصير الفاسقين.

وقد أكد القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ (الحجرات).

فميزان الأعمال الصالحة وتفاوتها يكون بمعايير القرآن والسنة، وليس بمعايير الهوى والرؤى الشخصية.

- الدلالة الثانية: هى ما أشارت إليه الآية من تحديد للأشياء التى ترتبط بها المشاعر، وجُبلت النفوس على التعلق بها والافتتان بأمرها، والتى يضعف الإنسان أمامها فيقدمها على أمر الله تعالى، فليحذر المؤمن، فالأمر كله لله تعالى.

والآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة كلها نِعَم ينبغى أن تكون دافعًا لشكر المنعم وزيادة طاعته، لا أن يفتن العبد بها، ويؤخر ما حقه التقديم؛ إرضاءً لرغبات نفسه ومطامع هواه.

١٤٢. بل أجر خمسين منكم(*)

أتى أبو أمية الشعبانى أبا ثعلبة الخُشَبى، فقال له: كيف تصنع فى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ (المائدة).

فقال أبو ثعلبة: لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ؛ فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك العوامّ، فإن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون كعملكم».

قيل: يا رسول الله: أجر خمسين منا أو منهم. قال ﷺ: «بل أجر خمسين منكم».

*****

(*) أخرجه أبو داود فى الملاحم (١٧)، والترمذى (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ، ما الذى كان يشغل عقولهم؟ وحول أى شىء كانوا يتحدثون ويتحاورون؟ ويجيبنا الموقف بأن القرآن قد ملأ قلوبهم وعقولهم، وأن حديثهم فى مجالسهم كان فى القرآن.

ولـمَّا قرأ أبو أمية الشعبانى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ (المائدة).

لفتت الآية انتباهه، وأراد أن يتحقق من المعنى الذى فهمه منها، فسأل أبا ثعلبة الخشنى، ووافق ذلك توارد الخواطر بينهما، حيث استوقفت الآية أبا ثعلبة الخشنى من قبل، فسأل عنها رسول الله ﷺ فذكر أبو ثعلبة تفسير رسول الله ﷺ لهذه الآية.

الدلالة الأولى: أن فى هذا أسوة لنا أن تكون عقولنا مشغولة بالقرآن وفهمه وتدبره، وأن يكون حديثنا وحوارنا حول دلالات القرآن ومعانيه، ففى هذا صلاح لأحوالنا ومرضاة لربنا.

- الدلالة الثانية: هى عدم ذوبان المؤمن فى تيار المعاصى والآثام فى زمن الفتن، بل على المؤمن أن يكون حريصًا على مرضاة ربه، وأن الإنسان إذا أطاع ربه فيما أمر ونهى فلا يضره من ضل بعد ذلك، وهذه حقيقة يؤكدها هدى سيدنا رسول الله ﷺ.

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا،

وإن أساءوا فلا تظلموا»[1].

• الدلالة الثالثة: هى أن ثواب العمل الصالح يضاعف فى زمن الفتن، ويظهر ذلك من قول النبى ﷺ: «إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بمثل ما أنتم عليه له كأجر خمسين منكم».

وفى هذا ترغيب فى الحرص على العمل الصالح فى زمن الفتن، والثبات على الطاعة مهما كانت الضغوط التى من حولنا، ومهما كانت الإغراءات التى أمامنا.

• الدلالة الرابعة: إشارة إلى المشقة التى تصادف الصالحين والشرفاء والأمناء فى زمن الفتن، وأن السبيل للتغلب على هذه المشقة إنما يكون بالصبر والاستعانة بالله تعالى، فإذا ما تم للعبد العمل الصالح نال الأجر مضاعفًا من الله، فالثواب على قدر المشقة، وإذا طاب الغرس طاب الثمر.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب الإحسان والعفو، (٢٠٠٧). وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٢٧١).

١٤٣. ابتغاء وجه ربه الأعلى (*)

أعتق أبو بكر الصديق ﷺ سبعة كلهم كان يُعَذَّبُ فى الله تعالى؛ منهم بلال، وعامر بن فُهَيْرة، ومنهم بعض النساء اللائى أسلمن، فكن يعذَّبن؛ لإسلامهن، فقال له أبوه أبو قحافة: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك أعتقت رجالا أقوياء يمنعونك ويدفعون عنك!

قال أبو بكر ﷺ: يا أبت، إنما أريد ما عند الله؛ فنزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل).

*****

هذا موقف إيمانى عظيم، حسبه عظمة وجلالا أنَّ الله تعالى أنزل فيه قرآنًا يُتلى، وفارس الموقف رجلٌ كريم على الله، حبيب لرسول الله ﷺ، إنه أول من آمن وصدَّق برسول الله ﷺ، إنه محرر العبيد، ورفيق الرسول فى الغار، أنزل الله تعالى فيه قرآنًا يُتلى فى مواضع عديدة، فرضى الله عنه وأرضاه.

- وأُولَى دلالات الموقف هى: رأفة أبى بكر ﷺ بضعفاء المسلمين، فهو

(*) راجع تفسير السمرقندى (٤/ ٤١٤).

يرق لحالهم، ويتأثر بعنائهم وعذابهم، ولم يقف الأمر عند حدود التأثر القلبى وتحرك المشاعر، بل ارتقى إلى مستوى العمل، فبذل ما له لعتقهم، وهذا من هدى الحبيب المصطفى ﷺ. وفى الحديث النبوى الشريف: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى»(١).

- الدلالة الثانية: الإخلاص لله تعالى فى هذا العمل العظيم من أبى بكر ﷺ، فهو لا يرغب فى نفْع منهم، ولا فى خير يعود على شخصه من ورائهم؛ ولذلك لما قال له أبوه: أراك تعتق رقابًا ضعافًا لا يدفعون عنك، فلو أنك أعتقت رجالا أقوياء يدفعون عنك.

أجاب أبو بكر ﷺ: يا أبت، إنما أريد ما عند الله. إنه يبتغى مرضاة الله تعالى؛ لذلك أثنى الله عليه وعلى أمثاله فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل).

وهذه حال من أثنى عليهم القرآن من صحابة رسول الله ﷺ، كل مقاصدهم كانت خالصة لوجه الله تعالى، من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ (الإنسان).

ويستفاد من هذا الإخلاص سر بركة الأعمال وقبولها عند الله تعالى، والأعمال بدون إخلاص ترجع وبالا على صاحبها، فمن قَاتَل رِياءً، ومن أنفق

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (٦٧٥١).

رياءً، ومن عَلَّم رياءً أخبر النبى ﷺ عنهم بقوله لسيدنا أبى هريرة ﷺ: «أولئك الثلاثة أول خَلْقٍ الله تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة»(١).

الدلالة الثالثة: أن من سارع فى مرضاة ربه سارع ربه فى رضاه، وهذا مستفاد من قول الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل).

فلا يُنال ما عند الله إلا بطاعته، والجزاء من جنس العمل.

- الدلالة الرابعة: عموم معنى الآيات التى نزلت فى سيدنا أبى بكر ﷺ؛ فهى بُشْرَى بمعونة الله وتأييده لكل من سلك هذا المسلك الإيمانى فأعطى ابتغاء مرضاة الله، واتقى ابتغاء مرضاة الله، وصدق بكل أحواله قولًا وفعلًا هدى الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فإنه إن شاء الله من أهل عطاء الله وكرمه فى هذه الآية.

والله الموفق

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، (٢٣٨٢)، والحاكم فى مستدركه، كتاب الزكاة، (١٥٢٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧١٣).

١٤٤. يَعْبدُ الله على حرف (*)

قَدِمَ رجالٌ إلى المدينة، فكان الواحد منهم يُسْلِمُ، فإن ولدت امرأته غلامـًا، ونتجت خَيْلُه، قال: إن الإسلام دين صالح،وإن لم تلد له امرأته ذكرًا، ولم تنتج خيله ذَمَّ دين الإسلام، وقال: هذا دين سوء؛ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ (الحج).

*****

هذا موقف تشتد إليه الحاجة فى واقعنا المعاصر الذى طغـت فيـه قـيم المـادة والاستهلاك على حساب قيم الإيمان والأخلاق.

والموقف يظهر حقيقة غالية، هى أن الدين لا يوزن بموازين النـاس والقـيم المادية، الدين ليس صفقة؛ الدين أسمى من كل هذه القيم المادية، إنه من الله تعـالى الخالق الحكيم. وموازينه سبحانه وتعالى؛تختلف عن موازين البشر، فما كـان مـن ميزان الناس بلاء ومحنة، بالصبر عليه والرضا بقضاء الله وقدره يكون محنة وعطاء فى ميزان الله، فما من شوكة تصيب المـؤمن ولا هَـمّ ولا غَـمّ إلا كفّـر الله بهـا مـن

(*) صحيح البخارى باب سورة الحج (٤/ ١٧٦٨).

سيئاته، وغفر له بها من ذنوبه.

إن أمر المؤمن كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له.

وموازين الإيمان تُظْهِرُ أن ابتلاء الله للعبد إنما هو من رحمة الله ولطفه، وليس البلاء دليل هوان المبتلى على الله تعالى، بل إن النبى ﷺ لما سئل: أى الناس أشد بلاء، قال: «الأنبياء،ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه، وإن كان فى دينه رقة - أى هوان وضعف - خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»[1].

لكن الذين يأخذون الدين على أنه صفقة فإنهم ضلوا السبيل.

وكثيرًا ما يقع بعض الناس فى هذا المفهوم الذى يعالجه الموقف، حيث نسمع من أحدهم: لما صليت فُقد حذائى، أو ساعتى أو نقودى، ويُلبس عليه الشيطان، ويوسوس له بأن ينصرف عن الصلاة والطاعة.. سبحان الله!!

هل يمتحن العبدُ ربَّه؟! هل الدين منفعة مادية؟!

كل هذه المعانى الساقطة تفضحها الآية الكريمة وتكشفها: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبى وقاص ﷺ، (١٤٨١)، والترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء، (٢٣٩٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٩٢).

﴿وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١١﴾ (الحج).

وهذا الطبع يكون فى النفوس التى لم يتمكن منها الإيمان، النفوس التى تُركت لهواها، ويكشف الله هذا الطبع ويحذر منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١﴾ (المعارج).

ثم استثنى ربنا أهل الإيمان الصادق والطاعة الخالصة؛ فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢﴾ (المعارج).

كما يوضح القرآن الكريم وجهًا من وجوه هذا الطبع قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ (الفجر).

وهكذا تهجم على الإنسان طبائع السوء فى غيبة الإيمان، ويُفتن فى هذا الخطأ الفكرى؛ حيث يجعل الدين وسيلة للدنيا، لتحقيق أهوائه ورغباته.

والدين غاية، وعبادة الله حق على الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ (الذاريات).

نسأل الله السلامة والنجاة من فتن الدهر ومصائب الزمان

١٤٥. يوم يعض الظالم على يديه (*)

قَدِم عُقبة بن معيط يوم سفر، فصنع طعامًا، ودعا إليه رسول الله ﷺ، فأبى النبى إجابة الدعوة إلا إذا أسلم عقبة، فأسلم، فأجابه النبى ﷺ، وأكل من طعامه.

وكان أُبىّ بن خلف غائبًا، فلمَّا حضر، وعلم بالأمر، حَمَل على صاحبه عقبة حملًا شديدًا، وقال له: وجهى من وجهك حرام إن تابعت محمدًا، ولن أرضى عنك إلا أن تأتى محمدًا، وترد عليه الإسلام، وتصنع به كذا وكذا، فذهب عقبة وفعل إرضاءً لصاحبه أُبىّ بن خلف.

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفرقان).

*****

(*) تفسير السمرقندى (٣/ ٢٤٢).

هذا موقف يحمل دلالات هادية ونافعة:

- الدلالة الأولى: أثر الصحبة فى الأصحاب؛ فعُقبة لما جالس رسول الله ﷺ ودعاه إلى طعامه، اشترط عليه النبى الإسلام فأسلم، ولو ظل عقبة على هذه الحال مع رسول الله ﷺ لدخل الجنة إن شاء الله.

وهذا نموذج لأثر الصحبة الطيبة، لكن الانتكاسة والانهيار جاءه من صاحبه المشرك الذى حمل عليه، وهدده بالقطيعة إن تابع رسول الله ﷺ وأمره أن يسئ لرسول الله ﷺ قولًا وفعلًا.

وصنع عقبة ما دفعه إليه صاحب السوء أُبىّ بن خلف؛ فحلت عليه اللعنة، وباء بغضب ووعيد من الله سبحانه وتعالى، وأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفرقان).

وهكذا يؤكد هذا الموقف لنا حقيقة مهمة، وهى التى أشار إليها حديث النبى ﷺ: «المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم مَنْ يُخَالِلُ»(١).

وفى الحديث النبوى الشريف: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﷺ، (٨٠١٥)، وأبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، (٤٨٣٥)، وحسنه الألبانى فى المشكاة (٥٠١٩).

ريحًا خبيثة»[1].

فلابد من التأثر بالصاحب.

• الدلالة الثانية: سوء عاقبة صحبة الشر والسوء؛ حيث أصاب عقبة الندم والحسرة على اتباعه لصاحبه أُبىّ بن خلف، كما وضحت الآية، وهكذا انقلبت صحبة الشر والسوء فى الدنيا إلى عداوة يوم القيامة وحسرة وندامة. ويؤكد القرآن هذا المعنى فى آية أخرى، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الزخرف).

لذلك أوصت السنة النبوية المطهرة بأن نصطفى الأصحاب.

قال ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى»[2].

• الدلالة الثالثة: صبر رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، وتحمّل الأذى من المشركين، وفى هذا درس لورثة الأنبياء، الدعاة العاملين، أن يتأسَّوْا برسول الله ﷺ فى التحلى بالصبر فى دعوتهم لله تعالى، وفى تحمل أذى المعارضين والمعاندين.

وهذا هدى قرآنى كريم، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (لقمان).

نسأل الله السلامة من الظلم والظلمات وأن يردنا إلى الإيمان ردا جميلًا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، (٦٨٦٠)

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، (٤٨٣٤) والترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء فى صحبة المؤمن، (٢٣١٨)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٤١).

١٤٦. ما الفقر أخشى عليكم (*)

بعث النبى ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ليأتى بمال من البحرين، فلما قَدِم أبو عبيدة بالمال، وسمعت الأنصار بقدومه، وافَوْا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلمَّا صلَّ ﷺ انصرف، فتعرضوا له، فتبسَّم النبى ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين؟».

قالوا: نعم يا رسول الله. فقال ﷺ: «أبشروا وأمِّلُوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فَتُهْلِكَكَم كما أهلكتهم».

*****

هذا موقف نبوى كريم، يحمل قيمًا هادية، ودلالات نافعة.

- الدلالة الأولى: حياء الصحابة رضي الله عنهم، فبعض الأنصار قد تعرض لشدة، وعلى الرغم مما بهم من شدة وحاجة إلا أن الحياء منعهم من إعلان حاجتهم،

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المغازى، باب شهود الملائكة بدرًا، (٣٧٩١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، (٧٦١٤).

واكتفوا بالتعرض لرسول الله ﷺ بعد صلاة الفجر. والحياء شعبة من الإيمان، والحياء لا يأتى إلا بخير، والحياء كله خير.

وهذا شأن المؤمن لا يعرف الإلحاح فى السؤال، بل هو ممن وصفهم الله فى قرآنه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ (البقرة).

- الدلالة الثانية: رأفة النبى ﷺ ورحمته بصحابته الكرام؛ فحالهم لا يخفى عليه، لذلك لما رآهم أمامه استقبلهم بابتسامة كانت بلسماً شافياً لنفوسهم، وهذا من كريم خُلُقه وسماحته ﷺ، وما أحوج القائمين على الصدقات والزكاة إلى أن يتأسوا بسيدنا رسول الله ﷺ فى استقبال الفقراء ومستحقى الصدقات والزكاة بمثل هذه البسمة الحانية؛ لأن هؤلاء المتبعين من الفقراء والمساكين والمرضى يحتاجون مع المال عطاء الود والمحبة ورعاية المشاعر.

- الدلالة الثالثة: حكمته ﷺ فى إسداء النصيحة؛ فقد قدّم للنصيحة بالبشرى بقضاء حاجة كل منهم، وفى هذا ما يحقق الطمأنينة لهم مع فراغ بالهم من هَمِّ مسألتهم، وفى هذا ـ أيضاً ـ تهيئة لنفوسهم لاستقبال نصيحة رسول الله ﷺ، ويظهر هذا من قوله ﷺ لهم: «أبشروا وأمّلوا ما يسركم».

ثم سارع النبى فى نصيحته للأمة بقوله: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

وفى هذا بيان من رسول الله ﷺ أن أمته تتجاوز محنة الفقر بسلام، فى حين حذر رسول الله ﷺ من بسط الدنيا وما يصاحبه من ترف يشغل الناس عن ذكر الله وطاعته، ومن يقرأ التاريخ يعلم أن الترف الزائد والانشغال والشهوات والملذات من أقوى أسباب انهيار الأمم وإفلاسها.

وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الإسراء).

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار

١٤٧. وهم لها سابقون (*)

قرأت السيدة عائشة رضى الله عنها قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾ (المؤمنون). ثم سألت رسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل هو الرجل يسرق ويزنى ويفعل الموبقات، ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله تعالى عليها؟!

فقال النبى ﷺ: «لا يا عائشة؛ إنما هو الرجل يصوم ويصلى ويفعل الخيرات، ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل منه ذلك. يا عائشة، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون».

*****

هذا موقف نبوى كريم، تتجلى فيه قيم إيمانية ودلالات هادية:

- الدلالة الأولى: التدبر والفهم لآيات القرآن الكريم، والسؤال عما أشكل على الفهم، وهكذا صنعت السيدة عائشة رضى الله عنها تقرأ الآيات، وتتدبر المعانى والدلالات؛ كى تنتفع بها وتهتدى بهديها، فإذا أشكل عليها شىء أسرعت تسأل رسول الله ﷺ، على نحو ما حدث فى الموقف، حيث عرضت فهمها

(*) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المؤمنون، (٣١٧٥).

الذى تبادر إلى ذهنها على رسول الله ﷺ.

وهذا منهج دعانا إليه القرآن، فدعانا إلى التدبر والفهم، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء).

ويؤخذ من هذا أن نهتم فى تعليم أولادنا بالفهم؛ فالفهم له الأولوية على الحفظ، وذلك لأن حفظ القرآن وحده دون فهم وعلم لا يرفع جهلا. هذا مع عدم إهمال الحفظ والقراءة؛ فلذلك ثوابه عند الله تعالى.

وليت القائمين على أمر تحفيظ القرآن الكريم بالمؤسسات الخيرية أن يضموا مع جهدهم الطيب فى التحفيظ معرفة المعانى الأساسية والكلمات التى تحتاج إلى شرح أو تفسير، ويا حبذا لو نشطت جهودهم المباركة فى تدريس خلاصة مركزة عن القيم الحضارية فى القرآن، وآفاق التفكير العلمى فى القرآن الكريم، حيث تشتد حاجة الأمة إلى غرس هذه المعانى.

وحسبنا تأكيدًا لكل هذه المعانى أن النبى ﷺ حين وجّه الأمة إلى تعليم القرآن عبّر عنه بالتعليم، ولم يعبِّر عنه بالحفظ؛ لأن التعليم أشمل وأكثر نفعًا، قال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1].

كما دعانا القرآن الكريم إلى الرجوع إلى أهل الذكر فيما أشكل علينا من فهم للآيات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (النحل).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، (٤٦٣٩).

وهذا منهج علمى فى التعليم دعانا إليه القرآن الكـريم بعيـدًا عـن التخـبط والعشوائية.

• الدلالة الثانية: حكمة النبى ﷺ فى الإجابة؛ فقد أوتى ﷺ جوامع الكلـم، فجاءت الإجابة وافية مختصرة دون تطويل ممل يُشتت ذهن السائل. ومـن سـمات أسلوبه ﷺ الوضوح واليسر فى عرض الإجابة دون تعقيد أو إغراب.

وفى هذا أسوة من رسول الله ﷺ للمعلمـين والـدعاة أن يكونـوا واضـحين حريصين على سهولة الأسلوب وتركيزه دون تطويل ممل يشتت الأذهان؛ ويظهر هذا من قوله ﷺ: «لا يا عائشة، إنمـا هو الرجل يصوم ويصلى ويفعـل الخـيرات، ويخاف إذا رجع إلى ربـه ألا يتقبـل منـه ذلـك. يــا عائـشة أولئـك يـسارعون فى الخيرات وهم لـهـا سابقون».

• الدلالة الثالثة: التمييز بين خوف العاصى وخوف المطيع، فـسياق الآيـة يحدد الخوف المقصود فيها أنه من قبيل خوف المطيعين، وهو خوف من أن يكـون فى عملهـم نقـص يحجبـه عـن القبـول، وخـوفهم تعظيمـًا لله تعـالى ألا يرقـى إخلاصهم فى العمل إلى نيل رضا الله عن أعمالهم.

وهذا شأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والصالحين، فسيدنا إبراهيم عليه السلام بعـد طاعات عظيمة لمرضاة الله رب العالمين، من تركه زوجـه هـاجر ووليـده الـصغير إسماعيل عليه السلام فى أرض لا زرع فيها ولا ماء، وبَعْد طاعته لأمـر الله بـذبح ولـده، ولكن الله فداه، وبَعْد طاعة الله فى رفع قواعد البيت، بعد هـذا كلـه كـان دعـاؤه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة).

كذلك نجد خوف المطيعين، فبعد أن بين الله أن نهارهم فى طاعة الله بالعمل والتواضع، وليلهم فى الركوع والسجود بين يدى الله، ما رأوا أن طاعتهم ليل نهار مانعة لهم من جهنم، فكان دعـاؤهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (الفرقان).

ومن هنا أمرنا الله بالاستغفار بعد الإفاضة من عرفات، وبعد الصلاة؛ كـى لا يدخل قلبَ الإنسان عُجْبُ بعمله؛ وكى يكون الاستغفار دواء لما قد يكـون فى العمل من نقص.

والله المستعان

١٤٨. أساءوا فأكثروا (*)

أساء أناس من أهل الشرك وأكثروا، وقتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: إن الذى تدعونا إليه لَحَسن، لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة؟

فنزل قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الفرقان)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الزمر).

*****

من فضل الله على عباده أن فتح باب التوبة للتائبين. سبحانه وتعالى، يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، رحمته سبقت غضبه، يفرح بتوبة عبده إليه، إنه سبحانه وتعالى حليم غفور، رحيم ودود، أرحم بعباده من الأم بولدها، ومهما عظمت ذنوب العباد أو كثرت فالله يغفرها، ولو كانت مثل زبد البحر إذا تاب العبد وآمن وعمل عملا صالحًا.

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، سورة الزمر، (٤/ ١٨١١)، رقم (٤٥٣٢).

إن كل هذه الرحمات والمغفرة والود والحلم ينالها العبد بالتوبة الصادقة التى تتوافر شروطها؛ وهى:

- الندم على ما فات من المعاصى.
- العزم على عدم العودة إلى المعصية أبدًا.
- الإقلاع عن المعاصى.

فإن كان الأمر يتعلق بحقوق العباد، فليجتهد العبد فى قضاء هـذه الحقـوق على قدر استطاعته، فإن عجز، وكان صادقًا فى توبته، تولَّى الله تعـالى عنـه إرضـاء أصحاب الحقوق.

والموقف يُبين حال قوم أساءوا فأكثروا من الإساءة، لهم غَدَرات وفَجَرَات، ورغبوا فى الإسلام، إلا أن جُرْم المعاصى والفواحش التى ارتكبوها يقف حاجزًا أو مانعًا لهم، فسألوا رسول الله ﷺ: يا رسول الله إن الذى تدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؟ فنزل قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الفرقان).

ويؤكد هذا الموقف حقائق إيمانية غالية.

- الحقيقة الأولى: هى أن التوبة مفتاح المغفرة والرحمة والرضا.
- والحقيقة الثانية: هى البشرى للصادقين فى توبتهم الجادين فى رجـوعهم إلى الله تعالى بأن الله سيبدل سيئاتهم حسنات، وتبارك الله الغفور الـرحيم الـودود الرءوف اللطيف بعباده.

وستر الله العبد العاصى وعدم فضحه بين الخلائق يعد نعمة من الله وفضلا،

وأن يسقط الله العقوبة عن العبد المذنب بعد ستره، فهذا فضل بعد فضل، ونعمة فوق نعمة. وأن يُبدِّل الله السيئات حسنات بعد ستره وعفوه، فهذا كَرَم ما بَعدُه كَرَم.

وهذا الحنان الإلهى والكرم الربانى يدفع العبد إلى أن يستحى من ربه، ويسارع بالتوبة الصادقة؛ ليكون أهلا لفضل الله ونعمته.

- والحقيقة الثالثة: هى حكمة رسول الله ﷺ فى الصبر على أهل المعاصى ودعوتهم برفق إلى الهداية، والتوبة دون تعنيف أو شدة، مع الدعاء لهم بصلاح الحال، وفى هذا أسوة للدعاة والمصلحين أن يتحلوا بالصبر فى دعوتهم، وأنْ يرفقوا بمن يدعونهم، وألا يتعجَّلوا النتائج، وألا يقطعوا الأمل من هدايتهم، والتوفيق من الله تعالى.

١٤٩. دلونى على السوق (*)

عن أنس ﷺ، أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى؛ فقال له سعد: أى أخى، أنا أكثر أهل المدينة مالًا فانظر شطر مالى فخذه، وتحتى امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك، دلونى على السوق، فدلوه على السوق، فذهب فاشترى وباع وربح فجاء بشىء من (أقط) وسمن، ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه ردع زعفران، فقال رسول الله ﷺ: «مهيم».

فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة. فقال: ما أصدقتها؟ قال: وزن نواة من ذهب. قال ﷺ: «أَوْلِمْ ولو بشاة». قال عبد الرحمن: فلقد رأيتنى ولو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب ذهبًا أو فضة.

*****

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، (١٣٨٩٠)، وصحح إسناده الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

هذا موقف يفيض بالدروس النافعة والعبر الهادية:

• الدرس الأول: هو التضحية من أجل إقامة دين الله تعالى، فقد رأينا كيف استقبل الأنصار المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم، إنهم قدَّموا ـ عن طيب خاطر ـ شَطْر أموالهم وأهليهم للمهاجرين.

أى نفسية هذه؟! إنه السمو فى أرقى معانيه، إنها روح الأخوة التى غرسها الإسلام فى أتباعه.

لذلك فاز الأنصار بمنزلة عالية عند الله سبحانه وتعالى وعند سيدنا رسول الله ﷺ؛ فقد مدحهم الله فى قرآنه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الانفال).

ومدحهم النبى ﷺ واختارهم، وقال: «أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»[(١)].

• والدرس الثانى: هو العفة التى كانت من المهاجرين، فعبد الرحمن بن عوف ﷺ أمام العرض الكريم من سعد بن الربيع ﷺ يقول له: بارك الله لك فى

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى سعيد الخدرى ﷺ، (١١٧٤٨)، وحسن إسناده الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

أهلك ومالك. نعم هذا كَرَم يقابله تعفُّف ﷺ أجمعين.

• الدرس الثالث: هو درس الأُخوَّة؛ حيث جعلها النبى ﷺ أساسًا تجتمع عليه الأفئدة، ولا يبقى بين المهاجرين والأنصار بعد التآخى من فرق إلا فارق التقوى والعمل الصالح.

كما أن التآخى بين المهاجرين والأنصار يؤدى إلى التماسك الإسلامى، فلا ينال منه التشتت والتوزع والتفرق.

كما أن التآخى فيه روح الجماعة التى تقوى الهمم والعزائم وتنال تأييد الله تعالى، فيد الله مع الجماعة.

وإن المجتمع الذى تسوده العلاقات الودودة الحميمة القائمة على الحب والأخلاق والإيمان هو مجتمع ناجح.

وهذه قيمة زكَّاها القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات/ ١٠).

وفى الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كُربة فرج الله عنه بها كُربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[(١)].

• الدرس الرابع: هو سرعة تحول المهاجرين فى المدينة من موقع الإعانة إلى موقع الإسهام فى بناء المجتمع والمشاركة فيه، فهذا عبد الرحمن بن عوف

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، (٢٣١٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٦٧٤٣).

يذهب إلى السوق ويتاجر ويربح، وهذا المعنى يؤكد قول النبى ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير»[1].

وقوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[2].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب القدر، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، (٦٩٤٥).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، (١٣٦١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، (٢٤٣٣).

١٥٠. ويحك يا جُبير! (*)

عندما فُتحت «قبرص»، وحُملت الغنائم إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكى، فدهشوا، فتقدم جُبير بن نُفير، وسأل أبا الدرداء ﵁: ما يبكيك فى يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟

قال: ويحك يا جُبير! ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، بينما هى أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى!!

*****

نحن أمام حكمة بالغة وفهم عميق للأحداث واستخلاص العبر والعظات منها، وربط أمور الخلق بالخالق تبارك وتعالى.

- فأول درس يوجه انتباهنا إليه أبو الدرداء ﵁ هو: الانهيار السريع والإفلاس العاجل للأمم والذى لا شك أنه نتيجة حتمية لشيوع الفساد والترف والتخلى عن أوامر الله تعالى، وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ (الإسراء).

ومن هنا فقد كان أبو الدرداء ﵁ يخشى على المسلمين حين جاءتهم الغنائم

(*) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٢١٧).

واتسعت الأموال أن يُشغلوا بها عن دين الله تعالى، وأن يتنافسوا فى حب الدنيا كما تنافسها الذين من قبلهم، فيصيبهم ما أصاب غيرهم من الضعف والهوان، وتنتقل الغلبة من بين أيديهم إلى غيرهم.

وهذا ما حذّر منه النبى ﷺ حين قال: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[1].

- ومن دروس الموقف أيضًا: شؤم المعصية على الإنسان، وأنها تجعل الإنسان هينًا على الله. وفى المقابل فإن بركة التقوى والطاعة هى سبب لتحصيل توفيق الله ومعونته ونصره.

وشؤم المعصية يؤثر على الفرد والمجتمع والأمة. ففى شأن الفرد يُبين لنا ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب؛ صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المطففين)[2].

وتوضح السنة المطهرة أن لكل ذنب أثره السيئ، فأكل الحرام يمنع إجابة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المغازى، باب شهود الملائكة بدرًا، (٣٧٩١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، (٧٦١٤).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المطففين، (٣٣٣٤)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٦٢٠).

الدعاء، والظلم يؤدى إلى فقدان الأمن فى المجتمع، وضياع الأمانة يؤدى إلى انهيار المجتمع... وهكذا.

وعلى الإجمال فربنا يحذرنا من شؤم المعاصى وسوء عاقبتها، فيقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(طه/ ١٢٤).

فنصر الله وتأييده إنما يكون للمؤمنين الذين صدقوا واستجابوا ولم يفرطوا فى أمر من أوامر الله تعالى. قال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج)، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الروم).

والله المستعان

١٥١. علمنى الإسلام يا خالد (*)

بهرت عبقرية سيدنا خالد بن الوليد قادة الروم، فدعاه قائد منهم يدعى «جرجة»، فسأله: يا خالد، اُصْدُقْنِى ولا تكذبنى؛ فإن الحر لا يكذب: هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاك إياه فلا تَسُلُّهُ على أحد إلا هزمته؟ قال خالد: لا. قال الرجل: ففيم سُمِّيت سيفَ الله؟!

قال خالد: إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدَّقه ومنا من كذَّبه، وكنت فيمن كذَّب، حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله ﷺ، فدعا لى الرسول ﷺ، وقال لى: «أنت سيف من سيوف الله»، فهكذا سُميت سيف الله.

قال القائد: هل لمن يدخل الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟ قال خالد: نعم. فقال القائد: علمنى الإسلام يا خالد.

*****

(*) رجال حول الرسول (٣٢٣)، نهاية الأرب فى فنون الأدب (باب وقعة اليرموك) ج٥، ص ٢١٠.

نحن أمام عظمة تأخذ القلوب، نحن أمام قائد منتصر لا يعرف الهزيمة، وكم تحولت الهزائم إلى نصر على يديه، قائد له عقل بصير يقرأ المعارك ويحدد أسباب التفوق والغلبة ويتعرف على مواطن الضعف وأسباب الهزيمة، إن هذه العبقرية الحربية بهرت الأعداء، فظنوا أن الأمر خارج حدود أسباب البشر، وأن سيف خالد نزل من السماء فارتبط به النصر.

- ويقف خالد بالقائد الرومانى على حقيقة الأمر؛ حيث قال خالد: لا، لم ينزل سيفى من السماء، وإنما هو سيف كالآف السيوف التى بأيدى الجنود.

فلما سأل القائد: فبم سُميت سيف الله؟

قال خالد: إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدقه ومنا من كَذَّب، وكنت فيمن كذَّب، حتى أخذ الله بقلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله ﷺ، فدعا لى الرسول ﷺ، وقال: «أنت سيف من سيوف الله»، فهكذا سُمِّيتُ سيفَ الله.

لقد رد خالد الفضلَ لصاحبِ الفضل، وأرجع النعمة إلى المنعم وهو الله رب العالمين، ولم ير خالد لنفسه فى ذلك شيئًا، وإنما هى دعوة رسول الله ﷺ وتوفيق الله سبحانه وتعالى. فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. لم يفتن خالد بعمله، وإنما رأى توفيق ربه وفضله عليه، وهذا سلوك المؤمن حين يوفق لعمل عظيم. يقول: بتوفيق ربى، ومن فضل ربى.

وفى هذا استجابة لهدى قرآنى كريم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (النحل).

- ومن دلالات الموقف أيضًا: ثمرة الإخلاص لله تعالى، فلما كانت غاية

خالد ومن معه هى مرضاة الله تعالى من وراء هذه الغزوات نفع الله بهم، وهـا هـو القائد يُقبل على خالد متعلمـًا، ثم يدخل فى الإسلام.

نعم لم يكن مقصدهم من الغزوات طمعـًا فيما عند الناس من دنيا أو أموال، وإنما إتاحة حرية الاختيار للناس، وإتاحة الفرصة لعرض الإسلام على الـشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها؛ لذلك بيَّن خالد للقائد الرومانى أنه إن أسلم فله مـن الثواب ما هو أعلى وأفضل.

وإنها الدعوة إلى الله تعالى حتى فى شدائد الحروب ولهيب القتال.

ولـصدق خالـد وإخلاصـه أسـلم القائـد الرومـانى «جرجـة»، وصـلى لله ركعتين، وانضم لصفوف المسلمين، ثم نال الشهادة بعدها.

١٥٢. قم أبا تُـراب (*)

عن سهل بن سعد قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمـة فلـم يجد عليًّا فى البيت، فقال: أين ابن عمك؟ قالت: كان بينـى وبينـه شىء فغاضبنى فخرج، فقال رسول الله ﷺ لأحد أصـحابه: انظـر أين هو.

فجاء فقال: يا رسول الله: هو فى المسجد راقد، فجاء رسـول الله ﷺ إليه وهو مـضطجع قـد سـقط رداؤه عـن شـقه، وأصـابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسح التراب عنه، ويقول: «قـم أبـا تراب، قم أبا تراب».

*****

نحن أمام هدى كريم فى معالجة مـا يعـترى الأسر مـن غـضب أو نفـور.. فالحياة لا تخلو من متاعب ومشكلات، وما دام الإنسان فى دنيا الناس فهو فى كَبَـد ومعاناة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ (البلد).

لكن مواجهة أعباء الحياة ومـشاكل الـدنيا بـالإيمان والطاعـة خـير سـبيل

(*) أخرجه البخارى فى صـحيحه، أبـواب المـساجد، بـاب نـوم الرجـال فى المـسجد، (٤٣٠)، ومـسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل على بن أبى طالب ﷺ، (٦٣٨٢) واللفظ للبخارى.

للتغلب على هذه الصعاب وتلك المشكلات.

فالإمام على ﷺ خرج مُغضبـًا من بيته، فإلى أين يذهب؟

إلى المسجد، إلى حيث الذكر والطاعة، لم يذهب إلى صحبة سـوء أو مجلـس شراب؛ وإنما ذهب إلى بيت الله تعالى حيث الرحمة ومنـازل الـسكينة، فلـما ذهـب الرسول الكريم ﷺ إلى بيت ابنته فاطمة رضى الله عنها وَلَمْ يجد عليـًّا، سأل فاطمة: «أين ابن عمك يا فاطمة؟» وفى هذا تنبيه إلى أن هنالك روابـط متعـددة بـين عـلى وفاطمة، وليست رابطة الزواج فقط هى التى تجمع بيـنهما، فهنـاك صـلة الـرحم، وقرابة الإسلام مع رابطة الزواج، وإذا ضعفت رابطـة مـن هـذه الـروابط ظلـت روابط أخرى قوية.

وقد أسرع النبى ﷺ إليه فوجده نائمـًا قد سقط عنه رداؤه وأصـاب الـتراب ظهره، فداعبه النبى ﷺ وأفاض عليه من رفقه وحنانه ومودتـه، فبيـده الـشريفة ﷺ أخذ يمسح التراب عن ظهـره ﷺ وهـو يقـول: «قـم يـا أبـا تـراب». ثـم ذهـب النبى ﷺ به إلى بيت فاطمة الزهراء رضى الله عنها.

وفى هـذا درس لأولِى الأمـر فى الأسر المـسلمة مـن الآبـاء والأمهـات، أن يتحسسوا أمور أولادهم بعد الزواج، وأن يكونوا من الرفق والمـودة فى عـلاج مـا يظهر من خلاف أو غضب دون تعنيف أو شـدة لأحـد الطـرفين، وإنـما بمراعـاة قدسية العلاقة الزوجية.

كما نتعلم من رسول الله ﷺ ألا يتحيز وَلِىُّ أمر الزوج لولده، ويتحامـل عـلى الزوجة أو العكس، وإنما تكون رغبته الإصلاح؛ لينال مـن بركـات الله وتوفيقـه،

ففى الآية الكريمة: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ (النساء/ ٣٥).

فليس الأمر صراعًا بين طرفين كل منهما يريد الغلبة، وإنما هى المودة والرحمة والتسامح، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ (الروم/ ٢١).

اللهم أصلحنا وأصلح بنا واهدنا واهد بنا

١٥٣. وهل مثلى لا يغار على مثلك ؟! (*)

خرج النبى ﷺ ذات ليلة من عند السيدة عائشة رضى الله عنها وكانت تلك ليلتها فاتبعته حيث يمضى مخافة أن يذهب إلى واحدة من زوجاته الأخريات، فوجدته ﷺ قد ذهب إلى مقابر الشهداء يدعو ويستغفر.

فعادت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى بيتها تقول: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا».

فقال لها النبى ﷺ: «أغرتِ يا عائشة؟». فقالت رضى الله عنها: «وهل مثلى لا يغار على مثلك؟!».

*****

هذا موقف نبوى كريم تتجلى فيه قيم ودروس تربوية نافعة:

• الدرس الأول: هو هذا الرد الرقيق من الرسول الكريم ﷺ الذى يتسم بالود الحانى على زوجه عائشة، كيف لا، وهو من مدحه ربه وأثنى عليه بقوله:

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، (٧٢٨٨).

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم).

كيف لا؟ وهو النبى الحريص على أمته، الرءوف الرحيم بها، فما بالنا بأهل بيته ﷺ؟ قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة).

هكذا ينبغى أن يتعلم الأزواج الدرس من رسول الله ﷺ، فلا يضيق أحدنا بمشاعر زوجه وغيرتها، وإنما ينبغى أن يرد فى حنان وودّ ورفق وعذوبة كما فعل النبى ﷺ؛ حيث قال للسيدة عائشة رضى الله عنها: «أغرتِ؟».

وكم كان الرفق والود من رسول الله ﷺ لزوجه عائشة علاجًا لكثير من المواقف؛ من ذلك قول النبى ﷺ يومًا لها: «إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غَضْبَى».

قالت: فقلت من أين تعرف ذلك؟ فقال ﷺ: «أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم»، قالت رضى الله عنها: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك [(١)].

وهكذا يسمو النبى بمشاعر الغيرة إلى عنان السماء بسماحته ورفقه ووده ﷺ، فهو القائل: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، (٤٩٣٠)، ومسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فى فضل عائشة رضي الله عنها، (٦٤٣٨).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبى ﷺ، (٣٨٩٥)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣١٤).

والقائل ـ أيضًا ـ: «إنما بعثت؛ لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

• الدرس الثانى: هو سرعة الرجوع إلى الصواب من السيدة عائشة حين عرفت الحقيقة التى تخالف ما جال فى خاطرها من غَيْرة، وهكذا شأن المؤمن، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ (الأعراف).

ونجد هذا المعنى الإيمانى فى الموقف؛ فحين وجدت السيدة عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ قد ذهب إلى مقابر الشهداء يدعو ويستغفر لهم، قالت تلوم نفسها: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله! أنت فى حاجة ربك، وأنا فى حاجة الدنيا».

• الدرس الثالث: هو حسن الاعتذار. فالسيدة عائشة رَضى الله عنها قدَّمت اعتذارًا حكيمًا لرسول الله ﷺ حين سألها: «أغرتِ»، فقالت رضى الله عنها: ومالى لا يغار مثلى على مثلك؟!

صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ، ورحمة الله تعالى وبركاته عليكم أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ (الأحزاب).

والحمد لله رب العالمين

(١) رواه البيهقى (١٠/ ١٩٢)، ذكره الألبانى فى الصحيحة، حديث رقم (٤٥).

١٥٤. ما سلطان الدنيا نريد (*)

عندما كانت معركة اليرموك دائرة بين المسلمين والروم فى الشام، وصلت رسالة من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ﷺ بعزل خالد بن الوليد ﷺ عن قيادة الجيش وتولية أبى عبيدة بن الجراح ﷺ بدلًا منه.

ولكن أبا عبيدة بن الجراح أصرَّ على عدم إبلاغ خالد بالأمر حتى تنتهى المعركة، وبالفعل انتصر المسلمون، وبعد ثلاثة أيام تقريبًا سلَّم أبو عبيدة الرسالة إلى خالد، فتعجَّب منه قائلًا: ما منعك من تسليمها لِي حين وَصَلَتْ؟ قال أبو عبيدة ﷺ: والله يا خالد ما سلطانَ الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل.

*****

هذه صورة إيمانية رائعة لأصحاب رسول الله ﷺ.

ما هذه النفوس العالية؟!

وما هذا التحول الذى غيَّر أهل القَبلِيَّة والبداوة إلى هذا السمو وتلك الرفعة؟ إنه القرآن الكريم والنبى ذو الخلق العظيم ﷺ.

(*) رجال حول الرسول، ص ٢٦٢.

وهكذا يصنع القرآن بالنفوس والقلوب، وهكذا ربّى النبى ﷺ أتباعه.

إن الإمارة والقيادة رضاعها حُلو وفطامها مُر، وليس سهلا أن يُنحَّى قائد ذكى متفوق له انتصاراته وحكمته فى القيادة، قائد لا تعرف الهزيمة طريقًا إليه، يُنحى هذا القائد الذى يتمتع بهذه المكانة، ويصبح واحدًا من الجنود والأتباع بين الصفوف، يتلقى الأوامر بعد أن كان يُصدرها، ليس هينًا على النفس أن تستقبل الأمر كما استقبله سيدنا خالد بن الوليد ﵁، لكن الإيمان يصنع بالنفوس المعجزات، فسيدنا خالد كانت قيادته لله، وكانت جنديته لله.

فالأمر فى الحالين لمرضاة الله تعالى؛ لذلك أخذ الرسالة دون اعتراض ولا تبرم ولا ضجر، ولكن ترك القيادة وكأنه يتسلم منصبًا أعلى، إنه الإخلاص.

وموقف سيدنا أبى عبيدة بن الجراح ﵁ يُحلق بهذا المستوى الإيمانى الرائع، إنه لا يتعجل تَسلُّم القيادة، بل تمهل فى تؤدة حتى انتهت المعركة، ثم أقبل فى إيمان عظيم يسلم رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، فيسأله خالد بن الوليد ﵁: لماذا لم تُسلِّمْها فور وصولها وأخرتها أيامًا ثلاثة.

فقال أبو عبيدة لخالد: «ما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل».

هكذا كانت نفس أبى عبيدة التى تربَّت فى كنف الإسلام، وقلبه الذى كان مفعمًا بالإيمان، فلم يكن أبو عبيدة يسعى فى حياته لمصلحة شخصية أو رغبة نفسية؛ ولذا حرص على عدم إفشاء خبر عزْل خالد ـ فى حينه ـ لحكمة بالغة هى المحافظة على وحدة الصف الإسلامى فى مواجهة أعداء الإسلام، والمحافظة على خط سير المعركة التى كانت تنتقل من نصر إلى نصر، وربما أوهن خبر العزل

قلوب رجالٍ تعلقت حبًّا بقائدها.

ولو أن إنسانًا فى مكان أبى عبيدة - وقد واتته هذه الفرصة - لأحب أن ينسب إليه هذا النصر، ويتم على يديه هذا الشرف، لكن أبا عبيدة لم يكن يحب أن يحمد بما لم يفعل فَلْيُنْهِ خالد النصر كما بدأه، فما أبو عبيدة بالذى يعمل للدنيا أو نيل حظوظها.

ولو أن إنسانًا فى مكان أبى عبيدة لطار بهذا النبأ فرحًا؛ وصولًا إلى مطامعه التى يحرص على بلوغها ورغبة فى أن ينال هذا السلطان، فبريق الجاه قوى، وحب الزعامة شهوة شديدة.

لكن أبا عبيدة كان يريد سلطانًا آخر هو سلطان الإسلام لا سلطان الدنيا، ويسعى لتمكين دين الله بين الناس، وأن تشرق شمسه على العالمين. الله أكبر، ورضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ.

أما عن سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فقد خشى على قلوب المؤمنين أن تربط النصر بوجود خالد، فإذا ما غاب اهتزت ثقتهم، وشىء خطير أن ترتبط الأمة بفرد، فأراد ﷺ أن يؤكد لهم حقيقة إيمانية، وهى أن النصر للمؤمنين من عند الله سواء أكان خالد قائدًا أم كان جنديًّا بين الصفوف.

كما تحمل هذه الرسالة دلالة مهمة، هى أن الأمة ولَّادة للقيادات، لا يتوقف عطاؤها عند قائد واحد، وهذا يدفعها إلى مواصلة رحلة الخير والجهاد فى سبيل الله، وأن الراية دائمًا مرفوعة تنتقل من قمة إلى قمة، فهى فى رقى دائم.

والحمد لله رب العالمين

١٥٥. سبقنى إلى أربع (*)

جاء رجل ماكر إلى الإمام علىّ رضي الله عنه فقال: يا على، ما بال المهاجرين والأنصار قدَّموا أبا بكر وأنت أفضل منه منقبة، وأقدم منه إسلامـًا، وأسبق سابقة؟!

وأدرك الإمام علىّ مكر الرجل، فقال له: يا هذا إن أبا بكر سبقنى إلى أربع: سبقنى إلى الإمامة، والهجرة، والغار، وإفشاء السلام.

ويحك أيها الرجل! ألم تَرَ أن الله مدح أبا بكر فى قرآنه؛ فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ (الليل)، ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ (الزمر). لا، فأين علىّ من أبى بكر؟

*****

هذا موقف عظيم من الإمام على رضي الله عنه تتحطم على أعتابه نوازع النفس الأمارة بالسوء وتبطل النميمة فلا يكون لها أثر؛ بل ويسهم الإمام علىّ فى علاج

(*) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق، (٣٠/ ٢٩١).

هذا النهام بهذا الحوار العقلى المقنع الذى يظهر فضل أبى بكر الصديق ﵁، وأنها حق بالمقدمة والخلافة والإمامة.

ولو أن أمتنا وعت هذه الحقيقة وهذا الدرس ما كان بيننا تفرق وتمزق.

جاء الرجل الماكر النهام، فى ثوب المتقربين المحبين الراغبين فى علو شأن الإمام علىّ ﵁، وأخذ يُفَضِّل الإمام علىٍّ على الصدِّيق رضى الله عنهما، واستند فى ذلك إلى سبق الإمام علىّ إلى الإسلام.

ورضوان الله على صحابة رسول الله ﷺ فأخلاقهم من أخلاق حبيبهم رسول الله ﷺ تقوم على نسبة الفضل لأهله، وتقوم على الإيثار والمحبة والمودة والمحافظة على جماعة المسلمين، فالإمام علىّ ﵁ ارتفع فوق حظوظ النفس البشرية وحبها للإمارة، وألزم نفسه التواضع مع الحب والإيثار لأبى بكر الصديق ﵁.

ثم بدأ يبين للرجل خطأ حجته، وهذه معالجة كريمة من الإمام علىّ ﵁؛ حيث قال للرجل: إن أبا بكر سبقنى إلى أربع:

سبقنى إلى الإمامة، والهجرة، والغار، وإفشاء السلام.

ثم ردَّ الرجل إلى القرآن الكريم، وقال له: ألم تر أن الله مدح أبا بكر فى قرآنه، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ (الليل)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣ ﴾(الزمر).

وهكذا ينبغى أن تكون أخلاق من تجمعهم المنازل العالية فى الإدارة أن يحب الواحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يؤثروا إخوانهم على أنفسهم؛ لأن هذه الأخلاق تجمع الأمة على الألفة، فلا يكون بيننا حسد ولا قطيعة، فالحرص بين

صحابة النبى ﷺ كان على مرضاة الله تعالى، وليس على الإمارة أو المناصب؛ وذلك لأنهم اهتدوا بهدى الرسول ﷺ القائل: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خِزْىٌ وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها»[1].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، (٤٨٢٣).

١٥٦. المرأة والعلم (*)

قال عروة بن الزبير بن العوّام لعائشة: يا أمتاه: لا أعجب من فقهك، أقول: زوجة رسول الله ﷺ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبى بكر الصديق الذى كان من أعلم الناس بأنساب العرب وشعرهم.

ولكن أعجب من علمك بالطب، كيف هو؟ ومن أين هو؟ فقالت عائشة: أى عُريَّة (تصغير عروة)، إنَّ رسول الله ﷺ كان يَسقم عند آخِرِ عُمْرِه، فكانت تقدم وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجه.

*****

هذا موقف يتصل بقضية من أهم قضايا المسلمين فى العصر الحاضر. ويأتى هذا الموقف؛ ليكون حكمة وبرهانـًا على مكانة المرأة فى الإسلام، ودورها فى العلم وفى الحياة العامة.

فالإسلام كرَّم المرأة بنتًا، وجعل تربية البنات طريقـًا إلى الجنة، وكرَّم المرأة

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، (٢٤٤٢٥)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

أمَّا فجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، وكرَّم المرأة زوجة، فجعل إكرامها ميزانًا لخيرية الرجل لقوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(1).

ولم يعزل الإسلام المرأة عن الحياة العامة والمشاركة فيها كما يزعم أعداء الإسلام، بل أتاح لها المشاركة في الجهاد في سبيل الله، وفي العلم، وفي الدعوة إلى الله تعالى، وفي الحياة العامة، وكل ذلك في إطار طاعة ربها دون تفريط في هدى من هدى دينها.

ونحن ـ في هذا الموقف ـ أمام شخصية ثرية جدًّا.

إنها قمة من القمم النسائية التي انتفعت البشرية بعلمها ومواقفها، وحسبها أن الله تعالى أنزل فيها قرآنًا يتلى في مواقف عديدة.

إنها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وعن دورها في العلم ـ كما يظهر من الموقف ـ فإن السيدة عائشة رضي الله عنها كان لها علم بالحديث، فقد روت أكثر من ألفي حديث، ذكر لها في الصحيحين منها سبعة وتسعون ومائتا (٢٩٧) حديث.

وكان للسيدة عائشة رضي الله عنها علم بتفسير آيات القرآن الكريم، فمن ذلك سؤال عروة عائشة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة).

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، (٣٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣١٤).

فأجابت: لأن النبى قد مشى بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما أو أن يتحرج من ذلك.

وكان للسيدة عائشة رضى الله عنها مشاركة فى الحياة العامة؛ فقد طلبت رضى الله عنها من عمر بن الخطاب ﷺ وهو فى النزع الأخير أن يعين للأمة خليفة من بعده؛ حتى لا تتفرق الأمة من بعده.

ثم يبين الموقف أن السيدة عائشة مع فقهها، وعلمها بأنساب العرب وشعرهم، تعلمت الطب، وسألها عروة عن مصدر هذا العلم.

فأجابت «بأنها استفادت من الأطباء الذين كانوا يأتون مع وفود العرب إلى رسول الله ﷺ فى أواخر عمره، وكان النبى ﷺ يصيبه المرض، فكانوا يصفون له بعض الأدوية، وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها هى التى تقوم بتمريضه ومعالجته بهذه الأدوية، فتم لها هذا العلم.

اللهم فَهِّمْنا وعلِّمنا ونَوِّرنا وباركنا يا رب العالمين

١٥٧. ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (*)

أثناء غزو المسلمين للقسطنطينية، أخرج الروم صفًّا عظيمًا للمسلمين، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، وحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس: يلقى بيده إلى التهلكة!!

فقال أبو أيوب الأنصارى: سبحان الله! إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأعز دينه قلنا: نقيم فى أموالنا نصلحها وندع الجهاد، فأنزل الله قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ (البقرة).

*****

هذا موقف يصحح مفهومًا خاطئًا شاع بين كثير من المسلمين عن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة/ ١٩٥).

والمعنى كما أشار ابن عباس والجمهور: لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك

(*) راجع تفسير الطبرى (٣/ ٥٨٨)، والسمرقندى (١/ ١٩٠).

النفقة فى سبيل الله لخوفكم العيْلة.

• ومن دلالات الموقف الهادية: عدم الاكتفاء بالدلالات اللغوية لألفاظ الآية فى تفسير معناها، إذ إن من الآيات ما يرتبط بمواقف وأسباب نزول، وبعضها قد يكون له وجه من المعنى عيّنه النبى ﷺ؛ كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ (المؤمنون).

فقد تبادر إلى ذهن السيدة عائشة أنها نزلت فى العصاة الذين يخافون حساب الله وعقابه إذا صاروا إليه، فبين النبى ﷺ أنها فى المطيعين الذين يخشون ألا تقبل طاعتهم لنقص فيها، وكقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ (البقرة).

فقد فهم بعض الصحابة أن الخطيئة هى أى ذنب، فبين لهم النبى ﷺ أن الخطيئة هنا هى الشرك بالله تعالى.

• ومن دلالات الموقف أيضًا: التضحية والفداء، فهما وراء إنجاز البطولات العظيمة، التضحية بالنفس والمال وكل غالٍ نفيس.

• كما رأينا ـ فى الموقف ـ هذا الجندى المسلم الذى قام بالاقتحام العجيب المدهش لصفوف الروم، وعلى هذه الروح يربى الإسلام أتباعه.

والحمد لله رب العالمين

١٥٨. سبيل النصر (*)

لما كان يوم بدر، وجاء الكفار فى غرور وزهو بعددهم وعدتهم، واستهانوا بأمر المسلمين؛ لقلة عددهم وعدتهم، وأجمعوا أمرهم على استئصال الإسلام ونبى الإسلام من الوجود.

وتضرع النبى ﷺ إلى ربه قائلًا: «اللهم هذه قريش قد أَتَتْ بخيلائها تحاول أن تُكَذِّب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض».

فأنزل الله آيات ترسم طريق النصر للمؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأنفال).

*****

هذا الموقف يحتوى على خمسة توجيهات ربانية لأهل الإيمان إذا أرادوا أن يفوزوا بالنصر على أعدائهم، يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

(*) كتاب القول المبين فى سيرة سيد المرسلين، باب اللجوء إلى الله (١/ ٢٣١).

﴿فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ (الأنفال).

هذا نداء لأهل الإيمان الذين يرغبون فى النصر على أعدائهم.

- التوجيه الأول: هو قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾، والثبات ينبغى أن يُفهم على حقيقته، وأمْرُ الله لنا بالثبات معناه أن تأخذ بأسباب هذا الثبات، والله سبحانه بيَّن لنا هذه الأسباب التى تجعلنا من أهل الثبات والصمود حين قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ (الأنفال).

فالضعيف لا ثبات له أمام الأقوى، والجاهل لا ثبات له أمام العلم، والفقير لا ثبات له أمام القوة الاقتصادية المتكاتفة؛ فينبغى أن يفهم أهل الإيمان الثبات المطلوب منهم على وجهه الصحيح، وهو أن يأخذوا بأسباب الثبات؛ حتى يتمكنوا من الثبات أمام عدوهم.

- أما التوجيه الثانى: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ (الجمعة).

عرفت الأمة فى أوقاتها المعاصرة الذكر اللسانى القولى؛ كأن يجلس الواحد، ويقول مائة مرة، أو ألف مرة: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ونحو ذلك، وهذا طيِّب، وهذا مطلوب، ولكن ينبغى أن يفهم المؤمن أن ذكر الله لا يقتصر عند حد الذكر اللسانى القولى، وقد بينت كتب التفسير وكتب اللغة أن القرآن أرشد إلى دلالات كثيرة من معنى ذكر الله تعالى؛ من بينها الذكر العلمى بإحياء هدى القرآن الكريم، وإحياء سنة رسول الله ﷺ، فحين تكتمل فينا الأسوة والقدوة

سنكون من أهل الذكر الحقيقى؛ مثلا فى العمل حينما تتكلم عن معايير الجـودة فى الإسلام؛ فهذا لون من ألوان الذكر العلمى.

وحين نعرف معنى الإتقان فى العمل؛ فهذا لون مـن ألـوان الـذكر العمـلى أيضًا، أن يكون لنا الإسهام فى الاكتشاف العلمى والمصالحة مع كون الله تعالى هو الذى وصلنا الله به؛ فإن التخلف العلمى جريمـة فى حـق الإسـلام والمسلمين فى حياتنا المعاصرة، فالذكر العلمى يمتد إلى هذه الشئون كلها.

- التوجيه الثالث: يقول ربنا مبينًا أسباب التماسك وعـدم الانهيـار أمـام الشدائد والمحن: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ (الأنفال/ ٤٦).

إذا أحبت الأمة أن تجتمع إلى شىء يجمع شملها ويوحد أمرها، فهو القـرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ، وأن تبتعد الأمة عن التنـازع فكفانـا فرقـة، كفانـا تمزقًـا وتشتيتًا، وإذا كان أهل الباطل قد اصطلحوا واجتمعوا على باطلهم، فأولى بأهـل الحق أن يتحدوا لحماية حقهم وصيانته.

- التوجيه الرابع: هـو قولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ أى: تـضعفوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى: قوتكم.

- التوجيه الخامس: قوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، والـصبر هنـا ليس كما يفهم البعض أنه شىء سلبى كالاستسلام ونحو ذلك، إنما الصبر قـوة فى التحمل لإنجاز طموحات وآمـال الأمـة، هكـذا يوجهنـا الله تبـارك وتعـالى إلى أسباب النصر؛ كى يتأتى أن تكون فى المقدمة.

إن المحن البشعة التى تصيب الأمم يتخذ منهـا العقـلاء دافعًـا للتـصحيح،

وينبغى للأمة أن تهتدى بهدى القرآن الكريم، وأن تعمل بأسباب النصر التى أمـر الله سبحانه وتعالى بها؛ فالقرآن موجود، ورب القرآن موجود، والـسنة موجـودة، والذى غاب عن منظومة التفوق ومنظومة التقدم هو الإنسان القرآنى الذى يعمل بالقرآن، ويتخلق بالقرآن، ويتأدب بالقرآن، ويتأسى بنبى القرآن.

هذا وبالله التوفيق

١٥٩. الكيف قبل الكم (*)

جلس عمر بن الخطاب ﷺ يومًا مع أصحابه فقال لهم: تَمَنَّوْا؛ فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه فى سبيل الله وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه فى سبيل الله وأتصدق.

ثم قال عمر: تَمَنَّوا. فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين. فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان.

*****

هذا الموقف يؤكد إيمانية حضارية تشتد إليها الحاجة فى ظروف أمتنا المعاصرة، وهى أن حاجة الأمة إلى بناء الرجال مقدم على حاجتها المادية من مال ونحو ذلك.

فقد تمتلك الأمة الثروات المادية لكنها لا تمتلك حضارة ولا تقدمًا ولا تسيُّدًا للعالم. إن نوعية الرجال هى التى تنجز الحضارة وتبنى الأمة وتجعل لها

(*) أخرجه الحاكم فى مستدركه، كتاب: معرفة الصحابة ﷺ، باب: ذكر مناقب سالم مولى أبى حذيفة ﷺ، رقم (٥٠٠٥)، وقال الذهبى: على شرط البخارى ومسلم.

المقدمة بين الأمم.

لذلك رأينا عمر بن الخطاب ﷺ لا يتمنى كما تمنى الآخرون ذهبًا أو فضة ينفقها على فقراء المسلمين، ولكن تمنى رجالا لا ككل الرجال، وإنما من صفوة الرجال كأبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة، ومعاذ بن جبل سفير النبى ﷺ ونحوهما.

وهذا درس قيم نتعلمه من هذا الموقف، هو أن نقدم الكيف على الكم.

لقد ذَمَّ القرآن الكريم الأكثرية إذا كان أصحابها لا يعقلون، أو كانوا جهلة لا يعلمون أو كانوا من الجاحدين الذين لا يشكرون فضل ربهم؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (العنكبوت)، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (غافر)، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ (البقرة).

فى مقابل مَدْح الله القلة إذا كانت صالحة عاقلة، يقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (ص/ ٢٤).

وفى هذا الإطار ينبغى أن نفهم أن الإسلام يعتنى ويعظم شأن النوعية والكيفية، ويقدمها على الأكثرية.

وفى تاريخ الأمة ـ من الأحداث والوقائع ـ ما يؤكد أن الفئة القليلة ـ حين تصح توعيتها ويعتنى فيها بالكيف ـ تتفوق وتتقدم وتسيطرعلى الكثرة الكثيرة التى لا علم لها ولا عمل، قال الله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة/ ٢٤٩).

ولقد نصر الله الفئة المؤمنة الصادقة فى بدر، وكاد المؤمنون يخسرون المعركة

فى حنين ـ حين نظروا إلى الكم، وقدَّموه على الكيف، وغرتهم الكثرة وأصابهم غرور الكثرة، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ (التوبة/ ٢٥).

وهكذا كان فَهْمُ الصحابة، فإنهم يقدمون الكيف على الكم: بعث عمر بن الخطاب عمرو بن العاص رضى الله عنهما لفتح مصر، ثم طلب ابن العاص من ابن الخطاب مددًا، فأمده بأربعة الآف ومعهم أربعة، قال عنهم: الواحد منهم بألف، فالعبرة بنوع الرجال وقدراتهم ومواهبهم لا بأعدادهم أو أحجامهم.

وروى عن عمر ﷺ أنه جلس يومًا مع بعض الصحابة فى دار واسعة، فقال لهم: تَمَنَّوْا. فقال أحدهم: أتمنى أن يكون لى ملء هذه الدار دراهم من فضة أنفقها فى سبيل الله، وتَمَنَّى آخر أن يكون له ملؤها ذهبًا ينفقه فى سبيل الله. أما عمر فقال: أتمنى ملء هذه الدار رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة أستعملهم فى سبيل الله. والحديث النبوى الشريف يؤكد هذا المعنى، قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها».

قالوا: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال ﷺ: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن».

قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟

قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وفى عصرنا كثر عدد المسلمين فى العالم حتى جاوز المليار وربع المليار من البشر؛ ولكن حالهم كما نرى.

إذًا المهم هو النوعية والكيف.

وأيضًا فى مجال العمل يربى فينا الإسلام الإتقان والاهتمام بالنوعية، قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء»[2]؛ ففى الأعمال والعبادات يطالبنا الله بالنظر إلى النوعية، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر، وقال النبى ﷺ: «رب صائم ليس من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[3].

وفى العلم واستذكاره لا يترك الإنسان مسألة ويُشغل بغيرها إلا بعد إتقان الأولى فهمًا ومعرفة؛ حتى يتنامى العلم بدقة دون تشويش أو تضليل.

وهكذا لو فَقِه المسلم هذه القاعدة الإيمانية القرآنية؛ لتحقق له التميز

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، من حديث ثوبان ، (٢٢٤٥٠)، وأبو داود فى سننه، كتاب الملاحم، باب فى تداعى الأمم على الإسلام، (٤٢٩٩)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، (٥١٦٧).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ، (٨٨٤٣)، وابن ماجه فى سننه، كتاب الصيام، باب ما جاء فى الغيبة والرفث للصائم، (١٦٩٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٨٨).

والتفوق ـ فى عصر العولمة ـ فى إنتاجه وعمله، والنبى ﷺ يقول: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير»[1].

وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة/ ١١).

وقال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[2].

وقد سُئل ﷺ عن أطيب الكسب فقال: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»[3].

اللهم أكرمنا بحسن الفهم والعلم.. والله المستعان

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب القدر، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، (٦٩٤٥).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، (١٣٦١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، (٢٤٣٣).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الشاميين، حديث رافع بن خديج ﷺ، (١٧٣٠٤)، وحسنه الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

١٦٠. ولكن أوْهمتها (*)

خَرَج البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ يطلب الحديث من رجل، فرآه قد هربت فرسه، والرجل يشير إليها برداء كأن فيه شعيرًا؛ فجاءته فأخذها. فقال البخاري: أكان معك شعير؟ فقال الرجل: لا. ولكن أَوْهَمْتُهَا. فقال البخاري: لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم.

*****

هذا موقف يظهر أهمية الأسوة والقدوة وبخاصة فى فضيلة الصدق، لقد رفض البخارى أن يأخذ الحديث ممن أوهم فرسه بأن معه شعيرًا؛ كى تأتى إليه. وفى هذا غاية التحرى والحرص فى أخذ حديث سيدنا رسول الله ﷺ، وهذه دقة فى الأمانة العلمية التى أرسى قواعدها الإسلام الحنيف، ولقد ذم الإسلام خيانة الأمانة العلمية، فجعلها جريمة يحاسب الله عليها، وجعلها من صفات النفاق، قال النبى ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان»[1].

(*) دروس للشيخ محمد المنجد، (٣٦/ ٣٤).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (٣٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، (٢٢٠).

والصدق فضيلة أمرنا القرآن بها، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (التوبة).

وبين النبى ﷺ ثمرات الصدق وفوائده:

- **الأولى: هى أن الصدق باب الجنة، قال النبى ﷺ: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدِّيقًا وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1].**

- **الثانية: ما أخبرنا به النبى ﷺ أن الصدق يورث راحة الضمير والقلب، قال النبى ﷺ: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[2].**

- **الثالثة: الصدق طريق إلى البركة فى الكسب وزيادة الخير، قال النبى ﷺ: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، أو قال: حتى يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك فى بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقتْ بركة بيعهما»[3].**

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾، (٥٧٤٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، (٦٨٠٣).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند أهل البيت، حديث الحسن بن على ، (١٧٢٧)، والترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٥١٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٧٨).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة فى الشراء والبيع، (١٩٧٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البيوع، باب الصدق فى البيع والبيان، (٣٩٣٧).

- الرابعة: الصدق فى النية يحقق للإنسان غايته وطموحه، قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[1].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة فى سبيل الله تعالى، (٥٠٣٩).

١٦١. الله أرحم بعباده (*)

رأى رسول الله ﷺ امرأة تضم طفلها إلى صدرها فى حنان بالغ وحب عميق، فالتفت ﷺ إلى أصحابه، وقال لهم: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟». قالوا: لا والله يا رسول الله. فقال النبى ﷺ: «للهُ أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها».

*****

الله تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا.. إنه كمالات فى كمالات لا يعلم قدرها إلا هو سبحانه.

ويبين الموقف سعة رحمة الله بعباده، فالله أرحم بعباده من رحمة الأم بولدها، وفى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة بيان لمظاهر هذه الرحمة بالعباد، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الزمر).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يُدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول نعم أى ربِّ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم،

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (٥٦٥٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب التوبة، باب فى سعة رحمة الله تعالى، (٧١٥٤).

فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ (هود)[1].

كل هذا يحمل الإنسان على الحياء من الله، والمسارعة بالتوبة؛ لينال هذه الرحمة، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦﴾ (الأعراف).

فمعنى هذا أن رحمة الله تَسَعُ جميع التائبين مهما كانت ذنوبهم، حتى لو كانت مثل زبد البحر، وليس الأمر كما يفهمه بعض العامة من التعلل بأن رحمة الله وسعت كل شىء، فيتمادى الواحد منهم فى المعصية والإثم.

ولا تقف رحمة الله تعالى عند مغفرة الذنوب، بل تمتد لتشمل كل نواحى الحياة وشئون الإنسان، فما بين الزوجين من مودة وسكينة ومشاعر حانية هو رحمة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ (الروم).

ومن رحمة الله تعالى أيضًا عطف الكبير على الصغير ورأفة الوالد بولده والأم بولدها، ليس فى الإنسان فقط بل فى الحيوان أيضًا، وفى الحديث: عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس، والجن، والوحش، والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، (٢٣٠٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (٧١٩١).

أولادها، وأَخَّرَ الله تِسْعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[1].

وهكذا من يتتبع كل شأن للإنسان فى دين الله تعالى يجد فيه وجهًا من وجوه رحمة الله تعالى.

وكل من ينظر ويتأمل فى كون الله تعالى يجد من مظاهر رحمته سبحانه ما يعجز الإنسان عن حصره.

أما أن يضع العبد نفسه فى موضع الحرمان، فهذه هى الخسارة بعينها، كما ينبغى للعبد أن يكون رحيمًا مع عباد الله؛ كى ينال رحمة الله، قال النبى ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[2].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب التوبة، باب فى سعة رحمة الله تعالى، (٧١٥٠).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، (٦٤٩٤)، وأبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب فى الرحمة، (٤٩٤٣)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٢٢).

١٦٢. تـواضـع ومصـارحـة (*)

ذهب سيدنا بلال بن رباح ﷺ مع أخيه لخطبـة فتـاة، فتقـدم لأبيها قائلًا له: أنا بلال وهذا أخى، عبدان من الحبشة، كنا ضالَّين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله. إن تزوجونـا فالحمـد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر.

*****

هذا موقف إيمانى يفيض بالعظات النافعة والعبر الهادية:

- الدرس الأول: أن سيدنا بلالًا بن رباح ﷺ يقدم بيانًا شافيًا عن سـيرته الذاتية وعن أخيه أيضًا يضعها بـين يـدى ولى أمـر الفتـاة التـى يرغـب أخـوه فى خطبتها.

إنها الأمانة فى بيان الحقائق دون إخفاء أو تنكـر لـبعض أحـوال المـاضى أو انسلاخ منها، وإن ظـن بعـض النـاس أنهـا تنـال مـن أقـدارهما عنـد الآخـرين؛ كالعبودية وما يرتبط بها من مذلة وهوان.

ويظهر هذا من قول بلال: أنا بلال وهـذا أخـى، عبـدان مـن الحبـشة، كنـا ضالَّين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله.

(*) أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى، (٣/ ٢٣٧).

وفى هذا درس قيم للشباب أن يكونوا أمناء صادقين، حين يتقدمون لخطبة فتاة يرغبون فى الزواج بها، وثمرة ذلك أن الصدق والأمانة فى تقديم السيرة الذاتية عن الخاطب يصل بنا إلى نتائج حقيقية صالحة بعيدًا عن المفاجآت المفزعة التى يتسبب فيها الكذب والتمويه، وذكر ما ليس فينا من صفات وأحوال.

- والدرس الثانى: عدم الإلحاح من الخاطب، وإعطاء ولى أمر الفتاة فرصة الاختيار دون حرج، ويظهر هذا من قول سيدنا بلال ﵁: إن تزوجونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر.

وفى هذا درس قيم يدعونا إلى عدم ممارسة الضغوط الأدبية والإلحاح الحاد على ولى أمر؛ كى تُنتزع منه الموافقة.

- والدرس الثالث: هو روح الأسرة المسلمة، وهذا التماسك وهذا الخلق الحسن الذى يشملها، فسيدنا بلال يصحب أخاه إلى ولى أمر الفتاة؛ كى يشد من أزره.

وفى هذا تأمين للعلاقات الاجتماعية التى تقوم على الود والمحبة والاحترام للآخرين، وحفظها وحمايتها من وساوس الشيطان ونزغاته.

ونظرة إلى المؤهلات التى تقدم بها بلال وأخوه لخطبة الفتاة، نجد أنها بمعيار القيم المادية الاستهلاكية، التى يرتفع فيها ميزان الجاه والمال، تعتبر مؤهلاتٍ ضعيفةً لا ترقى للفوز بخطبة الفتاة فى حياة قبلية تقوم على التفاخر والتباهى بالنسب والجاه والمال، لكن هذه المؤهلات بمعيار القيم الإيمانية من التقوى والصلاح والصدق والأمانة ترقى للفوز بخطبة الفتاة.

وفى الحـديث النبـوى الـشريف: «إذا جـاءكم مـن ترضـون دينـه وخلقـه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير»[1].

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، (١٠٨٥)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٨٢) كتاب النكاح، باب الترغيب فى التزويج فى ذى الـدين والخلـق المـرضى، وحـسنه الألبانى فى إرواء الغليل (١٨٦٨).

١٦٣. عففت فعفوا (*)

جِىء بتاج كسرى إلى عمر فاستعظم الناس قيمته للجواهر التى كانت عليه، فقال: إن قومًا أَدوا هذا لأمناء، فقال على ﵁: إنك عففت فعفُّوا، ولو رتعت لرتعوا.

*****

فى هذا الموقف أسوة وقدوة لقيم إيمانية عظيمة.

أى رجال هؤلاء؟!

إنهم صحابة رسول الله ﷺ، تربوا على سنته، وعلى هدى الوحى المبارك. ما زاغت منهم الأبصار إلى بريق مال أو شهرة، ولكنهم تطلعوا إلى المنازل العالية فى مرضاة الله تعالى.

وهذا جندى من بين آلاف الجنود المؤمنة وجد فى طريقه كيسًا مملوءًا بالذهب والمجوهرات النادرة، فطواه فى ثوبه، دون انبهار ببريق الذهب، وأسرع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، وأعطاه الكيس.

إنها يقظة الضمير والإيمان بأن الله رقيب لا يغيب، وأن مرضاة الله تعالى بالتزام الأمانة أعلى وأغلى من بريق الذهب والمجوهرات، وأن الآخرة خير من الأولى، وأن ما عند الله خير وأبقى.

(*) ذكره ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة (١٢/ ١٤).

تظهر كل هذه المعاني من إجابة الجندى الأمين، حين سأله سيدنا عمر ﷺ: ما حملك على تسليم الذهب لنا، وكان فى وسعك أن تأخذه دون أن يراك أحد؟!

فقال الجندى: حسبى أن الله يرانى، نعم حسبه وكفاه أن يراه الله، فليصنع ما يرضى الله تعالى.

ثم لما أراد عمر ﷺ أن يكافئه رفض لأنه فعل ذلك؛ ابتغاء مرضاة الله تعالى.

إنه يخشى أن تنقص مكافأة الذهب من أجره عند الله؛ فلذا آثر المنازل العليا فى مرضاة الله على الذهب والمجوهرات.

ثم يأتى فى ختام الموقف هذ الدرس القيم فى أهمية القدوة الطيبة من القيادة، فإن الأتباع يسيرون على هَدْى فِعْله قبل قَوْله، يظهر هذا من قول أحد جلساء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ معقبًا على حسن صنيع الجندى الأمين: يا أمير المؤمنين عففت فعَفُّوا، ولو رتعت لرتعوا.

١٦٤. فاختار لابنته العلم(*)

تقدم شابَّان لسعيد بن المسيِّب (سيد التابعين)، كل منهما يرغب فى الزواج بابنته. وكان الشاب الأول من أسرة غنية لها مكانتها فى المجتمع، وكان الشاب الثانى طالبَ علمٍ فى حلقة سعيد بن المسيِّب، فاختار لابنته طالب العلم، وسأله: ما معك من مال؟ قال:دراهم قليلة. فَقَبلَهَا منه، وزوَّجه بابنته.

*****

هذا موقف تشتد إليه الحاجة فى حياتنا المعاصرة التى شاع فيها المغالاة فى المهور، وارتباط معايير الاختيار فى الزواج بالقيم المادية الاستهلاكية.

- وأولى هدايات الموقف، هى: تأكيد أساس الدين والخلق فى اختيار الزوج، فقد رأينا فى الموقف سيدنا سعيد بن المسيب يُفضّل قيمة العلم على قيمة المال، فاختار لابنته طالب العلم الذى تأدب بأخلاق القرآن والسنة، وهذا موافق لهدى النبى ﷺ، فهو القائل: «إذا جاءكم من ترضَوْنَ دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير»[1].

(*) حلية الأولياء، (٢/ ١٦٧، ١٦٨).

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، (١٠٨٥)، وحسنه الألبانى فى إرواء الغليل (١٨٦٨).

وما من شك فى أن معيار العلم والدين والخلق يحقق طيب العشرة وكـريم المعاملة، فى حين أن معيار المادة من المال والغنى أو الجمال والجاه إذا خلا من الخلق والدين أضر بصاحبه.

• والهداية الثانية هى: التيسير فى أمر الزواج، وعدم المغالاة فى المهـر، وقـد رأينا فى الموقف أن سعيد بن المسيِّب زوّج ابنته لطالب علـم بـما معـه مـن دراهـم قليلة.

ونجد ـ فى هذا المجـال ـ أن رسـول الله ﷺ قـد زوج فاطمـة رضى الله عنهـا بسيدنا علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه على درع الإمـام عـلىّ رضي الله عنه التـى كـان يـستخدمها فى الحرب.

والمهر هنا مسألة رمزية، واليسر فيه مطلوب لتيسير الحال، أما ما يتباهى بـه الناس اليوم من شئون مادية ترهق الناس من أمرهم عسرًا، فليس هذا من الـدين فى شىء.

١٦٥. من سماحة الإسلام (*)

بينما كان معاوية بن الحكم السُّلمى ﵁ يصلى مع رسول الله ﷺ إذْ عطس رجل من القوم، فقال له: يرحمك الله، فرماه القوم بأبصارهم. فقال: ما شأنكم تنظرون إلىّ؟

فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما صلى رسول الله ﷺ، فوالله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرنى (زجرنى) ولا ضربنى ولا شتمنى، وإنما قال لى: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

*****

- هذا الموقف من صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ يمثل صورة واضحة من صور سماحة الإسلام ويُسْره، وسماحة نبيه ﷺ ورفقه وحكمته.

ويشهد القرآن بهذه الحقيقة، وهى سماحة الإسلام ودعوته إلى اليسر ودفع الحرج؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج/ ٧٨).

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام فى الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، (٨٣٦).

وقوله تعالى فى سياق بيان فريضة من فرائض الإسلام، وهى الصيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة/ ١٨٥)، وقوله تعالى فى سياق فريضة أخرى وهى الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ (المائدة).

واليسر والرفق والسماحة من هدى النبى ﷺ؛ من ذلك قوله ﷺ: «إن الدين يُسْر، ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه»[1].

وقوله ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[2].

وقوله ﷺ: «فإنما بُعِثْتُم ميسرين، ولم تُبْعَثُوا معسرين»[3].

وكان شأن الرسول ﷺ اختيار الأيسر، قالت عائشة رضى الله عنها: ما خُيِّر النبى ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمـًا، فإن كان إثمـًا كان أبعد الناس منه[4].

وقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[5].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (٣٩).

(٢) أخرجه البخارى معلقًا بصيغة الجزم، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان، قبل حديث رقم (٣٨).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول فى المسجد، (٢١٧).

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، (٦٢٨٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، (٤٢٩٥).

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا، (٦٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فى الأمر بالتيسير وترك التنفير، (٤٦٢٦).

وقد بين الله تعالى فى القرآن حرص رسول الله ﷺ أن تأخذ أمته باليسر ولا تقع فى مشقة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة).

• كما يظهر من الموقف حكمة رسول الله ﷺ فى التربية بالرفق واللين وعدم مقابلة المخالفة بالعقاب لمن كان مبتدئًا فى حجر التربية. إنه ﷺ يعلمنا كيف نعالج ونصلح ونُغَيِّرُ عن طريق الموعظة والرفق واليسر، ويظهر هذا فى قول النبى ﷺ للرجل الذى تكلم فى صلاته وقال لمن عطس: يرحمك الله. قال له النبى ﷺ فى هدوء ودون تعنيف: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

• كما يظهر لنا من الموقف ـ أيضًا ـ أثر الرفق فى الإصلاح؛ حيث وقعت الموعظة النبوية فى قلب الرجل، وانتفع بها، وقال شاكرًا:

ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرنى (أى: ما عنفنى) ولا ضربنى ولا شتمنى.

وفى هذا درس للدعاة والمصلحين وأهل التربية أن يأخذوا الناس بالرفق واللين والرحمة، تأسيًا بهدى النبى ﷺ؛ كى يرغبوا الناس فى فضائل الدين وهديه. إن من أخطأ يحتاج إلى الإعانة، لا إلى الإدانة.

١٦٦. أمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة (*)

أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت فى سبيل الله حتى أقتل أمشى برجلى هذه صحيحة إلى الجنة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

فقتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولىٰ لهم، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال: كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة، فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجعلوا فى قبر واحد.

*****

هذا موقف بطولى عظيم لصحابى جليل لم تمنعه رجله العرجاء من المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، وحقق الله له منزلة الشهادة، وقال ﷺ: «كأنى أنظر إليه يمشى برجله العرجاء صحيحة فى الجنة».

بمثل هذه الهمم العالية تقوم قائمة الأمم، وبمثل هذه التضحيات الغالية يكون للأمم حرمتها.

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، باقى مسند الأنصار، حديث أبى قتادة الأنصارى ﷺ، (٢٢٦٠٦)، وحسن إسناده الأرنؤوط فى تعليقه على المسند.

وقد تعجب الدنيا كلها من أناس يقدمون أرواحهم فى سبيل الله، لكنهم لو علموا ما أعده الله للشهيد لزال عجبهم، فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله سَبْعَ خصال:

- أن يغفر الله له فى أول دفعةٍ من دمه.
- ويرى مقعده فى الجنة.
- ويُحلى حُلة الإيمان.
- ويُجار من عذاب القبر.
- ويأمن من الفزع الأكبر.
- ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها.
- ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه[1].

كما أخبرت السنة النبوية المطهرة أن الشهيد لا يجد ألم القتل، قال ﷺ: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة»[2].

كما أخبرت السنة النبوية المطهرة: أنه ما من أحد يدخل الجنة فيتمنى أن

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند الشاميين، حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ، (١٧٢٢١)، والترمذى فى سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فى ثواب الشهيد، (١٦٦٣)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﷺ، (٧٩٤٠)، والترمذى فى سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب فضل المرابط، (١٦٦٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٣٦٧).

يرجع إلى الدنيا إلا الشهيد، عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال: «ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أنها ترجع إلى الدنيا، ولا أن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل فى الدنيا؛ لما يرى من فضل الشهادة»(١).

وحسبنا ما أثنى الله به على الشهداء، قال الله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (آل عمران).

اللهم بلغنا الشهادة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن (٢٦٤٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة فى سبيل الله تعالى، (٤٩٧٥)، اللفظ لمسلم.

١٦٧. اللهم اجعلنى مع صاحب النقب (*)

حاصر مسلمة بن عبد الملك حصنا، فأصابهم فيه جَهد عظيم، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من الجند، فدخله ففتح الله عليهم، فنادى منادى مسلمة، أين صاحب النقب؟

فما جاء أحد حتى نادى مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فجاء فى الرابعة رجل فقال: أنا أيها الأمير صاحب النقب آخذ عهودًا ومواثيقَ ثلاثًا؛ لا تسودوا اسمى فى صحيفة، ولا تأمروا لى بشىء، ولا تشغلونى عن أمرى، فقال له مسلمة: قد فعلنا ذلك بك، قال: فغاب بعد ذلك فلم يُرَ، قال: فكان مسلمة بعد ذلك يقول فى دبر صلاته: اللهم اجعلنى مع صاحب النقب.

*****

هذا الموقف البطولى الفذ يحمل قيمًا هادية، كما يدعونا إلى إطلالة على الحكمة من الفتوحات الإسلامية: فلم تكن الفتوحات الإسلامية كحروب

(*) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق، (٥٨/ ٣٦).

الاستعمار تقوم على رغبة فى الثروات والأموال والتحكم والسيطرة، وإنما كانت الفتوحات الإسلامية لتخليص الناس من سيطرة الاستعمار ومذلته، كما كانت لنشر دعوة الإسلام، دون إجبار ولا إكراه، وكان الناس يدخلون فى دين الإسلام أفواجًا بسبب أخلاق الفاتحين وحسن المعاملة وكريم العشرة.

لقد كان الفاتحون يؤمِّنون الناس ـ فى شتى أحوالهم ـ على أديانهم وممتلكاتهم، لا يهدمون معبدًا ولا كنيسة، لا يقطعون زرعًا ولا شجرًا، لا يقتلون حيوانًا، ويؤمِّنون الشيوخ والنساء والأطفال.

أما دلالات الموقف، فأهمها:

• الدلالة الأولى: أن الصعاب تحتاج إلى البطولات التى ترغِّب فى الشهادة فى سبيل الله، وأن الفدائية والتضحية هى مفتاح النصر فى الحروب، فقد امتنع الحصن على المسلمين، وحاول جنود اقتحامه ولم يفلحوا أمام وابل السهام التى تخرج من الحصن؛ لتواجه من يحاول الاقتراب منه.

إن موازين المعركة تتغير مع الفداء والتضحية، وهل قام هذا الدين إلا على التضحية والفداء؟

• الدلالة الثانية: الإخلاص وابتغاء ما عند الله تعالى. فأمام هذه البطولة الفذة، وأمام هذه التضحية التى لفتت انتباه القائد والجنود، آثر صاحبها أن ينال ثوابها من الله ـ وحده ـ، فذكره عند الله يبقى، بينما الذكر عند الناس يفنى.

إنهم كانوا يضحون لا من أجل شهرة أو من أجل مجد دنيوى، بل كانوا يخافون على طاعتهم من ذكر الناس لها. يخافون أن يدخلها الرياء.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾ (المؤمنون).

فحين سألت السيدة عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قال لها النبى ﷺ: «بل هم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم! أولئك الذين يسارعون فى الخيرات»[1].

والإخلاص لله فى الأعمال يباركها، وينفع بها؛ لذلك نفع الله بعمل صاحب النقب.

- الدلالة الثالثة: موقف القائد وحسن متابعته لأحوال جنوده، وأن مبدأ الثواب والعقاب له أثره فى صلاح الرعية، فمن أحسن فله المكافأة؛ لذلك سأل القائد عن هذا الفدائى البطل. سأل عنه فلم يُجب أحد، ثم خرج الفدائى يقول: أنا أعرف هذا الفدائى بشرط ألا تسألنى عن اسمه،، فوافقه، فقال: أنا هو، ثم دخل سريعًا بين الصفوف كى لايعرف.

وضرب هذا الجندى مثلًا فى الإخلاص الصادق؛ مما جعل القائد مسلمة يدعو فى صلاته: اللهم احشرنى مع صاحب النقب.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المؤمنون، (٣١٧٥)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

١٦٨. ابـن عمتـك تـحكـم لـه (*)

اختلف الزبير مع رجل فى سقى بستان، فاحتكما إلى النبى ﷺ، فحكم النبى للزبير، وقال له: «اسق يا زبير». فقال الرجل: يا رسول الله، ابن عمتك تحكم له! فتلون وجه النبى ﷺ؛ فأنزل الله قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء).

*****

هذا الموقف لصيق بحياتنا المعاصرة، وتشتد الحاجة إلى هديه وعظاته، ويحمل دلالات هادية:

- الدلالة الأولى هى: أن أصحاب الحاجات لا ينظرون إلا إلى قضائها، وقد يقع بعض أصحاب الحاجات حين لا تُعطى لهم ولا تُحقق لهم رغباتهم فى خطأ وزلل، فيتجاوزون حدود الأدب فى الكلام، بل قد يصل الأمر إلى إسناد التهم لمن حكم بغير هواهم، وهذا ما حدث من الرجل الذى اختلف مع الزبير رضي الله عنه فى سقى بستان، فأثنى الرجل ـ فى البداية ـ على رسول الله ﷺ قبل الحكم، فلما حكم النبى ﷺ أن يسقى الزبير أولا ثم يرسل الماء إلى جاره غضب

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المساقاة، باب سكر الأنهار، (٢٢٣١)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ، (٦٢٥٨).

الرجل وأساء فى كلامه إلى رسول الله ﷺ قائلًا: ابن عمتك تحكم له!

وتغير وجه النبى ﷺ ولكن لم يقل شيئًا، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء).

- الدلالة الثانية: هى لزوم من حكم حكمًا أو وقف موقفًا فى الحق - يريد به وجه الله تعالى - ألا يَتحوَّل عن موقفه بسبب إساءة أو بسبب مدح، وليجعل كُلَّ شأنه لله تعالى.

أيضًا ينبغى ألا نجارى السفهاء فى إساءتهم، فأسوتنا وقدوتنا نبينا ﷺ قال فى الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(١).

وفى هذا الموقف نرى صاحب الخُلُق العظيم سيدنا رسول الله ﷺ مع قسوة الكلام وإساءة الرجل إليه ﷺ، وتغير لون وجهه ﷺ إلا أنه صمت، ولم يُردَّ بشىء.

- الدلالة الثالثة: بشرى لمن أُسئ إليه، ولم ينتصر لنفسه بأن الله سينتصر له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (الحج/ ٣٨).

وفى الموقف أنزل الله قرآنًا يؤكد مكانة حكم النبى ﷺ، وأنه ينبغى الامتثالُ لحكمه.

- الدلالة الرابعة: هى أهمية تحكيم أوامر رسول الله ﷺ ونواهيه فى كل ما

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، (٥٦٧٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، (١٨٢).

نأتى به من قول أو عمل؛ حيث جاء الأمر من الله تعالى حاسمًا فى تأكيد هذه الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر/ ٧).

اللهم أكرمنا بحسن الخلق وجميل الأدب والحمد لله رب العالمين

١٦٩. أخشى أن يردوه جملة !! (*)

كان لسيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ شاب صالح، دَفَعَهُ حماسه وغيرته على الحق أن يطلب من والده أن يحمل الناس على الجادة، قائلًا: والله لا أبالى إن غَلَتْ بى وبك القدور فى الحق.

فقال له والده عمر بن عبد العزيز: «يا بنى! إنى أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة، فيردوه جملة فتكون فتنة، ألم تَرَ يا ولدى أن الله ذم الخمر مرتين وحرمها فى الثالثة ؟!».

*****

من سنن الله فى خلقه سنة التدرج فى معالجة الخلل وإنجاز الطموحات، وبخاصة فيما يتصل بالبشر، ولا نعنى بالتدرج التسويف الذى يعطل الأعمال. فالفَرْق بين التدرج والتسويف أن التسويف تعطيل وتأجيل، فى حين أن التدرج تنظيم وتقسيم للعمل إلى مراحل مع مراعاة ظروف كل مرحلة؛ حتى يكتمل البناء صحيحًا فى أناة.

- وقد رأينا ـ فى الموقف ـ أن روح الشباب بما فيها من حماس لا تخلو من اندفاع وتعجل للنتائج، جعلت الشاب الصالح يطلب من أمير المؤمنين عمر بن

(*) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٦٥)، وطبقات ابن سعد (٥/ ٣٣٠).

عبد العزيز أن يحمل الناس على الجادة حملا حاسمًا.

وجاء رأى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يتسم بالحكمة والرفق؛ حيث قال: إنى أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيردوه جملة، فتكون فتنة.

ثم ضرب مثلًا من هدى القرآن الكريم، فقال: ألم تر يا ولدى أن الله ذم الخمر مرتين، وحرَّمها فى الثالثة؟

وفى هذا درس قيم ومنهج حكيم فى معالجة الأمراض الاجتماعية، فالرفق والإقناع والتربية وإحياء ضمير الناس وربطه بالله هو أنجح السبل لعلاج ما بالمجتمع من أمراض وعلل، وكما لا يخفى على عاقل أن حمْل الناس على الفضائل والمكارم لا يصنع مجتمعًا فاضلا؛ فالإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل.

فالإسلام يريد قلوبًا خاشعة فى محراب رضا الله، وعقولا ساجدة فى محراب تعظيم أوامر الله تعالى.

- ومن دروس الموقف أيضًا: أن كثيرًا من الآفات والعلل تحتاج إلى وقت، فينبغى ألا نتعجل النتائج.

وهذا كله من هدى قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل).

اللهم ارزقنا الحكمة والبصيرة يا رب العالمين

١٧٠. قنطرة أم حكيم (*)

عقد الصحابى الجليل «خالد بن سعيد» على أم حكيم عقد الزواج، وأراد الدخول بها أثناء استعداد المسلمين لمعركة «مرج الصفر»؛ فقالت له أم حكيم راجية: لو تأخرت حتى يهزم الله الأعداء. فقال لها: إن نفسى تحدثنى أنى سأقتل. ولم يكن هناك مكان للدخول بعروسه ـ أم حكيم ـ سوى قنطرة تربط بين شاطئ النهر، ومع صباح العرس قامت الحرب، فجاهد خالد بن سعيد بن العاص حتى نال نعمة الشهادة.

فما كان من أم حكيم إلا أن شدت عليها ثيابها وحملت عمود خيمتها تقاتل به الأعداء، فقتلت سبعة منهم، وصارت هذه القنطرة تعرف بـ «قنطرة أم حكيم».

*****

هذا موقف تتجلى فيه قيم البطولة والفداء:

- القيمة الأول: هى أن المؤمن من تحدثه نفسه دائمًا بالشهادة فى سبيل الله،

(*) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٧٠/ ٢٢٧)، تاريخ الإسلام للذهبى (٣/ ٨٥).

فهو يتمناها ويطلبها في الله تعالى، وقد نال الصحابى خالد بن سعيد الشهادة.

والنبى ﷺ يُبشر من سأل الله الشهادة ـ صادقًا من قلبه ـ بأن الله سيكرمه بهذه المنزلة. فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن سهل رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[١].

إن أعظم ما نتقرب به إلى الله تعالى من أعمال هو الشهادة فى سبيله؛ فقد أخرج الحاكم وابن حبان عن عامر بن سعد رضي الله عنه عن أبيه، أن رجلا جاء إلى الصلاة والنبى ﷺ يصلى، فقال حين انتهى إلى الصف: اللهم آتنى أفضل ما تؤتى عبادك الصالحين!!

فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قال: «من المتكلم آنفًا؟».

فقال الرجل: أنا يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ: «إذا يُعْقَر جوادك وتُستشهد فى سبيل الله»[٢].

اللهك ارزقنا الشهادة فى سبيلك يا رب العالمين.

وللأمة عبرة وعظة فى هذا، فإن كان هؤلاء الأبطال قد قدموا أزواجهم فى سبيل الله فلا تبخل أيها المؤمن أن تقدم جزءًا من مالك، فلابد من التضحية من أجل دين الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة فى سبيل الله تعالى، (٥٠٣٩).

(٢) الحاكم (٣/ ٨٤)، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، تعليق الذهبى فى التلخيص: صحيح، أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٤٦٤٠)، قال شعيب الأرنؤوط: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن مسلم بن عائذ.

• القيمة الثانية: هى الدور الرائع لهـذه المؤمنـة المقاتلـة «أم حكـيم» التـى لُقِّبَتْ بقرينة الشهداء؛ لأنها كانـت تتـزوج بالمجاهـدين الـذين يخـتم لهـم بنعمـة الشهادة فى سبيل الله، لقد حملت أم حكيم عمود خيمتها وقاتلت، وقتلـت سـبعة من الأعداء، وعرفت القنطرة التى شهدت جهادها وبطولتها وزواجها بقنطرة أم حكيم.

ومن هذا الموقف يظهر لنا دور المرأة البطولى فى ساحة الجهـاد، ولعـل هـذا يدفع المغالطة والأكذوبة التى أشاعها أعداءالإسلام عن أن المرأة المسلمة معزولـة عن الحياة العامة.

والحق ـ كما نرى فى هذا الموقف ـ أن للمـرأة المـسلمة مـشاركات مـؤثرة فى ميدان الحياة العامة، بل ولها دور مشهود فى الحرب ـ أيضًا ـ.

اللهم آتنا الحكمة وفصل الخطاب والله المستعان

١٧١. هذه الفاتحة، وأين عمر؟ (*)

ذهب عمر بن الخطاب ﷺ ومعه بعض الصحابة إلى صاحب كَرْبٍ ومرض فدعا له عمر، وقرأ فاتحة الكتاب، فكشف الله الكرب وشفى المريض، وبعد حين ذهب الذين كانوا مع عمر بن الخطاب ﷺ حين دعا للمكروب ففرج الله كربه إلى صاحب كرْب آخر، فدعوا فلم يُسْتَجَبْ لهم، فتحيروا، وقالوا: دعا عمر بهذا الدعاء وقرأ هذه الآيات فاستجيب له.فقال لهم صاحب الكرْب:هذا الدعاء، وتلك الفاتحة، ولكن أين عمر؟

*****

هذا الموقف يقدم إجابات شافية عن أسئلة لاهبة تفرض نفسها فى واقع الأمة المعاصر، فإن كان القرآن موجودًا بيننا يملأ الأسماع والعقول والقلوب، فلماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟

وما الذى غاب عن منظومة الحضارة والتقدم؟ وبركة القرآن لمن؟!

يجيبنا الموقف؛ حيث استجاب الله لعمر بن الخطاب ﷺ، وتقبَّل منه دعاءه، ولم يتقبل من الآخرين الذين كانوا معه؟ فقال لهم صاحب الكرب منبِّهًا لهم:

(*) راجع الحلية لأبى نعيم، ترجمة سيدنا عمر.

«هذه الفاتحة وهذا الدعاء، ولكن أين عمر؟!».

حقًّا إن بركة القرآن لمن يعمل به، والله تعالى يستجيب لمن استجابوا لهديه.

والذى غاب عن منظومة التقدم وحضارة هذه الأمة هو الإنسان الذى تخلّق بالقرآن واتبع هديه، فكان القرآن حاضرًا فى عمله، فأتقن العمل وأخلص لله تعالى، وكان القرآن حاضرًا فى سوقه فصدق فى البيع والشراء، وكان القرآن حاضرًا فى معاملاته، فكان أمينًا، وكان القرآن حاضرًا فى علاقاته بالناس فكان رحيمًا ودودًا، وكان القرآن حاضرًا فى قوله وفعله وفى دقّات قلبه.

أما أن يكون القرآن فى حياتنا نغمًا صوتيًّا دون الاعتبار بما فيه من معانٍ وعظات وهدايات، ودون التخلّق به، فهذا حرمان ما بعده حرمان، وسبحان الله القائل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال تعالى: ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (النمل).

ونرى فى الموقف موعظة أخرى؛ وهى: أن زيارة المريض وأصحاب الكربات عمل صالح، وأن الدعاء لهم من أخلاق الصالحين وسنة الهادى البشير ﷺ.

١٧٢. فـإن لـك شـرفًا لا أبـلـغـه (*)

جرى بين الحسين بن علىّ بن أبى طالب وبين أخيه محمد بـن الحنفية رضى الله عنهم كلام، فافترقا متغاضبين، فلما وصل محمـد إلى منزله كتب إلى الحسين: بسم الله الرحمن الرحيم من محمـد بـن على بن أبى طالب إلى الحسين بن علىّ بن أبى طالب، أما بعد:

فإن لـك شرفًـا لا أبلغـه وفـضلًا لا أدركـه، أبونـا عـلىّ، لا أفضلك فيه ولا تفضُلنى، وأمك فاطمة بنت رسـول الله ﷺ، ولـو كان ملء الأرض نساء مثل أمـى مـا وافـين بأمـك، فـإذا قـرأت رقعتى فالبس رداءك ونعليك وتعالَ لتترضانى، وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى، والسلام.

فلبس الحسين رداءه ونعليـه، وجـاء إليـه فترضّـاه رضى الله عنهما وعن آل البيت جميعًا، وعمن اقتدى بهم.

*****

هذا موقف كريم من أهل بيت النبى ﷺ، لقد كانت أخلاقهـم رضي الله عنهم كـأخلاق

(*) نهاية الأرب فى فنون الأدب، النويرى، (١/ ٣٣٧).

جدهم رسول الله ﷺ، تقوم على المكارم والإيثار. ويحمل هذا الموقف دروسًا بليغة؛ منها:

- الدرس الأول: إنزال الناس منازلهم، وبخاصة من انتسب منهم إلى رسول الله ﷺ.

يظهر هذا الدرس من قول محمد بن الحنفية لأخيه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما: إن لك شرفًا لا أبلغه، وفضلًا لا أدركه، أبونا علىّ، لا أفضلك فيه ولا تفضلنى، وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمى ما وافين بأمك.

- الدرس الثانى: سرعة الرجوع إلى الصفاء والمودة بين الأخ وأخيه، ففور وصول محمد بن الحنفية إلى منزله فكر فى ترضية أخيه، فكتب له ليؤثره بالفضل على نفسه.

وهكذا يصنع الإيمان بالنفوس، وهكذا تثمر التربية النبوية فى القلوب.

- الدرس الثالث: هو درس الإيثار؛ فقد آثر محمد بن الحنفية أخاه الحسين، ويظهر هذا فى قوله: وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى، والسلام.

وفى هذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر/ ٩).

اللهم أدبنا بأدبهم وخلّقنا بأخلاقهم واجعلنا من المكرمين بشفاعة جدهم ﷺ.

وإن كان الإيثار بين الصالحين فى أمور الدنيا محمودًا، فإن أفضل الإيثـار مـا كان فى أمر الآخرة.

- الدرس الرابع: سرعة الاستجابة من الحسين لأخيه، فقد ركب إليه فور وصول الرسالة إليه وذهب وترضاه، وفى هذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ (المؤمنون).

رحمة الله وبركاته عليكم آل البيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ۝٣٣﴾ (الأحزاب).

رضى الله عن آل بيت النبى ﷺ، وأصحابه والتابعين.. والحمد لله رب العالمين

١٧٣. من غشَّ فليس منَّا (*)

عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللًا. فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟». قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟! مَن غشَّ فليس منِّى».

*****

هذا الموقف يؤكد حقيقة إيمانية غالية، وهى أن الأمانة فى المعاملات من أهم سمات مجتمع المسلمين.

• كما يظهر من الموقف ـ أن لولى الأمر أن يتابع حركة السوق، وما يجرى بها من بيع وشراء كما صنع النبى ﷺ حين مر بالسوق على رجل أمامه صُبْرة ـ كومة ـ طعام يبيع مِنْه للناس، فأدخل النبى ﷺ يده فيها، فنال أصابعه بللٌ. فقال النبى ﷺ: «ما هذا يا صاحب الطعام؟».

قال: أصابته السماء ـ المطر ـ يا رسول الله.

قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ «من غشنا فليس منا»».

• ومن دلالات الموقف وعظاته ـ أيضًا ـ: أن أخلاق هذا الدين تمتد إلى كل شئون الحياة، والمنظومة الخلقية التى يربى عليها هذا الدين أتباعه لا تكون

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبى ﷺ من غش فليس منا، (٢٩٥).

داخل المسجد فحسب، وإنما تشمل البيع والشراء والسوق والعمل وكل شئون الحياة.

فالنبى ﷺ يرسى قاعدة من قواعد الأخلاق الإيمانية؛ لأن المؤمن أمين ومؤتمن فى كل أحواله وكل شأنه.

ويأخذ الغش فى حياة الناس صورًا عديدة منها:

١. أن يُزين المرء لأخيه السوء؛ كى يقع فيه، كما يحدث بين بعض الشباب كلون من التلاعب الشيطانى الذى يقع بين أصحاب السوء.

٢. إخفاء الإنسان عن أخيه بعض الحقائق؛ كى يخدعه فى أمر ما؛ ومن ذلك ما قد يقع من بعض السائلين للمعونات الاجتماعية؛ كى يأخذوا ما ليس حقًّا لهم، وكما يقع من بعض طالبى الفتوى الدينية حتى يخفى حقائق متصلة بالمسألة موضوع الفتوى، ويبالغ فى بعض الأمور الأخرى؛ كى يحصل على فتوى تبرئ ذمته.

٣. ومن صور الغش أيضًا أن يفسد على الناس أولادهم وأزواجهم بالغيبة والنميمة.

اللهم إنا نعوذ بك من سوء الأخلاق يا رب العالمين

١٧٤. آثــر أن يـعـمـل بالـخـوص !! (*)

كان من نتائج الفتوحات الإسلامية واتساع أرض الإسلام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ أن كثر وصول الأموال إلى المدينة، فكانت تُوزَّع على المسلمين، وكان نصيب سلمان الفارسى ﷺ ستة الآف.

لكنه لم يأخذ منها شيئًا لبيته، وإنما أنفقها جميعها فى سبيل الله، وآثر أن يعمل بالخوص أوعية يبيعها بثلاثة دراهم فى اليوم، ويقسمها إلى ثلاثة أقسام: درهم لشراء الخوص، ودرهم لحاجة بيته وأولاده، والدرهم الثالث ينفقه فى سبيل الله.

*****

نحن أمام قدوة عظيمة من نجوم الهداية، صحابة رسول الله ﷺ الذين أمرنا الله أن نتأسى بهم وأن نقتدى بأحوالهم، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام/ ٩٠).

فرضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ وأدبنا الله بأدبهم وخلَّقنا بأخلاقهم.

(*) رجال حول الرسول، ص٥٩.

وفى الموقف دلالات عظيمة، نذكر منها:

• الدلالة الأولى: هى التأكيد على قيمة العمل، والحث على أن يأكل الإنسان من عمل يده، وفى هدى رسول الله ﷺ قوله: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

يظهر هذا المعنى من الموقف، حيث آثر سيدنا سلمان الفارسى رضي الله عنه أن يأكل من عمل يده، فآثر العمل بالخوص على أن يأخذ من العطاء المقسوم له من بيت المال، وقدره ستة آلاف درهم.

• الدلالة الثانية: هى المسارعة فى النفقة فى سبيل الله، ليس فقط بجميع المال المقسوم له من بيت المال، وإنما ـ أيضًا ـ الإنفاق من المال الذى اكتسبه من عمل يده.

وفى هذا درس قيم للمؤمنين، فالمؤمن لا يعمل من أجل كفاية نفسه فقط؛ بل ومن أجل غيره ممن لا يستطيعون العمل أو لا يجدون فرصة عمل، أو يعملون ولا يكفيهم ناتج العمل.

وهذا شأن المؤمن النافع لمجتمعه، إن المؤمن، كما يظهر من موقف هذا الصحابى الجليل سيدنا سلمان الفارسى رضي الله عنه، منتج فى مجتمعه يسهم فى البناء والتنمية، ولم يرض سيدنا سلمان الفارسى أن يكون عبئًا على مجتمعه؛ لأنه يعلم أن قيمة الإنسان بما ينتج ويسهم ويشارك فى مجتمعه. وليست قيمته من قيمة ما يستهلك، على نحو ما شاع من قيم استهلاكية فى الحياة المعاصرة، فكثير من الناس يأخذ قيمته من حجم ثروته أو نوع سيارته أو شقته التى يسكنها ونحو ذلك.

- والدلالة الثالثة: هى حسن إدارته لماله الناتج من عمله؛ حيث قسمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كفاية حاجة أهله.

القسم الثانـى: كفاية حاجة صناعته وأدواته.

القسم الثالث: النفقة فى سبيل الله.

وهذا توازن حكيم يجمع بين أمرى الدنيا والآخرة.

اللهم ارزقنا الصدق والإخلاص يا رب العالمين

١٧٥. الحلم والأناة (*)

وَفَد أَشَجُّ عبد القيس مع وفد من قبيلته على رسول الله ﷺ، فنزل من فوق راحلته ثم ربطها وخلع ثوبين كانا عليه، وأخرج ثوبين حسنين فلبسهما بهدوء، والنبى ﷺ يرى ما يصنعه.

ثم أقبل يمشى فى سكينة إلى رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ للأشج؛ أشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبُّهما الله تعالى: الحلم والأناة».

*****

هذا موقف تربوى حكيم من صاحِب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ، الذى يُعلمنا من خلال هذا الموقف كيف نُرَبِّى بمدح الصفات الحسنة، ولَفْتِ الانتباه إليها بشكرها.

وقد أعجب النبيَّ ﷺ هذه التؤدة وتلك السكينة وذلك الوقار الذى لازم ابن عبد القيس فى إقباله إلى النبى ﷺ، كما أعجبه عنايةُ ابن عبد القيس بمظهره؛ حيث خلع ملابس السفر، وارتدى أخرى أعدها للقاء النبى ﷺ، فمدح النبى ﷺ سلوك الرجل، وفى هذا تعليم للحاضرين ودعوة للتأسى بمثل هذا السلوك الطيب؛

(*) الموقف بمعناه فى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، (٢٤).

يظهر ذلك من قوله ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة».

والحلم: هو ضبط النفس وكظم الغيظ وقت الغضب ووقت الانفعال، فلا يقابل الإنسان الإساءة بالإساءة أو الضيق بالانفعال، وإنما يدفع بالتى هى أحسن، والحلم فضيلة وُصف بها الأنبياء؛ ومن ذلك قول الله تعالى فى وصف إسماعيل عليه السلام: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (الصافات).

وقال سبحانه فى وصف سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (آل عمران/ ١٥٩).

ودعانا الله إليه؛ من ذلك قوله تعالى:﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف).

ويقول النبى ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»[1].

وصدق الله العظيم:﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت).

اللهم ارزقنا الحلم والأناة يا رب العالمين

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٥٧٦٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والأداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (٦٨٠٩).

١٧٦. إنـــى أتـكـشَّـف(*)

قال ابن عباس لعطاء بن أبى رباح رضى الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قال: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ، فقالت: إنى أُصْرَع، وإنى أتكشَّف، فادْعُ الله تعالى لى: فقال ﷺ: «إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أنْ يعافيَكِ». فقالت:أصبر. فقالت: إنى أتكشَّف، فادع الله ألا أتكشَّف، فدعا لها.

*****

ويتساءل بعض الناس؛ ما الحكمة من الابتلاء؟! لماذا الألـمُ؟!

وإجابة السؤال الأول تأتى واضحةً من خلال تَدَبُّر قول الرسول ﷺ حين سُئل: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟

فقال ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتَلى الرجل على حَسْب دينه، فإنْ كان فى دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة (أى ضعف) ابتلى على حسب دينه، فلا يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما

(*) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح، (٥٣٢٨)، والإمام مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، (٦٧٣٦).

عليه من خطيئة»[1].

فالبلاء والألم لهما فوائد إيمانية؛ من أهمها:

- تكفير السيئات وغفران الذنوب، وهذا من رحمة الله تعالى، ويؤكد هذا المعنى قول النبى ﷺ: «ما يصيب المسلمَ من نصبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشاكُها إلا كفَّر الله بها خطاياه».

أما بشأن الأنبياء والأولياء وأهل الدرجات العالية عند الله تعالى فإن البلاء بالنسبة لهم يكون رفعًا لدرجاتهم عند الله.

عن ابن مسعود ﷺ قال: دخلت على النبى ﷺ وهو يُوعَكُ، فقلت: يا رسول الله: إنك توعك وعكًا شديدًا! فقال ﷺ: «أجل، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم»، قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال: أجل، ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيآته كما تحط الشجرة ورقها»[2].

- كما أن البلاء يدفعنا إلى التعلُّق بالله تعالى، مع شدة الرجاء فيه والتضرع إليه، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأعراف).

- كما أن البلاء والألم يكونان أيضًا وسيلة لردع المتكبرين والظالمين، وتنبيهًا للغافلين عن ربهم.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبى وقاص، (١٤٨١)، والترمذى فى سننه، كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء، (٢٣٩٨)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٩٢).

(٢) البخارى (٥/ ٢١٣٩)، ومسلم (٦٧٢٤).

• وأيضًا من حكمة الابتلاء والألـم أنهما يربيان فينـا قـوة التحمـل، وقـد ضرب الحكماء لذلك مثلا: وهو أن الماس (المعدن النفيس) كان فى أصله فحمًا، ثم تعرض لضغوط عالية جدًّا بين طبقات الصخور، فصار الفحم قطعة ماس نفيسة غالية لها قدرها، وهكذا يصنع الألـم والبلاء بالإنسان.

• كما أن الألـم وشدته أشبه بجهاز إنذار يدفعنا إلى الشعور والإحـساس بما يؤذينا.

والسؤال الآن: متى يُحَصِّل المبتلَى الأجر والثواب؟!

والجواب: يُحصل المؤمن الأجر بالصبر والرضا، أما السخط والـضجر مـن قضاء الله وقدره فى ابتلاء العبد فيحرم العبد من ثواب الابـتلاء، وتـصبح المحنـة محنتين، فى حين أن الصبر والرضا يجعلان المحنة مِنْحة من الله تعالى.

قال النبى ﷺ: «عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعـالى إذا أحـب قومًـا ابتلاهم، فمن رَضِى فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[1].

وحسب الصابرين من الجزاء والأجر ما جـاء فى قـول الله تعـالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ (الزمر).

• كما يستفاد من الموقف: حرص المرأة عـلى سـتر عورتهـا حتـى فى أشـد الأوقات؛ لذلك طلبت المرأة من رسول الله ﷺ أن يدعو لها ألا تنكشف، فدعا لهـا النبى ﷺ.

اللهم اجعلنا من الشاكرين فى السراء، والصابرين فى الضراء يا رب العالمين

---

(١) سنن ابن ماجه ٤٠٣١، قال الشيخ الألبانى: حسن.

١٧٧. عـروس الـنـيـل (*)

كان من عادة المصريين عنـد وفـاء النيـل أن يختـاروا إحـدى الفتيات البِكْر، ويُزيِّنُوها بأجمل الحلى وأفضل الثياب، ويُلقـوا بهـا فى النيل؛ ليجرى.

فلما قدم عمرو بن العاص ﷺ إلى مصر وأخبره أهلها بذلك، قال لهم: إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهـدم مـا كـان قبله. وكتب إِلَى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بذلك، فأرسل إليه بطاقة كتب فيها: فإن كنت تجرى من قِبَلك فلا تجر، وإن كـان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل الله أن يجريك.

وأمره أن يلقى بها فى النيل، فجرى، وانقطعـت تلـك العـادة السيئة من يومها.

*****

هذا الموقف يحمل قيمًا عظيمة؛ من بينها قيمة تشتد الحاجة إليهـا فى أحوالنـا المعاصرة، هذه القيمة هى: أن الإسلام يحرِّر العقول من الخرافات والوهم.

(*) فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم، (١/ ١٦٥).

وعلى عهد رسول الله ﷺ كسفت الشمس يوم مات ابنه إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم؛ فقال النبى ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا»[1].

وهكذا يحرر النبى ﷺ العقل من الوهم والخرافة، ويوجهه إلى تأمل وتدبر هذه الظواهر الكونية التى تقوم على أسباب ونواميس من قدر الله المحكم. بداية من نَفَس الإنسان إلى كون الله الواسع، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات).

ولقد ذَمَّ الله الغافلين الذين لا يعتبرون ولا يتدبرون، ويُعرِضون عن هذه الآيات الكونية، وتلك الأسرار الربانية، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يوسف).

ولما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران).

قال ﷺ: «ويل لِـمَن قرأها ولم يتفكر فيها».

قال ابن عمر: أخبرينا؛ أى: يا عائشة، بأعجب شىء رأيته من رسول الله ﷺ؛ فبكت، وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتانى فى ليلتى حتى مسَّ جلده جلدى، ثم قال: ذرينى أتعبد لربى تعالى، قالت: فقلت: والله إنى لأحب قربك،

(١) أخرجه البخارى، كتاب الكسوف، باب الدعاء فى الخسوف، (١٠١١).

وإنى أحبّ أن تعبد ربك، فقام إلى القربة فتوضأ، ولم يكثر من صبّ الماء.

ثم قام يصلى، فبكى حتى بَلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يُؤْذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل علىّ فى هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة). ثم قال: ويل لمن قرأها، ولم يتفكر فيها»(١).

فالتفكر والتدبر والبحث والدراسة الكونية فريضة إسلامية ينبغى ألا يتخلف المسلمون عنها.

ومن اللافت للانتباه ـ أيضًا ـ أن كثيرًا من الظواهر الكونية جاءت علمًا على أسماء سور قرآنية، منها ما كان فى مجال الفلك، مثل: (النجم، الشمس، الرعد، الليل، الضحى)، ومنها ما كان فى مجال المخلوقات التى تشاركنا الحياة على سطح الأرض؛ مثل: (الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت) وتَكَرُّر ذكر الظواهر الكونية فى آيات كثيرة يفتح للعقل آفاقًا ممتدة للتفكير والاكتشاف والاختراع.

وتدعيمًا لعقلية المؤمن فى الانطلاق المتأمل المتدبر حارب الإسلام مظاهر

---

(١) صحيح ابن حبان، باب التوبة (٢/ ٣٨٦)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة، أول الكتاب، (١/ ١٤٧).

العشوائية فى الفكر والسلوك، فنهى عن التطيّر وعن كل ما كان فى حكم التطيّر: من قراءة الكف والفنجان، وحظك اليوم، وقراءة الطالع، وفتح الورق (الكوتشينة) وغيره؛ لأن أمور الحياة وسنن الله الكونية لا تقوم على ضربة حظ أو خيال دجال، وإنما هى قائمة بتدبير محكم من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر).

كما تشير الآيات إلى أن النظام الدقيق الذى لا يعرف الخلل هو الذى يحكم ظواهر هذا الكون، قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس).

ولعل فى هذه المعانى دافعًا قويًا إلى ألا يقف نظرنا لآيات القرآن التى تتناول الظواهر الكونية عند حدود الإيمان بالخالق فقط، بل ينبغى أن يمتد فهمنا إلى معناها الواسع الذى يدعونا إلى البحث والاكتشاف؛ كى ننتفع بأسرارها؛ استجابة لهدى الله فى قرآنه.

نعم، لقد جاء الإسلام هاديًا للعقل، وحرَّره من الخرافات والوهم.

اللهم أكرمنا بحقائق العلم، ونجنا من ظلمات الوهم يا رب العالمين

١٧٨. رجل تستحى منه الملائكة (*)

بينما كان النبى ﷺ مضطجعًا فى بيت عائشة رضى الله عنها إذْ أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه فاستأذن، فأذن له النبى ﷺ، وهو على حاله مضطجعًا. ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن، فأذن له النبى ﷺ، وهو على حاله مضطجعًا. ثم أقبل عثمان رضي الله عنه فاستأذن فجلس رسول الله ﷺ، وأذن له، فدخل وقال حاجته.

فسألت عائشة رسول الله ﷺ: يا رسول الله! جلست حين استأذن عثمان، ولم تفعل ذلك مع أبى بكر وعمر؟ فقال النبى ﷺ: «إن عثمان رجل حيىّ، وإنى خشيت إن أذنت له وأنا على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ فى حاجته».

*****

هذا موقف إيمانى يفيض بالعبر النافعة والعظات الهادية:

- أولاها: حكمة رسول الله ﷺ فى معاملة الناس وتقدير الفروق الفردية بينهم، مع مراعاة خصوصية حياء سيدنا عثمان رضي الله عنه.

(*) الموقف بمعناه من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه، (٦٣٦٣).

ولم يكن الأمر هنا فى الموقف من باب الأفضل، ولكن كان من باب مراعاة الأنسب فى حق كل منهم.

- وثانيتها: هى أن خُلُق الحياء من الأخلاق التى مدحها رسول الله ﷺ؛ فالحياء لا يأتى إلا بخير.

وفى الحديث قال النبى ﷺ: «الحياء شعبة من شعب الإيمان»[1].

وقوله ﷺ: «الحياء لا يأتى إلا بخير»[2].

والمقصود هنا الحياء الإيجابى الذى يحمل على فعل الخيرات وترك المنكرات، ويؤكد هذا المعنى قول النبى ﷺ لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء»، قلنا يا رسول الله: إنا نستحيى والحمد لله، قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[3].

أما الحياء السلبى الذى يمنع الإنسان من السعى للخير والبر فقد نهى الإسلام عنه؛ لأنه من السلبيات التى تحرمنا من خيرات كثيرة.

وفى القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الأحزاب/ ٥٣)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة/ ٢٦).

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان (٥٩).

(٢) رواه البخارى (٨/ ٣٥)، ومسلم فى الإيمان (٦٠).

(٣) رواه الترمذى (٢٤٥٨)، وأحمد (١/ ٣٨٧)، صححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣٨).

ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ أثنى على حياء سيدنا عثمان رضي الله عنه، وقد جلس بعد أن كان مضطجعًا حين استأذن سيدنا عثمان رضي الله عنه.

- ثالثتها: هى حِرْص رسول الله ﷺ على قضاء مصالح وحوائج أصحابه، لقد خشى رسول الله ﷺ أنه إن أذن لسيدنا عثمان رضي الله عنه بالدخول ـ وهو مضطجع ـ أن يمنع الحياء سيدنا عثمان رضي الله عنه من التصريح بحاجته؛ لذلك جَلَس النبى ﷺ حتى يصرح سيدنا عثمان بحاجته.

وفى هذا أسوة وقدوة للأمة فى حسن المعاشرة بين الأصحاب، والحرص على قضاء حوائجهم ومصالحهم ونفعهم، ومراعاة خصوصية كل منهم. فهذه الأخلاق من أقوى أسباب الحب والمودة بين الأصحاب.

وهكذا يعلمنا رسول الله ﷺ كيف ننشئ مجتمعًا تحكمه العلاقات الودودة الحميمة، وهكذا تنشأ المجتمعات الآمنة الصالحة.

اللهم أكرمنا بخلق الحياء يا رب العالمين، وصلى الله على معلم الناس الخير
سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

١٧٩. فـدائيـة من عمـة رسـول الله ﷺ (*)

فى غـزوة الخنـدق، أمـر النبـى ﷺ بنـسائه ونـساء المـسلمين والأطفال، فجعلهم فى حصن يقوم على حراسـته وحمايتـه حـسان بن ثابت ﷺ وبينما هم فى الحصن، رأت صفية عمة رسـول الله ﷺ يهوديًّا جعل يطوف بالحصن، يتلصص النظرات، فقالـت صـفية رضى الله عنها لحسان بن ثابت ﷺ: أنزل إليه فاقتله.

ولم ينـزل إليـه حـسان؛ خـشية أن يـترك موقعـه فى حراسـة الحصن، فيتعرض لخطر. فما كان من صـفية رضى الله عنهـا إلا أن غافلـت حـسانًا، وأخـذت عمـودًا مـن الحديـد، وانطلقـت مـن حصنها إلى اليهودى، فقتلته، ثم رجعت إلى حصنها.

*****

هذا موقف رائع فى الثبات والبطولة والشجاعة والإقـدام، يمثـل دورًا مـن أدوار فدائية المرأة فى الإسلام، ومشاركتها هموم الأمة وآلامها.

فهذه صفية عمة رسـول الله ﷺ كانـت مـن أوائـل مـن اسـتجاب لرسـول الله ﷺ من أهله، وكانت من أوائل المبايعات؛ ولذا كانت أقرب عماته إليه.

(*) دلائل النبوة للبيهقى (٤/ ٢٠)، (١٣٢٥)، السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٢٠٩).

وعندما أمر ﷺ المسلمين بالهجرة إلى المدينة، هاجرت مع أخيها حمزة وابنها الزبير بن العوام، وشهدت مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وشاركت فى غزوة أحد، فكانت تحمل الماء إلى المجاهدين وتأسو جراحهم، حتى أصيب المسلمون ونالتهم الشوكة، وانفضَّ الناس عن رسول الله ﷺ، فقامت صفية الشجاعة وفى يدها رمح تضرب به فى وجوه الناس، وتقول: انهزمتم عن رسول الله ﷺ ؟!

فلما رآها رسول الله ﷺ خاف أن تقع عينها على جثة حمزة، وقد قتل ومثلت به هند بنت عتبة، وبَقَرت بطنه، وجدعت أنفه وأذنيه، فقال ﷺ للزبير:

«يا زبير، المرأة»، يقصد: أَبْعِد أمك، فقال لها الزبير: يا أُمَّه إليك إليك؛ فإن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى، فردت عليه الصابرة القوية قائلة: وَلِمَ وقد بلغنى أنه مُثِّل بأخى، وذلك فى الله؟ فما أرضانا بما كان من ذلك، لأصبرن وأحتسبن إن شاء الله.

فجاء الزبير إلى رسول الله ﷺ وأخبره، فقال ﷺ: «خلِّ سبيلها»، فأتت إلى حمزة رضي الله عنه، واستغفرت له، واسترجعت، واحتسبته عند الله.

وكانت صفية دائمًا مع ابنها الزبير حَوَارِىِّ رسول الله ﷺ فى دراه، وانتهى إلى المسلمين خبر الاتفاق بين قريش وغَطَفان ويهود بنى قريظة على حرب رسول الله ﷺ وخروج الأحزاب من مكة بقيادة أبى سفيان. فضرب رسول الله ﷺ الخندق على المدينة، وأمر بنسائه ونساء المسلمين والأطفال فجُعلِوا فى الحصون والقلاع، وكان هذا رأى رسول الله ﷺ، ألا يشغل أحد بنسائه ما دُمْنَ فى مكان آمن بعيدًا عن الأعداء، ونزلت صفية فى حِصْن حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ، وكان من

الحصن آطام المدينة وأبنيتها، ونترك السيدة صفية تحكى ما حدث منهـا مـع أحـد اليهود أثناء إقامتهم فى الحصن.

قال ابن إسحاق: كانت صفية فى حصن حـسان بـن ثابـت، قالـت: وكـان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجـل مـن اليهـود فجعـل يطوف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت مـا بينهـا وبـين رسـول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عـدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت.

فقلت: يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن، وإنى والله مـا آمنه أن يدل على عورتنـا مـن وراءنـا مـن يهـود، وقـد شـغل عنـا رسـول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل إليه فاقتله، قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله قد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فقالت: فلما قال لى ذلـك ولم أر عنـده شـيئًا، احتجـزت، ثـم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغـت منه رجعت إلى الحصن. فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لا يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل.

بمثل هذه التضحيات تقوم الأمم، ويكـون لنـا المقدمـة والـسيادة، يَرْهَبُنَـا الأعداء، وتصان الأعراض، وتحفظ الحقوق.

سحائب الرحمة والرضوان على عمة رسول الله ﷺ وأخت سيدنا حمزة رضى الله عنهما؛ فقد ضربـت مـثلًا لنـساء المـسلمين فى كـل زمـان ومكـان فى البطولـة والفداء، وكيف تكون المرأة المسلمة.

١٨٠. ما كنت لأفعل هذا (*)

لـما علم بنو الحارث بوقوع خُبَيْب بن عَدِى فى الأسر أثناء استطلاعه أخبار قريش، أسرعوا لشرائه؛ كى ينتقموا منه؛ لأنه قتل والدهم (الحارث) ببدر.

وبينما هم كذلك، غفلت بنت الحارث عن صبيها، فجرى الولد حتى جلس فى حجر خُبيب بن عدى، ففزعت أمه؛ خشية أن يَقْتل خُبيب الصبى.

فنظر خبيب للأم، وقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل هذا. وترك الصبى يذهب لأمه. ثم أسرعت قريش إلى خبيب فأوثقته وقتلته.

*****

هذا موقف يظهر عظمة دين الإسلام الذى ربط أتباعه بمنظومة من القيم والأخلاق لا تتخلف أبدًا، فهى ليست لأنفسهم فقط، وإنما تمتد؛ لتشمل التعامل مع الأعداء فى أوقات الأزمات والمحن.

(*) الموقف من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المغازى، باب فضل من شهد بدرًا، (٣٧٦٧).

وهذا ما ظهر من الموقف، فهذا خبيب بن عدى كان فى جماعة من أصـحاب رسول الله ﷺ (عشرة رجال) تحت إمرة عاصم بن ثابت، تقوم بمهمة اسـتطلاعية عن تحركات قريش.. فعرفتهم قريش وأحاطتهم بمائة رجل، حتى وقع بعضهم فى الأسر واستشهد البعض الآخر.

وكان ممن وقع فى الأسر خُبيب بن عدى وصاحبه زيد بن الدِّثنَّة، ولـمَّا قتـل المشركون زيد بن الدثنة أخبروا خبيبًا بذلك يساومونه على الإيمان، وإلا قتلوه مثل صاحبه.

فاستأذن خبيب أن يصلى ركعتين، فأذنوا له ثـم سـاوموه مـرة أخـيرة عـلى الإيمان ليكفر، فأبى، حتى إذا أجمعوا على قتله، وغفلت بنت الحارث عـن صـبيها فجرى إلى خبيب حتى جلس فى حِجره، ففزعت أن يقـوم خبيـب بقتـل الـصبى انتقامًا، فقال لها أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل هذا.

فترك الصبى لأمه؛ ليؤكد أن حماية الآمنين من أخلاق الإسلام.

وعلى الرغم من موقفه النبيل وتركه للطفل فقد كـان موقـف الأعـداء منـه التشفّى والانتقام؛ حيث أوثقوه مصلوبًا على جذع نخلة، وقبل أن ينـزل الـسيف على جسده اقترب أحد المشركين منه قائلًا: أتحب أن محمدًا مكانك وأنـت سـليم معافى فى أهلك؟

فصاح خبيب: والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى فى عافية الـدنيا، ويـصابُ رسول الله ﷺ بشوكة!! فقال الرجل المشرك: والله ما رأيت أحدًا يحـب أحـدًا كـما يحب أصحاب محمد محمدًا!!

وهكذا يظهر لنا أيضًا أن حب الأتباع لقائدهم من أهم عوامل النصر وبناء الأمة، ولقد ضرب الصحابة أعظم المثل فى هذا الحب الـذى يظهـر منـه التماسـك لمجتمع المؤمنين.

والله المستعان

١٨١. لا تمسك بأُذُنِ كلب الغنم (*)

قال رسول الله ﷺ: «مثل الذى يسمع الحكمة ويتبع شَرَّ ما يسمع، كمثل رجل أتى راعيًا فقال له: أجزرنى شاة من غنمك، فقال: اذهب فخذ بأُذُنِ خيرها شاة، فذهب فأخذ بأُذُنِ كلب الغنم».

*****

• هذا موقف يحمل تربية للنفوس التى يصيبها الغرور؛ فيدفعها إلى التعالى والتعاظم، ويدفعها إلى تتبع الأخطاء والعثرات وسقطات اللسان فينشرها عن أصحابها. ومثل هذا الطالب أفراد فى مجتمعنا المعاصر زَيَّن لهم الشيطان أعمالهم وأقوالهم، فاشتغلوا بتتبع العثرات، خاصة عثرات العلماء، أفراد يصنعون التهم، وهى فى الأعم الأغلب قائمة على الشائعات والتخمينات، أو على أمر الهوى والعاطفة والانتصار لرأى بعينه أو مذهب مُتبع.

أفراد يتعاملون مع البشر بقوالب جامدة ثابتة من الفهم، من وافقهم فيها كان ملاكًا رحيمًا، ومن خالفهم كان شيطانًا رجيمًا.

• وفى الموقف كان نُصْح العالم من خلال حديث نبوى كريم يضرب فيه

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﷺ، (٩٢٤٩)، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٧٦١).

النبى ﷺ مثلًا قاسيًّا لِـمَن يتبع أسوأ ما يسمع، ومن ينشر عن الناس أسوأ ما يعلم عنهم، قال النبى ﷺ: «مثل الذى يسمع الحكمة ويتبع شر ما يسمع؛ كمثل رجل أتى راعيًا فقال له: أجزرنى شاة من غنمك، فقال: اذهب فخذ خيرها شاة، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم».

لقد ترك هذا الرجل جميع الغنم، ترك ما يصلح للذبح والأكل، وأخذ ما لا يصلح، وهذا لون من الضلال فى الاختيار.

وفى هذا تربية كريمة لسلوك المؤمن تجاه ما يسمع، فينبغى أن لا يقف المؤمن عند الهفوات ولا يتتبع العثرات والسقطات، وإنما سبيل المؤمن أن يصطفى أحسن ما قيل، وفى ذلك امتثال لقوله سبحانه وتعالى حين مدح عباده الفائزين بهداه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ (الزمر).

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية: هو رجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويَكُفُّ عما سواه.

وذلك لأن المؤمن حريص على فعل ما هو أكثر ثوابًا عند الله تعالى، ولا ينشر إلا الخير، ولا يلتمس لأحد عيبًا.

روى الطبرانى فى المعجم «الصغير» و«الأوسط» بسنده عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «إن أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة،

الملتمسون للبرآء العيب»[1].

وكم كان النبى ﷺ يجأر إلى الله تعالى مستعيذًا من الخلاف والشقاق والنزاع؛ من ذلك ما رواه أبو داود والنسائى بسنديهما عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إنى أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق»[2].

ولا يغيب عن بالنا أن غالب المسلمين يعلم حدود الحلال والحرام، وليست القضية إثبات خطأ المخطئ وتجريمه، إنما القضية تتمثل فى حمل النفس على الالتزام بالحلال وهجر الحرام، وفى المعونة التى تقدمها لأخيك التغلب على نفسه وهواها.

القضية أن الدعوة إلى الله تعالى إعانة، وليست إدانة، كما أنه ليس من المناسب للمبتدئ أو العامة الاشتغال بالنقد خاصة لأهل العلم، فأدوات النقد ومعطياته عند المبتدئ قليلة وقاصرة، وتصل به إلى نتائج مضللة غير صحيحة، والمسألة هنا مسألة وعْى وفهم للنصوص وليست مسألة امتلاك حفظ النصوص ومعرفتها فحسب.

ثم إن المبتدئ متبع مقلد وناقل، له أن يتبع ما اطمأن إليه قلبه وصح فى فهمه من آراء أهل العلم، لكن ليس له تسفيه آراء الآخرين، وليس له فَرْضُ فهمه على الآخرين.

وحسبنا هنا أن نتأمل مواقف أئمة الدين فى عصور الإسلام الأُولى، كيف

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٧/ ٣٥٠) برقم (٧٦٩٧)، وفى المعجم الصغير (٢/ ٨٩) برقم (٨٣٥)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٥٨).

(٢) سنن النسائى بأحكام الألبانى (٨/ ٢٦٤)، (٥٤٧١)، قال الشيخ الألبانى: ضعيف.

أنهم لم يُلْزِمُوا الناس الأخذ بمذهبهم، وكانوا لا يرون غضاضة فى الخلاف، وكان الواحد منهم إذا رأى الصواب أو الأفضل فى غير رأيه لا يأنف أن يرجع إليه؛ فالإمام أبو حنيفة مثلا كان يُفضِّل الصدقة على حج التطوع، فلما حجَّ ورأى مشقة الحج عاد عن قوله هذا إلى تفضيل حج التطوع على الصدقة.

وجدير بالذكر فى هذا المقام موقف الإمام مالك ﷺ الذى لم يرض للخليفة هارون الرشيد أن يجبر جميع المسلمين على العمل بكتابه «الموطأ» رغم شدة تحرى الإمام مالك فى روايته له وموافقة علماء الدين له؛ وعلَّل الإمام مالك رَفْضَه هذا بقوله: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى البلاد، وقد يكون عند بعضهم من الأحاديث ما لم يبلغنى، ولو بلغنى لغيرت شيئًا مما دونته.

وكان بعضهم يعمل باجتهاد غيره؛ ترخصًا أو موافقة لجماعة المسلمين، من هذا ما روى عن الإمام أحمد ﷺ فقد كان يرى الجماعة أن الحجامة والفصد تنقض الوضوء، فسئل عن الإمام احتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ، هل يصلى الإمام أحمد خلفه؟ فقال: كيف لا أصلى خلف مالك وسعيد بن المسيب؟

وروى الشافعى ترك القنوت فى الصبح لما صلى مع جماعة الحنفية فى مسجد إمامهم ببغداد.

فبهذه الروح الطيبة وبهذا التسامح حمل أئمة السلف راية الدين، دون انتصار لهوى أو تعصب لرأى؛ لهذا حفظهم الله وصانهم من التحاسد والتخاصم، وانتفعت الأمة بعلمهم وبأعمالهم، وكان اختلاف الرأى عندهم عامل صحة وليس عامل هدم؛ لأن كلا منهم كان ينشد الصواب والأفضل حتى لو ظهر على

يد غيره، وكانت آراؤهم ثمرات متعددة لشجرة واحدة هى شجرة الكتاب والسنة، فرضى الله عنهم وجزاهم عنا خير الجزاء.

- كما يستفاد من الموقف: الحكمة فى دعوة الشاردين، ومعرفة الباب الذى نأتيهم منه؛ حتى تثمر الموعظة معهم.

لذلك جاءت نصيحة العالم المربى للطالب المغرور من باب يميل إليه الطالب، وهو رؤية النفس والذات فى عمله وأنه فى موضع الإفادة للآخرين، وحل مشكلات العلم.

والله المستعان

١٨٢. ذهب أهل الدثور بالأجور(*)

جاء بعض الصحابة إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور: يصلون كما نُصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفُضول أموالهم.

فقال النبى ﷺ: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة، وفى بضع أحدكم صدقة».

قالوا: يا رسول الله، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر».

*****

هذا موقف يفيض بعظات وعبر؛ منها:

- كثرة طرق الخير، فإن عجز الإنسان عن طريق أو أُغلق دونه باب،

(*) صحيح مسلم، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، (٢٣٧٦).

فأمامه أبواب كثيرة لفعل الخيرات والقربات لله تعالى.

ولا يتوقف فعل الخيرات وتحصيل الثواب على امتلاك الأموال وإنفاقها كما يتوهم كثير من الناس، لقد أرشد النبى ﷺ إلى باب سَهْل ميسور لجميع الناس يمكن من خلاله أن يُحَصِّل الإنسان عظيم الأجر والثواب. إنه ذكر الله تعالى.

- ثم أرشد النبى ﷺ إلى باب آخر وهو باب النية، فالنية الصالحة تحوّل أعمال العادات إلى عبادات وقربات يُثاب الإنسان عليها من الله تعالى، وأعطى النبى ﷺ مثالا لذلك بشهوة الإنسان حين يضعها فى الحلال ينوى العفة لنفسه وأهله، فإن له بها عند الله أجرًا.

وهذا من سعة رحمة الله تعالى بعباده؛ أن جعل أبواب الخير متنوعة وعديدة؛ ليجد كل إنسان ما يناسب حاله ومشربه. والمتأمل لأبواب الخير وأحوال العباد يرى أن لكل عبد بابًا يسّره الله تعالى له.

- فباب الزوجة مع الله فى حسن التبعّل لزوجها وحسن تربية أولادها، وباب العالم أن يُعلِّم الناس مخلصًا لله، وألَّا تأخذه فى الحق لومة لائم، وباب التاجر الأمانة والصدق، حتى الخادم له باب مع الله تعالى، فإخلاصه فى مال سيده وأمانته تجعل له مثل أجر سيده مرتين.

- والقاضى بابه مع الله تحرى الحق والعدالة فى الحكم بين الناس، وهكذا لكل عبد باب مع الله تعالى، وبابك مع الله ما أقامك الله فيه من عمل صالح.

وإذا أخلص العبد فى بابه مع الله تعالى كان من أهل الجنة، ينادى عليه من هذا الباب يوم القيامة.

فإن ضعف الإنسان عن بعض العمل، فرسول الله ﷺ ينـصحنا أن لا نحـرم أنفسنا من خير الله تعالى؛ وذلك بأن يكف الإنـسان شره عـن النـاس، فـإن ذلـك صدقة منه على نفسه.

وبالله التوفيق

١٨٣. وعليَّ جمع الحطب(*)

كان النبى ﷺ فى سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله، علىّ ذبحها. وقال آخر: علىّ سلخها. وقال ثالث: علىّ طبخها. فقال رسول الله ﷺ: «وعلىَّ جمع الحطب».

فقالوا: يا رسول الله، نكفيك العمل. فقال ﷺ: «علمت أنكم تكفوننى، ولكنى أكره أن أتميز عليكم، فإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه».

*****

هذا موقف نبوى كريم يقدم لنا عظات هادية وعبرًا نافعة وقيمًا مهمة. كان الصحابة مع النبى ﷺ فى صحبة ودودة أشبه برحلات الأصدقاء والأصحاب الذين تجمعهم الألفة والمودة والحب فى الله تعالى بعيدًا عن معايير المؤسسات وضوابط العمل فى إطار الوظيفة، وما يتطلبه من مراعاة الدرجات الوظيفية من إشراف وإدارة وقيادة ونحو ذلك. فالتصرف فى مثل هذه اللقاءات يتم بروح الأسرة والأخوة والتعاون.

ولقد رغب الصحابة أن يكفُوا رسول الله ﷺ العمل؛ لإحساسهم بِقَدْرِه

(*) الرحيق المختوم للمباركفورى، إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٠٢).

العظيم ﷺ عند ربه ومكانته العالية فى نفوسهم، لكن النبى ﷺ يعطى الأسوة فى مشاركة إخوانه يدًا بيد دون تمايز بينهم.

• القيمة الأولى: هى توزيع الأدوار، وهو من أسس نجاح العمل الجماعى؛ كى يتكامل جهد المجموع فى إتمام العمل.

ورأينا فى الموقف كيف تم توزيع الأدوار بين الصحابة فى إصلاح الشاة للطعام؛ فمنهم من قام بالذبح، ومنهم من قام بالسلخ، ومنهم من قام بالطبخ، واختار النبى ﷺ مهمة جمع الحطب.

وهكذا نرى أن توزيع الأدوار فى العمل يتحقق من خلاله المشاركة المثمرة الفعالة التى تتكامل فيها الجهود، ولا تتعارض.

• القيمة الثانية: هى حسن معاشرته ﷺ؛ حيث كره ﷺ أن يتميز على أصحابه، يظهر هذا من الموقف حين قال له الصحابة: إنا نكفيك العمل.

فقال ﷺ: «علمت أنكم تكفوننى، ولكنى كرهت أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه».

وهذا من فضائله وشمائله ﷺ، فقد كان ﷺ حَسَنَ المعاشرة والتواضع لإخوانه. وكان حب الصحابة لرسول الله ﷺ يعجب منه الأعداء، وقد دُهِشوا حتى قال قائلهم: والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب صحابة محمد لمحمد ﷺ.

وإن كان هذا حال خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذى أولاه الله من النعيم ما أولاه: من نعمة النبوة والرسالة والتفضيل، فعلام التعالى والتمايز والتفاخر بين الإخوان أو الزملاء والأصحاب؟!

فهذا رسول الله ﷺ يختار أشق الأعمال وهى جمع الحطب.

- القيمة الثالثة: هى أن النبى ﷺ يربى فى أصحابه روح الجماعة، روح الفريق، وفى هذا تعليم وتربية للأمة على التماسك والتآلف والتكامل، والسنة المطهرة تؤكد هذه الحقيقة، فيقول ﷺ: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[1]. و«يد الله مع الجماعة»[2]. و«صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[3]. و«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا»[4].

وما أحوجنا إلى التأسى برسول الله ﷺ فى جمع شمل المسلمين وتعلم العمل بروح الفريق وبروح الجماعة، بدلا من الفردية والأنانية والتمزق والتفرق الذى أضعف الأمة.

والحمد لله رب العالمين

(١) رواه مسلم فى الذكر (٣٨).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب الفتن، لزوم الجماعة، (٢١٦٦)، وصححه الألبانى فى صحيح وضعيف سنن الترمذى.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة،(٦١٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد فى التخلف عنها، (١٥٠٩).

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم (٢٣١٤)، والترمذى فى سننه، كتاب البر والصلة، باب شفقة المسلم على المسلم، (١٩٢٨).

١٨٤. تغرس وأنت شيخ كبير ! (*)

يُروَى أن رجلًا مرَّ بأبى الدرداء وهو يغرس جَوْزةً. فقال: أتغرسُ هذه وأنت شيخٌ كبير تموت غدًا، أو بعد غَدٍ، وهذه لا تطعم فى كذا وكذا عامًا؟ فقال: وما على أن يكون لى أجرها، ويأكل منها غيرى.

*****

هذا موقف يفيض بالعظات النافعة والعبر الهادية:

- أولاها: هى الإعلاء من قيمة العمل حتى آخر العمر، فهذا شيخ هرم يشتغل بغرس الشجر وفلاحة الأرض، إنه يضيف لمجتمعه قوة إنتاجية مدخرة للأجيال القادمة، ولم يرض الشيخ الهرم أن يكون عبئًا على مجتمعه، لم يرض لنفسه أن يكون بين المستهلكين الذين لا حظَّ لهم فى إنتاج أو عمل.

بمثل هذه الهمم والروح العالية من العمل حتى آخر لحظة من العمر تتقدم وترقى المجتمعات وتتحقق عمارة الأرض. إن قيمة العمل حتى آخر لحظة من العمر، إلى آخر خطوة من خطوات الحياة ـ حتى آخر نفس ـ يؤكدها قول النبى ﷺ: «إن كان بيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم الساعة،

(*) أخرجه البغوى فى شرح السنة، كتاب: الزكاة، باب: تعجيل الصدقة، (٣/ ١٨٦).

فليغرسها، فله بذلك أجر»[1].

وهكذا نرى الأمر صريحًا من رسول الله ﷺ بغرس فسيلة النخيل التى لا تثمر إلا بعد سنين، والقيامة فى طريقها أن تقوم!!

والفسيلة هنا إشارة لكل عمل نافع يشتغل الإنسان به، فينبغى أن لا يدع الإنسان عمله حتى آخر لحظة فى حياته، حتى إذا وقع أمر الله وكانت الوفاة كان أجره على الله تعالى.

وقد أعلى الإسلام من قيمة السعى والعمل من أجل الأبناء والآباء، فقد مر النبى ﷺ على رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو فى سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج رياء وتفاخرا فهو فى سبيل الشيطان»[2].

- ثانيتها: هى العمل من أجل الغير.

إنهم ﷺ كما يرون فى العمل تحصيل الثواب من الله، فإنهم أيضًا يرون فى العمل خلق الوفاء للأجيال القادمة، فكما وجد عند نشأته الكثير من الخيرات التى

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، (١٣٠٠٤)، والبخارى فى الأدب المفرد ص (١٦٨) برقم (٤٧٩)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٢٤).

(٢) المعجم الأوسط للطبرانى، (٦٨٣٥)، صححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب.

انتفع بها من عمل الأجداد والآباء - ينبغى على الإنسان أن يكـون وفيًّـا، ويـؤدى دوره ويقوم بواجبه نحو الأجيال القادمة.

لقد غرس لنا مَنْ قبلنا، فينبغى أن نغرس لمن بعدنا.

كما يؤكد الموقف أن المسلم ينال الأجر من الله تعالى على عمله حين ينتفع به غيره، وهذا موافق لقول النبى ﷺ: «ما من مسلم يغـرس غرسًـا أو يـزرع زرعًـا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1].

---

(١) رواه البخارى (٣/ ١٣٥)، ومسلم فى المساقاة (١٢).

١٨٥. فعرف حُلَّته (*)

كان عند يونس بن عبيد حُلل مختلفة الأثمان: قسمٌ قيمة كل حُلَّة منه أربعمائة، وقسم كل حُلَّة منه قيمتها مائتان، فمرَّ إلى الصلاة وترك حُلَل المائتين، فجاء أعرابى فاستحسنها ورضيها، فاشتراها فمضى بها وهى على يديه، فاستقبله يونس فعرف حُلَّته، فقال للأعرابى: بكم اشتريت؟ فقال بأربعمائة، فقال: لا تساوى أكثر من مائتين، فارجع حتى تردَّها، فقال: هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها.

فقال له يونس: إن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم ردَّه إلى الدكان، وردَّ عليه مائتى درهم، وعنّف ابن أخيه فى ذلك، وقال له: أما استحييت؟ أما اتقيت الله؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين؟ فقال ابن أخيه: والله ما أخذها إلا وهو راضٍ بها. قال: فهلَّا رضيت له بما ترضاه لنفسك؟

*****

(*) ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين (٢/ ٧٩).

أنعم وأكرم بهؤلاء المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله، فأحلوا ما أحل الله، وحرموا ما حَرَّمَ الله، علموا أن الله رقيب عليهم فأحسنوا وأخلصوا، فما غرتهم الحياة الدنيا، وما غرَّهم بالله الغرور.

وهذا شأن من استجاب لهدى الله تعالى وتأسى بسنة رسول الله ﷺ فإنَّه يوفقه إلى ما يحب ويرضى.

- والموقف درس عظيم الفائدة فى صدق المعاملة فى البيع والشراء، وهذا هدى إسلامى أوصانا به الحبيب المصطفى، قال ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»(١).

وجعل النبى ﷺ الصدق فى البيع والشراء سببًا لتحصيل بركة الله تعالى، قال ﷺ: «البيِّعان (أى البائع والمشترى) بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما فى بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما»(٢).

والمؤمن يبتغى الربح الأعلى عند الله تعالى، ويقدمه ويفضله على الربح الأدنى فى دنيا الناس.

وقد أكد الموقف هذه القيم الإيمانية من الصدق والأمانة فى البيع والشراء؛ حيث رأينا يونس بن عبيد لما عاد من صلاته، ووجد ابن أخيه قد باع حُلَّة بأكثر من سعرها نصح المشترِى، وبَيَّن له سعر الحُلَّة الحقيقى، وردَّ له الباقى، وعَنَّف ابن أخيه قائلًا: أما اتقيت الله؟ أما استحييت؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح

---

(١) أخرجه الترمذى (١٢٠٩)، وضعفه الألبانى.

(٢) أخرجه البخارى (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

للمسلمين؟

فقال ابن أخيه: والله ما أخذها إلا وهو راض بها.

قال له يونس بن عبيد: فهلَّا رضيت له بما ترضاه لنفسك؟

وهكذا نرى حرص المؤمن على الحلال ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وفى المقابل نجد أن رسول الله ﷺ قد حذر من ترويج السلع والبضائع بالحلف الكاذب حيث قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»(١). ثالثهم: «المُنفق سلعته بالحلف الكاذب»، أى الذى يروِّجها بالحلف الكاذب.

ولكل عصر أيمانه الكاذبة فى ترويج السلع، ويدخل فى ذلك كل من يُعلن عن سلعته بإعلانات مغرية جذّابة، يذكر من الأوصاف الحسنة ما ليس فيها؛ كى يُرغِّب الناس فى شرائها.

- ومن عِبَرِ الموقف ـ أيضًا ـ: أهمية النصح فى الدين، حيث قال يونس بن عبيد لابن أخيه: النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها.

وهذا هدى الحبيب النبى ﷺ؛ فقد قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال ﷺ: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٢).

ودافع النصيحة لعامة المسلمين عند المؤمن أنه يحب الخير والمنفعة للآخرين كما يحب لنفسه، ويرضى لهم ما يرضاه لنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (٣٠٦).

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (١/ ٧٤).

وهذا من جُمْلة الإيمان بالله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (١/ ١٤)، (١٣)، والترمذي في سننه، (٤/ ٦٦٧)، (٢٥١٥)، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٢/ ١٦١).

١٨٦. الغلام والساحر والملك (*)

عن صُهَيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم وكان له ساحرٌ، فلمَّا كبر قال للملك: إنِّى قد كَبرتُ فابعَثْ إلَىَّ غلامًا أعلِّمه السحر، فبعث إليه غلامًا يُعلِّمه، فكان فى طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أَتَى الساحر ضربه فَشَكا ذلك إلى الراهب، فقال إذا خشيتَ الساحر فَقُل حَبَسَنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فَقُل حَبَسَنى الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال اليوم أعلمُ آلساحر أفضل أَمِ الراهب أفضل، فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أَمْرُ الراهب أحبَّ إليك من أَمْرِ الساحر فاقتُلْ هذه الدابة حتى يَمضِى الناس، فرماها فقتلها ومَضَى الناس.

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٧٧٠٣).

فَأَتَى الراهب فأخبره: فقال له الراهب: أَيْ بُنَيَّ أنت اليوم أفضل منِّى. قد بلغ من أمرك ما أَرَى وإنك ستُبتَلى فإن ابتُلِيت فلا تدلَّ علىَّ.

وكان الغلام يبرئُ الأكمه والأبرص ويُداوِى الناس من سائر الأدواء، فسمع جَلِيسٌ للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرةٍ فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شَفَيتنى؟ فقال: إنِّى لا أَشفِى أحدًا إنما يَشفِى الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك مَن ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربى.

قال: ولك ربٌّ غيرى؟ قال: ربى وربك الله، فأخذه فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الغلام، فجِيء بالغلام فقال له الملك: أى بنى قد بلغ من سحرك ما تُبرِئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إنى لا أشفى أحدًا إنما يشفى الله.

فأخذه فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الراهب فجِيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى

مفرق رأسه فشقَّه حتى وقع شقاه، ثم جِيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشَقَّه به حتى وقع شِقَّاه.

ثمَّ جِيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذُروته فإن رجع عن دينه وإلَّا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قُرْقُورٍ فتوسَّطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلَّا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ، فَانكَفَأَتْ بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنك لَسْتَ بقاتِلِى حتى تفعل ما آمرك به، قال:

وما هو؟ قال: تجمعُ الناس فى صَعِيدٍ واحدٍ وتَـصْلُبُنى عـلى جِـذْعٍ ثم خُذْ سهمًا من كنانتى ثم ضَع الـسَّهم فى كبـد القـوس ثـم قـل: باسم الله رَبِّ الغلام، ثم ارمنى فإنك إذا فعلتَ ذلك قتلتنى.

فَجَمَع الناس فى صَعِيدٍ واحدٍ وَصَلَبه عـلى جِـذْعٍ، ثـم أخـذ سهمًا من كِنانته، ثم وَضَعَ السهم فى كبد القوس، ثـم قـال: باسْـمِ الله رَبِّ الغلام، ثم رماه فوقع الـسَّهم فى صُـدْغه، فوضـع يـده فى صُدْغه فى موضع السهم فمات؛ فقال الناس: آمنَّا بربِّ الغلام آمنَّا بربِّ الغلام آمنَّا بربِّ الغلام.

فَأُتِىَ الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ والله قد نـزل بـك حذرك قد آمن الناس، فأمر بالأخدود فى أفـواه الـسِّكك فَخُـدَّت وأضرم النِّيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها،أو قيل له اقتحم، ففعلوا، حتَّى جاءت امرأةٌ ومعها صبىٌّ لهـا فتقاعـست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصْبرى فإنَّك على الحق».

*****

وبتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر التالية:

- الأولى: أن مراد الله غالب، فقد دبر وخطط الـساحر والملـك للغـلام أن

يكون ساحرًا، وأراد ربك للغلام أن يكون داعية، فكان ما أراد الله تعالى.

- الثانية: من كان فى عناية الله وحفظه لا يضره شىء، فقد حاول الملك وجنوده إلحاق الضرر والهلاك بالغلام فلم يستطيعوا.

- الثالثة: بركة الدعاء والاستغاثة بالله تعالى، فلما دعا الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، كفاه الله تعالى أذاهم ومكرهم، وفى القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة).

- الرابعة: صبر أهل الحق فى زمن الفتن والمحن، فأنت ترى أنهم عذَّبوا الراهب ووضعوا المنشار فى مفرق رأسه، وأن الملك قد حفر أخدودًا وأضرم فيه النيران وألقى من آمن من الناس فيه جملة.

- الخامسة: أنه لا حرج على فضل الله أن يكرم عبدًا من عباده بكرامة من الكرامات، فالأمر كله لله.

- السادسة: أن من أكرمه الله بكرامة فينبغى أن ينسب الفضل فيها لله، ولا يرى لنفسه من أمرها شيئًا، كى لا يفتن الناس، وهكذا قال الغلام لمن يأتيه طالبًا الشفاء، يقول: أنا لا أشفى، وإنما الذى يشفى هو الله.

- السابعة: معونة الله وتأييده لأهل الحق، فرأينا الصبى قد أنطقه الله قائلًا: يا أماه اصبرى فإنك على الحق.

- الثامنة: الإخلاص لله تعالى سر من الأسرار فى القرب من الله تعالى ونيل بركاته.

والحمد لله رب العالمين

١٨٧. أُوَيْسٌ القرني وسيدنا عمر رضي الله عنه (*)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أُوَيْسُ بن عامر؟! حتى أتى على أُوَيْسٍ فقال: أنت أويس بن عامر؟

قال: نعم. قال: من مُرَادٍ ثم من قَرَنٍ؟ قال: نعم. قال: فكان بك بَرَصٌ فبرأت منه إلَّا موضع درهمٍ؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتى عليكم أُوَيْسُ بن عامرٍ مع أمداد أهل اليمن، من مُرَادٍ ثم من قَرَنٍ، كان به بَرَصٌ فَبَرَأ منه إلَّا موضع درهمٍ، له والدةٌ هو بها بَرٌّ لو أقسم على الله لأَبَرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». فاستغفر لى، فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون فى غَبراء الناس أحبُّ إلَيَّ.

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرنى، (٦٦٥٦).

قال: فلما كان من العام المقبل حجَّ رجلٌ من أشرافهم فوافـق عمر فسأله عن أويسٍ، قال: تركته رثَّ البيت قليـل المتـاع. قـال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتى عليكم أُوَيْـسُ بـن عـامرٍ مـع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ ثم من قَرَنٍ كان به بَـرَصٌ فَـبَرَأَ منـه إلَّا موضع درهمٍ له والدة هـو بهـا بَـرٌّ لـو أقـسم عـلى الله لأَبَـرَّه فـإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فأتى أُوَيْسًا، فقال: استغفر لى. قال: أنت أحدث عهدًا بـسَفَرٍ صالح، فاستغفر لى. قال: اسـتغفر لى. قـال: لقيـت عمـر؟ قـال: نعم. فاستغفر له.

ففطن له الناس فانطلق على وجهه. قال: أُسَيْرٌ وكسوته بُردَةٌ فكان كلما رآه إنسان قال من أين لأويسٍ هذه البُردَة!!

*****

وبتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية:

- الأولى: فضل بر الوالدين، وبخاصة الأم، وأنه مـن أفـضل القربـات لله تعالى التى يرفع بها شأن فاعله فى الدنيا والآخرة؛ فقد نال أويس ما نال من المكانـة العالية بسبب بره بأمه.

• الثانية: أن قلة المتاع وفقر الحال فى أمر الدنيا ليس دليلًا على هوان العبد على الله تعالى، فقد كان أويس فقير الحال رثَّ البيت قليل المتاع، لكنه على درجة عالية محمودة عند الله تعالى، إذ قال عنه النبى ﷺ: «لو أقسم على الله لأبره».

• الثالثة: أن طلب الدعاء من الصالحين سنة محمودة، وقد أوصى رسول الله ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يسأل أويسًا القرنى رضي الله عنه أن يدعو له، وقد فعل سيدنا عمر رضي الله عنه.

• الرابعة: أن الصالحين لا يحبون الشهرة ولا الصيت الذائع بين الناس، بل يهربون من ذلك، إنهم يخشون فتنة الشهرة ورياء السمعة، لقد آثروا ذكر الله على ذكر الناس، فذكر الله يبقى وذكر الناس يفنى، لذلك لما رأى أويس القرنى أن شهرته بين الناس قد ذاعت ذهب إلى مكان مجهول.

فما بالنا بأحوالنا المعاصرة نتقاتل على الشهرة ونضحى فى سبيلها، ونبحث عنها؟!

اللهم سَلِّم وردنا إلى الإيمان ردًّا جميلًا

١٨٨. الأبـرص والأقـرع والأعـمـى (*)

عن أبى هريرة ﵁ أنه سمع النبى ﷺ يقول: « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص فقـال: أى شـىء أحـب إليـك؟ قـال: لـون حَسَن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قد قَـذِرَنِى النـاس، قـال: فمسحه فذهب عنه قَذَره، وأُعطِى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، قـال: فأىُّ المال أحب إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر، شك إسـحاق، إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر، قال: فأُعطِى ناقة عُشَراء، فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع فقال: أىُّ شىء أحب إليـك؟ قـال: شَـعر حسن ويذهب عنـى هـذا الـذى قَـذِرَنى النـاس، قـال: فمـسحه فذهب عنه، وأُعطِى شعرًا حسنًا، قال: فـأىُّ المـال أحـب إليـك؟ قال: البقر، فأُعطِى بقرةً حاملًا، فقال: بارك الله لك فيها.

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء (٣٢٧٧)، ومسلم فى صـحيحه، كتـاب الزهـد والرقـائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٢٠) واللفظ له.

قال: فأتى الأعمى فقال: أيُّ شيء أحب إليك؟ قال: أن يردَّ الله إلىَّ بصرى فأبصر به الناس، قال: فمسحه فردَّ الله إليه بصره، قال: فأىُّ المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأُعطِى شاةً والدًا فأُنتِج هذان، وولَّد هذا، قال: فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلَّغُ عليه فى سفرى، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأنى أعرفك! ألم تكن أبرص يَقْذَرُك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: إنما وَرِثتُ هذا المال كابرًا عن كابرٍ، فقال: إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع فى صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما ردَّ على هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى فى صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلَّغ بها فى سفرى، فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إلَيَّ بصرى، فخُذْ ما شئت ودَعْ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله، فقال: أَمْسِكْ مالك، فإنما ابتُلِيتم، فقد رُضِيَ عنك وسُخِط على صاحبيك.

*****

وبتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العظات الآتية:

- الأولى: أن الله تعالى هو الذى خلق النفس فسواها، وهو العليم بما يصلح هذه النفس، فمن النفوس ما يصلحها الغنى، ومن النفوس ما يصلحها الفقر، فسبحان من يدبر شؤون خلقه بعلمه.

وقال ابن مسعود: إن العبد لَيَهُمُّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه فإنه إن يسَّرْته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير بقوله: سبَّنى فلان، أهاننى فلان، وما هو إلا فضل الله تعالى.

وأخرج الطبرانى من حديث أنس عن النبى ﷺ قال: «يقول الله تعالى: وإن

من عبادى المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، إنى أدبر عبادى بعلمى بقلوبهم، إنى عليم خبير»[(١)].

• الثانية: أن الابتلاء يكون بالنعمة والنقمة ليظهر من يشكر ممن يكفر، فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد، فالله تعالى قد ابتلى الثلاثة بالداء (البرص، العمى، القرع) مع الفقر، ثم الشفاء والصحة مع الغنى.

• الثالثة: أن النفس الإنسانية فى غيبة الإيمان تميل إلى الفخر والتعالى، وهذا ما قاله الأبرص والأقرع: ورثنا هذا المال كابرًا عن كابر، وأنكرا ما مر من حياتهما من فقر، فى حين نجح الأعمى بتواضعه واعترافه بنعمة الله عليه، وأداء حق الله فيها. فيا سعادة من وفق لمرضاة ربه، وأخضع نفسه لرضا مولاه.

• الرابعة: هى أن رضا الله فى طاعته وأن سخط الله فى معصيته، فليحرص العبد على طاعة مولاه، وليحذر معصية الله.

نسأل الله السلامة والعافية

---

(١) الأولياء لابن أبى الدنيا (١/ ٩)، وأخرجه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٤٠).

١٨٩. آواهم المبيت إلى الغار(*)

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم.

فقال رجل منهم: اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فناء بى فى طلب شىء يومًا فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج.

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجير أجره فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل فى مال غيره (٢١٥٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٧١٢٧).

قال النبى ﷺ: «وقال الآخر: اللهم كانت لى بنت عم كانت أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبى ﷺ: «وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال: يا عبد الله أَدِ إلى أجرى. فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بى. فقلت: إنى لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا، اللهم فإن

كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

*****

وبتدبر الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية:

- الأولى: أن التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة الخالصة لله تعالى من أفضل أسباب تفريج الكروب.
- الثانية: أن ما ندخره من أعمال صالحة خالصة لوجه الله تعالى، ينفع الإنسان فى الدنيا قبل الآخرة. وفى هذا حث للمؤمن على الإكثار من الأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله تعالى.
- الثالثة: أن الله يكرم عباده الصالحين بكرامات جليلة، ولا حرج على فضل الله، فلنسأل الله من فضله.

١٩٠. لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة (*)

عن أبى هريرة: عن النبى ﷺ قال: «لم يتكلم فى المَهْد إلا ثلاثة؛ عيسى ابن مريم، وصاحب جُرَيجٍ.

وكان جريجٌ رجلًا عابدًا، فاتخذ صومعة، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلِّى فقالت: يا جريج! فقال: يا رب، أمى وصلاتى. فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلِّى، فقالت: يا جريج! فقال: يا رب، أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى، فقالت: يا جريج! فقال: أى رب، أمى وصلاتى. فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْه حتى ينظر إلى وجوه المُومِسات.

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بَغِيٌّ يُتمَثَّل بحُسنها، فقالت: إن شئتم لأفتِننَّه لكم، قال: فتعرَّضت له، فلم

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ (مريم)، (٣٢٥٣)، ومسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٦٦٧٣) واللفظ له.

يلتفت إليها، فأتت راعيًا كـان يَـأوِى إلى صَـومعته، فأمكَّنتـه مـن نفسها، فوَقَع عليها فحَمَلت، فلما وَلَدَت قالت: هو من جريج.

فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البَغِـى فولـدت منـك. فقـال: أيـن الصبى؟ فجاءوا بـه، فقـال: دعـونى حتـى أصـلِّى، فـصلَّى، فلـما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقـال: يـا غـلام، مـن أبـوك؟ قال: فلان الراعى، قال: فأقبلوا على جريج يُقبِّلونـه ويتمـسَّحون به، وقالوا: نبنى لك صومعتك من ذهب. قال: لا، أعيـدوها مـن طين كما كانت، ففعلوا.

وبينا صبىٌّ يرضع من أمه، فمرَّ رجل راكب على دابة فارهـة وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهـم اجعـل ابنـى مثـل هـذا. فـترك الثَّدى وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلنى مثله. ثـم أقبـل على ثديه فجعل يرتضع. قال: فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهـو يحكى ارتضاعه بإصبعه السبابة فى فمه فجعل يمصها.

قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت.

وهى تقول: حسبى الله ونعم الوكيل . فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابنى مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلنى مثلها. فهناك تراجعا الحديث فقالت: حَلْقَى مرَّ رجلٌ حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابنى مثله. فقلتَ: اللهم لا تجعلنى مثله. ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت. فقلتُ: اللهم لا تجعل ابنى مثلها. فقلتَ: اللهم اجعلنى مثلها؟!

قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلنى مثله. وإن هذه يقولون لها زنيت، ولم تزنِ، وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلنى مثلها.

*****

بتدبر الموقف يمكن استخلاص العبر الآتية:

- الأولى: أن دعاء الوالدين مستجاب، فليحذر الأبناء مخالفة آبائهم ما دام الأمر فى حدود مرضاة الله تعالى.
- الثانية: أن التضرع إلى الله تعالى والاستعانة بالصلاة فى مواجهة الكرب من أفضل وأعلى أسباب الفرج، ولنا فى القرآن حجة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾ (البقرة).

• الثالثة: أن الله يكرم من شاء من عباده بكرامات، ولا حرج على فضل الله تعالى. فالأمر كله بيد الله. فقد أنطق الله الصبى بالحق.

• الرابعة: أن الصالحين لا يتاجرون بدينهم رغبة فى دنيا الناس، بل هم من أزهد الناس فيها، ورأينا فى الموقف أن الناس عرضوا على جريج أن يبنوا له صومعته من ذهب بعد ظهور براءته بمعجزة نطق الصبى بالحقيقة، لكنه رفض وقال لهم: أعيدوها كما كانت فقط.

• الخامسة: أن منازل الناس عند الله تعالى لا تتأتى من مظهرهم ومكانتهم فى الدنيا،.

ورأينا فى الموقف أن الله قد أنطق الصبى حين دعت له أمه أن يكون مثل هذا الفارس الغنى، وقال: اللهم لا تجعلنى مثله، وذلك لأن هذا الفارس كان جبارًا ظالـمًا فى الأرض.

ولما مرت بجارية يضربونها ويقولون عنها: لقد زنت، وسرقت، وهى تقول: حسبى الله ونعم الوكيل، ودعت الأم لصبيها: اللهم لا تجعل ابنى مثلها، فأنطق الله الصبى قائلًا: اللهم اجعلنى مثلها، وذلك لأنها كانت تقية مظلومة، ولها منزلة عند الله تعالى.

وصدق الله العظيم: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ (البقرة).

والله المستعان

١٩١. أبـو هريـرة وقـدح اللبـن (*)

عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول: آلله الذى لا إله إلا هـو إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض مـن الجـوع، وإن كنـت لأشـد الحجر على بطنى من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله مـا سـألته إلا ليشبعنى فمر ولم يفعل، ثم مر بـى عمـر فـسألته عـن آيـة مـن كتاب الله ما سألته إلا ليـشبعنى فمـر ولم يفعـل، ثـم مـر بـى أبـو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى.

ثم قـال: (يـا أبـا هـر)، قلـت: لبيـك يـا رسـول الله، قـال: (إلْـحَقْ)، ومضى فاتبعته فدخل فأستأذن فـأذن لى فـدخل فوجـد لبنًا فى قدح، فقال: (من أين هذا اللبن؟)، قالوا: أهداه لـك فـلان أو فلانة، قال: (أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (إلْــحَقْ إلى أهل الصفة فادعهم لى).

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عـيش النبـى ﷺ وأصـحابه وتخلـيهم عـن الدنيا (٦٠٨٧).

قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءنى ذلك، فقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصفة؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن، شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرنى فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت.

قال ﷺ: (يا أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله قال ﷺ: (خذ فأعطهم)، قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح حتى انتهيت إلى النبى ﷺ وقد روى القوم كلهم.

فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم فقال ﷺ: (أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله قال: (بقيت أنا وأنت). قلت:

صدقت يا رسول الله، قال ﷺ: (اقعد فاشرب)، فقعدت فشربت، فقال: (اشرب)، فشربت. فما زال يقول: (اشرب)، حتى قلت لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا.

قال: (فأرنى)، فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة».

*****

بتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية:

- **الأولى:** أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يتعرضون لشدة العيش والحاجة حتى ما يجد أحدهم وجبة الطعام أيامًا، فصبروا، فزادهم الله إيمانًا، فرضى الله عنهم وأرضاهم. وفى هذا أسوة لكل مسلم أن يتحمل شدة العيش إذا مرت به، فمن هم خير منا تعرضوا لأشد مما نتعرض له.

- **الثانية:** أن حديث النفس لصيق بالإنسان، وهو الخواطر التى تمر بالإنسان، وهو أمر قد عفا الله عنه بالنسبة للمسلم، قال ﷺ: «عفا الله عن أمتى ما حدثت بها أنفسها»[1].

- **الثالثة:** بركة سيدنا رسول الله ﷺ التى حلت بقدح اللبن حتى شرب الجميع منه.

---

(١) إتحاف ٧/ ٢٩٢.

- **الرابعة: تواضع رسول الله ﷺ ومحبته لأهل الصفة، فقد كان آخر من شرب، وشرب ماذا؟ لقد شرب ﷺ الفضلة.**

اللهم صل وسلم على صاحب الخلق العظيم والقلب الرءوف الرحيم

سيدنا محمد ﷺ.

١٩٢. فإن الله لا يُضيع أهله (*)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل، أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفّى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟! فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذى أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه؛ فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب يزفون النسلان فى المشى، (٣١٨٤).

ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال: يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر؛ هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت؛ هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا؛ فقالت: صه! ـ تريد: نفسها ـ ثم تسمعت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ

أو قال: بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها، وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينًا معينًا». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة؛ فإن ها هنا بيت الله، يبنى هذا الغلام وأبوه، فإن الله لا يُضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية؛ تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفقة من جرهم ـ أو: أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق (كداء)، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء! فأرسلوا جريًا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل

عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء، قالوا: نعم. قال عبد الله بن عباس: قال النبى ﷺ: «فألفى ذلك أمّ إسماعيل وهى تحب الإنس».

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شبّ؛ فلما أدرك زوجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يُطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بشر، نحن فى ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زووجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له: يُغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم؛ جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول

لك: غيّر عتبة بابـك، قـال: ذاك أبـى، وقـد أمرنـى أن أفارقـك، الحقى بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثـم أتـاهم بعـد فلـم يجـده، فدخل على امرأته فسألها عنـه؟ فقالـت: خـرج يبتغـى لنـا، قـال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيـشهم وهيئـتهم؟ فقالـت: نحـن بخـير وسعة، وأثنت على الله تعالى، فقال: ما طعامكم؟ قالـت: اللحـم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم! بـارك لهـم فى اللحـم والماء.

قال النبى ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهـم حـب دعا لهم فيـه». قـال: فهـما لا يخلـو علـيهما أحـد بغـير مكـة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبـت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هـل أتـاكم مـن أحـد؟ قالـت: نعم، أتانـا شـيخ حـسن الهيئـة ـ وأثنـت عليـه ـ فـسألنى عنـك، فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قـال: فأوصـاك بشىء؟ قالت: نعم، هو يقـرأ عليـك الـسلام، ويـأمرك أن تثبـت

عتبة بابك، قال: ذاك أبى وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلًا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل! إن الله أمرنى بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك.

قال: فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء؛ جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ (البقرة).

قال: فجعلا يبنيان، حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم».

*****

معانى الكلمات:

(المنطق) ما يشد به الوسط. (لتعفى أثرها) أى لتجره على الأرض وتخفى أثرها على سارة. (دوحة) شجرة كبيرة. (جرابًا) ما يتخذ من الجلد لتوضع فيه الزوادة.(قفى) من التقفية وهى الإعراض والتولى يعنى ولى راجعًا. (الثنية) الطريق العالى فى الجبل. (الكلمات) الدعوات أو الجمل التى أنزلها الله تعالى فى كتابه على محمد ﷺ وتتمتها ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم).

(بواد) هو مكة. (المحرم) الذى يحرم التعرض له والتهاون به. (أفئدة) جمع فؤاد وهو القلب والمراد الناس أصحاب القلوب. (تهوى إليهم) تقصدهم وتسكن إليهم. (يتلوى) يتمرغ وينقلب ظهرا لبطن ويمينا وشمالا. (يتلبط) يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض وقيل يحرك لسانه وشفتيه كأنه يموت. (درعها) قميصها. (سعت) هرولت وأسرعت فى خطاها. (المجهود) الذى أصابه الجهد وهو الأمر الشاق. (فذلك سعى الناس بينهما) أى سبب مشروعية السعى بين الصفا والمروة لإحياء تلك الذكرى فى النفوس لتنشط فى الالتجاء إلى الله عز وجل فى كل حال.

(صه) أى قالت لنفسها اسكتى. (غواث) من الغوث أى إن كان غوث فأغثنى. (بالملك) أى جبريل عليه السلام. (فبحث بعقبه) البحث طلب الشىء فى التراب وكأنه حفر بطرف رجله. (تحوضه) يجعله كالحوض لئلا يذهب الماء. (تقول بيدها) هو حكاية لفعلها. (عائفًا) هو الذى يتردد على الماء ويحوم ولا

يمضى عنه والعائف أيضا الرجل الذى يعرف مواضع الماء من الأرض. (لعهدنا) لمعرفتنا صلتنا. (جريًا) رسولًا ويطلق على الوكيل والأجير، وسمى بذلك لأنه يجرى مجرى مرسله أو لأنه يجرى مسرع فى حوائجه. (فألفى ذلك) فوجد الجرهمى. (الأنس) المؤانسة بالناس.

(شب الغلام) نشأ إسماعيل عليه السلام. (أنفسهم) رغبهم فيه وفى مصاهرته. (يطالع تركته) يتفقد حال ما تركه هناك والتركة بمعنى المتروكة والمراد بها أهله والمطالعة النظر فى الأمور. (يبتغى لنا) يطل لنا الرزق وكان عيشه من الصيد. (هيئتهم) حالتهم. (عتبة بابه) هى أسكفة الباب وهى هنا كناية عن المرأة. (لا يخلو عليهما أحد) لا يعتمد أحد فى طعامه على اللحم والماء فقط. (لم يوافقاه) أى لا يوافقان مزاجه ويشتكى من بطنه ونحو ذلك وأما فى مكة فإن المداومة على أكلها لا تحدث شيئًا، وهذا من بركة إبراهيم عليه السلام.

*****

بتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية:

- الأولى: أن أوامر الله غالية، أغلى من الولد والزوج والأهل والنفس.
- الثانية: أن من سعى لمرضاة ربه فلن يضيعه الله، إن الله لا يضيع أهله.
- الثالثة: أن طاعة الولد لوالده من أعظم القربات التى ينفع الله بها الولد فى الدنيا والآخرة.
- الرابعة: أن بركة السعى والاجتهاد بركة عظيمة، وهل كانت زمزم إلا بعد سعى؟

• الخامسة: أن علينا السعى والاجتهاد أما النتائج فعلى الله تعالى. لقد كان سعى هاجر من أجل ماء يكفى الطفل الصغير، فمنَّ الله عليها بزمزم لسقاية البشرية المؤمنة إلى يوم القيامة، وهذا فضل من الله واسع.

• السادسة: أن المؤمن فى عمله الصالح يخشع لربه ويتواضع، ولا يتباهى بعمله الصالح مهما كان قدر هذا العمل أو مكانته. بل عليه أن يتأسى بنبى الله إبراهيم وبنبيه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة).

• السابعة: يظهر من الموقف الفرق بين من يعتمد فى حياته على عقله فقط، ومن يعتمد على ربه مع ما أولاه الله من نعمة العقل والبصيرة، وسبحان الله القائل: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ (هود).

١٩٣. هل من علامة يُعرَف بها ؟ (*)

بينما الصحابة جلوس مع رسول الله ﷺ إذ تلا عليهم قول الله ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزمر/ ٢٢).

ثم قال ﷺ: «إنَّ النور إذا دخل القلب، انفسح وانشرح»، فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يُعرف بها؟ فقال ﷺ: «نعم، التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

*****

أنعم ببيئة الأنوار وساحة الرضا والرضوان، إنها هى بحق الحياة وهى الأمان وهى السكينة وهى الطمأنينة والرضا. إنها بحق جنة الدنيا للمؤمن. وسبحان الله القائل: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (النور).

كيف لا؟ والله تعالى نور السماوات والأرض، نوَّرهما بالنور الحسى، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ (الفرقان).

والله تعالى نور السماوات والأرض، نوَّرهما بالنور المعنوى، قال تعالى: ﴿قَدْ

(*) أخرجه الحاكم فى المستدرك، كتاب الرقاق (٧٨٦٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان، باب فى الزهد وقصر الأمل (١٠٥٥٢)، وضعفه الألبانى السلسلة الضعيفة (٩٦٥).

جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾ (الأنعام).

وإذا أنعم الله على عبد بفيض من هذا النور تحولت حياته إلى منازل القرب والرضا، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأنعام).

هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فينال البشرى التى جاءت فى قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾﴾ (التحريم).

لذلك كان من دعاء النبى ﷺ: «اللهم اجعل فى قلبى نورًا وفى بصرى نورًا وفى سمعى نورًا، ومن تحتى نورًا، ومن فوقى نورًا، اللهم اجعلنى نورًا».

ونور الله فى القلب هداية، ومن آثار هذا النور أن الله يشرح صدر المؤمن للطاعة والعبادة، والاستعداد للقاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ (الحجرات).

وبيّن لنا المصطفى ﷺ فى الموقف علامات ثلاثًا لنور الله فى قلب المؤمن:

- الأولى: التجافى عن دار الغرور؛ فلا ميل للشهوات ولا للأهواء ولا للمعاصى ولا للآثام، لأنه فى أنوار الهداية يرقى إلى منازل القرب والرضا.
- الثانية: الإنابة إلى دار الخلود؛ حيث يجد المؤمن من نفسه سرعة الاستجابة لربه فيما أمر، إنه يسارع فى الخيرات ليتزود إلى دار الخلود.

• الثالثة: الاستعداد للموت بل نزوله؛ وذلك بالإكثار من الصالحات، والبعد عن المعاصى والمظالم، وبخاصة حقوق العباد.

وقد ورد فى الأثر: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانىّ».

ومعنى «دان نفسه»: حاسبها.

ومن فضل الله تعالى أنه بيَّن لنا الطريق للفوز بنور الله تعالى، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (البقرة/ ٢٥٧).

ثم يأتى العمل الصالح فى المرتبة الثانية، قال تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (الطلاق/ ١١).

كما يشير القرآن الكريم إلى أن التقوى، ومتابعة الرسول ﷺ، من أقوى السبل لتحصيل نور الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ (الحديد/ ٢٨).

والقرآن نفسه سبيل قويم لنور الله تعالى، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ (إبراهيم).

فإذا ما استجاب المؤمن، والتزم هدى الله تعالى، واقتدى برسول الله ﷺ، أنعم الله عليه بفيض من نوره.

١٩٤. إلهى: لا شريك لك فيؤتى (*)

تعلق شابٌّ بأستار الكعبة، وقال: إلهى، لا شريك لك فيؤتى، ولا وزير لك فيرشى، ن أطعتك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتك فبجهلى ولك الحجةُ على، فبإثبات حجتك على وانقطاع حجتى لديك إلا غفرت لى. فسمع هاتفًا يقول: الفتى عتيق من النار.

*****

إلهنا ربٌّ رحيم، إنه الغفور الودود، الحنان المنان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام. إذا جاءه المذنبون والمسرفون فحطوا رحال الذنوب والخطايا على باب غفرانه، تفضل بالمغفرة قائلا سبحانه وتعالى: أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم... كيف لا؟ وهو القائل فى كتابه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).

كيف لا؟ وهو الذى إذا أقبل إليه مذنب فتاب وآمن وعمل عملا صالحًا، غفر له وبدل سيئاته حسنات.

كيف لا؟ وهو سبحانه كما أخبر الحبيب المصطفى ﷺ: «إن الله تعالى يبسط

(*) الرسالة القشيرية ١/ ١٢١.

يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

قال رسول الله ﷺ: «إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد من الله بذنب»[2].

وفى الموقف رأينا هذا الشاب يتضرع إلى مولاه فى حسن أدب، حيث يسند ما ارتكب من عصيان إلى نفسه، ويرجع ما به من طاعة وصلاح إلى فضل الله تعالى. وإقراره بوحدانية الله تعالى؛ فلا شريك له فيؤتى، ولا وزير له فيُرشى وليس لنا من سبيل إلا باب الانكسار والاستغفار. والله تعالى بشَّرَ من أناب إليه بمغفرته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (النساء).

اللهم ردنا إلى الإيمان ردًّا جميلًا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، باب قبول التوبة من الذنوب (٧١٦٥).

(٢) كنز العمال للمتقى الهندى (١٠١٧٩)، الترغيب والترهيب (٤/ ٩٤).

١٩٥. حديثو عهد بجاهلية (*)

أخذ النبى ﷺ السيدة عائشة رضى الله عنها إلى الكعبة المشرفة، وعَرَّفها أن الكعبة قد انْتُقِصَ من طولها عن قواعد إبراهيم عليه السلام، من جهة حجر إسماعيل. فسألت رسول الله ﷺ: لماذا لا يُعيد بناء الكعبة ليضم إليها ما انْتُقِصَ منها؟ فقال ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت البيت فبنيته على أساس إبراهيم».

*****

هذا موقف يفيض بالحكمة الهادية، من رسول الله ﷺ.

أما عن الكعبة؛ فهى بناء مكعب، مجوف من الداخل، وقد تكرر بناؤها على مر الزمان، ومنها بناء قريش للكعبة قبل بعثة النبى ﷺ بخمس سنين، حين تعرضت الكعبة لحريق، بسبب اشتعال أستار الكعبة أثناء تجمير الكعبة (تبخيرها)، مما أدى إلى هدم بعضها، ودخلتها السيول، فعزمت قريش على بنائها، فكشفت قريش أساس الكعبة الذى وضعه نبى الله إبراهيم عليه السلام فلما عزموا على البناء، حسبوا ما جمعوه من نفقة حلال، تخلوا من مال الربا، فوجدوه لا يفى لبناء

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها (١٥٠٦)، وفى موضع آخر، ومسلم فى صحيحه، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها (٣٣٠٦) واللفظ للبخارى.

الكعبة على القواعد التى وضعها نبى الله إبراهيم ﷺ فنقصوا من عرضها ستة أذرع وشبرًا من جهة حجر إسماعيل، وبعد البعثة أقر النبى ﷺ هذا البناء.

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ أخذها إلى الكعبة، وعرَّفها أن الكعبة قد انتقص من طولها من جهة إسماعيل، ثم قال النبى ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت البيت فبنيته على أساس إبراهيم».

وهنا عبرة غالية نتعلمها من رسول الله ﷺ فى تقدير الواقع ورعاية حال المتلقى، وهذا من حكمته ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى.

كيف لا؟! وهو الذى أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم.

وهذا درس للمصلحين والدعاة والمربين، ولعل ما سبق يفسر لنا بوضوح سبب الطواف حول حجر إسماعيل مع الكعبة، حيث إن الحِجر جزء من الكعبة.

والحمد لله رب العالمين

١٩٦. الصفا والمروة من شعائر الله (*)

عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة رضى الله عنها: إنى لأظن رجلًا لو لم يطف بين الصفا والمروة ما ضره، قالت: لم قلت؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة).

فقالت: ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة، ولو كان كما تقول «لكان فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»، وهل تدرى فيما كان ذاك؟ إنما كان ذاك أن الأنصار كانوا يهلون فى الجاهلية لصنمين يقال لهما: إساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذى كانوا يصنعون فى الجاهلية، قالت: أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعى بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به (٣١٣٨).

جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة). قالت: فطافوا.

*****

• هذا موقف تربوى عظيم، يعلمنا كيف نتصرف إذا اختلطت المسائل، فموضع الصفا والمروة شهد طاعة عظيمة من السيدة هاجر حين سعت بينهما طلبًا للماء، بعد أن انتهى الماء من سقائها واشتد العطش بوليدها إسماعيل عليه السلام.

كما شهد موضع الصفا والمروة عملًا من أعمال الشرك، من العرب فى زمن الجاهلية، حيث كان على الصفا وثن يسمى (إسافًا) وعلى المروة وثن آخر يسمى (نائلة)، وكان العرب فى الجاهلية إذا طافوا بالبيت جاءوا إلى هذين الصنمين وتمسحوا بهما.

فلما جاء الإسلام وبعث الله نبيه محمدًا ﷺ وفرض الحج، تحرج المسلمون من السعى بين الصفا والمروة، بسبب أفعال المشركين عليهما قبل الإسلام.

فرد الله المؤمنين إلى أصل النسك الذى يرتبط بطاعة عظمى، وموقف إيمانى عظيم، من السيدة هاجر أم نبى الله إسماعيل عليهما السلام حيث سعت سبع مرات بين الصفا والمروة طلبًا للماء، وقال النبى ﷺ: «فذلك سعى الناس بينهما»[1].

لذلك أنزل الله سبحانه وتعالى على النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب يزفون النسلان فى المشى، (٣١٨٤).

خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة).

• كما يذكرنا هذا الموقف بموعظة غالية، وهى أن السعى لمرضاة الله يعقبه الفرج والسرور، فبعد سعْى السيدة هاجر كانت زمزم.

وهذا درس للمؤمنين فى الاجتهاد وسع الطاقة، أما النتائج فهى على الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق).

وهكذا امتثل الصحابة واستجابوا لهدى الله. روى جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ لما دنا من الصفا، قرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة).

ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به» فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا[1].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه مسلم فى الحج (١٤٧)، سنن الدرامى (٢/ ٤٦).

١٩٧. أفلا نتخذه مصلَّى ؟ (*)

عن أنس بن مالك قال: قال عمر: قلت يا رسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة/ ١٢٥).

*****

الله أكبر ولله الحمد، إن كل بقعة من البقاع الشريفة ـ بالحرم المكى ـــ مليئة بالأسرار، ومع الأسرار عبرٌ وعظات، فبين الركن والحجر، والملتزم والحِجْر، وزمزم، والمقام، والصفا والمروة، والبيت، أسرار تفيض بالعبر والعظات، لقد تجاوزت الآيات فيها حدود الأسباب إلى مسبب الأسباب، إلى قدرة من يقول للشىء كن فيكون.

- أما عن المقام: فهو مقام نبى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو الحَجَر الذى قام عليه حين ارتفع بناء البيت فاستعان بذلك الحجر، ليقف عليه ويكمل البناء.

وفى هذا الحجر أثر قَدَمَى إبراهيم الخليل، حيث جعل الله هذا الحجر تحت قَدَمَى نبى الله إبراهيم عليه السلام فى رطوبة الطين حتى غاصت قدماه فيه، ليكون آية ظاهرة للعالمين، وهو الحجر الموجود اليوم فى المقصورة الزجاجية الشفافة، حيث

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، أبواب القبلة، باب ما جاء فى القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة (٣٩٣).

تُرى من خلالها هيئة القدمين بوضوح.

وأمرنا الله تعالى أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، كي ينال المسلم من بركات الله فى هذه البقاع الشريفة، التى شهدت أروع المواقف فى الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى.

• كما يظهر من الموقف أن الدين من الله، وأن النبى ﷺ لا يأتى إلا بما يأمره الله به، يظهر هذا من قول النبى ﷺ لما سأله عمر رضي الله عنه: «أفلا نتخذه مصلى؟» فقال النبى ﷺ: «لم أؤمر بذلك». فلما أنزل الله تعالى الآية ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة/ ١٢٥)، وأمر باتخاذ المقام مصلى، كان النبى ﷺ أول من استجاب لأمر الله.

• كما يستفاد من الموقف، المنزلة العالية لسيدنا عمر رضي الله عنه حيث نزل القرآن موافقًا لرأيه فى هذا الموضع ومواضع أخرى، فرضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

• أما بشأن الصلاة خلف المقام، ففيها فقه تشتد الحاجة إليه فى ظروفنا المعاصرة، وبخاصة أيام الحج، حيث شدة الزحام لكثرة الطائفين.

وربما ظن بعض العامة أن خلف المقام مقصور على ما كان قريبًا من المقام فقط.

وقد صحح العلماء هذا الفهم؛ إذ أشار العلماء إلى أن المسجد الحرام امتداد لخلف المقام ـ فى أوقات الزحام وبخاصة فى أثناء الحج، ومن هنا وجب أن نفسح المكان للطائفين، بالتأخر حسب الحاجة لإتاحة الفرصة لحركة الطواف، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين.

١٩٨. النبى ﷺ يستغيث ربه (*)

لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين ـ وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا ـ فاستقبل النبى ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تَهْلِك هذه العصابةُ ـ من أهل الإسلام ـ لا تعبد فى الأرض».

فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلًا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ (الأنفال).

*****

صلاةً وسلامًا على إمام الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، حياته كلها أسوة وقدوة، ومثل أعظم لمن أراد الطريق الأقوم إلى الله تعالى. فها هو الحبيب المصطفى ﷺ يرى

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر (٤٦٨٧).

قريشًا قد أتت بخيلائها وكل غرورهـا وكبريائهـا، أتـت ومرادهـا القـضاء عـلى بواكير هذا الدين ونبيه وأتباعه.

جاءت قريش ومعها الطبول والمعازف، كى تقيم الأفراح بعد هذه الحـرب التى لا يتكافأ طرفاها، فالفرق شاسع بين قوة قريش ـ بما فيها من فرسان وسـلاح وعدد وعُدة ـ وقلة قليلة خرجت مع رسول الله ﷺ لا يملكون ما تملك قريش من السلاح والعدة.

وأمام هذا الموقف العصيب، الذى لا ملاذ فيه إلا بالله تعالى، رأينـا الحبيـب المصطفى ﷺ يتـضرع إلى ربـه يستنْـصره ويـستغيثه... ومـن أسـماء الله الحـسنى: المغيث، فهو المغيث إذا انقطعت الأسباب وانعدمت الحيل. وجـاء المـدد الإلهـى، وأغاث الله نبيـه، وأعـان الله الفئـة القليلـة، ونـزل أمـين الله عـلى وحيـه، سـيدنا جبريل عليه السلام على قلب النبى محمد ﷺ، بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ (الأنفال).

وهكذا شأن كل من استغاث بـالله مؤمنًـا موقنًـا بـه، صـادقًا فى أمـره. أمـا استغاثة الإنسان بغير الله تعالى فهى أشبه بالغريق الذى يستغيث بغريـق آخـر، لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وفى هذا أسوة للمؤمنين وقدوة؛ أنه مهما أظلمت الأحوال واشتدت الأمور وانقطعت الأسباب، فإن أمل المؤمن فى ربه لا ينقطع أبدًا، ورجاءه فيه لا ينفد.

وكم من كربة وشدة وقع فيها الإنسان فلما استغاث ربه انفرج الهـم، وجـاء فضل الله واسعًا بالبشر والسرور، ولا يكون هذا لأحد غير الله تعالى، فهو سبحانه

غياث المستغيثين وناصر المظلومين.

وكم من مرة استغاث النبى ﷺ ربه من شدة الجفاف والقحط فنزل المطر مدرارًا حتى أتى الصحابى يسأل النبى أن يدعو ربه بأن يكف المطر لأن الطرق امتلأت بالماء... ويستغيث النبى ﷺ ربه ثانية قائلًا: «اللهم حوالينا ولا علينا»[1].

إن الله تعالى عظيم القدرة، وهو على كل شىء قدير، إنه قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه البخارى (٢/ ١٥، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٨/ ٩٢)، ومسلم فى الاستقساء (٨/ ٩).

١٩٩. إني أرجو الله (*)

عن ثابت بن أنس: أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال ﷺ: «كيف تجدك؟». قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد ـ في مثل هذا الموطن ـ إلا أعطاه الله ما يرجو وأَمنه مما يخاف».

*****

أنعم بهذا النبي الكريم، سيدنا محمد ﷺ، الذي جاء بلسمًا للقلوب وترياقًا للنفوس، وها هو ﷺ يعلمنا ـ في هذا الموقف ـ كيف تكون مقاصدنا ومشاعرنا مع الله تعالى.

إنه الاعتدال فلا إفراط ولا تفريط، وإن كان اليأس يقطع بصاحبه، فإن الإفراط في التمني والمبالغة فيه، أشد ضررًا على الإنسان في دينه ودنياه. وإنما الحكمة تقتضي التوازن والاعتدال، بين جناحي الخوف والرجاء، فالخوف يمثل الحذر الذي يُولِّد الاهتمام والجدية، فيكون دافعًا للنجاح.

والرجاء يمثل الأمل الذي يحث الإنسان ويدفعه ـ بقوة معنوية ـ إلى

(*) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد (٤٢٦١)، والترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب منه (٩٨٣)، وحسنه الألباني في المشكاة (١٦١٢).

المواصلة والاستمرار ليصل إلى مقصوده.

لذلك لما دخل الحبيب المصطفى ﷺ على الشاب ـ فى مرض موته، وسأله كى يطمئن عليه: «كيف تجدك»، وأجاب الشاب: «أرجو الله يا رسول الله، وإنى أخاف ذنوبى» فقال رسول الله ﷺ «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»[1].

وذلك لأن الحبيب المصطفى ﷺ يروى عن ربه جل وعلا قال: «وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمنين، إذ خافنى فى الدنيا أمّنته يوم القيامة، وإذا أمّننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة»[2].

أما عن بواعث الرجاء، فتتأتى بالنظر فى سعة رحمة الله وعفوه، من ذلك أن النبى ﷺ قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيك بقرابها مغفرة»[3].

أما عن بواعث الخوف والحذر، فتتأتى بالمحاسبة، وتذكر الوقوف بين يدى الله تعالى، من ذلك قول النبى ﷺ: «لن تزول قدما عبد ـ يوم القيامة ـ حتى يسأل

---

(١) أخرجه الترمذى (٩٨٣)، حسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٧٥)، (٣٣٨٣).

(٢) صحيح ابن حبان، باب حسن الظن بالله تعالى، (٢/ ٤٠٦)، (٦٤٠)، صححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٧٣)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه، باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر فى رحمة الله لعباده (٥/ ٥٤٨)، (٣٥٤٠)، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١/ ٢٤٩) (١٢٧).

عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»[1].

والعاقل فيه من يأخذ من الخوف ما يدفعه إلى طاعة الله ويُبعده عن معصيته، ويأخذ من الرجاء ما يدفع عنه اليأس والقنوط.

والحمد لله رب العالمين

(١) مجمع الزوائد للهيثمى (١٠/ ٦٢٧)، الترغيب والترهيب للمنذرى (٢/ ٣٤٨).

٢٠٠. لا أحب أن يقتل بى برىء (*)

دخل الحسين ﵁ على أخيه الحسن فى مرض موته، بعد أن تأثر بالسم الذى دُسَّ له فى الطعام. فقال الحسين لأخيه الحسن: من تتهم؟ فقال الحسن: لِمَ لتقتله؟! فقال الحسين: نعم. فقال الحسن: إن يكن الذى أظن، فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلًا، وإن لم يكن، فما أحب أن يقتل بى برىء.

*****

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، فأخلاق آل بيت المصطفى ﷺ كأخلاق جدهم المصطفى ﷺ، فيها العفو والسماحة والرحمة والإحسان. فرضى الله عنهم، وهذا الحسن ـ حفيد النبى ﷺ وابن فاطمة الزهراء، ريحانة رسول الله ﷺ، وابن الإمام على بن أبى طالب ﵁ يتعرض لهذا البلاء، حيث دُسَّ له السم فى الطعام، وتأثر بهذا السم، واشتد عليه المرض، فدخل عليه أخوه الحسين ـ بعاطفة لاهبة ـ يريد أن يتأكد من أخيه، فسأله عمَّن كاد له ودس السم فى الطعام.

فجاءت كلمات الحسن ﵁ بلسمًا وشفاء، وإيمانًا وتسليمًا؛ حيث قال لأخيه الحسين ﵁: «إن يكن الذى أظن فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلًا».

(*) صفة الصفوة، ابن الجوزى، تحقيق/ محمود فاخورى ـ د. محمد رواس قلعه جى، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م (١/ ٧٦١).

نعم لقد ترك العقوبة لمن يقدر عليها ولا يخاف عقباها، إنه الله القادر العدل الذى لا يظلم الناس شيئًا.

والمؤمن الصادق هو الذى يرضى بربه معاقبًا ومحاسبًا، والمؤمن الصادق هو الذى يكفيه وعد الله بأنه يأخذ من الظالم للمظلوم حتى ينصفه.

وسبحان الله القائل: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

ولعل فى هذا خير دواء لعادة الأخذ بالثأر، أن نتأسى بموقف حفيد رسول الله ﷺ، فقد ترك العقاب لله تعالى فهو أقدر، ثم قال الحسن لأخيه الحسين رضى الله عنهما: يا أخى وإن لم يكن هو فلا أحب أن يقتل بى برىء.

ليس العار فى ترك الانتقام وأخذ الثأر، ولكن العار الأكبر هو عار الذنب وغضب الديان المنتقم الجبار.

إن قتل النفس كبيرة من أبشع الكبائر التى حذر منها القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة/ ٣٢٩).

فلا تكن أيها المسلم مثل قابيل، وكن مثل هابيل الذى قال لأخيه الراغب فى قتله كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (المائدة).

والحمد لله رب العالمين

٢٠١. لهم الدنيا ولنا الآخرة(*)

دخل عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ ـ ذات مرة ـ فوجده نائمًا على حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه ﷺ وسادة من أدمٍ حَشْوُها ليف، وإن عند رجليه قرظًا مصبوبًا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأى أثر الحصير فى جنبه فبكى عمر ﷺ.

فقال النبى ﷺ: «ما يبكيك؟». فقال عمر ﷺ: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله. فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!».

*****

صلاةً وسلامًا على سيدنا رسول الله ﷺ من ارتضاه الله أسوة حسنة وقدوة طيبة لأمته، لقد كانت حياته كلها لله، أنفاسه وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله كلها لله، وأنعم به من وصف إلهى فى القرآن لحال النبى ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (الأنعام).

وكانت تأتيه الأموال فينفقها ولا يجعلها تبيت عنده، فما عند الله خير وأبقى. فما كان فيه ﷺ من بساطة العيش، إنما هو من اختياره وتواضعه ﷺ.

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب التفسير، سورة الطلاق (٤٦٢٩).

وفى هذا الموقف يعلمنا النبى ﷺ أن يرضى المؤمن بما يرضى الله به، فمن رضى فله الرضا، وهو من قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ (البينة)، ورضا الله يحصله المؤمن بالطاعة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح)، وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل).

ورضا العبد عن الله يكون فى الرضا بقضاء الله وقدره، ورضا الله عن العبد أن يرى عبده مستجيبًا لأمره. والرضا باب الراحة والسعادة للنفس فى الدنيا، فضلًا عن ثواب الله يوم القيامة.

وفى الموقف ـ الذى بين أيدينا ـ نرى سيدنا رسول الله ﷺ يوجهنا إلى أن يكون رضانا متعلقًا بالله تعالى، ولا نكون مثل أهل الدنيا؛ رضاهم يتعلق بزهرتها وأموالها وما فيها من متع وشهوات ورغبات وأهواء؛ حيث قال النبى ﷺ: «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة».

أى لهم العاجلة الفانية، ولنا الباقية: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى).

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. والحمد لله رب العالمين

٢٠٢. كـان رجـلا سهـلا (*)

اشترى سيدنا عثمان بن عفـان ﷺ مـن رجـل أرضًـا، فأبطـأ الرجل على عثمان، فقال له عثمان ﷺ: ما منعك من قبض مالك؟

فقال الرجل: إنك غبنتنى، فما ألقى من الناس أحدًا إلا وهـو يلومُنِى. قال له عثمان ﷺ: أو ذلك يمنعك؟ فقال الرجل: نعم.

فقال له عثمان ﷺ: فاختر بين أرضك ومالك، فإنى سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «أدخل الله تعـالى الجنـة رجـلًا كـان سـهلًا: مشتريًا، وبائعًا، وقاضيًا، ومُقتضيًا».

*****

- أنعم وأكرم بهذه النفوس العالية، التى رباها الإسلام على السماحة، تجود تفضُّلا وتكرُّمًا، ويكون منها اليسر والتيسير إذا عاملوا الناس بيعًا وشراء.

وهكذا المؤمن مع إخوانه ومع الناس جميعًا هينٌ لـينٌ، سـهل مُيـسر، نفـسه سمحة، وقلبه رحيم.

وفى الحديث النبوى الشريف، عن أبى سعيد الخـدرى ﷺ، قـال النبـى ﷺ:

(*) أخرجه أحمد فى المسند، مسند عثمان بن عفان ﷺ، (٤١٠)، والنسائى فى المجتبـى، كتـاب البيـوع، بـاب حسن المعاملة والرفق فى المطالبة (٦٢٩٥)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١١٨١).

«إن الله يحب سمح البيع سمح الشراء سمح القضاء»[1].

وقال ﷺ: «رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[2].

وأخبر ﷺ: «كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»[3].

- **وفى الموقف رأينا سيدنا عثمان رضي الله عنه قد عامل الرجل الذى حدثته نفسه بأن الأرض التى اشتراها من عثمان كان يمكن أن تُباع بثمن أكبر، مما جعله يتأخر فى تنفيذ عملية البيع والشراء التى تمت بينه وبين عثمان، فسأله عثمان رضي الله عنه عن سبب تأخره فى أخذ المال المقابل للأرض، فأفصح الرجل عما فى نفسه من عدم رضاه عن البيع الذى تم. وعلى الفور قال له عثمان رضي الله عنه: فاختر بين أرضك ومالك.**

ثم عطر المقام والموقف بحديث الحبيب المصطفى ﷺ ليكون بلسمًا للقلوب، فقال رضي الله عنه: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أدخل الله الجنة رجلًا كان سهلًا مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا».

- **وهكذا ربى النبى ﷺ المؤمنين، على السماحة والرضا فى المعاملة، حتى تتأتى بركة الله فى البيع والشراء. فرضوان الله تعالى عليهم، كان مقصودهم الأعلى مرضاة الله تعالى، لقد آثروا ما عند الله على ما عند الناس أو ما عند أنفسهم، وهكذا يصنع الإيمان بالقلوب، يملؤها عفوًا وسماحة.**

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، (٣/ ٦٠٩)، (١٣١٩)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢/ ٥٦٥).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب السهولة والسماحة فى الشراء والبيع، (١٩٧٠).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب السهولة والسماحة فى الشراء والبيع، (١٩٧٢).

٢٠٣. وكـان أبوهما صالـحًا [*]

أجلس سعيدُ بن المسيَّب إبنَه أمامه، وقال لـه: إنـى لأزيـد فى صلاتى من أجلك، رجاء أن أُحْفَـظَ فيـك، ثـم تـلا قولـه تعـالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (الكهف/ ٨٢).

*****

- من كرم الله تعالى وواسع فضله، أنه يتولى الصالحين بـالحفظ فى حيـاتهم الدنيا، يحفظهم من السيئات والمعاصى، ومن كل شىء يغـضب الله تعـالى، وهـذا هـو الحفـظ الأعـلى، أن يحفـظ الله المـؤمن مـن شرور نفـسه، ومـن شر إبلـيس، ومضلات الفتن، وزيغ الأهواء.

وأرشدنا النبى ﷺ إلى سبيل الفوز بحفـظ الله تعـالى، فقـال ﷺ: «احفـظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»[١].

فمـن حفـظ الله بالاسـتجابة لأوامـره واجتنـاب نواهيـه واقتـدى برسـول الله ﷺ فاز بحفظ الله تعالى له، ونال توفيقه.

(*) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى «شرح حديث احفظ الله يحفظك»، حليـة الأوليـاء، أبـو نعـيم الأصبهانى، ج ٤، ص٢٧٩، البحر المديد ج ٣، ص٤٢٥.

(١) أخرجه الترمذى (٢٥١٦)، قال الشيخ الألبانى: صحيح، وأخرجه مسند أحمد بن حنبل، مسند عبـد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبى ﷺ، (١/ ٢٩٣)، (٢٦٦٩)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوى.

والله سبحانه وتعالى يعلـم مـا لا نعلـم، وفى هـذا المعنـى قـال الحسن بـن علىّ ﵁، لما ذُكر عنده أهل المعاصى وسوء أحوالهم: «هـانوا عليـه فعـصوه، ولـو عزُّوا عليه لعصمهم».

وقال ابن مسعود ﵁ فى حفظ الله للعبد: إن العبد ليهم بالأمر مـن التجـارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليـه، فيقـول للملائكـة: اصرفـوه عنـه فإنـه إن يسرته له أدخلتـه النـار، فيـصرفه الله عنـه، فيظـل العبـد يتطـير (أى يقـول كـلام الشكوى والضجر دُون بصر ولا بصيرة)، بقوله: سبَّنى فلان، وأهاننى فـلان ومـا هو إلا فضل الله تعالى.

وعن النبى ﷺ: «يقول الله تعالى: وإن من عبادى المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، إنى أدبر عبادى بعلمى بقلوبهم، إنـى علـيم خبير»[(١)].

ثم إنه من فضل الله تعالى، أن يبث الطمأنينة فى قلوب أحبابه، بأنه سيحفظ لهم ذرياتهم، من شرور إبليس، ومن السيئات، ليكون مآلهم إلى الجنة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ (الطور).

وأرشدنا الله فى القرآن إلى سبيل تأمين الذرية، وبخاصة إن كانت ضعيفة،

---

(١) الأولياء لابن أبى الدنيا (١/ ٩)، وأخرجه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٤٠).

وذلك بأن نلزم تقوى الله تعالى والصدق معه، قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ (النساء).

• وهناك فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ـ مع الخضر ـ لما أقام الجدار لغلامين فى بلدة بخيلة، أبت أن تضيفهما، ولما سأل سيدنا موسى عن الحكمة من إقامة الجدار فى قرية بخيلة، كان جواب الخضر كما جاء فى التنزيل العزيز: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الكهف).

وهكذا يظهر لنا أن أفضل ما ندخر لأولادنا هو زاد الإيمان والتقوى والصلاح والإخلاص، فبهذا الزاد ينالون حفظ الله تعالى.

• كل هذا من تجليات هذا الموقف المبارك، لسيدنا سعيد بن المسيب، لما أجلس ولده أمامه، وقال له: إنى لأزيد فى صلاتى رجاء أن تحفظ، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ (الكهف/ ٨٢).

والحمد لله رب العالمين

٢٠٤. ثم أمر له بعطاء (*)

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جَبْذَةً شديدة، حتى نظرت إلى صَفْحَة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذَته. ثم قال: يا محمد! مُرْ لى من مال الله الذى عندك. فالتفت إليه ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

*****

• اللهم يا ربنا! صلِّ وسلم وبارك على صاحب الخلق الكريم، سيدنا محمد وآله وصحبه، ومن اهتدى بهديهم وتأدب بأدبهم، إلى يوم الدين.

هذا هو أسوتنا وقدوتنا، سيدنا محمد ﷺ لا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلمًا، إنه ﷺ يعلمنا خلقًا تشتد إليه حاجتنا فى ظروف حياتنا المعاصرة، التى زاد اضطرابها، واشتدت فيها دوافع الغضب والغيظ، إذ قل احترام الصغير للكبير، وقلت رحمة القوى بالضعيف... إلخ.

يعلمنا رسول الله ﷺ كيف نواجه أهل الانفعال والسفه، بأن لا نجاريهم ولا نسلك مسلكهم، وأن لا يخرجنا سفههم عن خلق الحلم والأناة، وأن ندفع بالتى

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة (٥٤٧٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (٢٤٧٦).

هى أحسن، وهذا الأدب أدب نبوى كريم، وهو أدب قرآنى حميد، أمرنا الله به، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت).

• يعلمنا النبى ﷺ، ـ فى هذا الموقف ـ أن الحلم ييسر لنا كظم الغيظ، كى ننال ثوابه من الله تعالى، وفى الحديث النبوى الشريف، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «ما من جرعة أعظمُ أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله تعالى»[1].

وقد رغَّبنا ربنا فى كظم الغيظ فقال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (آل عمران).

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه، كتاب الذهد، باب الحلم، (٢/ ١٤٠١)، (٤١٨٩)، صححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٥٢).

٢٠٥. أخرجي كل ما ادخرته لهم (*)

مَرَّ الإمام الحسين رضي الله عنه ـ حفيد النبى ﷺ ـ على أهل الصُفَّة وهم يأكلون فسَلَّمَ عليهم، فدعوه إلى الطعام معهم، فلبَّى دعوتهم وقال: «إن الله لا يحب المستكبرين».

وبعد الفراغ من الطعام، قال لهم: «أجبت دعوتكم فأجيبوا دعوتى»، ثم مضى بهم إلى منزله، وقال لزوجه الرباب: «أخرجى كل ما ادخرته لهم».

*****

أهل البيت رضى الله عنهم هم عترة النبى ﷺ التى أوصى بها الأمة، قال ﷺ: «إنى تارك فيكم الثَّقلينِ: كتاب الله تعالى، وعترتى: أهل بيتى»(١).

وأهل البيت هم ذوو القربى من النبى، التى أمرنا الله بمودتها، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى/ ٢٣)، وأثنى الله عليهم فى قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ (هود)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب).

(*) الرسالة القشيرية/ ١٢٢.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، (١٧/ ٢١١)، صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٧٥٠).

وقد اجتمعت لأهل البيت فضائل ليست لغيرهم؛ فلهم على قرابة النسب النبوى فضل الصحبة وفضل التبع.

وهم الورثة الحقيقيون لحال رسول الله ﷺ فى التقوى والإحسان، فجاءت أخلاقهم كأخلاق جدهم المصطفى ﷺ، قمةً فى مكارم الأخلاق.

- والموقف الذى بين أيدينا يشهد بحقيقة غالية، هى أن أهل البيت لم ينالوا الدرجات العالية والمكانة الرفيعة بالنسب النبوى فقط، وإنما بحرصهم على مكارم الأخلاق والفضائل، تأسيًا بجدهم ﷺ.

- ومَنْ أهل الصُفّة؟

الصُفّة مكان آخر مسجد النبى ﷺ كان يأوى إليه المساكين والغرباء، وإليه ينسب أهل الصُفة، وعليه كان ينزل المهاجرون الذين لم يتوفر لهم مكان عند الأنصار، ومنهم من جاء إليها ليتوفر لطلب العلم ويعود معلمًا لقومه، وكان عددهم قرابة السبعين، وأثنى الله عليهم، قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ (البقرة).

أما الإمام الحسين رضي الله عنه فلأنه يتخلق بخلق جده ﷺ فى التواضع؛ لما مر بأهل الصفة أفشى السلام، فلما دعوه إلى الطعام، أجاب رضي الله عنه وجلس قائلا: إن الله لا يحب المستكبرين.

وبعد الفراغ من الطعام معهم، كان منه هذا الإكرام لأهل الصفة، إنه إكرام

يليق بأهل بيت النبى ﷺ، لقد طلب من زوجته الرباب أن تخرج لهم كل ما ادخرت ووزعه عليهم.

وسَعْيُ أهل البيت فى قضاء حوائج المساكين ومساعدة الفقراء، خلق ورثه أهل البيت عن جدهم ﷺ، إن الإمام الحسين رضي الله عنه عندما استشهد وجد على ظهره علامة، فلما سأل الناس عن سبب هذه العلامة، أجابت أخته السيدة زينب رضى الله عنها: «هذه العلامة كانت بسبب ما كان يحمله على ظهره من طعام وشراب للمساكين والفقراء بالليل».

- كما يبين موقف الإمام الحسين رضي الله عنه مع أهل الصفة ما صنعه الإسلام بالنفوس؛ فقد زكاها وطبعها على الحب والمودة والتعاطف والتراحم.
- كما يبين الموقف كيف نجحت شريعة الإسلام فى تحطيم الحواجز المادية بين الناس، والتى يكون من ورائها التعالى والتفاخر والتعاظم، حين تتعاظم القيم المادية فى النفوس.

لقد نشر الإسلام قيم الإيمان من الرحمة والتعاطف فى المجتمع، فقويت روابط المجتمع وزاد تماسكه، وربى الإسلام الفقراء على التعفف والأغنياء على البذل والإنفاق، وأنْعِم بمجتمعٍ فقيره متعفف وغنيه منفق!

٢٠٦. رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه (*)

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى فصًّا بألف درهم فكتب إليه عمر: «بلغنى أنك اشتريت فصًّا بألف درهم، فإذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم، وأشبع ألف بطن، واتخِّذ خاتمًا من حديد بدرهمين، واكتب عليه «رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه».

*****

- نحن أمام موقف إيمانى يملأ القلب نورًا وهداية، أى تواضع هذا؟ وأى إيمان هذا؟ إن ابن عمر بن عبد العزيز لم يشترِ شيئًا محرمًا ولكنه أراد كما يريد الآف الشباب أن يستمتع بما يملك، فاشترى خاتمًا به فصٌّ من الأحجار الكريمة قيمته ألف درهم. فلما بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى هذا الخاتم بهذه القيمة، أراد أن يُعلِّم ولده درسًا فى التواضع، ودرسًا آخر فى الاهتمام بفقراء المسلمين والسعى فى قضاء حوائجهم، ودرسًا ثالثًا فى التخلى عن الترف والإسراف.

فما إن علم عمر بن عبد العزيز بأن ولده قد اشترى خاتمًا بألف درهم، حتى كتب إليه: «بلغنى أنك اشتريت فصًّا بألف درهم، فإذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن، واتخذ خاتمًا بدرهمين، واجعل فصَّه حديدًا، واكتب عليه: «رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه».

(*) الرسالة القشيرية (٧٠).

وفى القرآن الكريم نجد تأكيدًا لهذا المعنى، فما مدح الله به عباد الرحمن، وصفهم بقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الفرقان).

- كما يظهر لنا هذا الموقف الإيمانى أهمية التربية الإيمانية لأولادنا، التى تقوم على إحياء وتزكية القيم الإيمانية من التواضع وترك التعالى والتفاخر بما نملك، والإحساس بالفقراء والمرضى وأصحاب الحوائج بأن نكون رحمة لهم ويدًا حانية عليهم، وبتقديم ما نستطيع من معونة ومساعدة لهم. فمقياس الخيرية عند الله تعالى بقدر ما ينفع الإنسان غيره، فخير الناس أنفعهم للناس.

ولقد مدح وقيمة الإنسان فى رحاب الإيمان بقدر ما يستهلك. ثم إن الإسراف آفة تذهب بالمال مع كونه معصية نهى عنها القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ (الأنعام).

الله المؤمنين الذين لا يسرفون، فقال الله تعالى فى وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الفرقان).

والحمد لله رب العالمين

٢٠٧. أنا جائع (*)

نظر إبراهيم بن أدهم إلى أحد تلاميذه، وقد اشتد به الجوع، فقال له: عليَّ بِدَوَاةٍ وقرطاس، فجاءه التلميذ بهما، فكتب إبراهيم بن أدهم: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى:

أنا حامدٌ، أنا شاكرٌ، أنا ذاكر   أنا جائعٌ، أنا نائعٌ، أنا عارِ

هى ستةٌ، وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها يا بارى

ثم دفع إلى تلميذه الرقعة، وقال له: أخرج، ولا تعلِّقْ سرك بغير الله، ولم يمض وقتٌ طويل حتى أتى الله بالفرج.

*****

رحم الله سلفنا الصالح الذين اهتموا بتربية القلوب وتهذيب النفوس وتزكية العقول، فأصلح الله بهم، ونفع الله بعلمهم. والتلميذ فى حِجر التربية يحتاج إلى مُرَبٍّ له بصيرة، مُرَبٍّ يعلم مراتب النفوس وما يصلحها.

وما أطيب أن يكون المعلم مربيًّا يعطى مع العلم خُلُقًا وتربية، يصنع عقلًا

(*) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهانى، دار الكتب العربية، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ط٤، ج٨، صـ٣٨.

يفكر ويربى وقلبًا يؤمن، وهكذا كان علماؤنا من السلف الصالح أثابهم الله عن الأمة خيرًا.

• وفى الموقف السابق ـ الذى بين أيدينا ـ اشتد الجوع بأحد تلاميذ إبراهيم بن أدهم، ولاحظ الشيخ أثر الجوع على تلميذه، فأحب أن يعلمه درسًا فى تجاوز الأسباب ـ بعد فعلها ـ إلى مسبب الأسباب، أراد أن يعلمه أن فعل السبب طاعة، لكن المؤمن يفعل السبب، ويلتمس التوفيق من مسبب الأسباب، وسبحانه القائل: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ (هود).

فأرشد إبراهيم بن أدهم تلميذه إلى باب الاستعانة بالله تعالى، فما نجاح الإنسان إلا بمعونة الله، والله تعالى يقول فى قرآنه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ (الفاتحة).

وفى الحديث النبوى الشريف: قال النبى ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجتكلها، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»[1].

ولكن المعلم والمربى إبراهيم بن أدهم علَّم تلميذه بأسلوب عملى؛ فقد أمره أن يحضر قلمًا وقرطاسًا (وهى أدوات الكتابة فى ذلك العصر)، ثم كتب لتلميذه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى:

أنا حامدٌ، أنا شاكرٌ، أنا ذاكر   أنا جائعٌ، أنا نائعٌ، أنا عارِ

(١) أخرجه أبو يعلى فى المسند، ثابت البنانى عن أنس (٣٤٠٣)، وابن حبان فى صحيحه، كتاب الرقاق، باب الأدعية (٨٩٤)، وصحح إسناده حسين سليم أسد فى تعليقاته على مسند أبى يعلى (٣٤٠٣)، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

هــى ســتةٌ، وأنــا الــضمين لنــصفهــا   فكــن الــضمين لنــصفها يــا بـــارى

ثم دفع الرقعة لتلميذه قائلًا له: لا تعلق سرك بغير الله.

وانتفع التلميذ بموعظة شيخه، وتوجه إلى ربه متضرعًا خاشعًا يـدعو ربـه بالفرج، وما هو إلا وقتٌ يسير حتى أتى الله بالفرج.

وسبحان من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء. والله سبحانه يرغبنا فى الدعاء بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (البقرة).

وهكذا يعلمنا هذا الموقف الإيمانى فضيلتين:

- الأولى: حُسن التوكل على الله تعالى.
- الثانيـة: طلب المعونة والتوفيق من الله تعالى بالدعاء.

ثم يضيف لنا الموقف قيمة غالية وعالية ومهمة، وهى أنه ليس المهم أن نعلم فقط، لكن المهم أن نعمل بما نعلم؛ لأنَّ الثمرة تتحقق حين نعمل بما نتعلم. فبركـة العلم لمن يعمل به، وإلا صار العلم حجةً على صاحبه.

رحم الله السلف الصالح، ونفعنا الله بعلمهم.. والحمد لله رب العالمين

٢٠٨. أتجاوز عن المعسر(*)

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ رجلًا ـ فيمن كان قبلكم ـ أتاه المَلَك؛ ليقبض روحه، فقيل له: هل عملت من خير؟

قال: ما أعلم. قيل له: انظر. قال: ما أعلم شيئًا إلَّا أنِّى كنت أبايع الناس فى الدنيا وأجازيهم، فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر؛ فأدخله الله الجنة».

*****

صلاةً وسلامًا على سيدنا رسول الله ﷺ الذى أهدى لأمته هذه العظات والعبر من مواقف الأمم السابقة.

- والموقف الذى بين أيدينا لرجل ذهب عمره فى الغفلة، وما أكثر الغافلين الذين تشغلهم الدنيا وزينتها عن آخرتهم!

فلما أدركه الموت، وسئل عن عمله الصالح، وقيل له: هل عملت خيرًا؟ ولم يجد الرجل عملًا صالحًا يجعله بين الصالحين، فأجاب الرجل بقوله: ما أعلم.

فأُعيد عليه السؤال، وقيل له: انظر، فقال الرجل: ما أعلم شيئًا إلا أنى

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذُكر عن بنى إسرائيل (٣٢٦٦).

كنت أبايع الناس فى الدنيا وأجازيهم (أى أقاضيهم)، فآخذ منهم وأعطى، وكنت أُنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، لقد وُفق هذا الرجل بفضل الله إلى باب لمرضاة ربه، فأكرمه الله به فأدخله الجنة.

- ويُظهر الموقف للمؤمنين سعة فضل الله تعالى وواسع رحمته فى جبر حال العباد بين يديه، وقبوله للأعمال التى قد نراها يسيرة، ويعظم ثوابها، وهذا كرم من الله تعالى وواسع فضله.

فاللهم أكرمنا، واشملنا بواسع فضلك يا لطيف.

- كما يظهر من الموقف أن المؤمن ينبغى ألا يكون خاليًا عن باب من أبواب الخير يتقرب به إلى ربه.

ولكل عبد باب يسَّره الله تعالى له؛ فلأهل المال باب الصدقة والإحسان إلى الفقراء.

وباب العلماء: إشاعة العلم بين الناس ابتغاء مرضاة الله.

وباب الشباب: السعى الجاد فى تحصيل العلم، أو الجهاد فى سبيل الله.

وباب الفقراء ومن تقدمت بهم السن: ذكر الله تعالى.

حتى الخادم والعبد بابه مع الله إخلاصه فى خدمة سيده، وفى رعاية ماله؛ لأن ذلك يجعل له عند الله تعالى مثل أجر سيده مرتين.

والزوجة إذا أخلصت فى تربية أبنائها ورعاية زوجها وأسرتها كان لها مثل أجر زوجها فى كل ما يصنع من جهاد أو صدقة، وهكذا لكل عبد باب.

- أيضًا يظهر لنا من هذا الموقف موعظة غالية فى فضل التسامح ورعاية

ظروف المعسرين، وحسن المعاملة فى البيع والشراء، وفى ذلك يقول النبى ﷺ: «رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى»[1].

وهكذا فالجزاء من جنس العمل، فمن يَسَّر على الناس يَسَّر الله عليه، ومن رحم الناس رحمه الله تعالى.

وفى الحديث النبوى الشريف، قال رسول الله ﷺ: «ارحموا تُرحموا»[2].

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه، كتاب التجارات، باب السماحة فى البيع (٢٢٠٣)، والبيهقى فى سننه الكبرى، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة فى الشراء والبيع ومن طلب حقًا فليطلبه فى عفاف (١٠٧٦٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٩٥).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما (٦٥٤١)، والبخارى فى الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب رحمة البهائم (٣٨٠)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٨٢).

٢٠٩. المرأتان والذئب(*)

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب، فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ فأخبرتاه، فقال: ائتونى بالسكين؛ أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل، يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى».

*****

هذا موقف يفيض بالعظات الغالية، والفوائد النافعة:

- الأولى: أن القاضى يحكم بين الناس بحسب حججهم، ولعل بعض الناس أن يكون أبلغ فى حجته من الآخر؛ فيقضى له القاضى بحسب ما سمع.

أما العدل الخالص فهو من عند الله تعالى، وفى هذا المعنى يقول سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الفرائض، باب إذا دعت المرأة ابنا (٦٣٨٧)، وفى موضع آخر، ومسلم فى صحيحه، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين (٤٥٩٢).

﴿كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (الزمر).

والنبى ﷺ يقول: «إنما أنا بَشَر، وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته ـ أى أقدر على التعبير عنها ـ من بعض؛ وأقضى له على نحو مما أسمع، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار»[1].

وعليه فينبغى للإنسان ألا يتعجَّل الحكم بين الناس، وأن يسأل الله تعالى أن يلهمه الحق والصواب.

- الثانية: أن الفهم وحسن الحيلة مِنْحة من فضل الله جل فى عُلاه لبعض عباده، تمكنهم من الوقوف على حقائق الأشياء، وهى نعمة أنعم الله بها على نبيه سليمان عليه السلام، وزكَّاه بها، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ (الأنبياء/ ٧٩).

ولذلك لما حكم نبى الله داود عليه السلام للكبرى بالولد، ثم خرجت المرأتان على نبى الله سليمان عليه السلام، وأخبرتاه بالحكم أعاد النظر والتأمل، ثم لجأ إلى حيلة ذكية؛ ليعرف منها الأم الحقيقية للولد.

فقال عليه السلام: ائتونى بسكين أشقه بينكما! وعلى الفور قالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها.

إنها الأم دفعتها الشفقة والحنان والحرص على ابنها أن فضَّلت أن يبقى حيًّا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضى بقيمة الجارية الميتة (٦٥٦٦)، وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (٤٥٧٠) بنحوه.

مع غيرها بدلا من شقه نصفين فيموت.

وظهر الحق واضحًا لنبى الله سليمان ؛ فقضى بالولد للصغرى.

وانظر بتأمل إلى العقل والفَهْم، كيف يصل القاضى والباحث ونحوهما إلى الحق عن طريق إعمال الفكر والعقل بدلا من وسائل البطش والتعذيب التى ترغم المتهم على الاعتراف أو الإدلاء بأقوال مطلوبة، ولكنها لا تمثل الواقع ولا الحقيقة، ولا تزيد القاضى إلا تضليلًا.

اللهم ألهمنا الرشد والصواب، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

٢١٠. إن الله قد غفر للكِفْل (*)

عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدِّث حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدَّ سبع مرات، ولكنى سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكِفْلُ من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عَمِلَهُ، فأتتْهُ امرأةٌ فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيكِ؟ أأكْرَهْتُك؟

قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته؟! اذهبى فهى لك، وقال: لا، والله لا أعصى الله بعدها أبدًا،فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه «إنَّ الله قد غفر للكِفل»».

*****

صلاةً وسلامًا على سيدنا رسول الله ﷺ، من حرصه علينا أخبرنا بما أطلعه

(*) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (٢٤٩٦)، والحاكم فى المستدرك، كتاب التوبة والإنابة (٧٦٥١)، وصححه الحاكم فى مستدركه ووافقه الذهبى فى التلخيص (٧٦٥١).

الله عليه من أخبار الأمم السابقة وأعمالها؛ كى يكون لنا فيها العظة والعبرة.

وهذا خبر رجل ـ من المسرفين على أنفسهم ـ من بنى إسرائيل يدعى الكفل، وهو غير ذى الكفل، الذى هو من جملة الأنبياء عليهم السلام، المذكور فى القرآن فى قول الله تعالى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (الأنبياء).

الكفل فى الموقف رجل مسرف من بنى إسرائيل، لايتورع عن ذنب، ومن جملة ذنوبه وخطاياه أن امرأة ألجأتها الحاجة إلى المال، فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما جلس فى تمكن منها انهمر دمعها، فليس هذا الذنب من عادتها، وهذه أول مرة تقع فى هذا الإثم؛ بسبب الاضطرار.

وأصاب الكفل دهشةٌ عجيبة؛ لأن هذه الدموع دموع صادقة، وحالة الاضطراب التى أصابت هذه المرأة لم تكن مصطنعة، لقد هَزَّها الإيمان هَزًّا أفسد جو المتعة واللذة الذى كان ينتظره الكفل.

فسأل المرأة مُتعجبًا: ما يبكيك؟ أأكْرَهْتُكِ؟

فأجابت والدمع يخنق صوتها: إنى لم أعمل هذا قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة، وإنى أخاف ربى، ووقعت الكلمات كأبلغ موعظة فى قلب الكفل، وأذهبت دموع المرأة الصادقة كل هوى وفسادٍ من قلبه، وتبدَّل حاله، وكأنه كان فى سكرة وأفاق منها، فأُلْهِمَ رُشدَهُ، وعاد إليه وعيه، وقال لها: اذهبى بالمال دون أن يفعل شيئًا معها.

ولم يقف عند هذا الحد من الإقلاع عن الذنب، وإنما عاهد ربه ألا يعصيه

أبدًا، فأقسم بربه قائلًا: والله لا أعصى الله بعدها أبـدًا، فـمات مـن ليلتـه، فأصـبح مكتوبًا على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

وهكذا تصنع مواقف الصادقين بنا، فامرأة صادقة كانت بموقفها الـصادق مع ربها سببًا لتوبة الكفل الذى كان لا يتورع أبدًا عن ذنـب، وصـدق الـسابقون حين قالوا: حالُ رجل فى ألف رجل أبلغ من كلام ألف رجل فى رجل.

ثم كان من توفيق الله ليتوب على الكفل، أن وفقه لهذه الصدقة الطيبة، فقـد تحول المال ـ الذى أعطاه للمرأة فى مقابل معصية ـ إلى طاعة ـ إلى صدقة طيبة دفـع الله بها عنه سوء الخاتمة، ورزقه ببركتها حسن الخاتمة.

ثم هذه النية الطيبة وعهد الطاعة الذى أقسم بالله عليه جلب له فضلًا آخـر من أفضال الله تعالى.

وعلى نفس المنوال، وبـنفس الأسـلوب يعامـل ربنـا الكـريم الـبر التـواب الرحيم كل من أناب وتاب إليه، إن ربى رحيم ودود.

اللهم ردنا إلى الإيمان ردًّا جميلًا، وتب علينا توبةً نصوحًا، وألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى، وأحسن خاتمتنا فى الأمور كلها.. والحمد لله رب العالمين

٢١١. إذا مِتُّ فأحرقوني ! (*)

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «كان رجلٌ يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مِتُّ فأحرقونى، ثم اطحنونى، ثم ذرّونى فى الريح، فوالله لئن قدر علىَّ ربى ليعذِّبنِّى عذابًا ما عذَّبه أحدًا. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض، فقال: اجمعى ما فيكِ منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: يا ربِّ خشيتك؛ فغفر له».

*****

• هذا رجل من بنى إسرائيل آتاه الله مالا وجاهًا وسلطانًا، فأساء فى النعمة وبالغ فى العصيان، وكم من أناس لهم مظاهر بَرَّاقة، وأسماء لامعة، يُفسح لهم فى المجالس، ويُشار إليهم بالبنان، وهم عند الله تعالى من أكابر المجرمين.

لكن إن استطاع أمثال هؤلاء أن يخدعوا الناس، فلن يخدعوا الله، قال تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ ﴾ (البقرة).

ومرت الأعوام والظالم يزداد طغيانًا وإفسادًا حتى أصابه مرض اشتد عليه،

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾ (الكهف) (٣٢٩٤)، وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب التوبة، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٧١٥٧)، واللفظ للبخارى.

وكم كانت الدنيا رخيصة فى هذه اللحظات! فلا المال ولا الجاه ولا السلطان يستطيع أن يصنع شيئًا فى هذا المقام.

إنه مقام العجز والتسليم فأدرك هذا المسرف على نفسه خطر الحساب والعقاب، حيث لا تصلح الدنيا بما فيها؛ ليفتدى بها الإنسان من العذاب، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾ (الزمر).

فدعا الرجل أولاده وأوصاهم إن هو مات أن يحرقوه، ثم يطحنوه بعد الحرق، ثم يذرّوه فى الريح، ثم قال لهم: فوالله لئن قدر الله علىّ ليعذبنى عذابًا ما عذَّبه أحدًا.

واستجاب الأولاد لوصية أبيهم، وفعلوا كما أمرهم، لكن هيهات هيهات، فوالله لو فتتوا وفَجَّروا كل ذرة إلى آلاف الجسيمات، فإن الله قادر على جمعه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾(الأنعام).

حتى الجزء ـ الذى يقطع من الإنسان عند الختان ـ فإنه يعود إليه بأمر الله؛ ليصير الإنسان كاملًا كما خلقه الله أول مرة.

لقد أمر الله الأرض: أن اجمعى ما فيكِ من هذا الرجل، ففعلت. فإذا هو قائم، فسأله ربه وهو أعلم: ما حملك على ما صنعتَ؟

قال: يا رب خشيتك. فغفر الله له.

- ولعل هذا الموقف يدفعنا دفعًا قويًّا إلى أن نسارع بالتوبة الصادقة إلى الله ـ قبل أن يأتي الموت بغتة، ولن ينفعنا كل ما تراه أعيننا من زينة الحياة الدنيا وما نتنافس بل نتقاتل من أجله، ونُشغل به عن مرضاة الله.

- كما يظهر من الموقف سعة رحمة الله، ووده ومغفرته، لمن يخشى لقاءه، كيف لا، وربنا هو الغفور ذو الرحمة؟ كيف لا، وربنا هو الرحيم الودود؟

كيف لا، وهو الذى تفضل بالنداء على عباده المسرفين، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴾ (الزمر).

كما يبين ربنا أن الله يثيب عبده على الخوف، والخشية لله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) ﴾ (الملك)، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ (الرحمن).

اللهم رُدَّنا إلى الإيمان رَدًّا جميلًا، وتب علينا توبةً نصوحًا..

والحمد لله رب العالمين

٢١٢. حُرِّمَتْ عليه الجنة (*)

عن جُندُب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كان برجل جراح، فقتل نفسه، فقال الله تعالى: بدرنى عبدى بنفسه؛ حُرِّمت عليه الجنة».

*****

أمام الابتلاء ينبغى أن يصبر الإنسان ولا يجزع، فعدم الرضا بقضاء الله وقدره يدفع الإنسان إلى الجزع والسخط.

وفى الموقف الذى بين أيدينا، بشأن هذا الرجل الذى جزع ولم يصبر، بالغ الرجل فى جزعه وضجره، حتى وصل به إلى الانتحار، فأخذ سكينًا فحزَّ بها يده فمات، فكان حكمُهُ عند الله تعالى أنْ حرَّم عليه الجنة، لأنه بادر رَبَّه بنفسه.

قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»(١).

ومثل هذا الموقف وقع أيام رسول الله ﷺ؛ فقد كان رجلٌ مع النبى ﷺ يتظاهر بالإسلام، وكان يقاتل معه فى غزوة قتالا شديدًا، فأخبر النبى ﷺ أصحابه

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل (٣٢٧٦).

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث (٥٤٤٢)، وفى موضع آخر، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٣١٣) واللفظ له.

بأنه من أهل النار، فتبِعَهُ رجلٌ يراقبه، فأصابته جراحات شديدةٌ فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وحَدَّه بين ثدييه، ثم تحامل على السيف فقتـل نفـسه، فأُخْبِرَ النبيُّ ﷺ، فقال: «الله أكبر، أشهد أنى عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالًا فنـادى فى الناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله ليؤيِّدُ هذا الدين بالرجـل الفاجر»[1].

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا..

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الـدين بالرجـل الفـاجر (٢٨٩٧) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٣١٩).

٢١٣. سقته فَغُفِر لها (*)

عن أبي هريرة ﵁ قال: قـال النبـي ﷺ: «بيـنما كلـب يُطيـف بِرَكِيَّةٍ (بئر) كاد يقتله العطش، إذ رأته بَغِيٌّ من بغايا بنى إسرائيل، فنزعت مُوقَها (خُفَّها)، فسقته، فغُفِر لها به».

*****

ما أعظم حلمك يا ربنا! ومـا أعظـم رحمتـك! جعلـت الحـسنات تُـذْهِب السيئات، وعدًا حقًّا وصدقًا جاء فى القرآن لا يتخلف قـط، قـال الله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (هود).

ومن واسع فضلك يا رب أنك تضاعف الحسنات، وتقبل القليل من العبـد فيكون عندك كثيرًا. أنت الرب الكريم، سبحانك ما أعظمك!

هذه امرأة بغى تمارس الرذيلة، وتعيش بالفاحشة، رأت حيوانًا (كلبًا) يدور حول بئر من شدة عطشه، فَرقَّ قلبها عطفًا وحنانًا، ولم تجد المرأة شيئًا تسقى به هذا الكلب فنزعت خُفَّها، وملأته ماءً من البئر، وقدمته للكلب فشرب، فـسامحها الله تعالى وغفر لها، فكيف إذا رَقَّ القلب لإنسان يتيم أو مريض أو أرملـة أو مـسكين

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ (الكهف/ ٩) (٣٢٨٠) وفى موضع آخر بنحـوه، ومـسلم فى صـحيحه، كتـاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (٥٩٩٨).

أو مظلوم أو تائه أو ضـال حـيران؟ أفـلا يكـون الثـواب عنـد الله الكـريم أعـلى وأعظم؟

إن المشاعر التى تمر بقلوبنا حين تكون إيمـانية فإن الله تعـالى يُثيـب عليهـا، ويجزى بها خيرًا، وحين يبادر الإنسان بحسنة، ولو يسيرة فأنه سيحصد من ورائها الفضل والمغفرة.

إن مثل هذه الأعمـال ـ على بساطتها ـ جعلها الله أسباب رحـمة ومغفـرة، وفضل الله واسع، وبابه مفتوح للطالبين والسائلين والتائين، ولو كان صنيع خـير بحيوان، كمـا جاء فى الموقف الذى بين أيدينا، وفى حـديث رسـول الله ﷺ: «بينـما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فيها، فشرب، ثـم خـرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ العطش من هـذا الكلب مثل الذى كان قد بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتـى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسـول الله، إن لنـا فى البهـائم أجرًا؟ فقال ﷺ: «فى كل كبد رطبة أجْر»[1].

وكذلك جعل الله الجنة جزاء لمن يصنع شيئًا من المعروف، ولو كان إماطـة شىء من الأذى عن الطريق، فبينما رجل يمشى بطريق وجـد غـصن شـوك عـلى الطريق فأخَّره، فشكر الله له، فغفر له.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المظالم، باب الآبار على الطرق إذا لم يتـأذ بهـا (٢٣٣٤)، ومـسلم فى صحيحه، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (٥٩٩٦) واللفظ له.

٢١٤. أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رقيبًا ؟! (*)

عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان رجلان من بنى إسرائيل متآخيين، وكان أحدهما يذنب والآخر مجتهدًا فى العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلِّنى وربى، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة، فقبض روحهما فاجتمعا عند رب العالمين. فقال لهذا المجتهد: أكنتَ بى عالـمًا، أو كنت على ما فى يدى قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب، فادخل الجنَّة برحمتى، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

*****

• إننا لم نبعث على أعمال الناس حافظين، وإنما ندعو بالتى هى أحسن، نأمر وننهى بما أمر الله به ونهى عنه، ثم نترك النتائج لله تعالى، إن شاء أصلح

(*) أخرجه أحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة رضي الله عنه (٨٢٧٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن ومتنه غريب، وأبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب فى النهى عن البغى (٤٩٠٣)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

ووفق، وإن شاء هدى وأعان، وإن شاء غفر وسامح، وإن شـاء عَـذَّب وعاقـب، فالأمر كله لله تعالى.

والله يعامل عباده بلطف وود، ألم تر أن الله خاطب المسرفين على أنفسهم، فأضافهم إليه تأنيسًا لهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).

• وعبرة أخرى من الموقف أنه ينبغى للطائع ألَّا يكـون متعاليًـا بالعبـادة، وألَّا يحتقر غيره من أهل التقصير، بل ليحمد الله تعالى أن وفقه وهـداه، وليـشغل نفسه بجهد الإعانة بدلا من اشتغاله بإدانة غيره.

ويتأتى جهد الإعانة بالـدعاء بالهدايـة والتوبـة للمـسرفين، وتيـسير سـبل الحلال والطاعة لهم، رُوِىَ أن النبى ﷺ قال: «قال رجل: والله لا يغفـر الله لفـلان. وإن الله تعالى قال: من ذا الذى يتألَّى علىَّ (أى يحلف علىَّ) ألا أغفـر لفـلان، فـإنى غفرت لفلان، وأحبطت عملك»[1].

وما يدرينا لعلَّ الله يتوب على هذا المنحرف، فيصبح من الـصالحين، وأمـام أعيننا تحولات من درك المعاصى والانحراف إلى قمم النور والإيمان.

إن الطاعة التى تجر صاحبها إلى الكبر أو التعـالى أو الغـرور صـاحبها عـلى خطر عظيم، فى حين أن المعصية التى تورث العبد ذلًّا وانكسارًا ونـدمًا صـاحبها إلى خير ـ إن شاء الله ـ.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٦٨٤٧).

وإلى هذا المعنى أشار ابن عطاء الله ـ رحمه الله تعالى ـ فى الحكم، حيث قال: معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا.

إن الله هو الغفور الرحيم، ولا يعلم أحد حدود مغفرته، يقول النبى ﷺ: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم»[(1)].

وهل هناك أعظم ذنبًا من الذى قتل مائة نفس بغير حق، ثم تاب وأناب إلى ربه، فغفر له.

لقد سبق عفوه غضبه، وسبقت رحمته عقابه حتى وسع كل شىء رحمة وعلمًا، يقول ﷺ: «يُدْنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أى ربِّ أعرف، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته»[(2)].

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٧١٩٠).

(2) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة هود (٤٤٠٨)، ومسلم فى صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٧١٩١) واللفظ له.

٢١٥. ربِّ برحمتك (*)

عن أبى هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا ينجى أحدًا منكم عَمُله، فقال رجل: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته، ولكن سَدِّدوا».

*****

• الإنسان وما فعل من طاعات وقربات هو مِلْك لله تعالى، وطاعته من توفيق الله له، وكل نعمة حازها العبد هى من فضل المنعم الوهاب، قال سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل/ ٥٣).

لكن الإعجاب بالنفس أو بالعمل الصالح يؤدى بالإنسان إلى الغرور. ولو علم الإنسان أنه عاجز عن شكر نعمة واحدة من ملايين النعم التى أنعم الله بها على الإنسان، لأيقن بعجزه وافتقاره إلى الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النحل/ ١٨).

لكن الإنسان أحيانًا ينظر إلى عمله وينسى توفيق الله له فيه، ولولا توفيق الله لما أَتَمَّ عملا له ولا أفلح فى طاعة.

(*) أخرجه أحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبى هريرة ﵁ (٩٨٣٠)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان فى صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء فى الطاعات وثوابها (٣٤٨)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

- ويقدم لنا الموقف درسًا غاليًا فى ألا نُفتن بأعمالنا الصالحة، وألا نعتمد عليها، فرحمة الله أرجى من أعمالنا.

وتأكد لهذا الرجل أن ليس له إلا رحمة الله تعالى، وفضله وإحسانه، فنحن ندخل الجنة برحمة الله، ونتقاسم منازل الجنة ودرجاتها بأعمالنا.

اللهم ارزقنا التواضع، وجنبنا الغرور يا رب العالمين.. والحمد لله رب العالمين

٢١٦. خذ ذهبك (*)

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ: «اشـترى رجـلٌ من رجلٍ عَقارًا له، فوجد الرجل الذى اشـترى العقـار فى عقـاره جرَّةً فيها ذهب، فقال له الذى اشترى العقـار: خـذ ذهبـك، إنـما اشتريتُ منك الأرض ولم أشترِ الذهب، وقال الـذى لـه الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها.

فتحاكما إلى رجل، فقال الذى تحاكما إليـه: ألكـما ولـد؟ قـال أحدهما: لى غلام، وقال الآخـر: لى جاريـة. قـال: أَنكِحـا الغـلامَ الجارية، وأنفقا على أنفسكما منه، وتصدَّقا».

*****

• نحن أمام روعة وعظة صنعها الإيمان فى القلوب، فإن كنـا قـد ألفنـا فى دنيا الناس اجتهاد كل من البائع والمشترى فى الحصول على ميزة؛ حتى يكـون هـو الفائز بالربح الأعلى، وقد يـصل التنـافس بيـنهما ـ فى غيبـة الإيـمان ـ إلى الحلـف

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ (الكهف/ ٩) (٣٢٨٥)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الأقضية، بـاب اسـتحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين (٤٥٩٤) واللفظ له.

الكاذب والتغرير، وما إلى ذلك من أمور الغاية من ورائها زيادة الربح وحيازة المال الوفير، ففى هذا الموقف الإيمانى الرائع تنتقل المنافسة فيه بين البائع والمشترى من الأخذ إلى العطاء.

وتحاكَم الطرفان بسبب رغبة كل طرف فى إثبات ملكية الذهب الذى وُجد تحت العقار للآخر، إنه الورع والحرص على الحلال الخالص بعيدًا عن الشبهة، وما أحوجنا فى زماننا إلى هذه العبرة، فقد حمل حب المال الناس على أخذه من غير حِلِّه.

- كما يظهر من الموقف عبرة أخرى؛ وهى حكمة القاضى الذى رُفع إليه الأمر، فقد حكم بما يتوافق مع ورع الرجلين؛ حيث جعل المال فى باب يحصل منه الثواب لكل من الرجلين، فقال القاضى: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لى غلام، وقال الآخر: لى جارية. فقال القاضى: أنكحا الغلام الجارية وتصدقا من هذا المال.

وعلى نفس المنوال وبنفس الطريقة نجد الصالحين، أهل الورع والأمانة، إذا ما شَكُّوا فى مال بين أيديهم قد اختلط بمال غيرهم مما هو أمانة يعملون فيه، فإنهم يجعلون كل المال للأمانة ولا يأخذون منه شيئًا.

نعم إن الإيمان أمن وأمان، والمؤمن الحق هوالذى يؤتمن على أموال الناس وأعراضهم، والمسلم الحق من سلم الناس من لسانه ويده.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

٢١٧. ففهَّمناها سليمان (*)

دخل رجلان على نبى الله داود عليه السلام؛ أحدهما صاحب حرث (أى حقل) والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحقل: إن غنم الرجل أكلت زرعى فلم تُبْقِ منه شيئًا، فحكم داود عليه السلام لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم فى مقابل زرعه.

فقال سليمان عليه السلام: غير هذا يا نبى الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم لصاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها.

وفى هذا نزل قول الله تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنبياء).

*****

(*) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره، (١٨/ ٤٧٥).

صلاةً وسلامًا على سادتنا الأنبياء، لقد أثنى الله على سيدنا داود وسيدنا سليمان؛ فقال فى كتابه العزيز: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء/ ٧٩).

ومع الثناء بَيَّن الله ما اختص به كل واحد منهما من فضل؛ فقد اختص الله داود عليه السلام بما جاء فى قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء).

بينما اختص الله سيدنا سليمان عليه السلام بنعم أخرى؛ منها الفَهْم، قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ (الأنبياء/ ٧٩)، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنبياء).

والموقف يُظْهِرُ لنا أن نعمة الفهم فوق العلم، وقد جعل الله لسيدنا سليمان من هذه النعمة حظًّا وفيرًا، إن حكم سيدنا داود عليه السلام أقام العدل؛ حيث رأى أن قيمة الغنم على قدر النقصان الذى حدث فى الزرع، فجاءت الغنم عوضًا عن الزرع التالف؛ فمن العدل أن من أتلف شيئًا فعليه عوضه.

أما حكم سيدنا سليمان عليه السلام، فقد حقق مع العدل رعاية العمران وعدم إفلاس الطرف المدين، إنه عدل يعالج الموقف بحكمة، وهو من فيض الله تعالى؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، حيث حكم سليمان عليه السلام بأن يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحهاحتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم، فينتفع بألبانها وأصوافها ونَسْلِها، فإذا كمل الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها،

والأرض بزرعها إلى صاحبها.

وفى هذا أسوة وقدوة لكل من يتصدى للفتـوى أو الحكـم بـين النـاس، أن يتوجه فى تضرع وعجز وافتقار إلى الله تعالى بأن يلهمه الله الصواب ويجنبه الزلـل، وأن يوفقه إلى ما يرضيه، وبخاصة أن ظروف القضاء فى حياتنا المعاصرة تتعـرض لمهارة المحاماة وحيلها ومكرها الذى قد يصل إلى درجة تغيـير حقـائق الأشـياء، فيلبسون الحق ثوب الباطل، والباطل ثوب الحق.

لكن إلهام الله وتوفيقه وفضله يجعل القاضى أو المفتى أو الحكـم عـلى وعـى وفهم وبصيرة، ولا يكون ذلك إلا بمنحة وفضل من الله سبحانه وتعالى.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

٢١٨. لن تستطيع معى صبرًا ! (*)

عن أبى بن كعب ﵁ قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى قام خطيبًا فى بنى إسرائيل، فسُئل: أىُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ الله عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى: يا رب، فكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتًا، فتجعله فى مِكْتَل (أى: وعاء)، فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ (أى: هناك)، فأخذ الحوت فجعله فى مِكْتَل، ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون.

حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه فسقط فى البحر، فاتخذ سبيله فى البحر سربًا (أى: مسلكًا)، وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة الماء، فصار عليه مثلَ الطَّاقِ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب التفسير، سورة الكهف (٤٤٤٨)، وفى موضع آخر.

موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا.

قال: ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذى أمره الله به، فقال له فتاه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الكهف).

قال: فكان البحر للحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (الكهف).

قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مُسَجًّى بثوب (أى: مُغَطًّى)، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأَنَّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، فقال: موسى من بنى إسرائيل: قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما عُلِّمْتَ رشدًا، ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الكهف).

يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الكهف).

فقال له الخضر: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ

لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الكهف).

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول (أى: عطاء أو أجر)، فلما ركبا لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، فَعَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها! ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ ﴾ (الكهف)، ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ ﴾ (الكهف).

قال: وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسيانًا، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ

﴿ لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ ﴾ (الكهف).

قال: وهذه أشد من الأولى! ﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦ ﴾ (الكهف)، ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾ (الكهف) قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾ (الكهف)، ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ ﴾ (الكهف).

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا

﴿رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾ (الكهف).

فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان قد صبر؛ حَتَّى يقصُّ الله علينا من خبرهما».

*****

العباد لا يعلمون شيئًا إلا ما علّمهم ربهم تعالى، فسبحانك يا رب لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم! سبحانك، قلت، وقولك الحق: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾ (يوسف).

وأمرت خاتم النبيين سيدنا محمدًا ﷺ بأن يطلب الزيادة فى العلم، جعلت السبيل إلى العلم اللدنِّى فضلك وإحسانك تؤتيه من تشاء، فأخبرت عن عبد من عبادك عَلَّمته علمًا لا يتأتى بالتعلم من البشر، ولا يكون إلا فضلا ونعمة منك يا الله يا عليم، فقلت سبحانك مخبرًا عنه: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾﴾ (الكهف).

ووجهت لهذا العبد نبيًّا من أنبيائك؛ ليتعلم من علمه، قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾﴾ (الكهف)، وما علم ذلك العبد إلا قطرة من فيض علم الله العليم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء).

- وهنا عظة وعبرة، لقد جعل الله هذا الموقف؛ كى لا تَغْتَرَّ البشرية

بعلمها، فآفاق الكون وعالم المخلوقات لا يحيط به علم البشرية، وإنما غايتهم كما عبر القرآن أنهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم).

- ثم بينت لنا هذه الرحلة العلمية الخاصة أن لكل علم منهجه، والخلط بينهما لا يؤدى إلا إلى نتائج مضللة، فالموازين مختلفة، فعلم الأسباب يتناول الواقع وما فيه، فى حين أن العلم اللدنّى يحيط بما تصير إليه الأمور، ويراعى أمورًا لا تظهر للعين فى واقع الحياة؛ ومن هنا كان إنكار سيدنا موسى عليه السلام لخَرْق السفينة وقتْلِ الغلام وإقامة الجدار، فلما كَشَفَ العبد الصالح عن الحكمة من وراء هذه الأفعال زالت الغرابة وتبددت الدهشة وزال الإنكار.

- كما بَيَّنت لنا هذه الرحلة العلمية الخاصة ما ينبغى من أدب بين العالم والمتعلم؛ فنرى حسن الاستئذان والطلب من التلميذ، وهو هنا نبى (موسى عليه السلام)، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ (الكهف).

كما نرى حسن الطاعة من التلميذ وعلو الهمَّة، فلما قال له العبد الصالح: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ (الكهف)، قال التلميذ: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الكهف).

كما نرى حسن الاعتذار من التلميذ حين خالف شرط الأستاذ ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ (الكهف).

هذا من جانب المتعلم، أما من جانب المعلم، فيظهر لنا أهمية بيان ما يلزم المتعلم فى طلب هذا العلم وتوضيحه له، وبيان العقبات التى تصادف المتعلم فى

طريقه لتحصيل هذا العلم. يظهر ذلك من قولـه تعـالى عـن المعلـم: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ (الكهف).

كما وضَّح المعلم الشروط التى ينبغى أن يلتزم بها المتعلم؛ كى ينجح فى طلبه لهذا العلم، يظهر هذا من قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الكهف).

- وفى النهاية بعد أن أدرك نبى الله سـيدنا موسـى عليه السلام أن هنـاك مـن هـو أعلم منه، وأن هناك من العلم ما يختلف عن علم الأسباب؛ وهو العلـم اللـدنىّ، كشف المعلم عن الحكمة من وراء ما فعل من أعمال أنكرها سيدنا موسى بعلمه؛ وأن ما أنكره سيدنا موسى كان سببًا لنجاة السفينة من أن يأخذها الملـك غـصبًا، وكان سببًا فى نفع الغلامين بـالكنز، بحفظـه لهـما حتـى يكـبرا، ويـشتد عودهمـا، ويستخرجا كنزهما، ثم يعلن المعلم عن الحقيقة الكبرى؛ وهى أن كـل مـا فعلـه لم يكن من اختياره ولا بمراده، ولكنه أمر الله تعالى.

وهكذا يكون علمنـا القـاصر أمـام علـم الله الـشامل الـذى يـدبر الأمـور بحكمته، فالغيب كله لله، والعلم الحق والخالص كله لله.

- كما يظهر ـ من هذا الموقف العجيب ـ أن صلاح الآباء ينفع الأبناء؛ فقد كشف العبد الصالح سبب إقامة الجدار، وحفظ الكنـز للغلامـين بقولـه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ (الكهف).

- كما يظهر أن حب الوالدين لولدهما قد يتولد عنـه زيـغ الوالـدين تحـت

تأثير عاطفة الحب وتأثير الهوى، وكم من أناس دفعهم الحب والعاطفة لأولادهم ـ فى غيبة الإيمان ـ إلى أخذ المال الحرام ونحوه؛ ففى قوله تعالى لبيان سبب قتل الغلام: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ (الكهف).

إن لله تعالى عبادًا ـ لا نعلمهم ـ آتاهم العلوم وكشْفَ الأسرار، وسبحان الله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر/ ٣١).

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفِّقْنا لما تحب وترضى، ومُنَّ علينا بما مننت به على أوليائك.. والحمد لله رب العالمين

٢١٩. اسقِ حديقة فلان (*)

عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا فى سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرَّة (١)، فإذا شَرْجة(٢) من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء، فإذا رجل قائم فى حديقته يحوِّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟

قال: فلان للاسم الذى سمع فى السحابة، فقال له: يا عبد الله لم تسألنى عن اسمى؟ فقال: إنى سمعت صوتًا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلتَ هذا، فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدَّق بثلثه، وآكل أنا وعيالى ثلثًا، وأردّ فيها ثلثه».

*****

- ما أطيب أن يُعظِّم المؤمن أمر الله تعالى فيقدمه على حظ نفسه! إن هذا

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة فى المساكين (٧٦٦٤).

(١) الحَرَّة: أرض بها حجارة سوداء.

(٢) الشرجة: شق فى الأرض مجرى للماء.

الرجل الصالح لم يتصدق فقط، ولكنه جعل هذه الصدقة فى مقدمة النفقات التى ينفقها قدم الصدقة على نفقة نفسه وأهله، وعلى نفقات الحديقة.

وكان الجزاء من جنس العمل، والله أكرم من عبده، فمن تقرَّب إلى الله شبرًا تقرَّب الله إليه ذراعًا، ومن تقرب إلى الله ذراعًا تقرب إليه باعًا، ومن أتاه يمشى أقبل الله إليه هرولة. إنه اللطف والرحمة والكرم، إنه الله البَرُّ الرحيم.

لذلك أكرم الله هذا الرجل لما جعل ثلث إنتاج حديقته صدقة وقدمه على النفقات الأخرى، أمر الله السحاب أن يتوجه إلى حديقة هذا الرجل فينزل الماء، فيروى الرجل حديقته.

وفى هذا عظة بليغة لكل راغب فى بركات الله وفى معونته ومدده وتوفيقه، كيف لا؟ والله سبحانه يؤكد هذه الحقيقة بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الأعراف).

وإنها لسُنَّة جارية فى الأمم كلها، فللعمل الصالح بركة كما أن للمعصية شؤمًا وهلاكًا، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (المائدة).

- ومن عبر هذا الموقف أن الإنسان قد لا يشعر بما أكرمه الله به، وقد لا ينتبه إلى منزلته العالية عند الله تعالى، ورب أشعَث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره. إن منازل الناس عند الله تعالى لا تكون بمظاهرهم، ولا برتبهم

الاجتماعية ولا بثرائهم، ولا بشيء مما ظهر أمام الناس لامعًا، مِمَّا نتباهى به ونتفاخر، إن المنازل العالية عند الله تعالى تتأتى للصادقين مع ربهم، والعاملين فى طاعة مولاهم.

فرُبّ عامل يصدق مع ربه فى تنظيف شارع، أو خدمة الناس فى مؤسسة ما، يكون عند الله من صفوة أوليائه؛ لحرصه على الحلال والجدية والصدق والأمانة. مثل هذا الرجل تغمره بركات الله، ورضا الله يملأ قلبه، وبأمثاله يسعد المجتمع، بل تسعد الحياة كلها.

- وفائدة جليلة تظهر من هذا الموقف المبارك؛ وهى الحكمة وحسن الإرادة، فالرجل وَزَّع ناتج الثروة بحكمة، فجعل ثلثها صدقة فراعى بذلك حق الله فيها، وجعل الثلث الثانى لأهله، فلهم حق النفقة والرعاية، ثم جعل الثلث الأخير للحديقة؛ رعاية لها وعناية بما تحتاجه من خدمة وفلاحة، ونحو ذلك.

وهذا التوازن يحقق له الوفاء بما يلزمه من حقوق لربه وأهله وحديقته.

وهذا التوازن من عناصر النجاح فى الدين والدنيا.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

٢٢٠. فإن الله أدى عنك (*)

عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ «أنه ذكر رجلًا من بنى إسرائيل سأل بعضهم أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتنى بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدًا، قال: فأئتنى بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته.

ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانًا ألف دينار فسألنى كفيلًا فقلت: كفى بالله كفيلًا فرضى بك، وسألنى شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا فرضى بك، وأنى جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعكها، فرمى بها فى البحر حتى

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحوالات، باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها (٢١٦٩)، وفى مواضع أخرى بنحوه.

ولجت فيه، ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده.

فخرج الرجل الذى أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة.

ثم قدم الذى كان أسلفه، فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهدًا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذى أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلى بشىء؟ قال: أخبرك أنى لم أجد مركبًا قبل الذى جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشدًا».

*****

معانى بعض الكلمات:

(التمس): طلب. (للأجل): الزمن الذى حدده له للوفاء. (فنقرها): حفرها.(صحيفة): مكتوبًا.(زجج): سوى موضع النقر وأصلحه من تزجيج الحواجب وهو حلق زوائد الشعر.(تسلفت فلانًا): طلبت منه سلفًا. (جهدت): بذلت وسعى. (ولجت: دخلت فى البحر).

إن الله على كل شىء قدير، يُكرم عباده الصادقين بما يشاء من الكرامات

والمعجزات، ومن صَدَق الله يَصْدُقْه، إننا قبل أن نتعامل مع الناس فنحن نتعامل مع الله تعالى، وَصِدْقُنَا قبل أن يكون مع الناس فهو مع الله.

فهذا رجل وقع فى اضطرار، فلجأ إلى من يُرجى خيرهم ممن بسط الله لهم الرزق، وطلب صاحب المال ضامنًا، ولم يكن ميسورًا للرجل المضطر أن يأتى بالضامن، فقال: كفى بالله كفيلًا، ورضى صاحب المال، وأعطى الرجل المبلغ الذى طلبه (ألف دينار)، وحدَّد له موعدًا لسداد الدين، وقضى الرجل المضطر حاجته بالمال، ومرت الأيام وجاء موعد السداد، وأعد الرجل ألف دينار لكنه لم يستطع الوصول إلى صاحب الدين، لأنه لم يجد مركبًا تعبر به البحر.

وهداه تفكيره أن يضع ألف دينار فى جوف خشبة ومعها ورقة مكتوب فيها: هذه ألف دينار من فلان إلى فلان، ثم ألقى بها فى البحر قائلًا: اللهمَّ إنك قد علمت أنى استسلفت فلانًا ألف دينار فسألنى كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضى بذلك، وسألنى شهيدًا، فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضى بذلك، وإنى قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركبًا، وإنى استودعتكها.

وكان الرجل صاحب الدَّيْن ينتظر وصول المركب لعل به الرجل الذى استدان المبلغ؛ فقد حان وقت السداد، ولـمَّا لم يصل المركب، ووجد الرجل هذه الخشبة، أخذها لأهله حطبًا، فلمَّا كسرها وجد المال بداخلها.

لكن الرجل المدين كان قد فعل ما فعل من وضع المال فى الخشبة، وألقاها فى البحر؛ كى يكون قد وفى بالوعد أمام الله تعالى، ثم أعد ألف دينار أخرى، ولما

تيسر سير المركب ركب فيه، وذهب إلى صاحب الدين، فلما وصل إليه، وقَدَّم إليه المال، قال له: يا أخى لقد أدَّى الله عنك، ووصل ما أرسلته من مال فى الخشبة.

نعم إن من استودع الله شيئًا حفظه، وإذا كان الصدق بين المقترض ومن أقرضه، كانت البركة من الله تعالى وأتمَّ الله لهما.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.. والحمد لله رب العالمين

٢٢١. حكمة أم سَلَمَة (*)

لما فرغ النبى ﷺ من كتابة العهد بينه وبين أهل مكة فى صلح الحديبية، قال لأصحابه: قوموا فانحروا، ثُمَّ احلقوا.

فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أمّ سلمة رضى الله عنها فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبى الله أتحب ذلك، أخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يُقتل غمًّا.

*****

هذا موقف سَخِيٌّ بالدلالات والعبر:

- الأولى: فضل المشورة وبركتها: فإن الإسلام يُعلِّم القائد ألا يستبد

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١).

برأيه، وألا يَحْرِمَ نفسه من الاستفادة بطاقات الآخرين من أصحاب العقول الراشدة، وبذكاء من حوله وبآراء أهل الخبرة فى كل مجال؛ ولذلك وصف الله أهل الإيمان بأنَّ أمْرَهُمْ قائم على الشورى، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى/ ٣٨).

فلا استبداد برأى ولا اتباع لهوى، وإنما المؤمن يبحث عن الأفضل والأحسن، والآراء يقدح بعضها بعضًا.

وقد نصح القرآن الكريم رسول الله ﷺ أن يأخذ بمبدأ الشورى، قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران/ ١٥٩).

فالمشورة إذن هدى قرآنى أسوتنا فيه سيدنا رسول الله ﷺ.

- الدلالة الثانية: مكانة المرأة فى الإسلام: فالمرأة فى الإسلام لها أدوار سامية عالية شريفة، وحسبنا ما ورد عند السلف من إشادة بمكانتها وعظيم فضلها، جاء فى الآثر: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

والمرأة زوجة، جعل الله لها المثوبة العالية على حسن رعايتها لزوجها وأولادها، وفى الحديث: «حُسْن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله»(١).

والمرأة طفلة جعل الله حسن تربيتها سبيلا إلى الجنة، وفى الحديث الشريف، أن رسول الله ﷺ قال: «من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٣٣٨، ٧/ ٤٤٠)، ضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٦٢٤٢).

وكساهن من جدته كن له حجابًا من النار يوم القيامة»[1].

وفى حديث آخر: «لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فيتقى الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة»[2].

والمرأة فى ساحة العلم عالمة تُعلِّم وتَهْدِى وتُرشد، ويرحم الله أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فقد كان لها دور بارز فى العلم.

والمرأة فى ساحة الجهاد مجاهدة، والمرأة فى ساحة العمل الاجتماعى لها نشاط مؤثر، ويرحم الله السيدة فاطمة الزهراء والسيدة زينب والسيدة نفيسة من آل بيت سيدنا رسول الله ﷺ؛ فقد كان منهن السعى والجد فى خدمة الفقراء والمساكين.

والمرأة فى ساحة الرأى وسياسة الأمور لها دور حكيم، فأم سلمة فى هذا الموقف ـ الذى بين أيدينا ـ كانت مستشارة مؤتمنة لرسول الله ﷺ.

إذن فما تقوقعت المرأة أبدًا فى تاريخ الإسلام، والمرأة تصنع كل هذا فى إطار إيمانى يهتدى بآيات القرآن وبسنة رسول الله ﷺ.

وهذا الموقف يُظْهِرُ مكانة المرأة فى عقلها وذكائها، فالنبى ﷺ بعد أن كتب بنود صلح الحديبية، وكان فى نفوس المسلمين شىء من هذا الصلح، أمرهم ﷺ أن يقوموا فيذبحوا ويحلقوا فلم يستجيبوا، فدخل النبى ﷺ على أمّ سَلَمَة رضى الله عنها متأثرًا يذكر لها ما حدث فهدَّأت من رُوعِهِ، وقالت له: اعذرهم يا رسول

(١) صحيح ابن ماجه، (٢/ ٢٩٦)، (٣٦٥٩)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة،(٢٩٤)، تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة سعيد بن عبدالرحمن بن مكمل.

(٢) صححه الألبانى السلسلة الصحيحة، (٢٩٤)، مسند أحمد بن حنبل (١١٤٠٢).

الله؛ لأنها تقدِّر ظروف الموقف ووقعه على نفوسهم، ثم أشارت على النبى ﷺ برأى سديد؛ وهو أن يتحول ﷺ من القول إلى الفعل، من الدعوة القولية إلى الدعوة العملية، فقالت رضى الله عنها: اخرج إليهم يا رسول الله، فلا تكلم أحدًا منهم، وابدأ بنفسك، انحر بُدْنك، وادْعُ حالقك؛ كى يحلق لك، ففعل النبى ﷺ، وأخذ بمشورة أمّ سَلَمَة رضى الله عنها.

فلما رأى الصحابة رسول الله ﷺ قد نحر، وحلق، قاموا جميعًا، فتأسَّوْا به ﷺ، فنحروا وحلقوا، وببركة مشورة أمّ سَلَمَة رضى الله عنها زالت فتنة أوشكت أن تحدث، ومن هنا نرى مكانة المرأة وقيمتها فى الإسلام.

كما يظهر من الموقف أهمية الدعوة العملية بالقدوة والأسوة، فحال رجل فى ألف رجل أبلغ من كلام ألف رجل فى رجل.

وصلِ اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.. والحمد لله رب العالمين

٢٢٢. أكثر منك أخذًا للقرآن (*)

فى غزوة تبوك، كانت راية بنى مالك بن النجار مع عمارة بـن حزم، فأخذها منه رسول الله ﷺ، ودفعها إلى زيد بن ثابت (كاتب الوحى)، فقال عمارة: يا رسول الله، هَلْ بلغك عنى شىء؟! فقال ﷺ: «لا، ولكن القرآن مُقَدَّم، وزيد أكثر منك أخذًا للقرآن».

*****

• هذا موقف تشتد حاجة الأمة إليـه فى ظروفهـا المعـاصرة؛ إنـه يؤسـس لقاعدة فى ضوابط المفاضلة والاختيار، فالذين كانوا حول رسول الله ﷺ فى غـزوة تبوك هم الصحابة الأبرار، هم الـذين خرجـوا لهـذه الغـزوة يرغبـون فى إحـدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة.

وعلى الرغم من هذا، فإن رسول الله ﷺ يفاضل بينهم فيمن تسند إليه مهمة حمل الراية، فيختار زيدَ بن ثابت: كاتب الوحى، والماهر فى لغة اليهود والمتقن لها، والذى عُرِفَ عنه الذكاء والفطنة، وهذه كلها صفات ترشحه لهذه المهمة.

إن توزيع الأدوار وإسـنادَ الأعـمال ينبغـى أن يكـون عـلى معـاييرَ وأسـسٍ واضحة بعيدًا عن الهوى، إنها أمانة المسئولية، وفى الحديث النبوى: «من اسـتعمل

(*) أخرجه الحاكم فى المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضى الله تعالى عنهم، باب ذكر مناقب زيد بن ثابت كاتب النبى ﷺ (٥٧٧٨).

عاملا على قوم، وفى تلك العصابة من هو أرضى لله منه، فقد خان الله تعالى، وخان رسول الله ﷺ، وخان جميع المسلمين»[1].

- ثم ينتقل بنا الموقف إلى هَدْى آخر؛ إنه حق التَّبـيُّن لمـن جـال فى خـاطره شىء، أو حدثته نفسه بشىء عن ترتيب أدى إلى انتقال ما كان بيده إلى غيره.

فالتَّبيُّن هنا وضوح على الحقيقة، يحمى الإنسان من الوقوع فى سـوء الظـن، بل وربما فى إصدار أحكام غيابية على إخوانه، وهم منها براء.

ورَأَيْنا فى الموقف تَوَجُّهَ عمارة بن حزم إلى رسول الله ﷺ يـسأله: هـل بلغـك عنى شىء يا رسول الله؟!

ووضح النبى ﷺ أسباب تحويل الراية إلى زيد بن ثابت ﷺ؛ حيـث قـال ﷺ: لا؛ أى: لم يبلغنى عنك شىء يا عمارة، ولكن القرآن مُقدَّم، وزيد أكثر منك أخـذًا للقرآن. وبهذا أقنع النبى ﷺ عقل السائل بأن التحول تمَّ لأسباب ومعـايير كانـت فى صالح زيد بن ثابت ﷺ بعيدًا عن الهوى.

- ثم يؤكد لنا الموقف حقيقة مهمـة، وهـى أن القـرآن مُقَـدَّم، وأنـه يرفـع صاحبه، وهكذا كانت أفعال رسول الله ﷺ ـ فى الجانـب التطبيقـى ـ تـربط الأمـة بالقرآن، وتقدم أهل القرآن، وكم من مرة نرى رسول الله ﷺ قد زوج من لا يملك مالا ولا دينارًا بما معه من القرآن! ويُقدم ﷺ عنـد دفـن الـشهداء حامـل القـرآن، ويقدم زيد بن ثابت على صاحبه ويدفع إليه الراية؛ لأنه أكثر أخذًا للقرآن.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) السلسلة الصحيحة للألبانى (٣/ ١٨)، السنة لابن أبى عاصم (٢/ ٦٢٧).

٢٢٣. بهذا قامت السماوات والأرض (*)

لـمَّا بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة ؓ ليقاسم اليهود ثمرها، فلما قدم عليهم جعلوا يهدون له من الطعام ويكلمونه، وجعلوا له حليًّا من حلى نسائهم، فقالوا: هذا لك وتخفف عنا وتجاوز.

قال ابن رواحة: يا معشر يهود، إنكم والله لأبغض الناس إلى، وإنما بعثنى رسول الله ـ ﷺ ـ عدلًا بينكم وبينه، ولا أرب لى فى دنياكم ولن أحيف عليكم، وإنما عرضتم على السحت أنا لا آكله، فخرص النخل.

فلما أقام الخرص خيرهم فقال: إن شئتم ضمنت لكم نصيبكم، وإن شئتم ضمنتم لنا نصيبًا وقمتم عليه، فاختاروا أن يضمنوا ويقوموا عليه، قالوا: يا ابن رواحة هذا الذى تعملون به تقوم به السماوات والأرض وإنما يقومان بالحق.

*****

(*) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد، كتاب البيوع، باب المزارعة (٦٥٩٩) وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال: رواه مرسلا ورجاله رجال الصحيح.

• الحق ما شهدت به الأعداء، وهكذا يصنع الإيمان بالقلوب، إن استشعار المؤمن بأن الله خبير بما يعمل، وبأن الله رقيب على أفعاله وأقواله، وعلى حركاته وسكناته، وبأن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وبأن الله تعالى لا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرة فى السماوات والأرض، وبأن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علمًا ـ يجعل المؤمن أمينًا، حتى وإن غابت أعين الرُّقباء، يجعله أمينًا عادلا حتى وإن سنحت له الفرصة بعيدًا عن أعين الناس؛ لأنه يعلم يقينًا أن الله مطلع عليه ـ يعلم منه السر وأخفى، وأن جوارحه ستشهد عليه يوم القيامة؛ لذلك فالمؤمن فى معية نورانية مباركة، يسارع فيها إلى فعل الخيرات وترك المنكرات طاعة لأمر الله تعالى، وطمعًا فيما عند الله سبحانه.

• كما يظهر من الموقف هَدْىٌ كريم آخر؛ وهو أن مشاعر البغض والحب لا تنال من موقف المؤمن، ولا تجعل العدالة تهتز بين يديه؛ لأن الإيمان يحقق العدالة فى ضمائر الناس وعقولهم، وكل هذا يقف بنا عند قيمة إيمانية عظيمة إذا أردنا أن نحقق العدالة فى المجتمع والعالم، هذه القيمة هى ضمير من يحكم، وصلاح قلبه، إن التربية الإيمانية لها أبلغ الأثر فى حماية القانون وحفظه من التلاعب به ضد العدالة.

وكم أضل الهوى أناسًا فى غيبة الإيمان، فرأوا فى ثغرات القانون فرصًا سانحة لهم، فاستحلوا بها ما ليس حقًّا لهم.

والمتأمل فى السنة النبوية المطهرة يرى أن النبى ﷺ ربى هذه الروح فى ضمائر المؤمنين، وفى الحديث: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون

ألحن بحجته من بعض، فأقضى له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[1].

كما يؤكد الموقف أن العدل هو أساس الأمان وعمارة الأرض، ويظهر هذا من قولهم فى الموقف: «بهذا قامت السماوات والأرض».

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب موعظة الإمام للخصوم (٦٧٤٨).

٢٢٤. ولا بزفرة واحدة (*)

عن سعيد بن أبى بردة قال: سمعت أبى يحدث أنه شهد ابن عمر رجلًا يمانيًّا يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره، يقول: إنى لها بعيرها المذلل، إن أذعرت ركابها لم أذعر، ثم قال: يا ابن عمر، أترانى جزيتها، قال: لا، ولا بزفرة واحدة.

*****

خَصَّ الله المرأة بامتياز عظيم لم يحظَ به رجلٌ قط؛ إنه امتياز الأمومة، فالأمومة هبة وعطاء من المولى تعالى، إنها بحرٌ من الحنان يتدفق، ونبعٌ فياض بالمشاعر الفيَّاضة، والعواطف النبيلة. تحمل الأم بين ضلوعها الأمل، تنتظره وتترقب لحظة ميلاده، تحمله وهنًا على وهن، لكنها المعاناة المحببة والألم الذى تسعد به؛ لأنها ـ بعد لحظات ـ ستضيف للحياة مولودًا جديدًا، أملا جديدًا، عقلا جديدًا.

ويستمر عطاء الأمومة لوليدها ترضعه حبًّا وحنانًا، ودفئًا ورعاية، تحسه ويحسها، تسعد به ويسعد بها؛ لتجسد للدنيا أنبل علاقات الحب الطاهر، حب الأم لوليدها، إنه حب عظيم له قدره عند الله تعالى، لقد جعله الله طريقًا

(*) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، كتاب الوالدان، باب جزاء الوالدين (١١)، والنبراء فى مسنده، مسند بريدة بن الحصيب (٤٣٨٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٩/ ١١).

إلى الجنة، فدعاء الأم لوليدها فى مقدمة الدعوات المستجابة، ومن هنا استحقت الأم كل التكريم؛ لأنها أعطت بحب.

فإذا امتدت بها الأيام، ومالت شمس العمر نحو الغروب، وأدركتها الشيخوخة، كان حقاً على الأبناء أن يبالغوا فى إكرامها وفى البر بها. كيف لا والله ﷻ قد قدمها فى البر، وجعل الجنة تحت أقدامها؟!.

ولا يحسب أحدنا ـ بمبالغة إكرامها فى الكبر ـ أنه قد وَفَّى الأم حقها، ويؤكد هذه الحقيقة سيدنا رسول الله ﷺ لما رأى رجلا من أصحابه يحمل أمه على كتفه، يطوف بها حول الكعبة فى موسم الحج وسأل الرجل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أديت حقها؟

فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولا بزفرة واحدة!!».

نعم هكذا أجابه النبى ﷺ: ولا بزفرة واحدة. فى حمل أو وضع؛ لذلك جاءت الوصية بالأم ـ فى خصوصية تلفت الانتباه ـ حين وصَّى الله عباده بالوالدين إحسانًا، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان).

والمؤمنون الصادقون فى كل عصر يسارعون إلى البر بالأم؛ أملا فى رضاها، ففى رضاها إكرام الله تعالى.

وتقدم لنا السنة الصحيحة نماذج نورانية، نالت المنازل العالية والدرجات الرفيعة عند الله تعالى ببركة البر بالأم، ومن أهم هذه النماذج رجل لم ير رسول الله، وكان يقيم باليمن، وكان كثير البر بأمه، فأعلم الله نبيه ﷺ بصالح عمله،

وأوصى النبى ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبحث عنه ضمن وفود حجيج اليمن، فإن وجده فليسأله أن يستغفر له، هذا الرجل هو أويس القرنى، التقى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ فى زمن خلافته ـ وسأله أن يستغفر له، وأستغفر أويس لعمر، وما كان لأويس عظيم عمل ـ يرقى به إلى هذه المنزلة ـ إلا بره بأمه.

اللهم ارحم أمهاتنا وآباءنا وإخواننا وأصحاب الحقوق علينا يارب العالمين

٢٢٥. أذهب الله همّى (*)

دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال ﷺ: «يا أبا أمامة، ما لى أراك جالسًا فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟»، قال: هموم لَزَمَتْنِى، وديون يا رسول الله.

قال ﷺ: «ألا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله تعالى همك، وقضى عنك دينك؟». قال: قلت بلى يا رسول الله.

قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقَهْر الرجال». قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله تعالى هَمِّى، وقضى عنى دينى.

*****

دخل النبى ﷺ المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فأدرك النبى ﷺ بنور بصيرته أن الرجل مهموم، فلم يسأله عما أهمه وأحزنه، ولكن

(*) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الوتر، باب فى الاستعاذة (١٥٥٧)، وضعَّفه الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب (١١٤١).

سأله عن سِرِّ جلوسه فى المسجد فى غير وقت الصلاة؛ ليفصح له عن مكنون صدره وسبب جلوسه بالقول الصريح، فيقضى له حاجته، أو يعلمه دعاء يقوله فى صباحه وفى مسائه، وهو فى المسجد أو فى أى مكان طاهر، يفرج الله به همه، ويذهب حزنه، ويطرد عنه شبح اليأس والملل والضيق والأسى.

فهو ﷺ لم ينكر عليه مكثه فى المسجد فى غير وقت الصلاة؛ لأن هذا ليس بمستغرب، فالمسلم قلبه معلقٌ بالمساجد، يلجأ إليها فى أى وقت؛ ابتغاء رحمة من ربه يرجوها.

وقد تلطف النبى ﷺ به فى السؤال، وهو أرحم بالمؤمنين من أنفسهم على أنفسهم، فقال: «أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله تعالى همك، وقضى عنك دينك؟».

فهذا أسلوب فيه جذب للانتباه، وتشويق لما سيخبره به ويطلعه عليه، وفيه بشرى طيبة يحملها إليه من لدن رَبِّهِ تعالى فكان أبو أمامة أسرع ما يكون إليه بالجواب: بلى يا رسول الله.

قال ﷺ: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن»؛ أى اعتصم بك، وألوذ بجلالك، وأحتمى بحماك من شر الهم والحَزَن، وأسألك بقدرتك أن تدفعهما عن قلبى دفعًا، وأن ترفع عنى كل سبب يؤدى إليهما، وأن تشرح صدرى بنور الإيمان حتى لا يحزننى الشيطان بما يورده علىَّ من الوساوس والهواجس والشبهات، وبما يلقيه فى قلبى على حين غفلة منى.

وهناك فرْقٌ بين الهم والحزن والغم، فالهم: هو الشدة البالغة بسبب توقع

المكروه؛ يقال: أهمه الأمر، أى: أتعبه التفكير فيه والخوف من وقوعه على غـير مـا يرجو ويؤمل.

والحَزَن: هو الشدة البالغة بسبب تذكر ما فات؛ يقال: فلان حزين يعنى على موت عزيز لديه أو فقد شىء من ماله، فهو يقع بسبب التفكير فيما مضى.

والغم: هو الكرب الشديد الذى يقع للإنسان لأسباب كثيرة، فيجمع بسببه الهم والحزن معه، فيغم عليه الأمر ويلتبس عليه حتى لا يعرف كيف يتخلص منه؛ من قولهم: غمّ الهلال؛ أى: استتر عن أعين الناس، وصعب عليهم رؤيته.

فالمغموم تتوارد عليه الخواطر، وتتـداعى عليـه المعـانى؛ فيحـزن، فيـصاب بالغم، فيخشى مما قد يحدث له بسبب استمرار هذا الغم، فيصاب بنكبـة عظيمـة تعطل فكره وحواسه، فلا يكاد يعقل، ولا يكاد يسمع أو يبصر.

وقوله ﷺ: «وأعوذ بك من العجز والكسل» معناه: أعوذ بك مـن أن أتـأخر عن تأدية واجباتى، وأتخلف عن تحقيق ذاتـى وصـالح عمـلى، وأن أفتقـد القـدرة المادية والمعنوية فى بلوغ آمالى من دنياى وآخرتى.

وقوله ﷺ: «وأعوذ بك من الجبن والبخل» معناه: أسألك أن تعـصمنى مـن شرهما، واعتصم بك من أن أتصف بهما، فأخسر دنياى وآخرتى.

والجبن: هو التقاعس عن حماية الأعراض والحرمات، والتقاعد عن الجهـاد فى سبيل الله، والتخلى عـن تأديـة الواجبـات، والإقـدام عـلى الأعـمال التـى تخـل بالمروءة، وتتنافى مع الشهامة والشجاعة.

والبخل: هو التمسك بالمال وحبسه عمن يحتاج إليه، والحرص الشديد على

نموه بشتى الطرق.

وقوله ﷺ: «وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»؛ أى: أعـوذ بـك مـن ثقل الدين وعدم القدرة على سداده، وما يحمله المدين من همٍّ وغم، وما يجده مـن إحراج ومذلة، وأعـوذ بـك أن يقهرنـى الرجـال، فيغلبـونى عـلى نفـسى ومـالى، ويهزمونى فى ميادين الحق والشرف.

قال أبو أمامة: ففعلت ذلك؛ فأذهب الله تعالى همى، وقضى عنى دينى.

وهذا يرجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: الدعاء بهذه الكلمات؛ لأنها صادرة عمن لا ينطق عن الهوى.

الثانى: إخلاص الداعى وتقواه، ويقينه بأن الله يستجيب له إذا دعاه.

الثالث: مراعاة آداب الدعاء.

هذه الوصية النبوية الغالية هدية من رسول الله ﷺ إليـك، فالزمهـا واعمـل بها؛ فإنها دواء لكل داء يعجز عن علاجه الأطباء.

نسأل الله الهداية والتوفيق.. والحمد لله رب العالمين

٢٢٦. ألد الخصام (*)

كان الأخنس بن شريق رجلًا حلو الكلام، حلو المنظر، وكان إذا لقى رسول الله ﷺ لقيه بما يحب من طيب الكلام وبشاشة الوجه، فى حين أن قلبه كان ينطوى على السوء والبغض والكره، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ (هود).

*****

هذه الآية من الوحى المكى الذى يركز ـ فى الغالب ـ على معانى العقيدة، وعلى الجوانب الوجدانية فى السلوك الإنسانى، تهذيبًا للسلوك، وتربية للضمير.

وسبب نزول الآية ـ كما ذكر ابن عباس ـ: أن رجلًا كان يقال له: الأخنس بن شريق، وقد كان حلو الكلام، وحلو المنطق، فإذا لقى رسول الله ﷺ لقيه بما يحب، فى حين أن قلبه ينطوى على السوء، فنزلت فى حقه هذه الآية، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ (هود).

والموقف أشبه بموقف النفاق، حيث كان الأخنس يظهر خلاف ما يبطن،

(*) معالم التنزيل، البغوى، دار طيبة، ط٤، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ج١، صـ٢٣٥.

وإن لم يكن من باب النفاق المحض الذى عُرِفَ به أصحابُهُ فى المدينة، فأما فى مكة فلم يظهر ذلك النوع من المنافقين، بل كان أمرهم واضحًا؛ فهم إما أهل إيمان، أو مشركون.

والأثر ـ فيما نرى ـ يصور حال بعض الضعفاء المترددين بين التصديق والتكذيب، تعصرهم أحيانًا مشاعر التصديق، ثم تستولى وَسْوَسَاتُ التكذيب، فيجدون أنفسهم فى موقف لا يليق بما يتوهمون لها من مكانة أو كرامة؛ فلا يحبون أن يراهم أحد على هذه الحالة، فينكفئون على صدورهم، وتنثنى هذه الصدور حرصًا على ستر ما يفضحهم، أو هى محاولة للاستخفاء بالمنكر وإنْ كانت لا تجديهم نفعًا، ولا تحقق لهم سترًا، بل إنهم حتى ولو ارتدوا ثيابهم وظنوا أنهم ستروا نقيصتهم، فإن ذلك وَهْم لا يسترهم، ولا يخفى عوراتهم؛ فالله يعلم ما يسرون فى ضمائرهم، وما يحدثون به أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ (هود).

وهذا المثل الذى يسوقه القرآن يقدم نموذجًا لما يصطنعه المكذبون من وسائل التخفى، كأن يتخذ لنفسه خندقًا، أو حجرًا، أو نفقًا فى الأرض، كما يخفى حقيقة عدائه للحق ـ وكل ذلك لا يجدى نفعًا، ولا يكتم سرًا؛ فالسر كالعلن بالنسبة إلى علم الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ (البقرة/ ٢٨٤).

٢٢٧. منزلتك عند الله (*)

عـن أبـى هريـرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إن لله ملائكـة يطوفـون فى الطـرق يلتمـسون أهـل الـذكر، فـإذا وجـدوا قومـا يـذكرون الله تنـادوا: هلمـوا إلى حـاجتكم، قـال: فيحفـونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.

قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبـادى؟ قـال: تقول: يسبحونك ويكبرونـك ويحمـدونك ويمجـدونك، قـال: فيقول: هل رأونى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأونى؟، قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لـك عبـادة وأشد لك تمجيدًا وأكثر لك تسبيحًا، قال: يقول: فـما يـسألوننى؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولـون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهـم رأوهـا؟ قـال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًـا وأشـد لهـا طلبًـا

(*) أخرجـه البخـارى فى صـحيحه، كتـاب الـدعوات، بـاب فـضل ذكـر الله تعـالى (٦٠٤٥)، ومـسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل مجالس الذكر (٧٠١٥).

وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: مـن النـار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوهـا، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشـد منها فرارًا وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس مـنهم إنـما جـاء لحاجـة، قـال: هـم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم، وفى روايـة مـسلم «هـم القـوم لا يشقى بهم جليسهم».

*****

هذا الموقف فياض بالعظات والعبر، ونحن نلتقى ـ فى البداية ـ مع طاعة من الطاعات، فضلها الله سبحانه وتعالى، وجعل لها خصوصية تنفرد بها: هـى طاعـة ذكر الله تعالى.

والمتأمل لجميع الطاعات يجد أن الله جعل لكل طاعـة وقتًـا معلومًـا وحـدًّا محدودًا، فحين افترض الله الصلاة جعل لها أوقاتًا مؤقتة، محددة، وجعـل لهـا حـدًّا معلومًا: الصبح ركعتان، والظهر أربع ركعات... إلخ.

وحين افترض الله الحج جعل له أيامًا معلومة، وجعل له أفعالًا وأعمالًا معلومة، وحين افترض الصيام جعل له شهرًا محددًا وأعمالًا محددة، والزكاة جعل

لها نصابًا محددًا، وجعل قدرًا محددًا من هذا النصاب يخرج زكاة للفقراء والمساكين، والأصناف التى حدَّدها الله تعالى فى قرآنه مصارف للزكاة ذكرها فى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ (التوبة).

إذن، فكل طاعة من هذه الطاعات حددها الله بحد معلوم وجعل لـها وقتًا معلومًا إلا الذكر، فإن الله تعالى حين أمر به المؤمنين جعله مطلقًا بلا حد ولا وقت، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ (الأحزاب).

فجعل ذكره على قَدْر الإيمـان، على قَدْر الطاقة، لا يرتبط بوقت معـين ولا يرتبط بحد معين، اللهم إلا حد الاستطاعة.

ومن هنا تظهر فضيلة هذه الطاعة العظيمة ومنزلتها، وهى ذكـر الله تعـالى، فإن ذكره روضة من رياض الجنة.

والمعنى أن الذى يجلس فى هـذه المجـالس فـإن نـهايته تكـون إلى جنـة الله سبحانه وتعالى، وهذه المجالس أحبها النبى ﷺ، وعليها تتنزل الملائكة، وقـد بـشَّر الله تعالى أهل مجالس الذكر بالمغفرة إلى درجة أن مـن حـضر معهـم يريـد واحـدًا منهم، ما كان يريد مجالس الذكر ولا مجالس القرآن الكريم، وإنمـا جـاء لحاجـة، وجاء يقصد واحدًا منهم، فإن الله يغفر له، فالذاكرون كما أخبر المصطفى ﷺ: «هم

القوم لا يشقى بهم جليسهم»[1].

إلى هذا الحد يكون فضل هذه المجالس؛ لذلك أوصانا رسول الله بذكر الله، ثم أعطانا علامة يتطلع إليهـا كل مؤمن حين يريد أن يعلم منزلته عند الله تعـالى، وهى أنَّ الله تعالى يجعل العبد عنده كما جعل العبد ربه فى قلبه وفى عمله، فإن كـان مؤمنًا، وإن كان يُعظِم أوامر الله تعالى، إن كـان يـستجيب لـــهدى الله تعـالى فلـه المنازل العَالية عند الله تبارك وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل مجالس الذكر، (٧٠١٥).

٢٢٨. أيُضرب الصبى ؟! (*)

قيل لسفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ: أيُضرب الصبى؟! فقال: لا، ولكن يُبشَّر ويُعلَّم؛ فذلك أنفع له.

*****

هذا موقف تربوى معلم، يصلح أن ينتفع به أهل العلم وأهل التربية، هذا الموقف لتابعى عظيم ولإمام من أئمة الإسلام، هو سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ لما دخل عليه واحد من هؤلاء الذين يتعجلون جَنْى الثمار، والذين يتعجلون النتائج فى التربية، وهم إنما يخالفون طبيعة الأشياء والسنن التى خلقها الله عليها؛ لأن التدرج فى الأمور مطلوب، ويأتى الرفق بما لا يأتى به العنف.

دخل واحد من هؤلاء فقال لسفيان: أيُضرب الصبى؟ فأجاب العالم بحكمة عالية، وبطبيعة الحال كان فى ذهنه وفى عقله حديث رسول الله ﷺ بشأن الصلاة ومتابعة الأولاد فى إقامتها «اضربوهم عليها لعشر»[1].

ومتى يكون الضرب؟

الضرب له فقه، فلا يضرب الوجه، ولا يعنف، وإنما هو شىء من تحريك المشاعر كضربه بسواك أو نحو ذالك، لكن حتى هذا الضرب اليسير متى يكون؟

(*) السمير المهذب، ص ١١٢.

(١) رواه أحمد (٢/ ١٨٧)، وقال شعيب الأرنؤوط فى تعليقه: إسناده حسن.

لابد أن يبدأ الـمُعلِم بالرفق، وأن يبدأ بالترغيب ويُبشر الـصبى، بـأن يُعطـى مـن البُشريات فى مستقبل حياته إن نجح وإن التزم وإن استجاب للطاعة.

والإشارة هنا إلى الصبى تعطى المدلول للسن الصغير، بأنه لا يُضرب ولكن يكون الضرب عندما يكبر الصبى والغلام والضرب كالكىِّ، وآخر الدواء الكى ـ كما يقول العرب ـ، فالـضرب آخـر الحيـل لانبـدأ بـه أبـدًا، وإنـما نبـدأ بالتبـشير والترغيب والإقناع وبتقديم الهدية.

وهكذا كان يصنع النبى ﷺ، فمثلًا عبد الله بن عباس ابن عم رسـول الله ﷺ كـان غلامًـا، فركـب خلـف النبـى ﷺ فأحـب النبـى أن يعظـه وأن يعلمـه فقـام بالترغيب، فقال له: «يا غلام إنى أعلمك كلمات احفـظ الله يحفظـك، احفـظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعـوك بـشىء لم ينفعـوك إلا بـشىء قـد كتبـه الله لـك، ولـو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قـد كتبـه الله عليـك، رفعـت الأقلام وجفت الصحف»[(١)]، هذه الكلمات وصفها النبى بأن فيها نفعًا من الله لهذا الغلام.

وهنالك مواقف لسيدنا رسول الله ﷺ تؤكد هذا المعنـى، فـسيدنا أنـس بـن مالك خدم النبى ﷺ وسنه عشر سنين، ويصف معاملة رسول الله ﷺ لـه، فيقـول: خدمت رسول الله ﷺ تسع سنين فما أعلمه قال لى قـط لم فعلـت كـذا وكـذا؟ ولا

---

(١) رواه الإمـام الترمـذى (٢٥١٦)، صـححه الألبـانى فى صـحيح وضـعيف سـنن الترمـذى، (٦/ ١٦)، (٢٥١٦).

عاب عليَّ شيئًا قط[1].

وهذا يبين لنا سعة صدر الـمُعلِّم سيدنا رسول الله ﷺ، وكيف نتأسَّى بـه فى التعليم وفى التربية، وكيف نجعل لأبنائنا من التلاميـذ مـادة طيبـة، ليقتنعـوا بنـا، ليكون منهم الحب لنا، لأن التلميذ إذا أحب أستاذه تأسى بـه، وإذا كـره التلميـذ أستاذه فإنه يكره مادته فى البداية، ولا يريد أن يتأسَّى به، بل يحب أن يخالفه، كنـوع من رد الفعل على معاملة الأستاذ.

لذلك فإن هذه الأمور التى تخـتص بالمـشاعر والرفـق والبـشرى والموعظـة والإقناع ينبغى أن تُقدَّم فى التعليم، والضرب آخر الحِيَـل، وآخـر الـدواء الكَـيُّ، وحتى الضرب إنما يكون بسواك، وليس بهـذه الـصورة التـى يعتادهـا النـاس أو يظنها بعضهم؛ لذا نجد رسول الله ﷺ يغضب أشد الغضب عنـدما لقـى الرجـل الذى يغلظ لأولاده ويعاملهم بقسوة وشدة عندما قال له: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «من لا يَرْحَم لا يُرْحَم»[2].

الرفق والرحـمة وتقديم الموعظة إنما هى السبيل التربـوى الـذى اجتمعـت عليه قواعد الإيمان والإسلام ومعايير التربية الحديثة إذا أردنا أن نـنهض بأولادنـا وأن نتقدم بهم.

---

(١) أخرجه صحيح مسلم، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا (٩/ ٢٨)، (٩٠٣٢).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب رحمة الولد، (٥/ ٢٢٣٥)، (٥٦٥١).

٢٢٩. أم سفر السماء؟[*]

خل أحد المتعلمين على أستاذه الشيخ عليٍّ الدقاق ـ رحمه الله تعالى ـ وسأله قائلًا: يا شيخنا، هل سافرت ذات مرة؟ فقال له: سفر الأرض أم سفر السماء؟ سفر الأرض لا، أما سفر السماء فنعم.

*****

• هذا موقف عظيم فى التربية الإيمانية، يحمل إلينا من الزاد الإيمانى ما يصلح القلب والنفس، فنحن نرى أن هذا التلميذ توجَّه إلى أستاذه؛ ليسأله، ومعلوم أن التلميذ جاء إلى الشيخ؛ ليتعلم من علمه، علم الفقه أو علم الحديث أو علم اللغة أو أيًّا من هذه العلوم، فينبغى ألا يشغل نفسه بغير مقصده، ألا يشتت نفسه، ألا يضيع وقته فيما لا يعنيه، فدخل على أستاذه يسأله قائلا: هل سافرت أيها الشيخ؟

وما شأن التلميذ بخصوصيات أستاذه؟ فأراد الأستاذ أن يحول السؤال إلى تربية وإلى علم وإلى وعى، فصرف التلميذ إلى مقصده، وجعل من سؤال التلميذ موعظة نافعة، فقال له: سفر الأرض أم سفر السماء؟

• وفى هذا تنبيه للتلميذ أن يتحول إلى ما جاء من أجله، إلى العلم، علم

(*) الرسالة القشيرية، ص ٢١٤.

الفقه، علم الحديث، علم العقيدة، وما إلى ذلك من هذه العلوم، وألا يشغل نفسه بهذه الأمور وهذه الخصوصيات، وأراد الأستاذ أن ينفع تلميذه بهذا الاستفهام الذى يحرك به عقل التلميذ إلى الإجابة وإلى الموعظة التى يريد أن يتفضل عليه بها، إنه يريد أن يخلع قلبه من التعلق بالدنيا، وأن يصرف قلبه إلى التعلق بالآخرة، فصنع ذلك بشكل مقنع خاطب عقله وخاطب فكره؛ لأن بداية التصحيح تتأتى من تصحيح الأفكار.

وأى عمل فى الدنيا معنويًّا كان أو ماديًّا، كان فى الأصل فكرة. وأى مبنى عظيم تراه بعينيك كان فى الأصل فكرة فى ذهن مبدع أو مهندس أو إنسان يريد أن ينجز هذا المبنى، وأى معنى علمى هو فى الأصل فكرة اختمرت ونضجت ثم صارت عملًا، فمعالجة الأفكار شىء مهم فى التربية، فى حياة أهل العلم.

- فبدأ الأستاذ بشكل مقنع يلفت انتباه التلميذ إلى شىء أراده بهذا الاستفهام وبهذا السؤال الذكى: سفر الأرض أم سفر السماء؟

ثم تولى الأستاذ الإجابة وقال: سفر الأرض لا، أى أنا لم أسافر وأنتقل إلى بلادٍ أخرى على ظهر الأرض، ثم أخبره بأن للأستاذ سفرًا آخر أعلى وأغلى، ومطلوب من كل مؤمن أن يسافر هذا السفر، يظهر هذا من قول الأستاذ: سفر الأرض لا، أما سفر السماء فنعم، وقد سافر الشيخ إلى السماء بمعنى القرب من الله تعالى؛ بمعنى تصفية النفس، بمعنى تصفية الروح، بمعنى تهذيب الخلق، كل هذا لون من السفر إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد وجه الشيخ تلميذه إلى أن يسلك هذا المسلك، وما أحوجنا جميعًا إلى

هذا السفر كى نتحول عن كـل العـادات المذمومـة، وكـل الأخـلاق الـسيئة، إلى الأخلاق الحميدة؟ لا يضرنا إن حُرِمنا سفر الأرض، ولكننا لا نستغنى عن سـفر السماء، عن السفر إلى الفضيلة، عن السفر إلى الخُلُق، عن الـسفر إلى العلـم، هـذا السفر تشتد إليه حاجة كل مؤمن وبخاصة أهل العلم.

ولعل هذا يذكرنا بحديث رسول الله ﷺ ووصيته لأبى ذر رضي الله عنه عندما قال له: «أَحْكِمِ السفينة؛ فإن البحر عميق، واستكثر من الزاد؛ فإن السفر طويل، وخفـف ظهرك؛ فإن العقبة كؤود، وأخلصِ العمل؛ فإن الناقد بصير»[1].

ولعل لفظ السماء هنا فيـه مجـاز بمعنـى الـسفر إلى الله تعـالى، والاسـتعداد للقائه، والأمور الغيبية مـن جنـة ونـار، ومـا إلى ذلـك، فالـسماء إشـارة إلى كـل الفضائل وكناية عن كل المحامد، وكل الأخلاقيات، وكل العلوم النافعة، وكل ما يقربنا إلى الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٣).

٢٣٠. لست سائلا .. أنت تاجر ! (*)

سمع عمر بن الخطاب ﷺ سائلًا يقول: مـن يُعَـشِّى الـسائل يرحمه الله، فقال عمر: من يُعَشّى هذا الـسائل؟ ثـم ذهـب إلى دار الإبل، فسمع صوت السائل بعد فترة يقول: مـن يعـشى الـسائل يرحمه الله؟ فقال عمر ﷺ: ألـم آمر أن تعشوا السائل؟

قالوا: قد عشيناه. فأرسل عمر إليه، فإذا معـه جـراب مملـوء خبزًا، فقال له: إنك لست سائلًا، أنت تاجر! وأخذ عمـر بطـرف الجراب ثم نَثَرَه لإبل الصدقة.

*****

• رضى الله عن سيدنا عمر بن الخطاب، إنه يعلمنـا درسًـا غاليًـا فى هـذا الموقف: أن نحذر من هؤلاء الذين يتصنعون الفقر ويدَّعون المسكنة، ويحترفـون التسول، ويحتالون على أموال الناس. ولربما كَوَّن بعض هؤلاء ثروات طائلة.

وهنا يفرق سيدنا عمر ﷺ بين التسول والسؤال؛ فالسؤال يكون عن حاجة واضطرار: لمأكل أو مشرب أو مأوى أو قضاء دين أو صلح بين الناس، أو غير ذلك من الأصناف الثمانية التى جاءت فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ

(*) الثقات، ابن حبان، دار الفكر، ط١، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م، تحقيق: السيد شرف الدين جـ ٥، صـ ٤٣٧.

وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ (التوبة).

والسائل إنما يسأل ما يسد حاجته، وينقطع عن السؤال بعدها، أما المتسول فإنه محترف يظهر الفقر والمرض والحاجة، ولا يكتفى بما يسد حاجته، بل يتخذ من التسول حرفة للكسب.

وما من شك فى أن الإسلام يرفض هذه الأعمال الضارة بالمجتمع التى لا تعود على المجتمع بفائدة سوى إهدار أموال الناس وابتزازها.

لقد عَلَّم الإسلام الأمة أن تحقيق الثروة إنما يكون بالعمل النافع الذى يضيف قيمة ويفيد المجتمع وينفع الناس، أما الإنسان الاستهلاكى فهو عبء على مجتمعه.

ونجد أن سيدنا عمر رضي الله عنه يعلم الفقراء ألا يكونوا عيالا على المسلمين، قال عمر رضي الله عنه: يا معشر الفقراء، ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالا على المسلمين.

- ورأينا فى الموقف أن سيدنا عمر رضي الله عنه بدأ بقضاء حاجة السائل حين طلب من الصحابة أن يقدموا له طعام العشاء، لكنه رضي الله عنه لما وجد السائل محترفًا التسوُّلَ، أخذ منه ما جمعه من الناس ونثره لإبل الصدقة.

والحمد لله رب العالمين

٢٣١. حُسْنُ العهد (*)

أقبلت عجوز على النبى ﷺ، فهشَّ وبشَّ لـها، وأكرمها، واحتفى بها فى السؤال، فلما سُئِل ﷺ عن سبب الحفاوة البالغة بها، قال: «كانت تأتينا زمن خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان».

*****

صلاةً وسلامًا على صاحب الخُلُق العظيم سيدنا محمد ﷺ، الذى بعثه الله؛ ليتمم مكام الأخلاق، قال ﷺ: «إنما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وكان النبى ﷺ خير أسوة فى مكارم الأخلاق، ولقد مدحه ربه، وأثنى عليه فى قرآنه ثناءً عظيمًا، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (القلم).

- ونحن أمام موقف كريم، تتجلى فيه قيمة إيمانية عالية، قيمة الوفاء، الوفاء لأهل الفضل الذين رحلوا عنا، الوفاء لمن جمعتنا بهم علاقات ودودة، أو رفقة خير وعمل صالح، ثُمَّ رحلوا عن دنيا الناس.

يُعلمنا النبى ﷺ صاحب الخُلُق العظيم ﷺ أن نكرم ذِكْرَهُمْ، وأن نُحسن

(*) أخرجه الحاكم فى المستدرك، كتاب الإيمان (٤٠)، والبيهقى فى الآداب، باب فى كرم العهد، حسن العهد من الإيمان (١٨٢)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢١٦).

(١) رواه البيهقى (١٠/ ١٩١)، ذكره الألبانى فى الصحيحة، حديث رقم (٤٥).

رعاية عهدهم، فإن غابت أجسادهم عنا فأثر إحسانهم فينا يظل باقيًا يشهد لـهم، وهكذا تكون أخلاق الإيمـان، وقيم الإسلام، ترعى العهود وتحفظ عطر الذكرى في القلب؛ لتتواصل منظومة الوفاء بين الأجيال دون نكران أو جحود.

وتجتمع كل هذه المعاني الإيمـانية في موقف رسول الله ﷺ من هذه العجـوز التي أقبلت عليه ﷺ، فهشَّ وبشَّ لـها؛ أي استقبلها ببشاشة الوجه وبسمة اللقـاء وحُسن الترحاب وجـميل الحفاوة والإكرام.

- ولفت هذا المشهد النبوي الكريم أنظار الصحابة الكرام، فتساءلوا: مَنْ هذه العجوز التي نالت هذا البر وهذا التكريم؟!

ولم يكن أمامهم سبيل للإجابة إلا أن يسألوا حبيبهم رسول الله ﷺ، فأجابهم ﷺ: «كانت تأتينا زمان خديجة رضي الله عنها» زوجه ﷺ، ثم قـال معلـمًا وهاديًـا: «وإنَّ حُسْنِ العَهْدِ من الإيمَـانِ».

ولذلك من سنته ﷺ أن جعل من بر الوالدين بعد موتهمـا إكرام كل علاقـة لا تقوم إلا بهمـا؛ عن أبي أسيد ﷺ قال: بينما نحن جلوس عنـد رسـول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يـا رسـول الله: هـل بقـي مـن بـر أَبَـوَيَّ شـيء أَبَـرُّهـُمـا به بعد موتهمـا، فقال ﷺ: «نعم، الصلاة عليهمـا (أي الـدعاء لهمـا)، والاستغفار لهمـا، وإنفاذ عهدهمـا، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهمـا، وإكرام صديقهمـا»[1].

- وهكذا تَخَلَّق الصحابة الكرام ﷺ بخُلُـق رسـول الله ﷺ فكـانوا أوفيـاء

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥١٤٤)، قال الألباني: ضعيف.

كرماء، فعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا من الأعراب لَقِيَهُ بطريق مكة، فسلَّم عليه عبد الله بن عمر، وحملهُ على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، قال ابن دينار: فقلنا له: أَصْلَحَكَ الله، إنهم الأعرابُ وإنهم يرضون باليسير، فقال عبد الله بن عمر: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب ﷺ وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أَبَرَّ البِرِّ صلةُ الولد أهل ودِّ أبيه»[1].

والحمد لله رب العالمين

(١) رواه مسلم فى البر والصلة (٦٦٧٧)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٠٥).

٢٣٢. لا أَصْحَبُ أحدًا إلا خدمته (*)

خرج سيدنا أنس بن مالك ﷺ مع جرير بن عبد الله البَجَلِىّ ﷺ فى سفر، فقام جرير بخدمة سيدنا أنس رضى الله عنهما، فقال أنسٌ لجرير: لا تفعل. فقال جرير: إنى قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا، آليت على نفسى ألا أصحب أحدًا منهم إلا خدمتُه.

*****

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ نجوم الهداية، الذين أحبهم الله فأحبوه، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (المائدة).

كما أَثْنَى عليهم بقوله سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفتح).

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فى حسن صحبة الأنصار (٦٥٨٤).

وبشرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة).

وأوصانا رسول الله ﷺ بأصحابه؛ من ذلك قوله ﷺ: «الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[1].

وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

وفى الموقف الذى بين أيدينا يتجلى لنا هذا التقدير والإكرام من صحابى لصحابى آخر، لقد قام سيدنا جرير بخدمة سيدنا أنس بن مالك فى رحلة السفر التى جمعت بينهما، لقد ورث هذا الخلق بسبب موقف كريم أكرمت فيه الأنصار رسول الله ﷺ، فأقسم سيدنا جرير على نفسه أن لا يصحب أحدًا من الأنصار إلا قام بخدمته جزاء ما أكرموا رسول الله ﷺ.

لقد أحبهم لحب رسول الله ﷺ، فأولى بنا أن نحب الصحابة جميعهم لحبنا لرسول الله ﷺ، وأن نذكرهم بأدب، وأن نترضى عنهم، فإن قدرهم عند الله عظيم، ومنزلتهم عند الله عالية.

---

(١) سنن الترمذى (٣٨٦٢)، قال الشيخ الألبانى: ضعيف.

(٢) سنن الترمذى (٣٨٦١)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

٢٣٣. رجعت وأنا عمر (*)

كان عمر بن عبد العزيز يكتب ذات ليلة شيئًا وعنده ضيف، فكاد السراج ينطفئ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال عمر: لا، ليس من الكرم استخدام الضيف.

فقال الضيف: فأنبِّه الغلام؟ فقال عمر: لا، هى أول نومة نامها. ثم قام بنفسه وأصلح المصباح. فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟! فقال له عمر: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر.

*****

أنعِم بالإيمان مُصلحًا وهاديًا، إنه يصنع بالقلوب المعجزات.

أى نفوس هذه؟! أى قلوب هذه؟! أى أخلاق هذه؟!

إنها نفوس كريمة، زَكَّاها الإيمان بالله.

إنها قلوب منيبة، ملأها نور الإيمان بالله.

إنها أخلاقُ مَنْ تأسَّوْا بصاحب الخُلُق العظيم والسيرة العطرة، محمد ﷺ.

وهذا موقف إيمانى من سيدنا عمر بن عبد العزيز يُعلمنا فيه قيمًا إيمانية:

(*) الرسالة القشيرية، ص ١٤٧، سنن أبى داود محقق وبتعليق الألبانى (٢/ ٣٣٧).

• يعلمنا التواضع، فلا تعالى ولا تكبر، ولا تَصَنُّع ولا تكلّف، وإنما فى سهولة ويسر وتواضع يقوم عمر بن عبد العزيز إلى السراج فيصلحه، ويعلن معلمًا لمن حوله أن التواضع لم يُنْقِص من قَدْره؛ حيث قال: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر.

• ولا يستعمل ضيفه، لأن الضيف له الإكرام، ومن هدى رسول الله ﷺ قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1].

فجعل النبى ﷺ إكرام الضيف من علامات كمال الإيمان بالله تعالى وتمامه.

• ويُعلمنا الرحمة والرفق بمن يعملون تحت أيدينا، وبخاصة الضعفاء من الخدم، ومن كان فى حكمهم، فهم إخواننا، أمرنا النبى ﷺ بأن نحسن إليهم، وألا نكلفهم فوق طاقاتهم.

قال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»[2].

وهكذا مجتمع المؤمنين يعيش فى علاقة يسودها الود والرحمة، لا يضيع فيه ضعيف، ولا يظلم فيه ولا يقهر، وإنما الرحمة والشفقة؛ أملا فيما عند الله تعالى من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب من كان يؤمن بالله، (٥٦٧٢).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب قول النبى ﷺ «العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون»، (٢٤٠٧).

ثواب، وفى الحديث النبوى، عن أبى الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغونى فى ضعفائكم، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»[1].

وحسبنا ما أمرنا الله به فى قرآنه الكريم، قال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ (الحجر).

وحسبنا قول النبى ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وقوله ﷺ: «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[3].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه مسند أحمد بن حنبل، باقى حديث أبى الدرداء رضى الله عنه، (٢١٧٧٩)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، (٢/ ١٠٠)، (٧٠١٠)

(٣) سنن أبى داود ـ محقق وبتعليق الألبانى (٢/ ٣٣٧).

٢٣٤. الخنساء (*)

كان للخنساء أخ يدعى صخرًا، مات فى الجاهلية فبكته كثيرًا، وحزنت عليه حزنًا شديدًا، ومن شعرها فى رثائه:

يُذَكِّرنى طلوعُ الشمسِ صَخْرًا وأذكره بكل مَغِيبِ شَمْسِ
ولولا كثرةُ الباكينَ حَوْلى قَتْلاهُمُ لقتلْتُ نفسى

ثم أنعم الله عليها بالإسلام وحَسُنَ إسلامُها، ولما جاء اليوم الذى شارك فيه أبناؤها الأربعة فى إحدى معارك الإسلام، واستشهدوا، وأتى إليها من يخبرها الخبر قالت: الحمدلله الذى شرفنى باستشهادهم، وأسأل الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته يوم القيامة.

*****

لقد كانت الخنساء شاعرة مخضرمة، عاشت فى الجاهلية ثم أسلمت، وهذا الموقف ـ الذى بين أيدينا ـ يظهر لنا كيف غير الإسلام الخنساء فكرًا وعاطفة، ويوضح لنا من العبر والدروس الإيمانية التى تكون لنا زادًا يغنينا فى دنيانا، وذخرًا

(*) ديوان الخنساء ـ المقدمة.

ينفعنا فى أخرانا.

• وأول ما يظهر لنا فى هذا الموقف حقيقة نفسية لابد أن ندركها، وهى أن الارتباط والتعلق بالابن أشد من الارتباط والتعلق بالأخ، فأبناؤنا أكبادنا تمشى على الأرض، إذن فالصدمة فى الأبناء أعظم من الصدمة فى الإخوة أو الأخوات، وإذ أدركنا ذلك تبين لنا أن حالة الانفعال والتأثر لفقد الأبناء تكون أشد من غيرها، وإذا ما ضبط الإنسان نفسه ووقفها عند الحق، كان ذلك دليلًا على الإيمان والتسليم والرضا بما يقدر الله ويقضى به.

لقد كان الموقف فى الجاهلية عويلًا وبكاء وتهديدًا بالانتحار، اسمع إليها:

ولولا كثرةُ الباكينَ حَوْلى ... قَتْلاهُمُ لقتلْتُ نفسى

ولكن فكر الخنساء فى الإسلام قد تَغَيَّر، وتغيرت معه عاطفتها التى استقر فيها الإيمان حقًّا، لقد ذاقت طعم الإيمان وأحست بحلاوته، فضبطت مشاعرها بما يجب على كل مسلم فى حالات الحزن والابتلاء، وهو التحلى بالصبر والإيمان والثبات.

وقد ورد فى الحديث الشريف: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[(١)].

لقد أدركت ثمار الشهادة وحقيقة الإيمان، فتمنت أن تجتمع بأبنائها فى الجنة.

• إن هذا الموقف يدل على فهم الخنساء العميق للجهاد، وأنَّ المجاهد فى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، (١/ ١٦، ٦/ ٢٥٤٦).

سبيل الله إنما يظفر بإحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة، وأن الشهيد مستقره الجنة؛ ولذا نراها تدعو ربها سبحانه وتعالى أن تلتقى بأبنائها فى الجنة، وهى بهذا تُعلِّم المرأة المسلمة درسًا فى التضحية من أجل الدعوة فى سبيل الأوطان، وأن العواطف يجب أن تضبط بالعقل والحكمة، وإلا فإن كثيرين وكثيرات سيرون الجهاد عقابًا أو عذابًا، وينسون أن حرية الأوطان لابد لها من جنود حق يحمونها ضد الأعداء ويحرسونها من هجماتهم، فما بالنا إذا كانت المعركة بين الكفر والإسلام؟!!

- ويفيد الموقف أيضًا فهم الخنساء لضرورة الصبر حتى تفوز بالبشارة التى أعدها الله للصابرين والصابرات فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ (البقرة)، وقوله - أيضًا -: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ (الزمر).

والصبر والرضا بالقضاء دليل على فهم المسلم لحقيقة الإيمان، وأن الدنيا يومان، يوم لك ويوم عليك، وأن قدر الله لابد أن ينفُذ: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٤١﴾ (الرعد).

لذا فقد رأينا الخنساء قد أدركت، بالرغم من شدة الموقف، الخير من وراء استشهاد أبنائها الذين جاهدوا؛ لإعلاء راية الإسلام، ووعت قول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة/ ٢١٦).

والحمد لله رب العالمين

٢٣٥. ارحم بكائى (*)

قال الأصمعى: خرجت حاجًّا إلى بيت الله الحرام، فبينما أطوف بالليل، إذا أنا بصوت حزين من شاب يتعلق بأستار الكعبة، يقول: إلهى! أغلقت الملوك أبوابها، وقامت عليها حُجّابها، وبابك مفتوح للسائلين، وها أنا سائل ببابك، مذنبٌ، فقيرٌ، مسكينٌ... جئت أنتظر رحمتك، ثم قال:

يا مَنْ يُجيب دُعَا المضطرِّ فى الظُّلَمِ
يا كاشف الضُّرِّ والبَلْوَى مع السَّقَمِ
قَدْ نام وفدُكَ حَوْلَ البيتِ وانتبهوا
وأنتَ يا حَىُّ يا قَيّومُ لَمْ تَنَمِ
أدعوك رَبِّى حزينًا راجيًا فَرَجًا
فارحم بكائى بحقِّ البيتِ والحَرَمِ

(*) المستطرف فى كل فن مستظرف، الأبشيهى، دار الكتب العلمية؛ بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، تحقيق: د. مفيد قميحة، ح١، صـ٢٨٦.

إن كــان جــودك لا يرجــوه ذو ســفه

فمَـــن يَجُـــودُ عـــلى العاصـــينَ بـــالكَرَمِ

أنت الغفورُ فَهَبْ لـى منكَ مَغفِــرةً

واعطـفْ عَلَـيَّ أيـا ذا الجُـــودِ والكَـــرَمِ

إن كان عَفْــوُكَ لا يَــرْجُوهُ ذو خَطَــأٍ

فَمَــنْ يجـودُ عَلـــى العاصِـــينَ بالنِّــعَـــمِ

ثم رفع رأسه، فـدنوت منـه، فـإذا هـو: زيـن العابـدين بـن الحسين ﵁، ثم قال: إلهى هب لى منك توبة أنال بها رضاك.

*****

رضى الله سبحانه وتعالى عن آل بيت سيدنا رسول الله ﷺ؛ فهم أهل قربى النبى ﷺ التى أوصانا الله بها بمودتها ورعايتها، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (الشورى/ ٢٣)، كما أثنى الله عليهم فى القرآن، قال سبحانه: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ (هود)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ (الأحزاب).

وجعل الله ذكرهم ـ فى الصلاة ـ عند الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ بعد التشهد الأخير فى الصلاة.

وفى السنة المطهرة عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنى أوشك أن أدعى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى»[1].

كيف لا، وجدُّهم رسول الله ﷺ ؟!

إن صلاح الآباء ينفع الأبناء؛ لقوله تعالى فى شأن الغلامين اللذين أقام الخضر عليه السلام لهما الجدار دون أجر لحفظ الكنز لهما حتى يبلغا أشدهما، وكان ذلك السبب الذى أظهره الله فى قوله تعالى على لسان الخضر: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ (الكهف).

فإن كان هذا مع عامة الصالحين فى كل أمة، فما بالك بمن كان نسبه ينتهى إلى رسول الله ﷺ.

وقد ورث آل البيت رضي الله عنهم عن جدهم ﷺ حال العبادة وحسن الخلق، فكانت عبادتهم، وكانت أخلاقهم كجدهم ﷺ، فهم أَوْلَى الناس بهذا الإرث الإيمانى المحمدى.

ويشهد لهذه الحقيقة الموقف الذى بين أيدينا لزين العابدين بن الحسين رضى

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٧١٣)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح.

الله عنهما حيث يتعلق بأستار الكعبة وصوته يملؤه الحزن وتختلط به الدموع، يناجى ربه ومولاه، خاشعًا لربه، باكيا له سبحانه وتعالى، لا عن ذنب أو جناية، وإنما إجلالا وتعظيمًا لله رب العالمين، وجاءت كلماته ثناء على الله تعالى بما هو أَهْلُه مع التواضع لربه، قال ﷺ فى دعائه:

يا مَنْ يُجيب دُعَا المضطرِّ فى الظُّلَمِ — يا كاشف الضُّرِّ والبَلْوَى مع السَّقَمِ
قَدْ نام وفدُكَ حَوْلَ البيتِ وانتبهوا — وأنتَ يا حَىُّ يا قَيّومُ لَمْ تَنَمِ
أدعوك رَبِّى حزينًا راجيًا فَرَجًا — فارحم بكائى بحقِّ البيتِ والحَرَمِ
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه — فمَن يَجُودُ على العاصينَ بالكَرَمِ
أنت الغفورُ فَهَبْ لى منكَ مَغفِرةً — واعطفْ عَلَىَّ أيا ذا الجُودِ والكَرَمِ
إن كان عَفْوُكَ لا يَرْجُوهُ ذو خَطَأٍ — فَمَنْ يجودُ عَلى العاصِينَ بالنِّعَمِ

وكانت المفاجأة للأصمعى الذى لفت انتباهه حال هذا الشاب من الأخلاق والخشوع وأدب المناجاة لمولاه، إن هذا الشاب من آل بيت المصطفى ﷺ، إنه زين العابدين بن الحسين ﷺ أجمعين.

وفى هذا أسوة لمحبى آل بيت رسول الله ﷺ أن يتأسوا بهم فى الخشوع والتواضع والإخلاص لله رب العالمين.

وفى هذا الموقف درس يعلمنا التضرع والبكاء لله تعالى، فدموع البكاء من خشية الله دموع غالية عند الله تعالى، فلا يعذب صاحبها، قال ﷺ: «عينان لا

تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله»[1].

وإن كان هذا حال الصفوة البررة الأتقياء، فما بالنا بالمذنبين والمقصرين؟ ألسنا أولى بالبكاء؟!!

والحمد لله رب العالمين

(١) رواه الترمذى (١٦٣٩)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

٢٣٦. فـى التـواضـع (*)

كان الإمام الرفاعى يؤم مجلسَه جمعٌ عظيمٌ من الناس وأصلح الله بأنفاسه خلقًا كثيرًا، فجاء واحد من مرديه، وقال له: يـا إمـام، بم نلت ما أنت فيه من المنزلة؟!

فقال: نظرت إلى السُّبُل المؤدية إلى الله تعـالى فوجـدتها كلَّهـا مزدحمة، إلا بابًا واحدًا وجدتـه خاليًـا، فـسلكت منـه، هـو بـاب الانكسار والتواضع.

*****

أنعم وأكرم بأخلاق الصالحين، الذين تأسوا بحبيبهم المصطفى ﷺ صاحب الخلق العظيم ومُتمم مكارم الأخلاق!

والموقف الذى بين أيدينا يعلمنا خلقًا إيمانيًّا كريمًا، إنه خلق التواضع، وباب التواضع باب قَلَّ رواده فى سياق الحضارة المادية التى كثـيرًا مـا تـدفع إلى التعـالى والتعاظم.

والتواضع باب من أبواب القرب لله، والوصول إليه سبحانه، بـل والرفعـة عند الله تعالى، كيف لا والله تعالى أمرنـا بـه! قـال سـبحانه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ

(*) انتفاع الساعى بسيرة الإمام الرفاعى، ص ٧٩.

﴿ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال تعالى فى جزاء المتواضعين: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (القصص/ ٨٣).

ومن هدى النبى ﷺ قوله: «إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»[١].

والمسلم يتواضع فى غير مذلة ولا مهانة، إنه يتواضع ليرتفع، ولا يتكبر لئلا ينخفض، إن سنة الله جارية فى رفع المتواضعين له، ووضع المتكبرين وخفضهم، قال النبى ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٢].

وقال ﷺ: «حق على الله أن لا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه»[٣].

ولله درّ القائل:

تواضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاحَ لِناظرٍ   على صَفَحاتِ الماءِ وهو رَفِيعُ
ولا تَكُ كالدُّخَّانِ يعلو بنفسِهِ   على طبقاتِ الجوِّ وهُوَ وضِيعُ

وفى الموقف الذى بين أيدينا رأينا الإمام الرفاعى عليه سحائب الرحمة والرضوان يدل تلميذه على باب سهل ميسور من أبواب الوصول التى ازدحمت

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٣٨٩)، وأبو داود (٤٨٩٧).

(٢) شرح السنة للبغوى (١٣٣٦)، سنن الترمذى (٢٠٢٩)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب ناقة النبى ﷺ، (٣/ ١٠٥٣)، (٢٧١٧).

بطلابها كباب الصدقة والعلم والجهاد ونحو ذلك؛ لما فى هذه الأبواب من مكانة محمودة بين الناس، فى حين أن باب التواضع ثقيل على النفس لا يستطيعه إلا أصحاب النفوس العالية، وكثيرًا ما يغفل الناس عنه؛ ولذلك قَلَّ طلابه وروّاده.

وما أكثر غفلتنا عن كثير من أبواب الخير فى زحمة حياة المادة!

اللهم فقهنا فى الدين، وبَصِّرْنا بما يقربنا إليك.

وتأمل أخى المؤمن: كيف تواضع عباد الرحمن لربهم؟ وما رأوا طاعتهم بالنهار وقيامهم بالليل مانعًا لهم من جهنم، فكان دعاؤهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ (الفرقان).

والسيدة عائشة رضى الله عنها حين قرأت قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون). سألت رسول الله ﷺ عن معناها: هل هو الرجل يسرق ويزنى ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يحاسبه على المعاصى؟

فقال ﷺ: «بل هو الرجل يصوم ويصلى ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك، يا عائشة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (المؤمنون)[1].

اللهم ارزقنا التواضع يا رب العالمين

(١) أخرجه البخارى (الفتح ٨/ ٤٤٥).

٢٣٧. أحمل عليك أم عنك ؟! (*)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد أحوال الرعية ليلًا ومعه بعض عماله، فوقف أمام بيته صبية يبكون، وأمهم تشتكى إلى ربها قائلة: يا رب، عمر يلى أمرنا ويغفل عنا!! فأسرع عمر ومعه عامله إلى بيت المال، وقال لعامله: احمل علىّ جوال الدقيق.

فقال: يا أمير المؤمنين، أحمل عليك أم عنك؟! قال: احمل علىّ. فلما تكرر نفس السؤال من العامل قال له عمر: احمل علىّ، هل تحمل عنى أوزارى يوم القيامة؟!

*****

رضى الله عن سيدنا عمر بن الخطاب الذى استجاب الله فيه دعوة رسول الله ﷺ: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر»(١)، فجاء إسلامه عزًّا وقوة للمسلمين، إن شخصية سيدنا عمر شخصية فذة دفعها القرآن إلى القمة فكان تاجًا للعدالة وحب الحق، وإنصاف الناس من نفسه، ونصرة الضعيف والمظلوم، وهكذا يصنع

(*) خلفاء الرسول، ص ١١٨.

(١) أخرجه الترمذى (٣٦٨١)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

القرآن بالنفوس، لقد أصبح ابن الخطاب قرآنيًّا فى فكره وقوله وفعله، لقد ارتقى ابن الخطاب فى القرآنية حتى بلغ منزلة عالية، فقد نزلت بعض آيات القرآن الكريم موافقة لرأيه؛ من ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قوله: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت الآية: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة/ ١٢٥).

• والموقف الذى بين أيدينا درس عُمرى فى أمانة المسئولية. إن ابن الخطاب لا يكتفى بما يسمع عن أحوال الرعية بمثل هذه التقارير التى لا تخلو من تلفيق وكذب؛ رغبة ممن يرفعها إلى الحاكم أن يخفى خللًا أو عيبًا: «كل شىء تمام، وفى أحسن حال». والواقع يخالف هذا التمام، ويئن بالمشكلات الخطيرة.

ومن هنا كان لابد من هذه المتابعات والجولات المفاجئة من المسئول والحاكم؛ لكشف ما تخفيه التقارير التى تجعل الصورة وردية، وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان.

وهذا هَدْىٌ سَنَّه سيدنا عمر لكل مسئول يخاف ربه، ويعلم أنه مسئول عن أمانة ما استرعى، وهذا أثر للتربية المحمدية للصحابة ﷺ، فمن هدى النبى ﷺ عن مسئولية الأمانة، وأمانة الإمارة قوله لأبى ذر الغفارى ﷺ: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها»(١).

وبمثل هذا الإحساس بالمسئولية، والتقدير لأمانة السلطة، يكون صلاح

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، (٤٨٢٣).

البلاد والعباد، وبمثل هذه الشخصيات العمرية تقوى الإدارة الإسـلامية وتقـوى المناصب.

• ثم نحن أمام درس آخر، تجلى فى هذا الدرس العمرى، حين وجـد ابـن الخطاب أهل بيت يشكون حالهم إلى الله ولا تملك الأم فى هذه الدار المنكوبة أمـام بكاء الصبية الصغار إلا أن ترفع شكواها من عمر إلى الله تعالى قائلة: يا رب، عمر يلى أمرنا ويغفل عنا!!

لم يمتعض عمر ولم يتأفف، ولا أصابه شيء من العظمة والتعالى مما يـصيب أصحاب السلطان فى مثل هذا الموقف؛ حيث ينتـصرون لأهـوائهم تنكـيلا بمـن أعلن رأيه فيهم صراحة، أو ممن ينالهم بنقد.

لكن نور الإيمان يجعل المسئول يدين نفسه قبل أن يدين الناس، وقـد هـزت كلمات أم الصبية الجياع قلب عمر، فأسرع إلى بيت المال، وأعد لهم جوالًا ملأه من خيرات الله من بيت مال المسلمين، ورأى أن يكفِّر عن تقصيره فى حق هذه الأسرة بأن يحمل لهم الزاد والطعـام بنفـسه، وكـان الحمـل ثقـيلًا، لا يـستطيع أن يرفعـه وحده، فقال لمعاونه، ارفـع عـلىّ، وأخـذت الدهـشة الرجـل، مـاذا يـصنع أمـير المؤمنين؟! وكيف أرفع عليه؟! أنا أولى بأن أحمـل عنـه هـذا الحمـل، فقـال لابـن الخطاب: أحمل عليك أم عنك؟! فقال عمر: احمل علىّ.

وتكررت المراجعة بين الرجل وسيدنا عمر، فقال عمـر ﷺ حاسـمًا الأمـر: احمل علىّ، هل تحمل عنى أوزارى يوم القيامة؟!

إنه الإيمان الذى يصنع بالنفوس المعجزات، وحمل عمر الطعام إلى الـصبية،

وجلس معهم، فاستعجله الرجل الذى يرافقه، وقال له كما تقول بطانة الحاكم والمسئول فى مثل هذه المواقف: «يكفى هذا القدر، لقد أحسنت إليهم، هيا نرحل عنهم».

لكن قوة إيمان عمر ترد مثل هذا الكلام الذى لا يرقى إلى مستوى الإيمان العمرى، فقال عمر فى حسم وقوة: والله، لا أذهب حتى يأكلوا، ولقد جئناهم وهم يبكون ولن أتركهم إلا وهم يضحكون. ولا غرابة فيمن بشرهم النبى ﷺ بالجنة، وهم ما زالوا بين الناس فى دنياهم.

لا غرابة فى مواقفهم الإيمانية بعد أن أثنى القرآن عليهم، ويبقى لنا منهم الأسوة والقدوة، والدروس الهادية، والعبر النافعة، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ (ق).

٢٣٨. إنِّى أُحبك (*)

دخل أبو إدريس الخولانىُّ ـ رحمه الله ـ مسجد دمشق، فإذا فتى شاب بَرَّاقُ الثَّنَايا، وإذا النَّاسُ معه إذا اختلفوا فى شىء أسندوا إليه وصدروا عن قوله، فسألتُ عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

فلما كان الغَدِ، هجرت فوجدته قد سبقنى بالتهجير، ووجدته يصلى، قال: فانتظرته، حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه فسَلَّمت عليه، ثم قلت: والله إنِّى لأُحِبُّك لله.

فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله.فأخذ بحبوة ردائى فجذبنى إليه، وقال: أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: «وجبت محبتى للمتحابين فىّ، والمتجالسين فىّ، والمتزاورين فىّ، والمتباذلين فىّ»».

*****

(*) أخرجه مالك فى الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء فى المتحابين فى الله (٣٥٠٧)، وأحمد فى المسند، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه (٢٢٠٨٣)، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣٠١٨).

أنعم بهذا الدين العظيم الذى يعلمنا أن الأشياء تعلو وترتفع وتعظم حين ترتبط بالخالق سبحانه وتعالى! ويعلمنا أن الإسلام لم يصادر العواطف والمشاعر، وإنما هَذَّبها ووجَّهها؛ لتكون عملًا صالحًا، نُثاب عليه من الله تعالى.

هذا موقف إيمانى عظيم لمعرفة الحب فى الله، كيف يكون وما ثمرته؟! وما قدره فى ميزان الله تعالى؟!

لقد دخل أبو إدريس الخولانىُّ ـ رحمه الله تعالى ـ مسجد دمشق، فلفت انتباهه هذا الفتى الذى كسا النور مجلسه، وَجْهُهُ مشرقٌ، وثناياه بَرَّاقة، يحظى بحب الناس، يلتفون حوله فى المسجد، قوله مسموع، ولمجلسه هيبة ووقار، فسأل أبو إدريس عن هذا الفتى، فقيل له: إنه معاذ بن جبل ﷺ، الصحابى الجليل. وفى الغَدِ، بَكَّرَ أبو إدريس إلى المسجد؛ ليكون من الأوائل السابقين للمسجد، لكنه وجد هذا الفتى المشرق الصحابى الجليل معاذ بن جبل ﷺ قائمًا يصلى، لقد سبقه إلى المسجد.

لقد ملأ هذا الفتى المشرق قلب أبى إدريس حبًّا وتقديرًا، فلما قضى الفتى صلاته، أسرع إليه أبو إدريس فسلَّم عليه، وقال له: والله إنى لأحبك.

وفى هذا القَسَم وهذا التأكيد أبلغ الدلالة على هذا الحب العظيم الذى ملأ قلب أبى إدريس لسيدنا معاذ بن جبل ﷺ، أحبه لطاعته وعلمه وصلاحه، لقد كان الصحابة يحبون فى الله ولله ـ كما علمهم حبيبهم المصطفى ﷺ.

عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال: «ثلاث من كُنَّ فيهِ وجد بِهِنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن

يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف به فى النار»[1].

نعم لقد أحب أبو إدريس سيدنا معاذًا حبًّا إيمانيًّا صادقًا، فأسرع إليه يخبره تأسيًا بقول النبى ﷺ: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»[2].

وفى مقابل هذا الحب لله زَفَّ سيدنا معاذ إليه البشرى التى بَشَّر الله بها أهل الحب فيه. فقال له: أبشر! فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتى للمتحابين فىّ، والمتجالسين فىّ، والمتزاورين فىّ، والمتباذلين فىّ».

لك الحمد يا رب، لقد جعلت محبة الإخوان سبيلا لنيل محبتك وعظيم عنايتك، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظِلَّ إلا ظلى»[3].

نعم إن الحب فى الله عمل صالح، ننال به الثواب العظيم من الله تعالى، وأعد الله لأهله فى يوم القيامة المنازل العالية والدرجات الرفيعة.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، باب الإيمان (١٧٤).

(٢) سنن أبى داود، (٤/ ٤٩٥)، (٥١٢٦)، قال الألبانى: صحيح.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه، باب فى فضل الحب فى الله، (٦٧١٣).

٢٣٩. هادٍ يهدينى (*)

لَمَّا هاجر رسول الله ﷺ، كان ﷺ يركب وأبو بكر رضي الله عنه رديفه، وكان أبو بكر يعرف الطريق؛ لاعتياده السفر إلى الشام، فكان يمر بالقوم، فيقولون له: من هذا الذى معك يا أبا بكر؟ فيقول رضي الله عنه: هادٍ يهدينى إلى الطريق.

*****

هذا موقف فى العقل والكياسة وحسن التصرف، إنه موقف فى فقه الأزمات وحسن التخلص منها دونما كذب أو تضليل.

وتأمل معى هذه الرمزية الشفافة التى تطل من العبارة، إنَّ لها ظاهرًا وباطنًا:

فالظاهر: خِطَاب يتوجّه به أبو بكر رضي الله عنه إلى القوم يومئ من خلاله إلى أن النبى ﷺ دليله الذى يهديه إلى الطريق، ويدله عليه؛ حتى يبلغه هدفه.

والباطن: إقرار وشهادة إيمان من سيدنا أبى بكر رضي الله عنه، بأن هذا الهادى هو الذى أرسله الله لهدايته وهداية العالمين.

ولم يكذب أبو بكر ـ وحاشاه فهو الصديق ـ فى قوله، فرسول الله ﷺ مُرسل من عند الله تعالى لهداية أبى بكر وهداية الناس أجمعين.

(*) أخرجه أحمد فى مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، رقم (١٢٢٥٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

كما أنه لم يصرِّح بحقيقة أمر النبى ﷺ؛ لأنه يعلم ما فى هذا من الخطر المحدق، وهو لا يريد أن يمسه أحد بسوء، وهما فى الطريق إلى بلد جديد سيبدأ منه النبى ﷺ تأسيس قواعد الدين.

وهذا الذى قاله أبو بكر ؓ هو من باب المعاريض؛ أى: أن تقول كلامًا يحتمل أكثر من تأويل، كأن يسألك سائل عن اسمك ولا تريد التصريح به فتقول: عبد الله. وهذا أمر مندوب إليه؛ فقد روى أنه ﷺ قال: «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب»[1].

أى: فيها من السعة ما يغنى الإنسان عن الكذب.

ولقد أجاب أبو بكر فأوجز وكفى، وضمَّن إجابته البسيطة رسالة ظلت تخترق الآفاق والعصور حتى وصلت إلينا؛ كى تعلمنا هذا الدرس: إن المؤمن كيِّس فَطِن، يواجه المواقف بما يناسبها، ويعد العُدَّة للأمور بحزم؛ كى لا يفلت منه الزمام، فالكلمة قد تكون سببًا للنجاة، كما قد تكون سببًا للهلاك، والفارق بين الكلمتين يكمن فى كياسة القائل وفطنته، أو جهله وغفلته.

---

(١) سنن البيهقى (١٠/ ١٩٩)، ضعيف الجامع للألبانى، (١٩٠٤).

٢٤٠. اللهمَّ علِّمنا (*)

قال السَّرِىُّ السَّقْطِى: أصابنى مرض شديد، فدخل علىَّ بعض إخوانى يعودوننى، فجلسوا فأطالوا؛ فآذانى جلوسهم، ثم قالوا: إن رأيت أن تدعو الله. فمددت يدى فقلت: اللهم علِّمنا أدب العيادة!

*****

هذا موقف فى أدب الكلام وحُسن الرد، إنه موقف فى اللباقة والدبلوماسية.

إن السَّرِىَّ لم يشأ أن يوبِّخ زُوَّاره، أو يعيب عليهم على الرغم من أنهم آذوه بطول الجلوس عنده وهو فى حال شديدة من المرض، وحق على زُوَّار المرضى أن يخففوا الزيارة فلا يثقلوا على المريض الذى هو بحاجة إلى الراحة.

لكن الإمام انتظر اللحظة المناسبة؛ ليعلِّمهم أدب الزيارة، ويفهمهم فى الوقت ذاته أنهم اثقلوا عليه بطول مكثهم عنده، فانتظر حتى سألوه أن يدعو الله تعالى، فأجابهم بقوله: اللهمَّ علِّمنا أدب العيادة.

إنها إيماءة لطيفة ليس فيها ما يجرح شعور أحد، ولكنها ـ أيضًا ـ رسالة واضحة تذكِّرهم بواجب من واجبات من يعود مريضًا، وهو ألا يثقل عليه بطول

(*) أخبار الظراف والمتماجنين، ابن الجوزى، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٧م، ط١ تحقيق/ بسام عبد الوهاب الجانى، ج١، صـ٩٤، رقم ١٦٩.

المكوث عنده.

ولابد أن القوم تلقوا هذه الإشارة بالقبول والتسليم ودون إحساس بالإهانة أو أنهم غير مرغوب فيهم، بل هم قوم قد أدَّوا واجبًا بعيادتهم المريض، ولكنهم نَسُوا واجبًا آخر، وهو ألا يثقلوا عليه بطول البقاء عنده، فذكَّرهم السقطى بهذا الواجب الذى نَسَوْه منتهزًا فرصة سؤالهم الدعاء، فامتثل لرغبتهم ودعا الله تعالى بدعاء يذكِّرهم من خلاله بأدب من آداب الزيارة، وهو تخفيفها وعدم الإطالة حتى لا يضجر مضيفه ولا يضيع عليه وقته.

وقد رُوى فى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ (الأحزاب/ ٥٣)، أن هذه الآية نزلت فى قوم زاروا النبى ﷺ فجعلوا يأكلون ويخرجون وبقيت طائفة فى البيت فجعل النبى ﷺ يستحيى منهم وأطالوا الحديث فخرج رسول الله ﷺ وتركهم فى البيت[1]، فنزلت هذه الآية فى بيان أدب من آداب الزيارة، وهو ألا يؤذى الزائر مزوره بالإطالة عليه، هذا فى حال الصحة، فما بالك بحال المرض؟

إن مراعاة أحوال الناس أدب ينبغى على المسلم أن يتحلى به، كما أن الرد الجميل وتوجيه النصح ينبغى أن يكون بلباقة وحسن اختيار للكلمة المناسبة.

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٤١٨)، تفسير سورة الأحزاب، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، تعليق الذهبى فى التلخيص: صحيح.

٢٤١. لِيَهْنكَ العِلمُ أبا المُنْذِرِ(*)

عن أُبَىّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟». قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ (البقرة/ ٢٥٥). فضرب فى صدرى وقال: «لِيَهْنكَ العِلْمُ أبا المُنْذِرِ».

*****

هذا موقف نبوى كريم به دلالات إيمانية هادية، وقيم تربوية نافعة؛ من ذلك:

أن الحبيب المصطفى ﷺ يلفت انتباه أبى المنذر ﷺ إلى خصوصية آية من آيات القرآن الكريم، فيقول ﷺ: «يا أبا المنذر: أتدرى أىُّ آية من كتاب الله معك أعظمُ؟» فأجاب أبو المنذر: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، فضربرسول الله ﷺ فى صدر أبى المنذر ملاطفة له واستحسانًا لإجابته ورضا عن وعيه وفهمه، وقال ﷺ مباركًا لأبى المنذر علمه: «ليهنك العلم أبا المنذر»، والآية بتمامها: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسى (١٩٢١).

ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (البقرة).

وهنا سؤال يطرح نفسه. ما معنى أفضلية هذه الآية على سواها؟

المعنى: هو أن الثواب على قراءتها أفضل من الثواب على قراءة سواها، وإلا فآيات القرآن كلها واحدة فى الحسن والكمال لا نقص فى واحدة منها.

ولا عجب أن آية الكرسى بهذا القدر السنى، فقد تضمنت صفات الله العلية صاحب القهر والسلطان فى الدنيا والآخرة، الأكبر من أن يقاس به فى القدر والعظمة أحد، فلا عبودية إلا لله رب العالمين وحده لا شريك له.

بدأت الآية الكريمة باسم الله الأعظم على رأى أغلب العارفين بالله، ﴿ ٱللَّهُ ﴾ اسم عَلَمٌ على ذات الحق سبحانه الجامع لكل الصفات، وهو أخص الأسماء؛ إذ لا يطلق على غير الله؛ لأنه هو الواحد الأحد الذى لا إله فى الوجود سواه.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾،أى لا معبود بحق سواه، فهو وحده المستحق أن يُطاع فلا يعصى؛ هيبة له وإجلالا ومحبة وخوفًا ورجاء وتوكُّلا عليه واستعانة به، وسؤلا من فضله ودعاء إليه فلا شريك له

سبحانه! خلق ورق التوت، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد، ومع ذلك يخلق منها أنواعًا مختلفة: يأكلها دود القز فيخلق منها الحرير، ويأكلها النحل فيخلق منها الشهد، وتأكلها الشاة فيخلق منها البعر، فإن كان البعر يدل على

البعير والأقدام تدل على المسير، أفلا تدل سماء ذات أبراج وسبل ذات فجاج على الله سبحانه؟!

ويطيب لى فى هذا المقام أن أذكر أثرًا يدل على اليقظة دائمًا؛ ذلك فيما حكى أن بعض الشيوخ كان يخص بعض تلاميذه بإقباله عليه، فقالوا له فى ذلك، وسألوه، ولكنه أجاب بالفعل لا بالقول، فدفع إلى كل واحد من تلاميذه طيرًا، وقال له: اذبحه بحيث لا يراك أحد، فمضى كل واحد وخلا بنفسه، وذَبَح ما معه. وجاء التلميذ الذى يفضله الشيخ ويقبل عليه ومعه الطير غير مذبوح، فسأله الشيخ عن عدم ذبحه، فقال التلميذ لشيخه: إنك أمرتنى أن أذبحه فى مكان لا يرانى فيه أحد، ولم يكن موضع إلا والله سبحانه وتعالى يرانى فيه، فقال الشيخ لتلاميذه: لهذا أفضله عليكم، غلبت عليكم رؤية الخلق، وغلب عليه رؤية الخالق.

وكذلك فى قصة الرجل الذى راود امرأة عن نفسها أن يفعل فيها، وأمرها أن تغلق الأبواب جميعها، وقال لها: هل بقى باب لم تغلقيه؟ فقالت: نعم، الباب الذى بيننا وبين الله، فأنزل الله الخوف فى قلب الرجل وتركها، وخلَّى سبيلها.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الواحد الخالق البارئ المصور المتصرف فى ملكه كيف يشاء، وهو الأحق أن يذكر فلا ينسى؛ لأن معناه حاضر لا يغيب.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الذى لا أول لحياته ولا انتهاء، فلا يلحقه العدم ولا الفناء، القيوم الدائم القيام بتدبير شئون خلقه.

وروى عن أبى علىّ الكنانى أنه رأى رسول الله ﷺ فى منامه، وقال: يا رسول

الله، ادع الله ألَّا يميت قلبى. فقال ﷺ: إذا أردت أن يحيى الله قلبك فلا يموت أبـدًا فقل كل يوم أربعين مرة بين سنة الفجر والفرض: يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت.

ولأنه سبحانه قيوم، فهو سبحانه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لذلك لَمَّا قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: هل ينام ربك؟ أوحى الله إليه أن قـل لهـؤلاء: «إنـى أملـك السماوات والأرض بقدرتى فلو أخذنى نوم أو نعاس لزالتا».

ربنـا الموصـوف بـالكمال والجـلال ﴿لَّهُۥ﴾ لا لغـيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فجميع من تحت سماء الله وفـوق أرضـه ومـا فـيهن تحـت سـطوة الله وسلطانه، فلا يغترّ الإنسان يومًا بدنياه أو بشبابه أو بماله أو بجاهه أو أى زينة مـن الدنيا، ليعمل ليوم الوعيد؛ لأنه لا شافع إلا بأمر الله سبحانه وتعالى.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؛ أى أن العلم بالغيب عند الله وحده؛ فهو الذى يعلم ما قبل من فى السماوات والأرض وما بعدهم، ولا يطلع أحد على شىء من علم الله إلا ما أطلعه الله عليه، كما أطلع الرسل والمرسلين.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ﴾ إلهنـا سـبحانك كـما جعلـت الكعبـة بيتًـا يطوف به المسلمون لنيل المقاصد كما تطوف الناس ببيوت الحكام والملوك، جعـل الله سبحانه له ـ وله المثل الأعلى ـ كرسيًّا وعرشًـا كـالملوك والحكـام يـدلان عـلى عظيم قدرته ونفوذ سلطانه فى جميع خَلْقِه، وهو غنى عنهم.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ولا يثقله حفـظ الـسماوات والأرض

وهو العلى الرفيع المنزلة المستعلى فوق خلقه بقدرته وجبروته، فهو سبحانه الـذى علا فلا تُدْرَكُ ذاته ولا تُتَصَوَّر صفاته، تاهت الألباب فى جلاله، وعجزت العقول عن إدراك كماله، فهو ﷻ ليس لعظمته بداية ولا لجلاله نهاية، سبحانه عـلا جـده، وتَعَالَى مجدهُ.

فلنتَّقِ الله، ولنحفظ آية الكرسى، ونحافظ عليهـا، ولنعمـل بهـا، ولنقرأهـا صباحًا ومساءً، وعقب الصلوات الخمس وأينما شئنا؛ حتـى نكـون نحـن وأهـل بيتنا فى ذمة الله وحفظه، ويكون لنا من الله بفضلها حارسًا قويًّا أمينًا علينا، وعـلى أهلينا، ولتقوى إيماننا بالله.

ولعله من المناسب فى هذا السياق ذكر قصة الراهب مع الإمـام أبـى حنيفـة حين سألة عدة أسئلة وكان أول سؤال: ماذا قَبْلُ الله؟

فأجاب أبو حنيفة: يا هذا، هل تحسن العدد؟ فقال: نعم، قال له: مـاذا قبـل الواحد؟ قال لا شىء قبله، فقال الإمام أبو حنيفة: إذا كان الواحد الفانى لا شىء قبله، فالله الباقى لا شىء قبله.

ثم سأل الراهب: فى أى وجه تكون وجهة الله؟

فأجاب الإمام أبو حنيفة: يا هذا، إذا أوقدت سراجًا ففـى أى جهـة يكـون وجه النور؟ فقال الراهب: يملأ المكان.

فقال أبو حنيفة: إذا كان النور الزائل لا جهة له فالله الباقى منزه عـن الجهـة والمكان، وتلا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (النور/ ٣٥).

ثم سأل الراهب: ماذا يفعل ربك الآن؟

فأجاب الإمام أبو حنيفة: يرفـع أقوامًـا ويـضع آخـرين، أمـور يبـديها ولا يبتديها، وكل يوم هو فى شأن، سبحانه هو العلى المتعـال المـستحق للعبـادة وحـده والتقديس.

٢٤٢. ثلث القرآن (*)

عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

*****

تبارك الله رب العالمين، تبارك الله مَنْ هذا كلامه، وتبارك الله واسع الفضل والجود، فمن كرمه وجوده وفضله أن جعل لهذه الأمة المحمدية من الأعمال اليسيرة ما يعطى عليه الثواب الجزيل؛ كى تتحقق لهذه الأمة الخيرية بين الأمم الذين طالت أعمارهم وكثرت أعمالهم.

وهذه حقيقة إيمانية تظهر واضحة فى القرآن، فقد أكرم الله هذه الأمة بليلة فى شهر رمضان من كل عام هى خير من ألف شهر، وأكرم الله هذه الأمة بيوم عرفة ويوم الجمعة.. وغيرهما من الأيام.

وعلى نفس المنوال نجد إكرام الله تعالى لهذه الأمة بأن جعل الثواب العظيم الجزيل على أعمال يسيرة؛ مثل قراءة سور من القرآن الكريم؛ من ذلك ما ورد فى شأن سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ (٦٢٦٧).

يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

وفى هذا الموقف الذى بين أيدينا يلفت النبى ﷺ نظر أصحابه إلى قَدْرِ هذه السورة وعظم منزلتها عند الله تعالى؛ فقال ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن فى ليلة واحدة؟ فشقَّ ذلك على الصحابة، وقالوا ﷺ: أيُّنا يُطيق ذلك يا رسول الله؟!

فكشف النبى ﷺ عن عظيم كرم الله سبحانه، وأن فضل الله أوسع من أعمالنا وأعلى؛ فقال ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن.

وهذا رجل آخر سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها كثيرًا، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالُّها، أى: يَعُدُّها قليلة، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن»[1].

وهذا رجل آخر يأتى إلى رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله، إنى أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال ﷺ: «إن حُبَّها أدخلك الجنة»[2]؛ وذلك لما فى هذه السورة من صفات كريمة وتنزيه لله تعالى.

فـ (أحد) معناها: لا شريك له ولا ند له. و (الصمد): أى الذى يُصْمَد إليه (يُتَوَجَّهُ إليه) فى قضاء الحوائج. و (لم يلد ولم يولد): أى لا يجرى عليه سبحانه ما يجرى على البشر من الحاجة إلى الولد. و (ولم يكن له كفوًا أحد): أى ليس له شبيه ولا نظير.

---

(١) رواه البخارى، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، (٤٧٢٦).

(٢) رواه الترمذى (٢٩٠١)، سورة الإخلاص، قال الألبانى: حديث حسن.

٢٤٣. من تواضعه ﷺ (*)

عن أنس بن مالـك، قـال: حـج النبـى ﷺ عـلى رحـل رثٍّ، وقطيفة تساوى أربعة دراهم أو لا تساوى ثم قال: «اللهـم حجـة لا رياء فيها ولا سمعة».

*****

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، تُعلم أُمَّتك التواضع، وترشدنا إلى التخلى عن التعالى والترفع والمباهاة أو التفاخر. كيـف لا، وأنـت خـير أسـوة وأفضل قدوة؟!

كان النبى ﷺ سيد المتواضعين إجلالًا لعظمة الله تعالى، ومن تواضعه ﷺ أن إماء المدينة كانت الواحدة منهن تأخذ بيد النبى ﷺ؛ ليقضى لها حاجتها، وكـان ﷺ لا يأنف أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى لهما الحاجة.

ومن تواضعه ﷺ أنـه كـان يـشهد الجنـائز، ويعـود المـرضى ويجيـب دعـوة الفقراء، وكان يقوم بخدمة نفسه ولا يترفَّعُ عـن القيـام بـالأعمال العاديـة فى بيتـه لمساعدة أهله.

كان ﷺ خير أسوة وأفضل قـدوة فى التواضـع مـع مـا أَوْلَاهُ الله مـن عظـيم

(*) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف، كتاب الحج، باب فى الحج على الرحل أفضل من المحمـل (١٥٨٠٥)، وابن ماجه فى سننه، كتاب المناسك، باب الحج على الرحل (٢٨٩٠)، وصححه الألبـانى فى صـحيح الجـامع (١٣٠٢).

النعم، وكفى بنعمة النبوة والرسالة نعمة وفضلًا!

ومن هديه ﷺ قوله: «إن الله أوحى إلىّ أنْ تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»[1]. وقوله ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[2].

وكان ﷺ لا يحب أن يتميز عن أصحابه. وفى مختصر السيرة للطبرى أنه ﷺ كان فى سفر، وأمرَ بذَبْحِ شاة، قال رجل: علىَّ سلخها. وقال آخر: علىَّ طبخها. فقال ﷺ: «علىَّ جَمْعُ الحطب»، فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل. قال: «قد علمت أنكم تكفوننى، ولكنى أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا على أصحابه»[3].

وهذه الأحاديث ظاهرة الدلالة على غاية تواضعه ﷺ ورغبته دائمًا فى المبالغة فى التواضع والخضوع، وفى التقليل من زخرف الدنيا ونعيمها، وإظهار أنها حقيرة، وأنَّ ما عند الله خير وأبقى؛ فإنه ﷺ ما كان يحب أن يمجده أصحابه، أو يطروه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فجعلوه إلهًا أو ابن إله فزاغوا وضَلُّوا.

وكان يعتنى بذوى الحاجات، ويستمع إليهم، ويعمل على قضاء حاجاتهم ولو كان صاحب الحاجة عبدًا أو امرأة.

وكان ﷺ أمينًا على أسرار ذوى الحاجات فلا يذيعها ولا ينشرها، وينأى عن مواطن سَمِع الآخرون لها.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٨٩).

(٢) أخرجه مسلم فى البر والصلة (٦٧٥٧).

(٣) كشف الخفاء (١/ ٢٩٢)، الرحيق المختوم (١/ ٤٧٨).

وكان يكتم حاله عـن أصـحابه ولا يـشكو، عـن عائـشة، رضى الله عنهـا، قالت: توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير[1].

اللهم أدبنا بأدبه ﷺ، وخلِّقنا بخلقه، وأَسْعِدْنَا به فى الدنيا والآخرة

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ حسب ترقيم فتح البارى ـ، كتاب بدء الوحى، (٢٩١٦).

٢٤٤. فإذا عيناه تذرفان (*)

عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى النبى ﷺ: «اقرأ على، قلت: يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء). قال: حسبك الآن، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان».

*****

كان النبى ﷺ فى رمضان وفى غار حراء حيث كان يتعبد، فنزل عليه الوحى بأول آية صافحت قلب رسول الله ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق).

ومنذ هذه اللحظة والنبى ﷺ يتلقى من أخيه جبريل عليه السلام أو يستمع للقرآن من المهرة بتلاوته من الصحابة رضي الله عنهم أو يروح ويغدو معلمًا وهاديًا بالقرآن.

فأما عن تلقيه ﷺ للقرآن الكريم، فكان فى لحظات متبتلة وقورة، وكان

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك (٤٧٦٣)، وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع (١٩٠٣) بنحوه.

الصحابة ﷺ يسمعون فيها دويًا كدوى النحل عند وجه الرسول ﷺ، وكانت تعتريه ﷺ حالة من الخشوع والاستغراق، وكان النبى ﷺ حريصًا على ترديد كل حرف وكل كلمة وراء سيدنا جبريل عليه السلام ولقد بث الله سبحانه وتعالى الطمأنينة فى قلب رسوله ﷺ بشأن ما يتنزل على قلبه من وحى، فلا يعجل به، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة).

كما أكد الله سبحانه وتعالى لنبيه أن ما يتنزل عليه من الآيات محفوظ فى صدره بقدرة الله، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ (الأعلى).

و «لا» هنا نافية، وليست ناهية، فالمعنى: سنقرئك قراءة من حسنها وبركتها أنك لا يمكن أن تنسى بعدها أبدًا.

وقد كان النبى ﷺ يحب أن يستمع للقرآن من عاشق القرآن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولقد طلب منه ﷺ يومًا أن يقرأ عليه. فقرأ ابن مسعود من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء).

فبكى النبى ﷺ وسال دمعه، وقال: «أمسك يا ابن مسعود» كانوا يقرأون لله، ويستمعون لله، كانوا يقرأون تخشعًا وتعبدًا، وليس مباهاة ولا شهرة، ولا طلبًا لدنيا ولا مال؛ ولذلك نفع الله بقراءتهم، وكانت تصل إلى القلوب وحسبنا أن نتدبر كيف فتح مصعب بن عمير المدينة، لقد فتحها بالقرآن الكريم.

وفى مرة أخرى يستمع النبى ﷺ إلى صاحب الصوت النـدِىِّ الملائكـى أبِـى موسى الأشعرى، وهو يرتل الآيات، ويثْبُتُ النبى ﷺ فى مكانه، ويستمع إلى هـذا الصوت العذب وهو يشدو بالآيات، فلما انتهى أبـو موسـى مـن القـراءة أخـبره بعض الصحابة بما كان من رسول الله ﷺ من استماعه لتلاوته واستحسانه لها، حتى إنه ﷺ قال عنه: «لقد أعطى أبو موسى مزامير داود»[1].

فقال أبو موسى: والله لو علمت أنه ﷺ يسمعنى لحبرته له تحبيرًا؛ أى: لزدت فى تحسين تلاوتـى وتجويـدها، وكـان النبـى ﷺ يتلقـى الآيـات، ويـستمع إليهـا ويعلمها، ويُرغِّب فى ذلك، فقال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[2].

ومن ذلك أنه كان يجمع الأمة على القرآن.. ومنه ما كان من شأن القـراءات القرآنية التى تراعى العادات النطقية فى لهجة كل قبيلة مثل الإمالة ونحوها.

وكان ﷺ يقول: «نزل القرآن على سبعة أحرف عـلى أى حـرف قـرأتم فقـد أصبتم، فلا تتماروا فيه فإن المراء فيه كفر»[3].

وأما عن تعليم أحكامه فكثير، ومن ذلك لما قرأت السيدة عائـشة رضى الله عنها قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون).

---

(١) أخرجه مسند أحمد، (٢/ ٣٥٤)، (٨٦٣١)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٢) أخرجه البخارى، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٦/ ٢٣٦).

(٣) أخرجه النسائى (الافتتاح ب/ ٢٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٢، ٥/ ١١٤)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

قالت: يا رسول الله هل هو الرجل يزنى ويسرق ويفعل المعاصى، ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله عليها؟

فصحَّح النبى وأرشد إلى الصواب، فقال ﷺ: «لا يا عائشة، إنما هو الرجل يصوم ويصلى ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك، يا عائشة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ (المؤمنون)»[1].

وهكذا كان النبى ﷺ مع القرآن، حتى صار ﷺ قرآنًا يمشى على الأرض، فكل حاله تطبيق عملى لآيات القرآن.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المؤمنون، (٣١٧٥).

٢٤٥. من رحمة النبى ﷺ (*)

عن عائشة رضى الله عنها قالت: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: تُقَبِّلون الصبيان؟ فما نقبلهم! فقال النبى ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!».

*****

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧)﴾ (الأنبياء)، فهو ﷺ رسول الرحمة الذى أرسله الله تعالى رحمة لجميع العالمين، رحمة للمؤمنين ورحمة للكافرين ورحمة للمنافقين، ورحمة لجميع بنى الإنسان الرجال والنساء والصبيان، ورحمة للطير والحيوان، فهو رحمة عامة لجميع خلق الله تعالى، وأما الشفقة والرأفة والرحمة بالمؤمنين؛ فقد قال تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ (التوبة).

قال بعضهم: من فضله ﷺ أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

- **وهذا أعرابى جاء إلى النبى ﷺ يطلب منه شيئًا فأعطاه، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم**

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥٢)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٦١٦٩).

النبى ﷺ أن كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله، وأرسل ﷺ إليه شيئًا، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال له النبى: إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى؛ حتى يذهب ما فى صدورهم عليك، قال: نعم.

فلما كان الغد أو العشى جاء؛ فقال ﷺ: إن هذا الإعرابى قال ما قال، فزدناه فزعم أنه رضى، أكذلك؟

قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال النبى ﷺ، مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خَلُّوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم، فتوجَّه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار(١).

وروى عنه أنه ﷺ قال: «لا يُبْلغَنِّى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئًا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»(٢).

- ومن شفقة سيدنا رسول الله ﷺ على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم كراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم؛ كقوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضى عياض، (١/ ٢٥٣).

(٢) رواه البيهقى (٨/ ١٦٦، ١٦٧)، شرح السنة للبغوى، (١٣/ ١٤٨).

بالسواك مع كل وضوء»[1].

وخبر صلاة الليل ونهيه عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لئلا تعنت أمته، ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبى فيتجوزَّ فى صلاته.

ومن شفقته ﷺ أن دعا ربه وعاهده، فقال: «أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة وطهورًا وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»[2].

- ولما كذبه قومه أتاه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداه مَلَكُ الجبال وسلّم عليه وقال: مرنى بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبى ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئًا»[3].

وروى ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ: إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك، فقال: أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم. فقالت عائشة رضى الله عنها: ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن

---

(١) أخرجه البخارى (٢/ ٥، ٣/ ٤٠).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضى عياض، (١/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، (٣٠٥٩)، ومسلم فى صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (٤٧٥٤).

تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها[1].

وقال ابن مسعود ﷺ: كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة؛ مخافة السآمة علينا.

وعن عائشة أنها ركبت بعيرًا فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده، فقال لها رسول الله ﷺ: «عليك بالرفق»[2].

- ومن رحمته ﷺ العامة رحمته بالمنافقين؛ وذلك بأن أمنهم من القتل والسبى؛ نظرًا لظاهر إسلامهم فى الدنيا.

- ومن رحمته ﷺ العامة بالكفار أنْ دفع عذاب الاستئصال عنهم فى الدنيا؛ وذلك أن الأمم السابقة كانت إذا أرسل الله تعالى فيهم رسولًا فكذَّبوا وكفروا به جاءهم العذاب فعمّهم؛ كما قص الله تعالى من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم كيف أحاط بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا يستهزئون.

وأما كفّار هذه الأمة المحمدية فقد رفع الله عنه العذاب العام الذى يستأصلهم كما استأصل وعمّ الكفار من الأمم السابقة؛ وذلك تكرمة لهذا الرسول الكريم ﷺ الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين.

- وأما عن رحمته ﷺ بالأهل والعيال فقد روى مسلم فى صحيحه عن عمرو بن سعيد عن أنس ﷺ قال: ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبى ﷺ، (٣٣٦٧) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته للآثام واختياره من المباح أسهله، (٦١٩٠).

(٢) أخرجه البخارى (٨/ ١٥، ١٠٦)، وأخرجه مسلم فى البر والصلة (٧٩)، واللفظ له.

الله ﷺ، قال: كان إبراهيم مسترضعًا له فى عوالى المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخن ـ أى يعلو منه الدخان ـ وكانت ظئره قينا، فيأخذه ـ أى: فيأخذ النبى ﷺ ابنه إبراهيم المسترضع ـ فيقبله، ثم يرجع.

قال عمرو: فلما توفى إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم ابنى وإنه مات فى الثدى ـ أى فى سن رضاع الثدى، وإن له لظئرين ـ أى مرضعتين ـ تكملان رضاعه فى الجنة»[1].

أى تتمان له رضاع سنتين، فإنه توفى وله ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا.

• ومن رحمته بأهله ﷺ أنه كان يعاونهم فى الأمور المنزلية؛ فقد جاء أن الأسود قال: سُئلت عائشة رضى الله عنها: ما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته؟ فقالت: كان فى مهنة أهله (تعنى خدمة أهله)، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة [2].

فما كان ﷺ من جبابرة الرجال، بل كثيرًا ما كان يخدم نفسه بنفسه ﷺ فعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى ﷺ يخيط ثوبه، ويَخْصِفُ نعله، ويعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم[3].

---

(١) أخرجه مسلم، باب رحمته الصبيان والعيال (٦١٦٨)، وأخرجه أحمد فى مسنده (٦٣)، وأحمد (٣/ ١١٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخارى، باب من كان فى حاجة أهله (٦٦٤)،وأخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٢٧٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على الشيخين.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده، حديث السيدة عائشة رضى الله عنها (٦/ ١٢١، ٢٦٠)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

• وأما عن رحمته بالصبيان واليتيم والأرملة والمريض وغيرهم فقد روى الشيخان وغيرهما عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال: «إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من شدة وَجْدِ أمه من بكائه»(١).

ومن رحمته ﷺ بالصبيان: أنه كان يمسح رؤوسهم ويقبلهم؛ كما جاء فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت: قَبَّل رسول الله ﷺ الحسن والحسين ابْنَىْ على وعنده الأقرع بن حابس التميمى.

فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبَّلت أحدًا قط! فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «مَن لا يَرْحَمُ لا يُرْحَم»(٢).

عن البراء ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ والحسنُ على عاتقه يقول ﷺ: «اللهم إنى أحبه فأحبه»(٣).

ومن رحمته بالصبيان وحبه لإدخال السرور عليهم: أنه ﷺ كان إذا أتى بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون فى المجلس من الصبيان؛ كما روى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان إذا أتى بباكورة الثمرة ـ أى أولها ـ وضعها على عينيه ثم على شفتيه، وقال: «اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخره»، ثم

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١/ ٢٥٠)، (٦٧٧).

(٢) أخرجه البخارى، باب رحمته الولد وتقبيله (٥٦٥١)، أخرجه مسلم، باب رحمته الصبيان والعيال واللفظ للبخارى.، ومسلم الفضائل (٦٥).

(٣) أخرجه البخارى، باب مناقب الحسن والحسين (٣٥٣٩)، أخرجه مسلم، باب فضائل الحسن والحسين (٦٤١١).

يعطيه مَنْ يكون عنده من الصبيان [1].

• ومن رحمته ﷺ بكاؤه لفراق ولده إبراهيم ﵁، فعن أنس ﵁ أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم ﵁ وهو يجود بنفسه ـ أى فى حالة الاحتضار ـ فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله! فقال ﷺ: «يا ابن عوف إنها الرحمة»، ثم أتبعها بأخرى فقال: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2].

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو فى الموت، ففاضت عينا رسول الله ﷺ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟! قال: هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء [3].

• ومن رحمته أنه كان ﷺ لا يأنف أن يمشى مع الأرامل والمساكين فيقضى حاجاتهم. وكان يأتى ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم، وكان يحسن إلى اليتامى ويبرّهم ويوصى بكفالتهم والإحسان إليهم ويبين الفضائل المترتبة على ذلك بقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ـ وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما»[4] ـ وإن خير بيت فى المسلمين البيت الذى

---

(١) رواه ابن السنى عن أبى هريرة (٢/ ٣١)، وقال الألبانى: صحيح، (٤٦٤٤).

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، (١٢٤١).

(٣) أخرجه البخارى (٢/ ١٠٠، ٧/ ١٥٢، ٨/ ١٦٧)، وأخرجه مسلم، باب البكاء على الميت (٢١٧٤).

(٤) أخرجه البخارى، باب اللعان (٤٩٩٨)، وأخرجه أبو داود، باب فى من ضم يتيما (٥١٥٢).

فيه يتيم يُحْسَنُ إليه [١].

• ومن رحمته ﷺ أنه كان إذا رأى أحد أصحابه فى حالة شدة وبأس يحزن لأجل ذلك حزنًا شديدًا، ويرق قلبه، ويبكى متأثرًا من ذلك الموقف، فقد قَبَّل عثمان بن مظعون وهو ميت، وهو ﷺ يبكى حتى قالت عائشة: فرأيت دموع النبى ﷺ تسيل على خد عثمان. وفى رواية أنه قبل بين عينيه، ثم بكى طويلًا [٢].

• وأما عن رحمته بالحيوان فقد كان ﷺ يوصى بالرحمة بالحيوان، وينهَى صاحبَه أن يجيعه أو يدئبه ويتعبه بإدامة الحمل عليه أو إثقاله بما فيه نوع من التعذيب له.

وقد مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه ـ أى ضمر من شدة الجوع ـ فقال ﷺ: «اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة اركبوها صالحة وكلوها صالحة» [٣].

ودخل يومًا بستانًا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبى ﷺ حن ـ أى: الجمل ـ وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه ـ موضع الأذنين من مؤخر الرأس ـ فسَكَن الجمل، فقال ﷺ: «من رب ـ أى صاحب ـ هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار، فقال له ﷺ: «أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٦٧٩)، ضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٦٣٧).

(٢) شرح السنة للبغوى (٥/ ٣٠٢)، سير أعلام النبلاء ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٥٠)، وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه، باب استحباب الإحسان إلى الدواب (٢٥٤٥)، قال الألبانى: إسناده صحيح.

ملكك الله إياها؟! فإنه شكا إلىَّ أنَّك تجيعه وتدئبه»[1].

أى تتعبه من كثرة العمل عليه،واستعماله فوق طاقته.

وكان ﷺ ينهى عن إرهاق الحيوان بإيقافه وإطالة الجلوس عليه من غير ضرورة إلى ذلك، وقد دخل على قوم وهم وقوف على دَوَابٍّ لهم ورواحل، فقال: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق»[2].

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نقيقها تسبيح»[3].

وقال ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[4]. ونهى عن التحريش بين البهائم[5]، وذلك بتسليط بعضها على بعض بالأذى وتهييجها بالإفساد.

وكان رسول الله ﷺ يحذر من أن يفجع الإنسان الطيور بأولادها، ولما أخذ بعضهم فرخى حمرة ـ وهى طائر صغير ـ وجاءت منزعجة، قال: «من فجع هذه بولدها؟» ردوا ولدها إليها»[6]، ورأى قرية نمل ـ أى مجتمع نمل ـ قد حرقها

---

(١) سنن أبو داود (٢٥٥١)، صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٥)، (٢٢٦٩).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٦٦٧)، قال شعيب الأرنؤوط: حسن.

(٣) مجمع الزوائد (٤/ ٤١)، رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط رجاله صحيح، الدر المنثور (٤/ ١٨٤).

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه، (٤/ ١٥٧)، ومسلم فى البر والصلة (ب٣٧ رقم ١٣٥).

(٥) سنن أبو داود، باب فى التحريش بين البهائم (٢٥٦٤)، والترمذى، باب كراهية التحريش بين البهائم (١٧٠٨، ١٧٠٩)، ضعفه الألبانى.

(٦) أخرجه أبو داود فى سننه باب فى كراهية حرق العدو (٢٦٧٧)، كنز العمال (٤٣٧٣٦).

بعضهم فقال: «من حرق هذه؟ قالوا: نحن، قال: إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار»[1].

وكما أنه ﷺ أوصى بالرفق فى ذبح الحيوان والإحسان إليه فى ذلك، وقال لمن أضجع شاة وهو يحد شفرته: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها»[2].

كما أنه ﷺ حذّر من اتخاذ الحيوان وكل ذى روح غرضًا «لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا»[3]؛ أى: هدفًا للرمى.

---

(١) أخرجه أبو داود فى رقم (٥).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم واللفظ له وقال صحيح على شرط البخارى، صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٥).

(٣) أخرجه مسلم، باب النهى عن صبر البهائم (٥١٧١)، وأخرجه النسائى فى سننه الكبرى، باب النهى عن المجثمة (٤٥٣٢).

٢٤٦. من جود النبى ﷺ (*)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفاقة».

*****

صلى الله وسلم وبارك على من فاضت يده بالجود والكرم، وصلى الله وسلم على من آتاه الله الحكمة فى مداواة النفوس، فلكل نفس مدخل من حيث تحب وترغب، فبعض الناس يأتى طائعًا بالعطاء؛ كما رأينا من صفوان فى هذا الموقف، وبعض الناس يأتى طائعًا بإظهار قدره ومكانته؛ لحبه للفخر؛ كما فى أبى سفيان، فقال النبى ﷺ ساعة فتح مكة: «ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[1]، وعطاء النبى ﷺ كان ثقة فى ربه بأن يخلف ما هو خير.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ (سبأ/ ٣٩)، كما كان ينفق ﷺ أفضل ما عنده، لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ (آل عمران).

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط فقال: لا (٢٣١٢).

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد (ب/ ٣١، ٨٤، ٨٦)، وأبو داود (الخراج ب ٢٥).

وكان إنفاقه ﷺ من أجل الدعوة إلى الله تعالى وليس من أجل تحقيق شهرة بين الناس أو رغبة فى ثنائهم، بل كان عطاؤه لله تعالى.

والمواقف الدالة على جوده وكرمه ﷺ كثيرة ومشهورة، لقد بلغ به ﷺ الكرم أنه كان يستحى أن يرد سائله خالى اليدين معتذرًا بالفاقة. جاءه رجل فسأله فقال النبى ﷺ: «ما عندى شىء، ولكن ابتَعْ عَلَىَّ، فإذا جاءنى شىء قضيته.

فقال عمر: يا رسول الله، قد أعطيته فما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبى ﷺ قول عمر.

فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا، فتبسم رسول الله ﷺ، وعرف من وجهه البشر لقول الأنصارى، ثم قال: «بهذا أُمِرْتُ»[1].

عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال: لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى وإنه لأبغض الناس إلىّ، فما برِح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ.

روى الترمذى أن النبى ﷺ حُمل إليه تسعون ألف درهم، ووضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلًا حتى فرغ منها.

وعن أبى سعيد ﷺ قال: إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال: «ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يُعِفُّه الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يتصبر

(١) الشمائل للترمذى، باب ما جاء فى خُلُقِ رسول الله ﷺ (١/ ٢٩٤)، الشفا للقاضى عياض (١/ ٢٣٣).

يصبره الله، وما أُعْطِيَ أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[1].

وعن أبى ربيعة قال: كانت خصلتان لا يكلهما رسول الله ﷺ إلى أحد: الوضوء من الليل حين يقوم، والسائل يقوم حتى يعطيه[2].

عن عبد الله الهوزنى قال: لقيت بلالا فقلت: يا بلال حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ ؟ قال: ما كان له شىء، وكنت أنا الذى أَلِى ذلك منه - أى أنا المتولى أمر ماله ﷺ - منذ بعثه الله تعالى حتى توفى، وكان ﷺ إذا أتاه الإنسان مسلمًا فرآه عاريًا يأمرنى فأنطلق فأستقرض فأشترى له البردة فأكسوه وأطعمه[3].

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبى ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة[4].

---

(١) أخرجه البخارى، باب الاستغفار عن المسألة (١٤٠٠) واللفظ له، ومسلم، باب فضل التعفف والصبر (٢٤٧١).

(٢) سنن أبى داود فى الخراج (ب/ ٣٥)، قال الألبانى: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه، باب أجود ما كان النبى ﷺ، (١/ ٥، ٣/ ٣٣)، ومسلم فى الفضائل، باب كان النبى أجود الناس، (٦١٤٩).

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٦٩).

٢٤٧. حبيبى يا رسول الله (*)

عن عبد الله بن مسعود قال: «اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر فى جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه.

فقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا.

فقال رسول الله ﷺ: «مالى وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

*****

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا حبيبى يا رسول الله، كنت أزهد الناس، وكان فقرك فقرًا اختيارًا وليس فقرًا اضطراريًا؛ لأنك كنت تنفق كل ما يأتى لك من مال، وكنت تكره أن يبيت فى بيتك شيء من مال الدنيا، فتحت عليك الفتوح وانهمرت بين يديك الأموال، وأنت يا سيدى يا حبيبى يا رسول الله معرض عن الدنيا كل الإعراض.

وقد عرض الله تعالى عليك بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، ولكن

(*) أخرجه الإمام أحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٧٠٩)، والإمام ابن ماجه فى سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك[1].

وكان ﷺ يقنع باليسير من الدنيا ويقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا[2].

وكان ﷺ لا يدخر شيئًا لنفسه، وما جاء أنه ادخر فهو إنما كان لأهله، وما شبع ﷺ وأهله ثلاثة تباعًا من خبز البر حتى فارق الدنيا[3].

وعن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد فى بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار.

قال: قلت: يا خالة فعلى أى شىء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين التمر والماء[4].

عن أنس بن مالك: أن فاطمة رضى الله عنها ناولت رسول الله ﷺ كسرة من خبز شعير فقال: هذا أول طعام أكله أبوك من ثلاثة أيام[5].

وعن عائشة، رضى الله عنها، قالت: توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير[6].

---

(١) سنن الترمذى، باب الكفاف والصبر عليه، (٤/ ٥٧٥).

(٢) أخرجه مسلم، باب فى الكفاف والقناعة (٢٤٧٤).

(٣) رواه الترمذى (٢٣٥٨)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٤) رواه أحمد (٢٤٤٦٥ ـ ٢٤٦٠٥)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٥) أخرجه مسند أحمد بن حنبل،(١٣٢٤٦)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(٦) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ حسب ترقيم فتح البارى ـ، كتاب بدء الوحى، (٢٩١٦).

يقول جابر رضى الله عنه: مكث رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق ثلاثًا لم يذوقوا طعامًا، فقالوا: يا رسول الله، إن ههنا كُدْيَة من الجبل (أى صخرة كبيرة).

فقال رسول الله ﷺ: رُشُّوها بالماء، فرشوها، ثم جاء النبى ﷺ فأخذ المعول أو المسحاة، ثم قال: بسم الله، فضرب ثلاثًا، فصارت كثيبًا يهال.

قال جابر: فحانت منى التفاتة، فإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجرًا[1].

وتقول السيدة عائشة: «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض»[2].

ويقول سعد ابن أبى وقاص: والله إنى لأول رجل من العرب رمى بسهم فى سبيل الله ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا السمر حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة[3].

وتقول السيدة عائشة: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت فى يوم واحد مرتين[4].

ويقول أنس: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مرقَّقًا حتى لحق بالله

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٤٩)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخارى.

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٥٧)، قال الشيخ الألبانى: صحيح.

(٣) الحبلة: ثمرة السمر وهو شجر عظيم له شوك، أخرجه مسلم، باب قتيبة بن سعيد(٧٦٢٣).

(٤) رواه مسلم فى الزهد والرقائق (٧٦٤٣).

تعالى ولا رأى شاة سميطًا بعينه حتى لحق بالله تعالى.

والرغيف المرقَّق: المليَّن، والسميط هو الـذى أزيـل شـعره بالمـاء الـساخن وشوى بجلده.

٢٤٨. عليكم بالسكينة (*)

بينما نحن نصلى مع النبى ﷺ إذ سمع جلبة الرجال، فلما صلى قال ﷺ: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال ﷺ: «فلا تفعلوا، إذا أتيتم إلى الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

*****

هذا موقف نبوى كريم، يظهر فيه:

• حرص الصحابة ﷺ على حضور الصلاة فى المسجد خَلْف رسول الله ﷺ، وكان بعضهم يخشى أن تفوته صلاة الجماعة خلف رسول الله ﷺ فيأتون مهرولين، ويحث بعضهم بعضًا على الإسراع خشية أن تفوتهم صلاة الجماعة، ولقدْ نتج عن ذلك شىء يسير من الضوضاء بالمسجد وقت الصلاة، فنهاهم النبى ﷺ عن ذلك؛ حتى لا يفوتهم الخشوع والطمأنينة فى الصلاة.

ويسَّر النبى ﷺ لهم الأمر بقوله: «فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

• أيضًا يظهر من توجيه النبى ﷺ الحكمة فى معالجة السلوكيات، حيث لم يُعنِّف ﷺ أحدًا من أصحابه ﷺ، وإنما وَجَّه إليهم النصح النافع، واختار لهم ﷺ الأيسر والأفضل.

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الأذان، باب قول الرجل فاتتنا الصلاة (٦٠٩).

• كما بَيَّن ﷺ أن السعى إلى الصلاة ينبغى أن تصاحبه السكينة بما تشتمل عليه دلالة الكلمة من الطمأنينة والخشوع، وفى هذا تعظيم لهذه البقاع الطاهرة التى أذن الله أن ترفع، فَتُنَزَّه عن الضوضاء، وكل ما لا يليق بقدسيتها.

أيضًا فى السعى بالخشوع والطمأنينة تعظيم لأمر الصلاة، فإن المتوجه لها متوجه إلى ربه؛ ليقف بين يديه، وجلال عظمة الله فى قلب المؤمن تحمله على الخشوع والخضوع لله تعالى، وتعالى الله رب العالمين القائل فى قرآنه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحج).

• أيضًا من فقه هذا الموقف أن يحافظ المؤمن إذا دخل المسجد على الهدوء؛ كى لا يشغل غيره معه، وبخاصة إذا كان يصلى أو يقرأ، ومن هنا كان النهى عن رفع الصوت فى المسجد، حتى ولو كان من يرفع صوته يقرأ القرآن فضلا عن أنه أدب عظيم يثاب عليه المؤمن عند الله تعالى.

فأنعم بالمبادرة والمسارعة إلى المساجد قبل الأذان لينتظر المسلم الصلاة؛ عملًا بقول النبى ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟»، قالوا: بلى يا رسول الله.

فقال ﷺ: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»[1].

ومن عجيب ما يحكى فى فضل المبادرة والمسارعة إلى المسجد من أجل

(١) أخرجه مسلم، باب فضل اسباغ الوضوء على المكاره (٦١٠)، سنن الترمذى، باب اسباغ الوضوء (٥١) فال الشيخ الالبانى: صحيح.

الصلاة أن أخوين قد ماتا فى يوم واحد، فحفر الحفّار لهما قبرين، ودَفَن كل واحد منهما فى قبره. فلما نام الحفار رأى فى منامه هذين الرجلين على هيئة غاية فى الحسن.

رأى الأول قد جاءه الحور والولدان فأركبوه مركبة خضراء، وزفوه إلى الجنة.

ورأى الثانى قد جاءه الحور والولدان، فزفوه ماشيًا.

فلما أصبح ذهب إلى أمهما، فقال بعد أن عزاها فيهما: جئت أسألك عن ولديك هذين: ماذا كان حالهما؟ فبادرته المرأة بقولها: أجئت تسألنى عن الراكب أم عن الماشى؟!

فتعجب الحفار من قولها وقال: ذرية بعضها من بعض، ثم قال: جئت أسألك عن الراكب والماشى.

قالت: فأما الراكب فكان يأتى إلى المسجد قبل الأذان، وأما الماشى فكان يأتى إلى المسجد بعد الأذان.

٢٤٩. كرامة المؤمن (*)

أتى مالك بن عوف النبى ﷺ فى ثوب دون، فقال له النبى ﷺ: ألك مال؟ فقال مالك بن عوف: نعم. فقال له النبى ﷺ: من أى المال؟ فقال مالك بن عوف: قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. فقال له النبى ﷺ: فإذا آتاك الله مالا فَلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته.

*****

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، يا سيد الحكماء، يا صاحب القلب الودود الرؤوف بأمتك. دخل عليك رجل من أصحابك فى هيئة يظهر منها أمارات الاحتياج والفقر، وكأنى بك يا حبيبى يا رسول الله وأنت تسأله عن ذمته المالية؛ لتقف على حقيقة أمره، فلعل مظهره كان يبدى الفقر، لكن قلبك يستشعر شيئًا آخر، فسألته؛ كى تتأكد من حاله، فإن كان فقيرًا أعطيته وسترته، وإن كان غنيًّا أرشدته وهديته، وفى كل خير.

فقال الرجل: نعم يا رسول الله عندى مال، وهى إجابة غير كافية لتحقيق ما يريد أن يتأكد منه رسول الله ﷺ فسأله سؤالا محددًا: من أىِّ المال؟

(*) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب اللباس، باب فى غسل الثوب وفى الخلقان (٤٠٦٣)، والنسائى فى المجتبى، كتاب الزينة، باب الجلاجل (٥٢٢٤)، وصححه الألبانى فى صحيح النسائى (٥٢٢٤).

فأبدى الرجل أنه فى نعمة وأن لديه مالا وفيرًا من الإبل والغنم والخيل والرقيق. فاستحق الرجل بعد هذه الإجابة التوجيه الحكيم المقنع من سيدنا رسول الله ﷺ؛ حيث قال له: «فإذا آتاك الله مالا فَلْيُرَ أَثَرُ نعمة الله عليك وكرامته».

هذا هو هدى القرآن لأمة الحبيب ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف)، وكما نهى ربنا عن الإسراف فقد نهى عن الشح والبخل، وإنما هو التوازن، قال تعالى فى صفة عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾﴾ (الفرقان).

وهذا الموقف هدى كريم من سيدنا رسول الله ﷺ للذين يملكون الأموال ويبخلون على أنفسهم وأولادهم، يحرمون أنفسهم من المتع الحلال فى المأكل والمشرب والملبس والسكنى، ويظهرون أمام الناس بمظهر المحتاج الذى يسأل الناس.

أولى ثم أولى بهولاء أن يتبعوا هدى الحبيب المصطفى ﷺ؛ حيث أمرنا أن يظهر المسلم بالمظهر اللائق لسنه وعلمه وعمله؛ كى يكون ظاهر المسلم كباطنه عزة وكرامة.

والحمد لله رب العالمين

٢٥٠. هيا إلى الجنة (*)

عن أبى هريرة رضي الله عنه، أن النبى ﷺ، قال: «من أصبح منكم صائمًا؟» قال أبو بكر: أنا.

قال ﷺ: «من تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا.

قال ﷺ: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا.

قال ﷺ: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا.

قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن فى امرئٍ إلا دخل الجنة».

*****

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، تلفت انتباهنا إلى أهمية اغتنام فرص الخير، ومن رحمة الله أن جعل أبواب الخير متعددة، والسعيد الموفق من حاز من هذه الأبواب ما استطاع من الخير، فكيف بمن جاز هذه الأبواب جميعًا؟! رضى الله عنك يا خليفة رسول الله وصاحبه فى الغار، ورفيقه وصدِّيقه يا سيدى يا أبا بكر.

والمتأمل فى هذا الموقف يرى بوضوح أن الحبيب ﷺ يهدينا إلى التعليم والدعوة والإرشاد عن طريق السؤال؛ لإثارة الذهن ولفْتِ الانتباه وتشويق

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبى بكر الصديق، (٤٤٠٠).

المؤمن، وتوجيه همته إلى أبواب الخير، فقال الحبيب ﷺ: من أصبح منكم صائمًا؟ ويبادر سيدنا أبو بكر بالإجابة قائلًا: أنا.

ثم يسأل الحبيب المصطفى ﷺ: من تبع منكم اليوم جنازة؟ ويبادر أبو بكر بالإجابة: أنا.

ويوالى الحبيب ﷺ أسئلة الخير فيقول: فمن أطعم منكم مسكينًا؟ ويبادر الصديق أبو بكر رضي الله عنه: أنا.

ويسأل الحبيب ﷺ سؤالًا آخر: فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟ والمبادرة - أيضًا - من أبى بكر: أنا يا رسول الله.

ثم يعلن النبى ﷺ النتيجة الباهرة الرائعة بهذا الامتحان العملى السريع والمفاجئ؛ إنها الفوز العظيم، قال الحبيب ﷺ: «ما اجتمعن فى امرئٍ إلا دخل الجنة».

ومن تجليات هذا الموقف أن النبى ﷺ يعلمنا أن نحوِّل الكلام إلى واقع وإلى سلوك وعمل.

اللهم بنور رسول الله ﷺ نوّر قلوبنا وحَسِّن أعمالنا

٢٥١. حكمة أعرابى (*)

قال الأصمعى: قرأت هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾ (المائدة). وكان إلى جانبى أعرابى، فقلت سهوًا: والله غفور رحيم، فقال الأعرابى: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله تعالى. قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم.

فقال الأعرابى: ليس هذا كلام الله! فتنبهت، فقلت: والله عزيز حكيم. فقال الأعرابى: أصبت، هذا كلام الله تعالى. فقلت له: أتقرأ (أتحفظ) القرآن؟

قال: لا، قلت: فمن أين علمتَ أنى أخطأت؟ فقال الأعرابى: يا هذا، عَزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع.

*****

ما أحوجنا لتدبر هذا الموقف!.. حيث يظهر لنا أهمية الفهم والتدبر وثمرة التأمل والإدراك، فلابد من الوعى لما نقرأ، وبخاصة إن كان الذى نقرأ هو القرآن

(*) التحرير والتنوير (جـ ١/ ٥٧٥)، الكشاف للزمخشرى، شرح سورة المائدة آية (٣٨).

الكريم وآيات الوحى المنزل على قلب الرسول الكريم ﷺ.

ولقد أكد القرآن هذا المعنى؛ قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء).

كما وصف الله أهل الإيمان بأنهم إذا استمعوا الآيات كان منهم الخشوع لله تعالى، قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الأنفال).

ويبين أن أهل العلم هم أكثر الناس خشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر/ ٢٨).

وأثنى على العلماء بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

ومن هنا تأتى أهمية الفهم والتدبر على الحفظ.

والموقف الذى بين أيدينا نص فى هذا المعنى؛ لذلك لما قرأ الأصمعى الآية، وقال سهوًا: والله غفور رحيم، قال الأعرابى: كلام مَنْ هذا؟ فقال للأصمعى: أعد. فأعاد الأصمعى القراءة: والله غفور رحيم؛ فقال الأعرابى: ليس هذا كلام الله!

فانتبه الأصمعى لسهوه، وصحح قائلًا: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ؛ فقال الأعرابى: أصبت، هذا كلام الله تعالى.

فأحب الأصمعى أن يتأكد من علم الرجل، فسأله: أتحفظ القرآن؟!

فقال الأعرابى: يا هذا، عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع.

٢٥٢. فكُنْ أنت (*)

كان الحسن البصرى يسير فى جنازة، فقال لمن يسير بجواره: تُرى لو سُئل هذا الميت ماذا تتمنى؟ فماذا يقول؟! قال الرجل: يتمنى أن يعود إلى الدنيا، فيعمل خيرًا مما عمل. فقال الحسن البصرى: إن لم يكن هو فكن أنت ذاك.

*****

أى رجال هؤلاء؟!.. إنه الإيمان الذى صنع هذه القلوب وصاغ هذه العقول بهذا الفكر الإيمانى، الذى يتخذ من كل حوادث الحياة عظة وعبرة.

وهكذا صنع هذا العالم الناصح بصاحبه، وسأله أسئلة المواعظ والعبر؛ حيث يلفت انتباهه إلى أن الفرصة التى انتهت بالنسبة إلى هذا الميت، فإنها ما زالت متاحة بين يديك ما دمت حيًّا فاغتنمها، ويظهر هذا من قوله: إن لم يكن هو فكن أنت.

وهذا شأن الصالحين، وشبيه بهذا الموقف قول الرجل الصالح حين كان يُشيع جنازة أحد إخوانه، فبكى، وقال: عجبتُ لميت الغد يُشَيِّع ميت اليوم! نعم فكلنا إلى هذه النهاية، والسعيد الموفق الذى يتهيأ لها بصالح الأعمال، فالكيِّس من

(*) شرح نهج البلاغة، ابن أبى الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، (١٩/ ٢٣).

دان نفسه وعمل لما بعد الموت؛ كما علمنا الحبيب المصطفى ﷺ.

نعم كلنا أموات... أكتب لك وأنا حى ميت، وأنت تقرأ لى أو تستمع وأنت حى ميت، لكن الله تعالى هو وحده الحى الذى لا يموت.

وقد وضَّح لنا رسول الله ﷺ أنه ما يتحسر أهل القبور على شىء من دنياهم قدر تحسرهم على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها.

إن موعظة الموت موعظة بليغة، فهذا رجل يملأ الأسماع والعقول والقلوب، له مال وسلطان وبنون، كان يحادثنا ونحادثه، ويلاطفنا ونلاطفه، كان يتمنى وكنا نتمنى معه، فجاء الموت وذهب الرجل كأننا لا نعرفه ولا يعرفنا.

يموت الإنسان، ويموت معه طمعه وجشعه وسلطانه، ولا يبقى إلا ما كان صالحًا خالصًا لله تعالى، والحبيب المصطفى ﷺ يؤكد هذا المعنى بقوله: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (٤٣١٠).

٢٥٣. لا يبغى إلا وجه الله (*)

حينما حضرت خالد بن الوليد ﷺ الوفاة سأله ولده: من الذى ينفذ وصيتك يا أبى؟ أجابه: عمر بن الخطاب. وعندما رأى الدهشة فى وجهه قال له: لا تظن أنه عزل أباك عن ضغينة، كلا، عمر لا يبغى إلا وجه الله.

*****

رضوان الله تعالى على صحابة سيدنا رسول الله ﷺ الذين رضعوا من لبان علمه، وتربوا على مائدة خُلُقِه، فملأ الله قلوبهم إيمانًا وحكمة، وتأدبوا بأدب نبيهم ﷺ، وتخلَّقوا بخلقه، فكانت أخلاقهم كأخلاق نبيهم المصطفى ﷺ.

كيف لا وقد أثنى عليهم القرآن؟ قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ (الفتح/ ٢٩).

وأوصى بهم رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «الله الله فى أصحابى».

- والموقف الذى بين أيدينا يهدى إلى قيم عالية وأخلاق سامية، يهدى إلى الحب فى الله وحسن الظن بالإخوان، مهما اختلفت الآراء ووجهات النظر، فاختلاف الآراء إنما يكون من أجل الوصول إلى الأفضل، من أجل فهم أدق

(*) أخرجه الترمذى (٣٨٦٢)، وأحمد (٥/ ٥٤، ٥٧).

ووعى أشمل.. إنه لله.. ولذلك كان الاختلاف بينهم لا يفسد وُدًّا.

لذلك رأينا سيدنا خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة، وأسند تنفيذ وصيته إلى سيدنا عمر بن الخطاب، ورأى سيدنا خالد الدهشة على ولده، وفهم من ذلك أن ولده يتذكر أن سيدنا عمر ﷺ عزل أباه، فقال سيدنا خالد لولده موضحًا الأمر: لا تظن أنه عزل أباك عن ضغينة، كلا، عمر لا يبغى إلا وجه الله تعالى.

• ومن عبر الموقف - أيضًا - الاهتمام بالوصية؛ رعاية لحقوق العباد من جانب، ورعاية لحقوق الله تعالى من جانب آخر، وهذا السلوك من الهدى النبوى المبارك الذى دعا إليه رسول الله ﷺ بقوله: «لا يموتن أحدكم إلا ووصية مكتوبة عند رأسه»[1].

ومن فوائد الموقف بشأن الوصية إسناد الوصية إلى من يستطيع القيام بها من الصالحين؛ لذلك أسند سيدنا خالد ﷺ تنفيذ وصيته إلى سيدنا عمر ﷺ.

ما أعظم الحياة فى رحاب الله تعالى! إنها بحق الطمأنينة والسكينة والرضا، إنها جنة الله فى الأرض.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤)، وحلية الأولياء (٩/ ٢٣١).

٢٥٤. من تواضع الرسول وشفقته ﷺ (*)

لما كان فتح مكة أتى أبو بكر رضي الله عنه بأبيه أبى قحافة إلى النبى ﷺ يقوده؛ لكِبَر سِنّه!! فقال النبى ﷺ: «هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه؟».

*****

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، تعلمنا كيف يكون توقير الكبار، وإجلال المخلصين، نعم، قلت للصديق سيدنا أبى بكر رضي الله عنه: أَلَا تركت الشيخ حتى نأتيه؟ رحمة ورأفة وشفقة بالأب الوالد، وإجلالًا لقدْر سيدنا أبى بكر ولمواقفه العظيمة مع النبى ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى.

وصدق الله العظيم حين أثنى عليك يا صاحب الخلق العظيم، وأنت فى لحظات الفتح كنت رحيمًا عطوفًا، فسبحان من أرسلك رحمة للعالمين! ومدحك بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (القلم).

امتلكت وانتصرت فما بطشت ولا انتقمت، ولما جاء إليك من عذبوا أصحابك وأخرجوك وألحقوا بك من الأذى ما كان.. عفوت عنهم، وقلت لهم:

(*) أخرجه أحمد فى المسند، باقى مسند الأنصار، حديث أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما (٢٧٠٠١)، وابن حبان فى صحيحه، كتاب إخبار ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر (٧٢٠٨)، وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط فى تعليقات مسند أحمد (٢٧٠٠١).

اذهبوا فأنتم الطلقاء[1].

إنها السماحة لرسول الإسلام ﷺ فى أسمى معانيها وأعظم مواقفها. لم يعنِّفْهم أو يوبخهم، بل فتح لهم أبواب الأمان، فقال رأفة بهم: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»[2].

ما أحوج البشرية إلى هديك يا رسول الله، والأمن فيها مضطرب والكل حيارى يتخبطون فى طلب الأمن بعيدًا عن هدى رسول السلام والإسلام!

(١) أخرجه البيهقى (٩/ ١١٨)، ضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة، (١١٦٣).

(٢) أخرجه صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٣٣٣٢).

٢٥٥. من أحب إليك ؟! (*)

عن أسامة بن زيد قال: اجتمع جعفر وعلى وزيد بن حارثة، فقال جعفر: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ. وقال على: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ. وقال زيد: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ.

فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله، فقال أسامة بن زيد فجاءوا يستأذنونه، فقال: اخرج، فانظر من هؤلاء، فقلت: هذا جعفر وعلى وزيد ـ ما أقول أبى ـ قال: ائذن لهم، ودخلوا فقالوا: من أحب إليك؟ قال ﷺ: فاطمة.

قالوا: نسألك عن الرجال. قال: أما أنت يا جعفر فأشبه خَلْقُك خَلْقى، وأشبه خلقى خلقك، وأنت منى وشجرتى. وأما أنت يا على فختنى وأبو ولدى، وأنا منك وأنت منى. وأما أنت يا زيد فمولاى ومنى وإلى أحب القوم إلىَّ».

*****

(*) أخرجه أحمد فى المسند، مسند الأنصار، حديث أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ (٢١٨٢٥)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد، كتاب المناقب، باب فضل زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ (١٥٥١٠)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٥٥٠) إلا قوله فى آخره « وأحب القوم إلى» فحسن.

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسـول الله ﷺ، جـاءك بعـض أصـحابك كلهم يتودد إليك، وقد تعلقت قلوبهم بك، فما كان منك إلا أن جبرت خـاطرهم جميعًا، وأثنيت على كل واحد منهم بما تعلم فيه من خير وفضل.

وهذا من كمال خُلُقه ﷺ فى معاملة الناس، إنـه يعلمنـا فـضيلة عظيمـة؛ ألا وهى جبر الخاطر، وتطييب النفوس؛ لأن جبر الخـاطر وتطييـب الـنفس يبنـى فى القلوب الحب والمودة، ويجعل بين الإخوان الألفة والمحبة، وأنعم بمجتمع تسوده العلاقات الودودة التى ينشأ عنها التراحم والتعاطف!

ويوافـق هـذا المعنـى قولـه ﷺ للأنـصار: «لـولا الهجـرة لكنـت امـرأً مـن الأنصار»[1].

ومعلوم أن مراده ﷺ من ذلـك تـأليف قلـوبهم واسـتطابة نفوسـهم وجـبر خواطرهم.

وفى السياق نفسه يأتى قوله ﷺ للأنصار لما أعطـى غـيرهم عنـد فـتح مكـة وتركهم، فقال لهم ما جبر به خواطرهم، وأدخل السرور على قلوبهم، قال ﷺ: «أَوَ لا ترضَـوْنَ أن يرجـع النـاس بالغنـائم إلى بيـوتهم وترجعـون برسـول الله ﷺ إلى بيـوتكم؟! لـو سـلكت الأنـصار واديًـا أو شِـعبًا لـسلكت وادى الأنـصار أو شِعبهم»[2].

---

(1) رواه البخارى (٥/ ٣٨، ٧١، ٢٠٠، ٩/ ١٠٧،١٠٦).

(2) رواه البخارى فى مناقب الأنصار (٥/ ٣٨).

٢٥٦. كانوا لأصحابنا مكرمِين (*)

لما جاء إلى النبى ﷺ وفد النجاشى، قام النبى ﷺ بنفسه بإكرامهم وبضيافتهم. فأسرع الصحابة إلى النبى ﷺ، وقالوا له: نحن نكفيك يا رسول الله. فقال ﷺ: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمِين، إنى أحب أن أكافئهم».

*****

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله. بعثك الله؛ لتتمم مكارم الأخلاق.

قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] وأنت أسوتنا وقدوتنا، تعلمنا فى هذا الموقف أن لا نضيع الإحسان وألَّا ننكر الجميل لمن أسدى إلينا معروفًا أو صنع بنا جميلًا، بل تعلمنا أن نقابل الجميل بما هو أحسن، وهذا موافق لهدى القرآن، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء/ ٨٦).

تعلمنا يا رسول الله ﷺ ألَّا تكون العلاقة مع الناس علاقة المنفعة، فإذا تحققت المنفعة وقضيت المصلحة انصرفنا عمن جعلهم الله أسباب خير لنا،

(*) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، باب فى رد السلام، فصل فى المكافأة بالصنائع (٩١٢٥)، السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٣١).

(١) أخرجه البيهقى (١٠/ ١٩١)، ذكره الألبانى فى الصحيحة حديث رقم (٤٥).

وأجرى الله على أيديهم نفعنا.

وإنما تؤكد لنا بالفعل والقول معًا أن تكون العلاقة مع الناس لله وفى الله، تقوم على الوفاء والإخلاص، والناجى يأخذ بيد أخيه بعيدًا عن منطق الوصولية واستغلال الفرص.

وكم فى حياتنا من الناس من مُدَّت إليه يد العون والمساعدة، فلما تمكَّن ووصل إلى مقصوده تنكَّر لمن أسْدَوا إليه المعروف وعانوه، وهذا سلوك شيطانى، لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ.

ومن هدى الحبيب المصطفى ﷺ قوله: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»(١).

والله تعالى يقول: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الرحمن).

وصلى الله وسلم على من بعثه ليتمم مكارم الأخلاق، يعلمنا أن نكون أوفياء، وفى السياق نفسه يأتى وفاء النبى ﷺ لزوجه السيدة خديجة رضى الله عنها إنه كان يكرم كل من اتصل بها من قرابة أو صداقة؛ تقديرًا لمعروفها معه ﷺ، وإحسانها الذى لا يُنْسَى له.

ولقد وضَّح النبى ﷺ أن شكر المعروف هو شكر لله تعالى؛ قال ﷺ: «أَشْكَرُكُم لله أشكركم للناس»(٢).

---

(١) سنن النسائى بأحكام الألبانى (٢٥٦٧)، قال الشيخ الألبانى: صحيح، أخرجه أحمد فى مسنده قال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه الطبرانى (١/ ٢٠٧)، والبيهقى (٦/ ١٨٢).

٢٥٧. أَفَتَّانٌ أنت يا معاذ ! (*)

عن جابر بن عبد الله قال: «كان معاذ بن جبل يصلى مع النبى ﷺ العشاء أو القيمة ثم يرجع فيصليها بقومه فى بنى سلمة، قال: فأخبرنا النبى ﷺ العشاء ذات ليلة، فصلى معاذ معه، ثم رجع فأم قومه فقرأ بسورة البقرة، فتنحى رجل من خلفه فصلى وحده فقالوا: له: أنافقت؟

قال: لا ولكنى آتى رسول الله ﷺ فأتاه، فقال: يا رسول الله إنك أخرت العشاء، وإن معاذًا صلى معك ثم رجع فأمنا فافتتح بسورة البقرة، فلما رأيت ذلك تأخرت فصليت، وإنما نحن أصحاب نواضح نعمل بأيدينا، فأقبل النبى ﷺ على معاذ فقال: أفتان أنت يا معاذ، أفتان أنت يا معاذ، أقرأ بسورة كذا وسورة كذا».

*****

(*) أخرجه الشافعى فى مسنده من كتاب الإمامة (٢٣٥)، وأحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤٢٢٦)، وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط فى تعليقاته على مسند أحمد (١٤٢٢٦).

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، يا من آتاك الله الحكمة العالية، وألهمك اليسر فى حياتك وحببه إليك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة)، وها أنت تعلمنا اليسر وتأمرنا به.

كما تعلمنا يا رسول الله كيف يكون التعليم والتأديب لمن أخطأ، وهذا درس للدعاة والمربين والمصلحين.

فالعتاب طريق من طرق التأديب والتهذيب، وقد كان ﷺ يستعمله إذا اقتضت الحاجة ذلك؛ كتربية أو تنبيه، ولكنه ﷺ كان يسلك فى العتاب طرقًا مختلفة وأساليب متعددة يراعى فيها الأحوال والمقتضيات، فتراه يعاتب تارة بالإشارة، وحينًا بالعبارة، وقد يكون أيضًا بالإعراض، وقد يكون بالهجر والترك، وقد يكون بما يظهر على وجهه الشريف من آثار الغضب؛ فاكتفى ﷺ بهذا النوع من العتاب لأنه كان كافيًا فى إصلاح الأمر وبيان المعروف، ولذلك فإنه ثبت أن ابن عمر لما رجع إلى بيته ما كان منه إلا أن أحرق الثوبين.

وقد يشتد ﷺ فى العتاب لا لأن المعاتَب محتاج إلى ذلك، أو أنه لا ينتفع إلا بأسلوب الشدة، ولكن لملاحظة معنى آخر من المعانى السامية؛ وذلك كما وقع فى معاتبة معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ وكان ذلك جبرًا لخاطر الرجل واهتمامًا بشكواه، وإلا فإن تطويل الصلاة يكفى فيه مجرد البيان بأن من أَمَّ فليخفف خصوصًا مع مثل معاذ، وهو من أعلم الناس بالحلال والحرام.

ومن هذا الباب عتابه ﷺ بشدة لأبى ذر رضي الله عنه، فإن أبا ذر قال لعبده: يا ابن

السوداء. فشكاه إلى حضرة المصطفى ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن قال له: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، أعيَّرته بأمه؟!»[1]، وهذا عتاب شديد فى حق أبى ذر، وقد يكون أقل من ذلك كافيًا، ولكنه ﷺ لاحظ حال ذلك الخادم الذى جاء شاكيًا، وقد أمن فى ظل الإسلام الذى لا يفرق بين الألوان والأجناس، فأراد ﷺ أن يجبر خاطره، ويرضى نفسه، ويشعره باهتمامه بحاله وشكواه.

ومن طرقه ﷺ فى التأديب الهجران، ثبت ذلك من قصة كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهم كعب وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، فهجرهم ﷺ ولم يكلمهم وأمر بهجرهم، وقد قاسَوْا من هجر المصطفى وأصحابه لهم ما أخبر عنه القرآن بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (التوبة).

فما الأرض؟ إن هى إلا بأهلها، إن هى إلا القيم السائدة فيها، إن هى إلا بالوشائج والعلاقات بين أصحابها، فالتعبير صادق فى مدلوله الواقعى فوق صدقه فى مدلوله الفنى الذى يرسم هذه الأرض وهى تضيق بالثلاثة المخلفين وتتعاصر أطرافها، وتنكمش رقعتها، فهم منها فى حرج وضيق، فلم يجدوا مكانا يطمئنون إليه قلقا وجزعًا، وضاقت عليهم أنفسهم للغم والوحشة بتأخير توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس.

---

(١) أخرجه مسلم (٥/ ٩٢)، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١/ ٥١٦).

٢٥٨. من يمنعك منى؟! (*)

عن جابر رضي الله عنه قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحرث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك منى؟ قال: الله تعالى، قال: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: «من يمنعك منى؟»، فقال: كُن كخير آخذ، قال ﷺ: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: لا، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلَّى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه، فقال: قد جئتكم من عند خير الناس.

*****

سيدنا رسول الله ﷺ هو سيد المتوكلين والموقنين، إنه ﷺ يعلمنا فى هذا الموقف حسن التوكل على الله واليقين فى الله حتى وإن غابت الأسباب، فأمل المؤمن فى الله تعالى لا ينقطع، ورجاؤه فيه لا ينفد؛ وذلك لأن المؤمن لا يقف عند

(*) أخرجه أحمد فى المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤٩٧١)، وعبد بن حميد فى مسنده، من مسند جابر بن عبد الله (١٠٩٦)، وصححه الأرنؤوط فى تعليقاته على مسند أحمد (١٤٩٧١).

السبب وإنما يتجاوز الأسباب إلى مسبب الأسباب ﷻ.

لذلك لما أخذ الرجل السيف، وظن أنه بامتلاكه إياه أنه سينال من رسول الله ﷺ ويلقى فى قلبه الخوف، فقال الرجل: من يمنعك منى؟

لكن هيهات هيهات، فالله قد عصم النبى ﷺ من أن يناله من الناس قتل؛ فقد أنزل الله على نبيه ﷺ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة/ ٦٧).

فأخرج النبى ﷺ رأسه ساعتها، وكان له حَرَس يقفون قريبًا من حجرته عند أسطوانة الحرس بالروضة الشريفة، والتى مازالت معلومة حتى اليوم.

ثم قال ﷺ للحرس: «انصرفوا؛ فقد عصمنى الله تعالى».

فكيف بمن عصمه الله، وتولى حمايته أن يخاف؟! ولقد صدق القائل:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم، فالمخاوف كلهن أمانُ

لذلك أجاب النبى الرجل بقوله ﷺ: «الله»، أى الله يمنعنى منك. تبارك الله وصلى الله على سيد الموقنين سيدنا محمد ﷺ، وما إنْ قال النبى ﷺ: «الله» حتى سقط السيف من يد الرجل، وأخذه النبى وقد مكّنه الله، وانقلب الأمر؛ فقال للرجل: «من يمنعك منى الآن؟!».

فقال الرجل يستعطف سيدنا رسول الله ﷺ: كُن خير آخذ، والنبى لا ينتصر لنفسه، وإنما حياته كلها لله، متمثلًا قول الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ (الأنعام).

لذلك دعاه النبى ﷺ إلى الإسلام، وقال له: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى

رسول الله».

ولم يقبل الرجل الدعوة فى حينها، وطلب من رسول الله أن يمهلـه، فأمهلـه وقد عاهد رسول الله أن لا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه.

وأخلى النبى ﷺ سبيله وتركه يمضى، وكأنَّ الرجل لا يصدق نفسه، فـلما أن وصل لأصحابه حتى قال لهم: جئتكم من عند خير الناس.

اللهم صَلِّ على صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ

٢٥٩. أتحبون أنه لكم ؟! (*)

عن جابر ﷺ، أن رسول الله ﷺ مر بالسوق ـ داخلًا فى بعض العالية ـ والناس كَنَفَتَهُ، فمر بجدى أسكَّ ميتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نُحب أنه لنا بشىء، وما نصنع به؟ ثم قال ﷺ: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أسكُّ، فكيف وهو ميت؟! فقال ﷺ: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

*****

تبارك الله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ، إنه ﷺ يعلمنا بهذا الرفق والحنو والشفقة والرحمة والحرص علينا، كيف لا ؟! وهو من قال فى شأنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ (التوبة).

فمن حرصه علينا وحبه لنا يسلك فى تعليمنا إلى ضرب المثل، وإلى الاستعانة بمواقف الحياة ومشاهدها كوسائل توضيحية؛ كى ما نفهم ونزداد إيمانًا ووعيًا وقربًا.

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقاق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٠٧).

إنه يمسك بإذن جَدْى معيب (لأنه أسكَّ)؛ أى: صـغير الأذنـين، ويعـرض عليهم بثمن زهيد بدرهم!

وما من شك فى أن هذا العرض مرفوض لدى الطبـائع الـسليمة والعقـول الواعية، فرفضوا أن يكون لهم هذا الجدى حتى بدون ثمن، فهو مَيِّت وهو أسكَّ.

وهنا يعلن النبى ﷺ موعظته فى هذا السياق، مُقْسِمًا بالله تعالى عـلى حقيقتهـا قائلًا ﷺ: «فوالله لَلْدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

هذه الدنيا التى نغتر بها ونتعالى بها ونتفاخر ونتكبر، ونتناحر من أجلها، بل وقد نرتشى أو نظلم أو نعتدى من أجلها، ونضيّع العمر فى سبيل تحصيلها، إذ هى لا تساوى هذا الجدى الميت الأسكّ!! بل هى عند الله تعالى أهون!! اللهم سلمنا.

٢٦٠. لا تلعنه (*)

كان على عهد النبى ﷺ رجل يُدعَى عبد الله، وكان يُـضحِك رسول الله ﷺ، وكان النبى ﷺ قد جلده فى الشراب، فأُتِىَ بـه يومًـا فأمر به فجُلِد. فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبى ﷺ: «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله».

*****

• هذا الموقف يبصِّرنا بـهدى كريم للنبى ﷺ فى التعامل مع الإدمـان، إنـه ابتلاء يحتاج إلى علاج حين يصل موقف المدمن للخمر أو لشىء من المخدرات إلى الضعف وانـهيار العزيمة؛ وتمكن المخدر من دمه حتى أصبح أقوى من إرادتـه فى الإقلاع؛ لذلك فإن الانتكاسة أمـرٌ وارد لـدى المعـالجين والمـصلحين، بـل يَعُـدُّه البعض خطوة فى طريق الإصلاح؛ حيث تربِّى قوةُ الندم فيـه قـوةَ الإرادة، وترفـع من قوة تحمل المدمن كى لا يسقط مرة أخرى.

• كما أن رسول الله ﷺ يعلمِّنا ألَّا نيأس مـن هـؤلاء المـدمنين الـراغبين فى التوبة والعلاج، وأن نصبر أنفسنا معهم؛ لأنـهم أصبحوا غير أسوياء فى التفكـير، وهم واقعون تحت ضغوط من المخدر فوق طاقتهم قد تغيِّـب عقـولهم وتـضعف إرادتـهم فيفعلون أشياء ينكرونـها على أنفسهم إذا ما انتبهوا من غفلـتهم وارتـدَّ

(*) صحيح البخارى، فتح البارى، كتاب بدء الوحى رقم (٨/ ١٩٧).

إليهم وعيهم وعقلهم.

ومن هنا فهم ـ من هذا الجانب ـ من أهل البلاء؛ حيث إنهم يريدون أن يتوبوا ولا يستطيعون، إنهم فى حاجة إلى دعم ومعونة من إخوانهم الأصحاء الأسوياء كى تصح لهم توبتهم ويتم لهم الشفاء.

• وتتمثل المعونة لهؤلاء فى تنمية قدرتهم وإرادتهم لتتغلب على قوة المخدر، وهذا يحتاج إلى خبرة ودراية بمعالجة العقول والقلوب والسلوكيات، حتى يكون الأمر على بصيرة ولا يقف عند حدود النصيحة القولية والتحذيرات واللوم أو التعنيف، بل نساعده ليكتشف نفسه ويكتشف سبب لجوئه إلى المخدر: هل هو هروب من واقع مؤلم؟ أم فشل فى تحقيق طموح أو أمل؟ أم هو الترف والفراغ وصحبة السوء؟... إلخ

• ثم درس الأمل، فبالإيمان يتجدد الأمل، الأمل العريض فى وجه الله الكريم الحنَّان القادر على منحنا القوة والإرادة والعزيمة كى نتغلب على هذا العدو الطاغى (المخدر).

ثم إن الوقوف على نقاط الضعف التى يتأتى منها سقوط الإنسان فى بئر المخدر أمر فى غاية الأهمية كى يتجنب هذه الأمور، ويتعلم كيف يُحصِّن نفسه منها.

• ثم صحبة الخير والصلاح هى البيئة التى يحدث فيها ومن خلالها التغير والتحول من السلوكيات الإدمانية إلى السلوكيات الإيمانية، لأن البيئة تمثل ساحة الفعل والتطبيق. ولذلك كانت نصيحة العالم للمسرف على نفسه الذى قتل تسعًا

وتسعين نفسًا ثم أتمَّ المائة بقتل العابد الذى صرح لـه بأنـه لا توبـة لـه، أن يتـرك صحبة السوء وأرض الفساد التى عُرِفَ فيها بالمعصية والشر، ويتوجه إلى صـحبة خير تعينه على تمام توبته وعلى حياته الجديدة فى الخير والـصلاح، وتكـون صـحبة الخير فى البيئة الجديدة تقوية لإرادته وعزيمته فى مواجهة إلف العادة مـع المخـدر، كما تحميه من لحظات الضعف والسقوط.

- وفى الموقف توجيه من النبى ﷺ للمجتمـع بـأن لا يقـف المجتمـع ضـد المبتلَى بالإدمان فى حال رغبته فى العلاج، فلا نشغل أنفسنا بعقابه بل نشغل أنفسنا بدعمه ومعونته وعلاجه؛ لذلك قال النبى ﷺ للرجـل الـذى لعـن مـن سـقط فى شرب الخمر بعد توبته: «لا تلعنه».

- ثم يكشف النبى ﷺ عن هذا الخير الكامن بداخل هذا المدمن، وأنه يحب الله ورسوله، وهذه شهادة حق وصدق لرجل يحب الله ورسوله لكنه ابـتُلِىَ بـهذا الداء الذى يسقط فيه كثير من الشباب، إمَّا بدافع التجربة مع أصدقاء الـسوء، أو التسلية معهم، أو البحث عن وهم السعادة والقوة، أو الهروب من ظـروف سـيئة أحاطت بـهم فإذا بـهم يعـالجون مـشكلة بكارثـة لا تنتهـى بـهم - إن لم يتوبـوا ويأخذوا فى طريق العلاج ويصبروا عليه - إلا إلى أحد أمرين: الموت، أو السجن.

نسأل الله السلامة لأبنائنا، وندعو أفراد المجتمع أن يكونوا عونًا لمن يرغـب فى التوبة والشفاء، وأن يتأسَّوا برسول الله ﷺ حين قال للرجل الذى نظر للمـدمن من جهة المعـصية فلعنـه، لكـن النبـى ﷺ يحـوِّل نظـره إلى الخـير الكـامن فى هـذه الشخصية، وإلى البلاء الذى وقع به فى غفلة منه، حيـث قـال ﷺ: «لا تلعنـه؛ فإنـه

يحب الله ورسوله».

لقد تعامل النبى ﷺ معه على أنه مبتلى يحتاج للمعونة.

ولنا فى سيدنا رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة طيبة. وصدق الله العظيم:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

٢٦١. أحسن العمل(*)

سئل الفضيل بن عياض: ما أحسن العمل؟ فقال: أخلصه وأصوبه. فقالوا: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقَبلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقْبَل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة.

*****

فهذا هدى كريم يلتقى مع القرآن والسنة فى تأكيد حقيقة إيمانية وهى أن العمل الذى يُرْجّى قبوله عند الله تعالى، له شرطان:

- الأول: التوجُّه بهذا العمل إلى الله وحده دون شريك معه، وأن يتخلَّى الإنسان عن أمراض طلب الشهرة بالأعمال، أو التباهى والتفاخر بما أنجزه من أمور عظيمة؛ لأن الإنسان إذا وقع فى شىء من هذا حُرم ثواب عمله؛ لأن الله لا يقبل عملًا إذَا أشرك معه غيره.

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى

(*) راجع: د. يوسف القرضاوى: الطريق إلى الله (١ -الحياة الربانية والعلم)، صـ٨٦.

تركته وشِرْكَه".

لذلك كان صحابة النبى ﷺ حريصين على تعلم النيَّة وتحديدها؛ لقول النبى ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات..." إلى آخر الحديث، فالأعمال تُصنف بحسب نيات فاعليها.

ثم يوضح الفضيل بن عياض الشرط الثانى لأحسن العمل الذى يرجى قبوله عند الله تعالى، وهو: أن يكون العمل صوابًا، ولما سئل ـ رحمه الله ـ عن المقصود بكون العمل صوابًا قال: أن يكون موافقًا للسنة، ليس فيه بدعة، وإنما فيه متابعة لهدى النبى ﷺ؛ ومن هنا ينبغى أن نعلم أن هذا الشرط لا يتأتى إلا بالعلم بالحال التى كان عليها رسول الله ﷺ فى خلقه وفى عبادته وفى كل شأنه، حتى يتيسر لنا التأسى والاقتداء به ﷺ.

ولذلك قال الحسن البصرى: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، يُفسد أكثر مما يُصلح.

ولذلك جاءت الأحاديث تفضِّل العلم وتقدِّمه على العبادة، حتى تكون العبادة على علم، من ذلك قوله ﷺ: فضل العلم أحبُّ إلىَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع"[1]. وقوله ﷺ: "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب" [2].

(١) صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ٤٢١٤.

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان فى صحيحه، وفى صحيح الجامع الصحيح، حديث رقم (٦٢٩٧).

ثم يبين الفضيل بن عياص ـ رحمه الله ـ أنه لابد من توافر الشرطين: إخلاص العمل لله تعالى، وموافقته لهدى النبى ﷺ. ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة الإيمانية، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف).

فقد حددت الآية أمرين للعمل الذى يُرجَى قبوله عند الله تعالى: الأمر الأول: صلاح العمل: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ وهو الموافق لسنة النبى ﷺ.

الأمر الثانى: الإخلاص فى العمل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص فى السر والعلانية

٢٦٢. حصب جهنم (*)

جلس رسول الله ﷺ يومًا مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس رجال من قريش، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ (الأنبياء).

فقال الوليد: سلوا محمدًا: أكل ما نعبد من دون الله حصب جهنم؟ فذكروا ذلك للنبى ﷺ، فقال لهم: "كل مَنْ أَحَبَّ أن يُعبَد من دون الله فهو مع مَنْ عبده فى النار".

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- النبى ﷺ يظهر للكفار الجزاء الأليم لكفرهم يوم القيامة؛ حتى يتخَّلوا عن عنادهم وكفرهم.
- الحق واحد من إله واحد، وهو الله، والباطل يتعدد بتعدد أهواء البشر.
- النبى ﷺ يبين أن المرء مع مَنْ أحبَّ.

(*) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير، باب العين، أحاديث عبد الله بن العباسى بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٧٣٩)، والحاكم فى المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنبياء (٣٤٤٩). وصححه الحاكم فى المستدرك وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبى فى ذلك.

- كل الخلق تحت أمر الله وقدرته، والنافع والضار على الحقيقة هو الله.
- أين كلام البشر من كلام رب العالمين؟ وأين حكايات التسلية الرخيصة من الحكمة القرآنية الرفيعة والقيم الإيمانية السامية؟!

ونستخلص من هذا الموقف عبرًا وعظات مهمة منها:

- ضرورة الابتعاد عن مجالس اللهو، وهذا ما دعانا إليه القرآن الكريم،

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنعام).

- مواجهة أباطيل المبطين وافتراءاتهم بالحجة والبرهان؛ فالنبى ﷺ لم يرد على النضر بن الحارث، بل جاء القرآن بالحجة البالغة والبرهان الساطع: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ ﴾ (الفرقان).

- نتعلم من هذا الموقف أن أعداء الدين فى كل العصور يتفننون فى إيجاد المادة التى يضلون بها الناس ويصرفونهم عن الحق، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (لقمان).

٢٦٣- ليس تكذيبًا

لما تكررت دعوة النبى ﷺ أبا جهلٍ للإسلام، قال أبـو جهـل للنبى ﷺ: إنا لا نُكَذِّبك ولكـن نكـذب بـما جئـت بـه، فـأنزل الله تعـالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام).

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- أن الشِّرْك له ألوان متعددة، فالمشركون طوائف كثيرة:

– فمنهم من ينكر أن يكون الأنبياء والرسل من البشر، ويطلب رسولًا من الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأنعام).

– ومنهم من ينكر البعث بعد الموت، قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (المؤمنون).

– ومنهم من كان يفترى على النبى ﷺ ويقولن: هو شاعر، كاهن، مجنون... إلخ.

– ومنهم من يصرح أنه لا يقبل هذا الدين ولن يؤمن به أبدًا على الرغم من

علمهم بأنه نبى حقًّا من عند الله قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ (الأنعام).

أى لم يكذبوك يا محمد بقلوبهم، بل يجحدون نبوتك بألسنتهم وظاهر قولهم؛ فلقد خبروا صدق النبى ﷺ وعرفوا إخلاصه وأمانته حتى عُرف بينهم بأنه ﷺ الصادق الآمين؛ فلما ظهرت معجزاته أصروا على التكذيب، وجحدت قلوبهم وألسنتهم آيات الله الباهرة ومعجزاته الساطعة.

لقد مُنى المشركون بالهزيمة فى مواجهة منطق الإسلام فلقد أجاب النبى ﷺ عن كل تساؤلاتهم إجابات مقنعة، وأقام عليهم الحجج الدامغة فى كل مرة جادلوه فيها أو اتهموه.

٢٦٤. لا خير فى كثير من نجواهم (*)

كان اليهود أول عهد الرسول ﷺ بالمدينة إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبى ﷺ جلسوا يتناجون بينهم؛ حتى يظنَّ المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره، فإذا رأى المؤمن ذلك، خشيهم فترك طريقه، فنهاهم النبى ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ (المجادلة).

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- معنى النجوى التى نهى الله عنها. والنجوى الحلال، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ

(*) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره؛ سورة المجادلة (١٢/ ٢٩٣).

﴿فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ (النساء).

- النهى عن أسباب الفرقة والخلاف وتكوين تيارات مخالفة معاكسة.
- التربية الإيمانية حماية للمجتمع.
- الذوق الرفيع فى رعاية مشاعر الجلساء، قال ﷺ: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه".
- مكر اليهود وحيلهم فى محاولة صرف أتباع النبى ﷺ عنه وعن الإسلام.
- تأييد الله لنبيه فى مواجهته أعداء الإسلام، فمن كان الله معه نال التوفيق والرعاية.

٢٦٥. إراقة الخمور فى أزقة المدينة (*)

لـمَّا نزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المائدة).

أرسل النبى ﷺ مناديًا ينادى فى نوادى المدينة: "يا أيها القوم: إن الخمر قد حُرمت".

فأسرع القوم للاستجابة لأمر الله، وقالوا: انتهينا ربنا، فمن كان فى يديه كأس حطَّمها، ومن كان فى فمه جرعة مجَّها، وشقت زقاق الخمر، وكسرت قنانيه، وأريقت الخمر فى أزقة المدينة.

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- المؤمن يسارع إلى الاستجابة لأمر الله تعالى، والانتهاء عمَّا نهى عنه، إذا

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المظالم، باب صب الخمر فى الطريق (٢٣٣٢) وفى مواضع أخرى، ومسلم فى صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب ومن التمر (٥٢٤٦) واللفظ البخارى.

تبيَّن له الحرام من الحلال؛ فأمر الله تعالى مُقَدَّمٌ على كل شيء.

- الخمر ـ وكل ما يُغيِّبُ العقل ـ رجسٌ ينبغي تجنُّبه؛ التزامًا بأمر الله تعالى.
- القرآن الكريم قد هَيَّأ النفوس عن طريق التدرُّج، ولم يأمر الناس بشيء يشق عليهم مَرة واحدة؛ فتحريم الخمر نزل على عدة مراحل: أولها وأخفها قول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة/ ٢١٩).

فقال الناس ما حرمها الله علينا وشربوا، حتى صلى رجلٌ من المهاجرين بالناس إمامًا، فخلط في قراءته؛ فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾(النساء/ ٤٣).

فكانوا لا يشربون إذا جاءوا للصلاة، ثم أنزل الله سبحانه بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة).

- منهج الصحابة أسوة وقدوة في السمع والطاعة لأوامر الله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة/ ٢٥٨).
- أثر القرآن في بناء المجتمع وتربية السلوكيات الفاضلة.

٢٦٦. لا نقيل ولا نستقيل (*)

لَمَّا بايع الأنصار رسول الله ﷺ، ليلة العقبة، قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: "أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم"، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: "الجنة"، قالوا: ربح البيع! لا نقيل ولا نستقيل.

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- هذا الموقف أنزل الله ﷻ فيه قرآنًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة).
- شروط هذا العقد الربانى؛ أهمها التضحية بالنفس والمال.

(*) تفسير ابن كثير، تحقيق/ سامى بن محمد سلامة، دار طيبة،ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ج٤، سورة التوبة: صـ٢١٨.

- نفس المؤمن غالية، فينبغى أن لا يرضى لها ثمنًا رخيصًا، فلا يبيع نفسه بمال أو منفعة عاجلة فى دنيا الناس.

- على كل مؤمن أن يسأل نفسه هل بايع الله حقًّا؟!

- صفات المؤمنين الذين عقد الله تعالى معهم هذا العقد جاءت فى الآية التى تلت آية الشراء، قال تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (التوبة).

٢٦٧. أساطير الأولين !! (*)

كان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسًا يدعو إلى الله تعالى ويتلو القرآن، كان النضر بن الحارث يخلفه في مجلسه إذا قام، ويحدثهم عن رستم وملوك الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها، فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ (الفرقان)، وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ (القلم).

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

• أكذب شيء أن يدَّعي كفار قريش على القرآن أنه أساطير؛ لأنهم يعلمون يقينا كذب هذه الفرية؛ وإنما دعاهم إلى هذا الافتراء العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية، كما أنهم ظنوا أن القصص القرآني مثل تلك الأساطير التي نقلوها خلفا عن سلف، والحقيقة أنَّ القصص

(*) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ، ط١، تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين، ج١، صـ١٩٧.

القرآنى ليس للتسلية والترفيه، وإنما هو للعبرة والعظة والتربية والتوجيه، وهو أحسن القصص؛كما قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (يوسف).

- آيات القرآن لا تجادلهم ولا تناقشهم فى هذا القول المتهافت، وإنما تدمغهم بالحق الواضح والبرهان الساطع.
- هذا الموقف يُظهر لنا بوضوح نموذجًا لمحاولات أعداء الإسلام صرف الناس عن دينهم، تلك المحاولات التى بدأت مع أول يوم من دعوة النبى ﷺ؛ حيث تصدى له طغاة قريش،وعذَّبوا المؤمنين، وحاربوهم وطاردوهم.
- فى هذا الموقف وسيلة أخرى من وسائل الشرك فى حربه ضد الإيمان؛ فالنضر بن الحارث يريد أن يصرف الناس عن رسول الله ﷺ، متوهما أن ما يسليهم به من حكايات رستم وملوك الفرس سوف يسبى قلوبهم ويكون له من الأثر ما للقرآن، ولكن هيهات هيهات!

٢٦٨. من يحيى العظام وهى رميم ؟! (*)

مشى أُبى بن خلف إلى رسول الله بعَظْمٍ بالٍ، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرام؟! ثم فتّه بيده، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: نعم أنا أقول ذلك، ويبعثه الله وإياك بعد أن تكون هكذا، ثم يدخلك النار. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (يس).

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، فالقدرة الإلهية التى دبَّرت أمر الكون فى نشأته هى التى ترعى هذا الكون فى حياته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم يعود الكل فى قبضة الله تعالى.
- أن الإيمان فيه جانب غيبى، فالمؤمن بالله حقًّا لا يساوره شك فى البعث؛ لأن الله تعالى أخبر بالبعث، ولأنه القادر على بدء الخلق فهو قادر على أن يعيده.
- أن كل المعبودات من دون الله تعالى فى النار مع عُبَّادهم.

(*) صحيح السيرة النبوية، الألبانى، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط١، صـ٢٠٠، ٢٠١.

- أن الإيمان اتباع وليس ابتداعًا، ومن افترى فِرْيةً فعليه إثمها.
- أن الإنسان قد يضل بعقله القاصر، والملاذ الآمن له يكـون فى هـدى الله سبحانه.
- أن العناد والكبر يصلان بالإنسان إلى الكفر، فيستحق العـذاب، ويُحـرم من فضل الله وثوابه.

٢٦٩. مقيـاس العظمـة (*)

قال الوليد بن المغيرة: أينزل القرآن على محمـد وأُتـرك؟ وأنـا كبير قريش وسيدها؟ ويُتْرَكُ أبو مسعود عمرو بن عمـير الثقفـى سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين؟ فـأنزل الله تعـالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزخرف).

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- فى هذا الموقف يتبين لنا وجه من وجوه الـضلال، وضرب مـن ضروب الخلط وسوء الفهم فى قلوب عميت عن رؤية النور، فـدعواهم تكـذِّب نفـسها؛ لأنهم يعلمون أن النبى ﷺ رجل عظيم، حتـى بمقاييـسهم ومـوازينهم البـشرية؛ فسيدنا محمد ﷺ فى الذروة من بنى هاشم، وهم قمة قـريش، وقـريش هـم سـادة العرب وفخرها.

ولكن هذا الرجل العظيم، سيدنا محمدًا ﷺ لم يبلغ ما بلغه من العظمة بنسبه القرشى، بل لأن الله تعالى قد اصـطفاه وأكرمـه بختـام رسـالات الـسماء، ولهـذا مؤهلات أخرى وموازين أعظم وأنبل، وهـو الإيـمان والخلـق؛ ذلـك أن عظمـة

(*) صحيح السيرة النبوية، الألبانى، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط١، صـ٢٠٠.

الإنسان تستمد من عظمة أخلاقه، وحسن معاملته للناس، ونقاء ضميره وطهره وعفته وصدقه وإخلاصه، وكل هذه المؤهلات قد توفرت فى شخص النبى الكريم ﷺ فى أحلى صورة وأكمل وصف.

- لقد شاء الله تعالى أن يختار لرسالته هذا الإنسان العظيم بخلقه وكريم شمائله، فما كان زعيم قبيلة أو عشيرة، ولا صاحب ثروة مادية، لكنهم لم يعجبهم هذا، وراحوا يعترضون وينكرون، وتمادَوا فى ضلالهم حتى قالوا مقالتهم هذه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الزخرف).

إن موازينهم المختلفة ومعاييرهم الباطلة لا تصلح، ولا يستقيم بها أحوال الخلق، ولا تتفق مع سنة الله الكونية التى تقوم على الرحمة «ورحمة ربك خير مما يجمعون».

رحمة الله هى التى جعلها لكون يسير وفق نواميس ومعايير أخرى غير تلك التى ارتضاها طغاة البشر؛ حرصا على مصالحهم الضيقة ومغانمهم الرخيصة.

إن رحمة الله أوسع من هذا، وأعظم من كل ذلك.

ونستخلص من هذا الموقف عبرًا وعظات مهمة؛ منها:

- الحقد والحسد من أهم الأسباب التى تصرف الكثير من الناس عن الاهتداء للإيمان.

- إنهم يرون مقياس العظمة هو الوجاهة والمكانة بين الناس، سواء أكانت

بالحسب أم بالنسب أم بالمال، لكن الإسلام وضـع مقياسًـا جديـدًا للعظمـة هـو التقوى والعمل الصالح، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات/ ١٣).

- من عادات الجاهلية السيئة التى قـضى عليهـا الإسـلام تقـسيم النـاس تقسيما طبقيا، قال الله تعالى عن فرعون: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ أى قسمها تقسيما طبقيا وقال رسول الله ﷺ: "الناس سواسية كأسنان المشط".
- ضرورة التسليم بقضاء الله واختياره، فما قدَّره الله دائمًا خير.

٢٧٠. شهيد الدعوة (*)

أرسل الله تعالى رسولين إلى قرية عمَّ فيها الفساد، فكان من أهل القرية العناد والرفض غير رجلٍ استجاب لدعوة الله وأطاع الرسولين، ونصح قومه بذلك، فهددوه ثم قتلوه، فأطلعه الله على مكانه فى الجنة، وأنزل الله فيه قرآنًا يتلى: من ذلك قوله ﷻ: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (يس).

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- هذا القصص القرآنى جاء تسلية لرسول الله ﷺ ولتوضيح أن الصراع بين الخير والشر من سنن الله الكونية، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف).

- الدعوة تقوم على الإقناع والحكمة، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن

(*) دروس للشيخ محمد المنجد.

سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل).

- المصلحون والدعاة تواجههم عقبات ومصاعب؛ قد تكلفهم مواجهتها تضحيات عظيمة تصل إلى حد التضحية بالنفس.
- فيما عند الله عِوضٌ عن كل مفقود، وفضلُ الله واسعٌ لمن استجاب لهديه، وذكر الله يبقى وذكر الناس يفنى.

والله المستعان

٢٧١. معجزة عقلية (*)

قال أهل مكة للرسول ﷺ إن كنت نبيًّا فسيِّرْ عنا جبال مكة، واجعل لنا فيها أنهارًا وعيونًا لنغرس ونزرع، وابعث لنا آباءنا الموتى نكلمهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ (الرعد).

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- أن الأمر كله لله تعالى،إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل،وليس لأحد أن يتحكم في أفعاله.
- أن الكفار طلبوا معجزات من الرسول على سبيل السخرية والاستهزاء، ولكن الله تعالى قد تولَّى الدفاع عن نبيه ﷺ، وجابه المشركين بالحجة الدامغة والأدلَّة المقنعة.

(*) دروس للشيخ محمد المنجد.

- أن الدين شىء أعظم من المقاييس البشرية؛ فهو من الله تعـالى،والعقول البشرية تقصر عن إدراك الحكمة الإلهية التى تكون دائمًا خيرًا ورحمة للخلق جميعًا، بل لمصلحة الخلائق جميعها.

- أن المعجزة فى الإسلام لم تقتصر على المعجزات الحـسِّية،فالقرآن الكـريم هو أعظم معجزات سـيدنا محمـد ﷺ، وهـو معجـزة عقليـة: فى نظمـه وبلاغتـه، وحكمته، وسمُوِّ تعاليمه، ومن لم يدرك من الإعجاز إلا الجانب المحـسوس فهـو قاصر الإدراك، لم يرقَ إلى مستوى المعجزة العقلية.

٢٧٢. قيمة الإنسان (*)

كان رسول الله إذا جلس فى المسجد يجلس إليه المستضعفون من أصحابه، فتهزأ بهم قريش قائلين لبعضهم: أهولاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى ودين الحق؟! لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء، وما خصهم الله به من دوننا.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأنعام).

*****

(*) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فى فضل سعد بن أبى وقاص (٦٣٩٤).

الدروس المستفادة من الموقف:

- أن قيمة الإنسان تأتى من إيمانه وخُلقه، لا من الجاه والثروة والمنصب.
- أن الله تعالى يختص برحمته من يشاء، ولا يملك أحد أن يتدخل فى مشيئته، وأعظم نعم الله على عباده هى نعمة الإيمان والهداية.
- أن المداومة على ذِكْر الله هى السبيل إلى نيل رضا الله تعالى.
- أن المستضعفين من عباد الله ربما كانوا خيرًا من غيرهم، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "رُبَّ أشعث أغبر، ولو أقسم على الله لأبرَّه".

٢٧٣. الفتـح المبيـن (*)

أثناء عودة المسلمين من صلح الحديبية وهم فى طريقهم إلى المدينة، والمسلمون فى حال من الحزن بسبب رجوعهم دون عمرة ولا زيارة، إذ برسول الله ﷺ يبشر الصحابة بقوله: لقد نزل علىَّ البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح). فسأله سائل منهم: أو فتحٌ هو يا رسول الله؟ فقال النبى ﷺ: "والذى نفس محمد بيده إنه لفتح".

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- كان (فتح مكة)، أول ثمرات صلح الحديبية،وقد أشار الله إليه بقوله: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١ ﴾ (الفتح).
- كان من اللطف الربانى،أن ينفذ هذا الفتح، بدون دماء ولا أحقاد،

(*) تفسير ابن كثير، الفتح/ ١ : ٣.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الفتح).

- قد حقن الله فى ذلك الفتح أيضًا،دماء المؤمنين من النساء والأطفال، الذين لم يستطيعوا الهجرة إلى المدينة: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الفتح).

- اعترفت قريش بالنبى ﷺ وبالإسلام والمسلمين،واعتبرتهم أندادًا لها بل دفعتهم عنها بالتى هى أحسن، كما تدل عليه بنود صلح الحديبية.

- ازدادت هيبة المسلمين فى عيون القبائل العربية،وبادر المخلفون من الأعراب،إلى الاعتذار، وخفت صوت المنافقين، وتفرغ المسلمون للفتوحات والمغانم، التى يسرها الله لهم، بعد هذا الصلح، الذى اعتبره الله فتحًا، ففتحوا مكة، كما رأينا، وغنموا كثيرًا من المغانم فى الغزوات بعد ذلك: ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الفتح).

٢٧٤. بين السحر والمعجزة(*)

سأل أهل مكة النبى ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ (القمر). فقالوا: سحرنا محمد. ولكن: إن كان قد سحرنا فلن يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

• السحر فى جوهره يقوم على الخداع، أما الإعجاز فهو حقيقة تأتى تحديا لكل القدرات البشرية، وقد أيّد الله تعالى أنبياءه ـ صلوات الله عليهم ـ بالمعجزات الباهرة؛ تأكيدًا لصدق دعواهم، وبعض هذه المعجزات حسية وبعضها عقلية.

ومن المعجزات المادية لسيدنا محمد ﷺ انشقاق القمر.

• وقد ظن المشركون هذه الآية نوعًا من السحر الذى يعرفونه، ولكن الساحر لا يستطيع أن يؤثر فى القوم، إنه يستطيع خداع الناس بمظاهر حسية، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ

(*) صحيح: أخرجه أحمد فى المسند، مسند المدنيين، حديث جبير بن مطعم رضى الله تعالى عنه (١٦٧٩٦)، والترمذى فى سننه، كتاب تفسير القرآن سورة القمر (٣٢٨٩)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٦٢٢).

عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ (الأعراف)، لكن سحرهم لم يبلغ القوب، فتأثيره قاصر على الأبصار، أي: هو نوع من الخداع البصرى؛ مثل ألعاب السيرك، لا يتجاوز هذا، أما المعجزة فشيء حقيقى يكون أعلى من قدرات البشر، وقد يكون أثرها ماديًّا ملحوظًا؛ كعصا موسى عليه السلام، وانفلاق البحر له، وإبراء الأكمه والأبرص والأعمى لسيدنا عيسى عليه السلام، وإطعام العدد الكبير بحفنة من طعام؛ كما حدث على يد سيدنا محمد ﷺ، وكنبع الماء من بين أصابعه ﷺ، وكانشقاق القمر له حين طالبه أهل مكة أن يأتيهم بآية على نبوته.

- والمعجزة شيء يتجاوز حدود القدرة البشرية، كما يتجاوز حدود العقل البشرى، فيقف أمامه مذهولًا مبهورًا متواضعًا لعظمة الله تعالى وقدرته.

٢٧٥. أعلم أنه نبى (*)

لقى النبىُّ ﷺ أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: أراك تصافح هذا الصابىء! فقال: والله إنى لأعلم أنه لنبى، ولكن متى كنا تبعًا لبنى عبد مناف؟

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- أن المشركين يعلمون صدق نبوة النبى ﷺ، كيف وهم الذين سمَّوه: الصادق الأمين؟!

- أن النفوس البشرية تنصرف عن الحق، وتنكر البراهين الساطعة حين تميل إلى أهوائها وتركن إلى موروثاتها وعصبياتها.

- على الإنسان إذا أراد أنْ يحظى بالهداية أن يتفق عقله وقلبه، فالمشركون قد اعترفت عقولهم، ولكن قلوبهم أبت أن تستجيب لدعوة الإيمان، فضلُّوا وأضلُّوا، ولو أنهم أصغَوا إلى ضمائرهم لاهتدوا إلى الحق، ورسخ فى قلوبهم الإيمان.

- أن العصبية القبلية لا مكان لها فى الإسلام، فالإسلام رسالة عالمية، تخاطب الغنى والفقير، والعربى والعجمى، ولا مجال للتفاضل إلا بالتقوى:

(*) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره،سورة الأنعام، (٧٢٧٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ (الحجرات).

- أن اصطفاء الله للرسل لا يجرى وفق أهواء الناس أو عاداتهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

٢٧٦. لحظة خشوع (*)

عن عبد الله ﵁ قال: قرأ النبى ﷺ سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ بمكة فسجد فيها، وسجد مَنْ معه غير شيخ أخذ كفًّا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفينى هذا، فرأيته بعد ذلك قُتل كافرًا.

*****

الدروس المستفادة من الموقف:

- أن الكِبْرَ داءٌ، فهو يهلك صاحبَه، وينأى به عن الحق وإن رآه بأم عينيه، وقد حذرنا رسول الله ﷺ أشد التحذير من الكبر؛ فقال ﷺ: " لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر".

وذلك لأن الكبر يصد عن الحق، ويعمى القلوب عن الحقائق البينة، ولقد قصَّ علينا القرآن الكريم مصارع الجبارين ونهاية المتكبرين، من فرعون وهامان إلى الوليد بن المغيرة.

- وذلك الرجل الذى قتل كافرًا ـ كما فى هذا الحديث ـ إنما كان مصرعه جزاءً وفاقًا لكبره وغروره، ولو خشع قلبه لسجد كما سجد المؤمنون والمشركون،

(*) أخرجه البخارى فى صحيحه، أبواب سجود القرآن، باب ما جاء فى سجود القرآن وسنتها (١٠١٧) وفى موضع آخره ومسلم فى صحيحه، كتاب المساجد، باب سجود التلاوة (١٣٢٥) واللفظ للبخارى.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر).

لقد سجد المؤمنون والمشركون، كما سجدت الجبال؛ خشوعًا لعظمة الله فى لحظة خشع فيها الكون كله لجلال الله، ولم يشذَّ عن هذا الخشوع الكونى سوى من أَبَى قلبه،وأعماه الكِبرُ وأضله الغرور.

٢٧٧. وقد تفرغتم لهذا ؟! (*)

دخل ثلاثةُ نفر على الخليفة الراشدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ، فسألوه عن رأيه فى أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) وقالوا له: ما تقول فيهما؟ ثم قالوا له: بين رأيك فيهما وفى عثمان. فرد عليهم الإمام على بن أبى طالب بعبارة يجب أن تكتب بماء الذهب يقول لهم فيها: وقد تفرغتم لهذا؟!

*****

إن هذه الكلمة التى قالها تكشف لنا عما شعر به الخليفة الراشدى من حزن وألم من هذا السؤال وأمثاله.

كما تكشف لنا عن الاستشرافات المستقبلية التى توقع الإمام (علىٌّ) أن تكون عليها أحوال الأمة فى مستقبل أيامها بعد العصر الراشدى، ثم بسط (الإمام) الأمر لسائليه تعليمًا للأمة ولمحبيه وأتباعه الذين سيتاجرون باسمه وباسم الولاء لآل البيت فقال لهم ولجميع المسلمين: عندما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى تولى أبو بكر ﷺ أمر الأمة، فيسر وسدد وقارب واقتصر، فصحبته مناصحًا وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهدًا، فلما احتُضر بعث إلى عمر فولاه فسمعنا وأطعنا،

(*) أنساب الأشراف (١/ ٣٤٨).

وبايعنا وناصحنا، فتولى تلك الأمور، فكان مـرضى الـسيرة ميمـون النقيبـة أيـام حياته. ثم تولى عثمان فصبرت محتسبًا وبايعته ﷺ، وبهذا حـسمت إجابـة الخليفـة الراشدى الرابع موقفه من الخلفاء الراشدين.

لقد كان منهج (الأخوة الإيمانية) التى وصلت إلى الـذروة فى المؤاخـاة بـين المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ماثلة فى ذهن الإمام على، وكان يرى أن عـلى الأمة أن تبحث عن الوحدة الإسلامية والحب فى الله، والاعتصام بحبله؛ لأن هذه الأسس من أهم الركائز التى قامت عليها دولة الإسلام فى المدينة، وفتح المسلمون بها تحت راية (التوحيد والوحدة) العالم كله.. لقد كانوا يؤمنون حقًا بأن هذه الأمة (أمة واحدة) و(ربّها واحـد) وأن عليهـا أن تجاهـد مجتمعـة لعبادتـه حـق عبادتـه ولتقواه كما ينبغى!!

وقد قدم الإمام على لنا تأصيلًا رائعًا لهذا المنهج، وذلـك عنـدما سُـئل عـن أسوأ فرقة عرفها التاريخ الإسلامى، وهى فرقة الخـوارج الـذين كـان أصـحابها يكفرونه ويطالبونه بالتوبة.

ثم انتهى بهم الأمر إلى قتله شهيدًا، ومع ما يعرفه الإمام عـلى عـن مبـادئهم وأحقادهم أجاب على سائليه عـن رأيـه فـيهم؛ فقـال لهـم:"إن لهـم علينـا ثلاثـة حقوق:ألا نمنعهم مساجد الله، ولانقطع عنهم الفىء، ولا نبدأهم بقتال".

ولئن كان الإمام على قد اضطر لمحاربتهم بعد خروجهم عليه وقتلهم بعض أصحابه؛ فإنه قد نهى عن قتالهم فى المستقبل، وقال: "لا تقاتلوا الخـوارج بعـدى، فإنه ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه".

وعندما سُئل عن (أهل الجمل) الذين جاءوا لحربه: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا!! قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا. قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا، وعندما سمع بعض أصحابه فى (صفين) يسبّ أهل الشام، قال: "إنى اكرهُ لكم أن تكونوا سبابين".

فكيف نستحل سب المسلمين؟! والحق أن هذا المنهج الذى أصَّله ـ انطلاقًا من القرآن والسنة والسيرة ـ الإمام على ﷺ، هو المنهج المنسجم مع الإسلام ومع سيرة نبى الإسلام ﷺ.

إنه المنهج الذى يقوم على دعامتين أساسيتين هما:

- براءة المسلمين جميعًا فى الأصل ـ إلا من ثبت ثبوتًا شرعيًّا ـ عن قصد ـ كفره ومروقه عن الدين، بقوله أو فعله، بطريقة لا تسمح بالتأويل، فحتى لو كان اجتهاده واضح الخطأ والبطلان، فإننا يجب أن نحسن الظن فى نياته وأهدافه، ونربطها بسلوكه وأفعاله التى يمكن أن تكون بالغة السوء؛لنبتعد به عن محطة الكفر، ثم نقاوم أخطاءه، ونفوض الأمر فيه إلى الله؟!

- أما الدعامة الثانية ـ ويمكن أن تكون الأولى؛ فهى إدراك المسلمين للرسالة التى ناطها الله بهم.. تجاه أنفسهم ـ لصناعة حضارة تقدم دينهم للناس ـ أفرادًا ومجتمعات ودولًا ـ أفضل تقديم، بحيث تكون جماعة المسلمين القدوة المثلى للعالم.. وتحق لها (الشهادة على الناس).. وتفوز بمكانة "خير أمة أخرجت للناس".

وهذا يوجب أشد الوجوب على أفراد الأمة وطوائفها ألَّا يشغلوا أنفسهم

بالصراعات والخلافات، وأن يلتزموا بالثوابت والكليات، مع الاتحاد العام على أركان الإيمان، وأركان الإسلام وشُعَب الإيمان، واضعين نُصب أعينهم أنهم خلفاء رسول الله وحملة الراية من بعده والمبتَعَثون منه ﷺ لهداية العالم.

ولكن ـ بُعَيد ذلك بقليل، ومنذ قال الإمام على هذه الجملة الرائعة: وقد تفرغتم لهذا، بدأت طوائف متصارعة كثيرة تظهر فى المجتمع الإسلامى؛ فظهر الخوارج ـ كقوى كبيرة منتشرة تكفر المسلمين، حتى أفاضل الأمة، وقد تشتتوا إلى طوائف متعددة تنقسم على نفسها، وقد يقاتل بعضها بعضها.

كما أن التشيع لآل البيت ـ بعد وفاة الإمام على الذى كان يقاوم نزعاتهم المتطرفة ـ امتد وأصبح فرقًا زادت على أكثر من خمس وثلاثين فرقة، وكانوا ـ هم والخوارج مع اختلاف الشعارات ـ يرفضون كل محاولات (التوحيد والوحدة) فى ضوء كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.. وفى ظل تجربة الراشدين الرائعة ظهرت ـ مع هؤلاء وأولئك ـ أفكار واجتهادات علاقتها بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح مقطوعة أو شبه مقطوعة!!

ومع أن الخلافة الأموية (٤١ ـ ١٣٢هـ) وقفت بالمرصاد لهؤلاء وأولئك، وهزمتهم فى مجال الخروج على الدولة واستعمالهم السيوف، إلا أنهم ـ مع ذلك ـ بددوا كثيرًا من جهود المسلمين وأوقاتهم وثرواتهم.. وبينما كانت جيوش المخلصين تمضى فى العصر الأموى بقيادة التابعين وأتباع التابعين لفتح العالم، وتتم ما بدأه الراشدون، حتى وصلت فتوحات الأمويين إلى حدود الصين بقيادة قتيبة بن مسلم وإلى أدغال الهند بقيادة محمد بن القاسم الثقفى، وإلى أقصى الحدود

الطبيعية فى أسبانيا (بعد فتح بلاد المغرب التى استعصت على الفتح قبل الأمويين)، فوصل المسلمون فى أسبانيا إلى جبال البرانس (البرتات) بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير والقادة الذين خلفوهما.

فبينما كان هذا يدور ـ تحت الراية الإسلامية الجهادية فى العصر الأموى ـ كان المحسوبون على تيار الخوارج، والمحسوبون على التشيع لآل البيت ـ ينفقون كل جهودهم فى تفجير المجتمع الإسلامى من داخله، سياسيًّا وعسكريًّا وفكريًّا، من خلال النظريات التى اخترعوها وروجوا لها "والقرآن والسنة منها براء".

ومع نهاية العصر الأموى وظهور العصر العباسى، عصر الانفتاح والترجمة والتيارات الفكرية المتأثرة بالفلسفتين اليونانية (الأسطورية) والفارسية (الوثنية)، زادت مساحة الاختلاف.. وكان لهذا الاختلاف ـ كمنهج ـ تأثيره على العلوم الإسلامية الأصلية التى كان ينبغى أن تستقى من المصدرين الثابتين، وهما القرآن والسنة، ومنهما تبنى مذاهبها وفلسفتها ومنهجها فى اختراع النظريات والأفكار التى قد تفرض طبيعة العصر وتطوراتها استلهامها من الكتاب والسنة، لتكييف الواقع وصياغة الحياة والأفكار صياغة إسلامية.

وفى هذا السياق ظهر (علم الكلام)، فسرعان ما غلب عليه الجدل والمنطق الصورى بعد سيطرة تيار المعتزلة عليه، ومع أنه لا يُنكر فضل بعض المعتزلة فى الدفاع عن الإسلام ضد مقولات الزنادقة، لكن التيار الاعتزالى العام عمَّق الخلافات وأدخل الأمة فى متاهات، وظهر الأشاعرة ليقوّموا أعوجاجه فأصابوا كثيرًا، وأخطأوا قليلًا.. وكان لأهل السنة دورهم الأعظم فى مقاومة هذه

الانحرافات الفكرية التى لا تنسجم مع طبيعة الإسلام القائمة على الفطرة والوضوح وفقه الكون، وفقه السنة بعيدًا عن الجنوح، مع الالتزام بالقرآن بعيدًا عن الشطط والتأويل.

لقد آن الوقت ـ وأوجبت التحديات ـ أن نفرغ من هذا.. بعد أن كنا نفرغ له.. ولنتذكر هنا كلمات المجدَّد الإسلامى الكبير (بديع الزمان النورسى) التى يقول فيها: "إن أشدّ القبائل تأخرًا تدرك معنى الخطر الداهم عليها من جرّاء اختلافها، وترى أبناءها ينبذون الخلافات الداخلية، وينسون العداوات الجانبية عند إغارة العدوّ الخارجى عليهم حرصًا على مصلحتهم الاجتماعية، فكيف بالذين يقومون بخدمة الإسلام، ويدعون إليه، ومع ذلك لا ينسون عداوتهم الجزئية الطفيفة.

إن هذا الوضع تدهور مخيف، وانحطاط مفجع، وخيانة للإسلام والمسلمين، وهو أكبر داء ابتلى به المسلمون فى تاريخهم، وليس للمسلمين من طريق لمواجهة الأعداء الألداء، إلا ذلك السلاح البتَّار، والخندق الأمين، والقلعة الحصينة... قلعة: "إنما المؤمنون إخوة".

الختـام

أخى المؤمن... أختى المؤمنة:

وبعد هذه الجولة الإيمانية فى حياة سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والصالحين خلال هذه المواقف الخالدة.

لعل ما بها من مواعظ وعبر قد تَمَكَّن من القلب فازداد إيمانًا بمن خلقه فسواه، وتمكَّن فى العقل ليسجد للذى فطره وأبدعه، وتمكَّن من الإنسان كله، فصارت الجوارح كلها تقتدى وتتأسى بهذه الإيمانيات الخالدة التى تربطنا بالله علَّام الغيوب، الكبير المتعال.

ولعلك أخى المؤمن والداعى، قد وجدت فيها مادة من الرقائق الهادية والقصص الهادف والحكم النافعة.

ولعلنا جميعًا نزداد بها إيمانًا وتأسيًا وتخلقًا.

ولعلى أفوز بدعوة خاصة منك بظهر الغيب لأخ لك فى الإسلام يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه، ويأمل فى شفاعة الحبيب المصطفى ﷺ.

وإن شاء الله تعالى يا أخى ندعو الله تبارك وتعالى أن نلتقى جميعًا هناك... عند حوض الحبيب المصطفى ﷺ، وتمتد منا اليمين لنفوز بكأس من حوض الكوثر من يمين المصطفى ﷺ؛ يمينه بها كأس الكوثر وعلى شفتيه ﷺ بسمة حانية ودودة، ونكرم بالدعاء من حضرته ﷺ لنجوز الصراط، ثم نكون هناك يا رب فى رفقة من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحَسُن أولئك رفيقًا.

اللهم أعنَّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

واجعلنا يا رب ممن أحببتهم فأحبوك وزدتهم فشكروك.

يا رب وفى دنيا الناس لا تفضح لنا عرضًا.

يوم نودع الأحباب لا تفضح لنا عرضًا.

يوم يفترق عنا الناس لا تفضح لنا عرضًا.

بين الزاهدين المتقين لا تفضح لنا عرضًا.

يا رب وكما أقررت عيون أهل الدنيا بدنياهم أقرر عيوننا بطاعتك ومحبتك يا أرحم الراحمين.

يا رب واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك.

يا رب إن فى تدبيرك ما يُغنى عن الحيل.

وإن فى كرمك ما هو فوق الأمل.

وإن فى حلمك ما يَسُدُّ الخلل.

وإن فى عفوك ما يمحو الزلل.

فاللهم بقوة تدبيرك وفيض كرمك وسعة حلمك وعظيم عفوك صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد.

اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام، واحفظنا فى كنفك الذى لا يرام، وارحمنا بقدرتك، إنك على كل شىء قدير.

اللهم يا من لطفت بخلق السماوات والأرض، ولطفت بالأجنة فى بطون أمهاتها، الطف بنا فى قضائك وقدرتك لطفًا يليق بكرمك يا أرحم الراحمين.

اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا ورحمتك التى وسعت كل شىء نسألك من كل خير سألك منه سيدنا محمد نبيك ورسولك ﷺ، ونعوذ بك من كل شر استعاذك منه سيدنا محمد نبيك ورسولك ﷺ.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (الصافات).

كشاف بموضوعات الكتاب

الإيمان:

القرآن الكريم:

الصلاة:

الصيام:

الحج:

ـ يُبعث ملبيًّا (٦٥) ـ الصفا والمروة من شعائر الله (١٩٦) ـ أفلا نتخذه مُـصلًّى؟ (١٩٧) ـ ولا بزفرة واحدة (٢٢٤).

الدعاء:

كأنك نبى(٣) ـ ومن خيرٌ من أبى سلمة؟! (٣١) ـ دعوة النبـى ﷺ لأم أبـى هريرة (٣٩) ـ رقية عجوز (٤٥) ـ من حقوق إخوة الإيمان (٤٩) ـ يا ودود (٩٣) ـ إن ربك لبالمرصاد (٩٦) ـ تدرى ما هذا ؟(١٠٣) ـ علمنى شيئًا (١٢٨) ـ وهل مثلى لا يغار على مثلك؟ (١٥٣) ـ سبيل النصر (١٥٨) ـ هذه الفاتحة وأين عمر ؟ (١٧١) إنى أتكشّف (١٧٦) ـ الغلام والساحر والملك (١٨٦) ـ آواهم المبيت إلى الغار (١٨٩) ـ إلهى: لا شريك لك فيؤتى (١٩٤) ـ أنا جائع (٢٠٧) ـ أذهَب الله همى (٢٢٥) ـ ارحم بكائى (٢٣٥).

الذِّكر:

تعال نؤمن ساعة (٣٨) ـ آوى إلى الله (٩٥) ـ موائد علمية (١١٣) من بركة التسبيح (١٣٦) ـ سبيل النصر (١٥٨) ـ ذهب أهل الدثور بـالأجور (١٨٢) ـ منزلتك عند الله (٢٢٧).

الاستغفار:

ما قلت شيئًا من عندى (٧٣) ـ إلهى: لا شريك لك فيؤتى (١٩٤).

البر والإنفاق:

المسارعة إلى الخيرات (٥) ـ شكر المنعم (٦) ـ لم يبقَ لى شىء يبـاع (١٢) ـ

حسن الهيئة من الإيمان (٣٣) ـ خيط بين المصلى وحجرة الصدقة (٣٤) ـ فقه الأولويات (٦٢) ـ لا أسبقه إلى خير أبدًا (٦٨) ـ بقيت كلها (٩٧) ـ يُبَخِّلان علىَّ ابنى (١٠٤) ـ ابتغاء وجه ربه الأعلى (١٤٣) ـ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (١٥٧) ـ آثر أن يعمل بالخوص (١٧٤) ـ ذهب أهل الدثور بالأجور (١٨٢) ـ أخرجى كل ما ادخرته لهم (٢٠٥) ـ اسق حديقة فلان (٢١٩) أبوطلحة يرجو ما عند الله (١٣٢).

بر الوالدين:

دعوة النبى ﷺ لأم أبى هريرة (٣٩) ـ لو أقسم على الله لأبرَّه (٤٤) ـ كما بررتنى كبيرًا (٧٦) ـ لو كانت لكِ مائة نفس (١٠٦) ـ آواهم المبيت إلى الغار (١٨٩) ـ ولا بزفرة واحدة (٢٢٤) ـ حُسن العهد (٢٣١).

الجهاد:

المسارعة إلى الخيرات (٥) ـ خالط الناس بشرط (٣٢) ـ حياة الشهيد عند ربه (٦٦) ـ تضحية وفداء (٦٩) إن ربك لبالمرصاد (٩٦) ـ رجل بألف (١٠٢) ـ استطلاع ذكى (١٠٥) ـ لو كان فى سبيل الله (١٢١) ـ لا يا أخى يا جبريل (١٣٠) ـ فتربصوا حتى يأتى الله بأمره (١٤١) ـ سبيل النصر (١٥٨) ـ أمشى برجلى هذه صحيحة إلى الجنة (١٦٦) ـ اللهم اجعلنى مع صاحب النقب (١٦٧) ـ قنطرة أم حكيم (١٧٠) ـ فدائية من عمة رسول الله ﷺ (١٧٩) ـ ما كنت لأفعل هذا (١٨٠) ـ الخنساء (٢٣٤).

الآداب:

هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ﷺ (١٠) ـ لم يبق لى شىء يباع (١٢) ـ الملك ينتصر لك (١٣) ـ فأذن له النبى ﷺ (٩٤) اللهم علِّمنا (٢٤٠) ـ هيا إلى الجنة (٢٥٠) ـ لا خير فى كثير من نجواهم (٢٦٤).

الإمارة والحكم:

بين الأمانة والإمارة (١٥) ـ من فقه الأزمات (١٦) ـ دأب الصالحين (٧٥) ـ هلك من قبلنا (٣١٥) ـ استطلاع ذكى (١٠٥) ـ خذ الخلافة وأرحنى منها (١٢٢) ـ هلا جلست فى بيت أبيك؟ (١٢٦) ـ ما سلطان الدنيا نريد (١٥٤) ـ سبقنى إلى أربع (١٥٥) ـ عففت فعفّوا (١٦٣) ـ رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه (٢٠٦) ـ المرأتان والذئب (٢٠٩) ـ ففهَّمناها سليمان (٢١٧) ـ أكثر منك أخذًا للقرآن (٢٢) ـ أحمل عليك أم عنك؟ (٢٣٧).

معجزات النبى ﷺ:

دعوة النبى ﷺ لأم أبى هريرة (٣٩) ـ إن كان قال فقد صدق (٨٧) ـ فجلَّاه الله له (٨٨) ـ إن ربك لبالمرصاد (٩٦) ـ علامَ نرضى الدَّنيَّة فى ديننا؟ (١٤٠) ـ أبو هريرة وقدح اللبن (١٩١) ـ أذهب الله همى (٢٢٥) الفتح المبين (٢٧٣) بين السحر والمعجزة (٢٧٤).

معجزات الأنبياء:

لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة (١٩٠) ـ فإن الله لا يضيع أهله (١٩٢).

من أخلاق النبى ﷺ :

حب النبى ﷺ :

له النبى ﷺ (٩٤) ـ هلك من قبلنا (١٠٠) ـ الحذر (١٠٧) ـ رسول الله ﷺ يحبك (١١٦) ـ قلَّ صبرى عنك يا رسول الله (١١٨) ـ إذًا تكفى همك (١٢٠) ـ اجعلوا بيوتكم قبلة (١٣١) ـ علامَ نرضى الدَّنيَّة فى ديننا (١٤٠) ـ ما كنت لأفعل هذا (١٨٠) أبو هريرة وقدح اللبن (١٩١) ـ بهذا قامت السماوات والأرض (٢٢٣) ـ لا أصْحب أحدًا إلا خدمته (٢٣٢) ـ من أحب إليك (٢٥٥).

أهل بيت النبى ﷺ :

هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا (١٠) ـ مفتاح الرضا (٧١) ـ إن ربك لبالمرصاد (٩٦) ـ من بركة التسبيح (١٣٦) ـ فإن لك شرفًا لا أبلغه (١٧٢) ـ لا أحب أن يقتل بى برىء (٢٠٠) ـ أخرجى كل ما ادخرته لهم (٢٠٥) ـ ارحم بكائى (٢٣٥).

فضائل الصحابة :

كأنك نبى(٢) ـ من أدب التعفف (٤) ـ المسارعة إلى الخيرات (٥) ـ شكر المنعم (٦) ـ هكذا أُمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا (١٠) ـ الملك ينتصر لك (١٣) ـ عظوه وبصِّروه (١٨) ـ أنتم اليوم خير منكم يومئذ (٢٢) ـ حقيقة القرب (٢٤) ـ عتاب للرسول ﷺ (٢٥) ـ مبالغة فى غير موضعها (٢٦) ـ ميراث النبى ﷺ (٢٧) ـ ومن خير من أبى سلمة (٣١) ـ خط بين المصلى وحجرة الصدقة (٣٤) ربح البيع أبا يحيى (٣٥) ـ رعاية الخصوصية النفسية (٣٧) ـ تعال نؤمن ساعة (٣٨) ـ دعوة النبى ﷺ لأم أبى هريرة (٣٩) ـ يوم عيد وخبز خشن (٤٠) ـ إنها سر (٤١) ـ وماذا أقول لله عز وجل (٤٢) ـ دع للصلح موضعًا (٤٣) ـ لو أقسم على الله لأبرَّه

سلمة (٢٢١) ـ أكثر منك أخذًا للقرآن (٢٢٢) ـ بهذا قامت السماوات والأرض (٢٢٣) ـ أذهب الله همى (٢٢٥) ـ لست سائلًا أنت تاجر (٢٣٠) ـ لا أصحب أحدًا إلا خدمته (٢٣٢) ـ أحمل عليك أم عنك (٢٣٧) ـ إنى أحبك (٢٣٨) ـ هادٍ يهدينى (٢٣٩) ـ ليهْنك العلم أبا المنذر (٢٤١) ـ فإذا عيناه تذرفان (٢٤٤) ـ هيا إلى الجنة (٢٥٠) ـ لا يبغى إلا وجه الله (٢٥٣) ـ من أحب إليك؟! (٢٥٥) ـ لا نقيل ولا نستقيل (٢٦٦) ـ قيمة الإنسان (٢٧٢) وقد تفرغتم لهذا (٢٧٧).

حكمة الدعوة وأخلاق الداعية:

من أى البلاد أنت؟ (٢) ـ كأنك نبى (٣) ـ الملَك ينتصر لك (١٣) ـ من فقه التربية (١٤) ـ من فقه الأزمات (١٦) ـ اصطفاء النبهاء (١٧) ـ عظوه وبصروه (١٨) ـ التيسير هدىٌ إسلامى (٢١) ـ أنتم اليوم خير منكم يومئذ (٢٢) ـ مبالغة فى غير موضعها (٢٦) ـ ميراث النبى ﷺ (٢٧) ـ دع للصلح موضعًا (٤٣) ـ من فقه الضرورات (٤٧) ـ من حقوق إخوة الإيمان (٤٩) ـ توفيق الله لك (٥٠) ـ رب كريم وعبد لئيم (٦٠) ـ معروف الكرخى يدعو للعصاة (٥١) ـ نصيحة أم توبيخ (٥٢) ـ علامَ التعالى (٦١) ـ ابدأ بنفسك (٧٠) ـ تميل حينًا وتستقيم أحيانًا (٧٨) ـ أهديت إلى حسناتك (٨٠) ـ أفلح إن صدق (٨١) ـ خبأنا لك هذا (٨٢) ـ لهذا جئت (٨٥) ـ رضيناه حكمًا (٨٦) ـ هل أضعناك يا فتى؟ (٩٠) ـ آوى إلى الله (٩٥) ـ إذًا تكفى همَّك (١٢٠) ـ شر الناس منزلة يوم القيامة (١٢٤) ـ لا تعينوا الشيطان (١٢٥) ـ حدثونى ما هى؟ (١٢٧) ـ كيف تفتح القلوب؟ (١٣٥) ـ علامَ نرضى الدَّنيَّة فى ديننا؟ (١٤٠) ـ يوم يعض الظالم على يده (١٤٥) ـ

العلم والعلماء:

العمل:

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

المسارعة إلى الخيرات:

الإخلاص:

الأمانة:

الرحمة:

الزهد والتعفف:

شرفًا لا أبلغه (١٧٢) ـ أمين حق أمين (١٣٧) ـ ما الفقر أخشى عليكم (١٤٦) ـ دلونى على السوق (١٤٩) ـ ويحك يا جبير (١٥٠) ـ الكيف قبل الكم (١٥٩) ـ عففت فعفُّوا (١٦٣) ـ آثر أن يعمل بالخوص (١٧٤) ـ أبو هريرة وقدح اللبن (١٩١) ـ هل من علامة يعرف بها؟ (١٩٣) ـ رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه (٢٠٦) ـ خذ ذهبك (٢١٦) ـ لست سائلًا، أنت تاجر (٢٣٠) ـ حبيبى يا رسول الله ﷺ (٢٤٧).

التواضع:

هكذا أُمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ﷺ (١٠) ـ لو أقسم على الله لأبره (٤٤) ـ وبقيت أنا وأنت (٥٣) ـ علامَ التعالى (٦١) ـ هيبة الإسلام (٣٤٥) ـ سبقنى إلى أربع (١٥٥) ـ تواضع ومصارحة (١٦٢) ـ وعلىَّ جمع الحطب (١٨٣) ـ أبو هريرة وقدح اللبن (١٩١) ـ لهم الدنيا ولنا الآخرة (٢٠١) ـ أخرجى كل ما ادخرته لهم (٢٠٥) ـ رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه (٢٠٦) ـ رجعت أنا وعمر (٢٣٣) ـ فى التواضع (٢٣٦) ـ أحمل عليك أم عنك؟ (٢٣٧) ـ من تواضعه ﷺ (٢٤٣) ـ من تواضع الرسول وشفقته ﷺ (٢٥٤).

التوبة:

رب كريم وعبد لئيم (٦٠) ـ تميل حينًا وتستقيم أحيانًا (٧٨) ـ كيف النجاة؟ (٩٩) ـ أساءوا فأكثروا (١٤٨) ـ إن الله قد غفر للكفل (٢١٠) ـ أَبُعِثْت علىَّ رقيبًا (٧٠٩).

التوكل:

التيسير:

الحِلْم:

الحوار:

الشورى:

التعاون:

التسامح والعفو:

من فقه التربية (١٤) ـ عظوه وبصِّروه (١٨) ـ التيسير هدى إسلامى (٢١) ـ معروف الكرخى يدعو العصاة (٥١) ـ أهديت إلىَّ حسناتك (٨٠) ـ الوثيقة العمرية فى فتح باب المقدس (٨٣) ـ أبو اليسر (٨٤) ـ لهذا جئت (٨٥) ـ هل أضعناك يا فتى؟ (٩٠) ـ لا يا أخى جبريل (١٣٠) ـ من سماحة الإسلام (١٦٥) ـ لا أحب أن يقتل بى برىء (٢٠٠) ـ كان رجلًا سهلًا (٢٠٢) ـ ثم أمر له بعطاء (٢٠٤).

الحياء:

أوى إلى الله (٢٩٩) ـ حدثونى ما هى؟ (١٢٧) ـ رجل تستحيى منه الملائكة (١٧٨).

الشكر:

شكر المنعم (٦) ـ كيف تركت أصحابك (١١١) ـ أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ (١١٥).

الصبر:

ولكنكم تستعجلون (٢٩) ـ ومن خير من أبى سلمة (٣١) ـ مفتاح الرضا (٧١) ـ الانهيار (١٠٩) ـ بل أجر خمسين منكم (١٤٢) ـ سبيل النصر (١٥٨) ـ إنى أتكشّف (١٧٦) ـ الغلام والساحر والملك (١٨٦) ـ حرمت عليه الجنة (٢١٢) ـ الخنساء (٢٣٤).

الصدق:

كيف نربى أبناءنا (١٩) ـ التثبت من الأخبار (٩٢) ـ ولكن أوْهمتها (٥١٠) ـ تواضع ومصارحة (١٦٢) ـ فعرف حُلَّته (١٨٥).

العدل:

اقتص منى يا أُسيد (٧) ـ دأب الصالحين (٧٥) ـ الوثيقة العمرية فى فتح بيت المقدس (٨٣) ـ هلك من قبلنا (١٠٠) ـ ابن عمتك تحكم له (١٦٨) ـ لا أحب أن يقتل بى برىء (٢٠٠) ـ المرأتان والذئب (٢٠٩) ـ ففهمناها سليمان (٢١٧) ـ بهذا قامت السماوات والأرض (٢٢٣) ـ أحمل عليك أم عنك (٢٣٧).

الوفاء:

وبقيت أنا وأنت (٥٣) ـ آواهم المبيت إلى الغار (١٨٩) ـ فإن الله أدى عنك (٢٢٠) ـ حُسْن العهد (٢٣١) ـ كانوا لأصحابنا مكرمين (٢٥٦).

الإيثار:

كيف تركت أصحابك؟ (١١١) ـ دُلُّونى على السوق (١٤٩) ـ فإن لك شرفًا لا أبلغه (١٧٢).

البركة:

هكذا تمحق بركة الوقت (٥٤).

الكرامات:

يا ودود (٩٣) ـ آواهم المبيت إلى الغار (١٨٩) ـ لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة

أخشى عليكم (١٤٦) ـ ويحك يا جبير (١٥٠) ـ من فقه الأزمات (٥٥) ـ إنى أتكشّف (١٧٦) ـ الغلام والساحر والملك (١٨٦) ـ الأبرص والأقرع والأعمى (١٨٨) ـ لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة (١٩٠) ـ حرمت عليك الجنة (٢١٢).

الغيبة والنميمة:

أهديت إلىَّ حسناتك (٨٠) ـ لا خير فى كثير من نجواهم (٢٦٤).

اليهود وكيدهم للإسلام:

من فقه الأزمات (١٦) ـ اصطفاء النبهاء (١٧) ـ اليهود أهل غدر وبهتان (٧٧) ـ لا خير فى كثير من نجواهم (٢٦٤).

الحب فى الله:

إنى أحبك (٢٣٨).

مواقف وعبر

إلى أهل التربية من العلماء ورثة الأنبياء.. من الدعاة وعموم المسلمين من الفضلاء.. كانت هذه المواقف الإيمانية.. والهدايات الربانية.. التي انتقاها لنا بعناية فضيلة الدكتور الشيخ الداعية/ محمد داود ليعرضها لنا في أسلوب ودود وحوارٍ راقٍ كاشفًا عن دلالاتها الحكيمة ودروسها النافعة وإشاراتها التربوية وقيمها السلوكية وأعماقها الإيمانية.

إنها مواقف تحمل الأسوة الطيبة والقدوة الحسنة لعموم المسلمين، مواقف نبوية وهدايات وقضايا إنسانية تشتد حاجتنا إليها في واقعنا المعاصر لتكون زادًا للدعاة ليتعلم الناس منها كيف تكون الدعوة إلى الله ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) ولنتعلم منها كيف تسمو النفس البشرية لترقى وتسعد بالمعاني العظيمة والقيم النبيلة.

الناشر